

تاريخ مصر الحديث

مصطفى بك

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY



3 8534 01836 7858





1





وزارة المعارف العمومية  
الجامعة العربية

DT  
94  
M87x  
[95]

# تاريخ مصر الحديث

تأليف

محمد عبد الرحيم مصطفى بك

الحائز لدرجة العالمية (M. A.) من جامعة لفرانك  
سكرتير عام جامعة ابراهيم باشا الكبير

حقوق الطبع محفوظة للوزارة

الطبعة الأميرية بالقاهرة

١٩٥١





# فهرس الكتاب

## فصل تمهيدى

صفحة

|    |                                                            |
|----|------------------------------------------------------------|
| ١  | موازنة بين الركود فى الدولة العثمانية والتقدم فى دول الغرب |
| ٢  | الركود فى الدولة العثمانية                                 |
| ٨  | نهضة روسيا                                                 |
| ١٣ | النظام البرلمانى فى انجلترا                                |
| ٢٠ | الولايات المتحدة الأمريكية                                 |

## الباب الأول

### مصر العثمانية قبيل الحملة الفرنسية

|    |                            |
|----|----------------------------|
| ٣١ | مصر قبل الفتح العثمانى     |
| ٣٥ | نظام الحكم العثمانى فى مصر |
| ٣٥ | النظام السيامى             |
| ٤٤ | النظام المالى              |
| ٤٧ | النظام القضائى             |
| ٤٨ | الحالة الاجتماعية          |
| ٦٠ | الحالة الاقتصادية          |

## الباب الثانى

### مصر والحملة الفرنسية

|    |                         |
|----|-------------------------|
| ٦٤ | الثورة الفرنسية         |
| ٦٩ | نابليون بونابرت         |
| ٧٢ | الحملة الفرنسية على مصر |
| ٧٢ | فكرة إرسال الحملة       |
| ٧٣ | أسباب الحملة            |
| ٧٦ | الاستيلاء على مصر       |
| ٧٩ | انجلترا والحملة         |







## الباب الرابع

عصر عباس الأول وسعيد

صفحة

|     |                 |
|-----|-----------------|
| ١٧٦ | عباس باشا الأول |
| ١٨١ | محمد سعيد باشا  |
| ١٩٠ | قناة السويس     |

## الباب الخامس

إسماعيل باشا

|     |                                           |
|-----|-------------------------------------------|
| ١٩٧ | جهوده في سبيل الاستقلال                   |
| ٢٠٠ | إصلاحاته                                  |
| ٢٠٨ | علي باشا مبارك                            |
| ٢٢٢ | إسماعيل والقناة                           |
| ٢٢٧ | الفنوح الإفريقية                          |
| ٢٣٣ | ديون إسماعيل                              |
| ٢٣٧ | البعثات المالية وانتهاء حكم إسماعيل       |
| ٢٤٨ | نشوء الرأي العام والحركة الدستورية في مصر |

## الباب السادس

الحركة الوطنية المরাية

|     |                 |
|-----|-----------------|
| ٢٥٢ | محمد توفيق باشا |
| ٢٦٠ | النورة المরাية  |

## الباب السابع

عهد الاحتلال البريطاني

|     |                                          |
|-----|------------------------------------------|
| ٢٧٤ | فاتحة العهد                              |
| ٢٧٧ | النورة المهدية                           |
| ٢٨٦ | مركز الاحتلال في مصر                     |
| ٢٨٩ | الحركة الوطنية                           |
| ٢٩٢ | مصطفى كامل باشا                          |
| ٢٩٧ | المنشآت العامة في عهد توفيق وعباس الثاني |
| ٣٠٢ | الشيخ محمد عبده                          |



( و )

## الباب الثامن

### الحرب العظمى

| صفحة |                                      |
|------|--------------------------------------|
| ٣٠٥  | نبذ عن الدول العظمى التي اشتركت فيها |
| ٣٠٥  | فرنسا                                |
| ٣٠٦  | إيطاليا                              |
| ٣٠٧  | ألمانيا                              |
| ٣٠٨  | النمسا                               |
| ٣٠٩  | الروسيا                              |
| ٣١٠  | انجلترا                              |
| ٣١١  | تركيا                                |
| ٣١١  | أسباب الحرب                          |
| ٣١٤  | السلم المسلح                         |
| ٣٢١  | نشوب الحرب                           |

## الباب التاسع

### أثر الحرب في مصر

|     |                            |
|-----|----------------------------|
| ٣٢٣ | الحماية البريطانية على مصر |
| ٣٢٣ | السلطان حسين كامل          |
| ٣٢٥ | الملك فؤاد الأول           |
| ٣٢٨ | ثورة سنة ١٩١٩              |
| ٣٢٨ | سعد باشا زغلول             |
| ٣٣٢ | الثورة                     |

## الباب العاشر

### عهد جلالة الملك فؤاد الأول

|     |                   |
|-----|-------------------|
| ٣٣٥ | الحالة السياسية   |
| ٣٤٣ | الحالة العلمية    |
| ٣٤٦ | الحالة الاجتماعية |
| ٣٤٩ | الحالة الاقتصادية |
| ٣٥٤ | ملاحق الكتاب      |
| ٣٥٤ | معاهدة لندن       |
| ٣٥٨ | فرمان سنة ١٨٧٣    |
| ٣٦١ | اتفاقية السودان   |



# بسم الله الرحمن الرحيم

## المقدمة

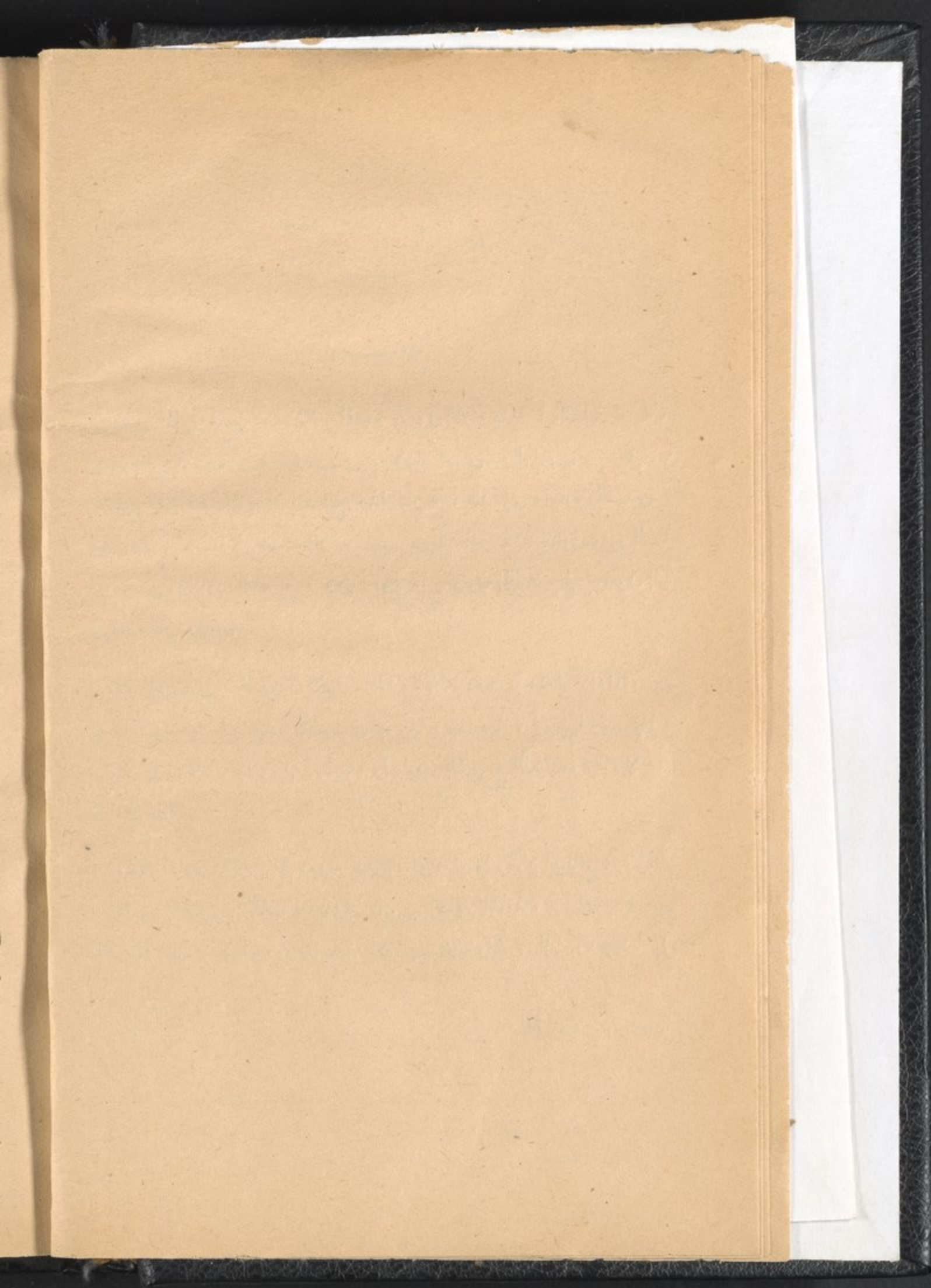
هذا "تاريخ مصر الحديث"، أقدمه لجمهور القراء عامة ، وللطلبة خاصة ،  
وهو جدير بذلك ، لأنه جزء من تاريخ بلادنا النومي ، والواجب على كل من  
يستطيع القراءة والكتابة أن يتصفح هذا التاريخ ، للذكرى والعبرة والقسوة .  
أما تخصيص الطلبة في تقديمه فلأنه يهمهم بوجه خاص ، إذ يتناول مقرر السنة  
الرابعة من المدارس الثانوية ، وهم أحوج ما يكونون إلى مرجع يرجعون إليه  
في استذكار دروسهم .

قد راعيت في الكتاب أن تكون مادته وافية ، تتضمن أحدث آراء المؤرخين  
في موضوعه ، كما راعيت التبسط في تبويبها وتقسيمها ، وترتيبها وتنسيقها ،  
ثم وضعها في قالب خال من التعقيد ، وأسلوب يتشى مع الذوق ، وعبرة لا يمل  
قراءتها مطلع .

ولكى أعاون القارئ على سهولة تصور الحوادث ، وتذكر الوقائع ، وتثبيت  
الحقائق ، حليت الكتاب بعدد وفير من الصور الهامة ، ثم ألحقت به جميع  
الخرائط التاريخية الضرورية لحسن دراسته ، والله أسأل أن يوفقنا إلى  
ما فيه الخير ما

المؤلف





# منهج التاريخ

## للسنة الرابعة الثانوية

( ثلاثة دروس في الأسبوع )

### مصر الحديثة

#### ١ - تمهيد لدراسة تاريخ مصر الحديثة :

أحوال مصر العثمانية قبيل الحملة الفرنسية : ضعف الولاة العثمانيين أو قوة الأمراء المماليك - اضطراب الأمن واضمحلال الزراعة والصناعة والتجارة وسوء الأحوال الصحية وبمهود الحياة الفكرية - محاولة على بك الكبير إحياء دولة المماليك .

الموازنة بين الركود في الدولة العثمانية والتقدم في الغرب : مثل التقدم في دول الغرب - النظام البرلماني في إنجلترا - الملكية المطلقة المستنيرة في بروسيا - استقلال الولايات المتحدة .

#### ٢ - مصر والحملة الفرنسية :

الثورة الفرنسية : ظهور نابليون بونابرت - أسباب الحملة على مصر - الحرب بين الفرنسيين والمماليك والعثمانيين والانجليز - سياسة الفرنسيين في مصر وموقف المصريين - جلاء الفرنسيين عن مصر ونتائج الحملة .

#### ٣ - النهضة المصرية في القرن التاسع عشر :

محمد علي الكبير : نشأته وتوليده الحكم - نهضة مصر - تكوين الجيش لمصرى وبناء القوة البحرية المصرية - الفلاح والزراعة - أعمال الري



الكبرى — الصناعة الحديدية — التجارة الخارجية — الطريق البرى للشرق —  
التعليم والنهضة الفكرية — ترجمة رفاعة بك — اتساع ملك مصر فى بلاد العرب  
والسودان .

علاقات مصر الخارجية : مصر والثورة اليونانية — العلاقات بين محمد على  
والدولة العثمانية — الحروب فى سوريا والأناضول — التدخل الأوروبى وتسوية  
( ١٨٤٠ — ١٨٤١ ) .

عباس الأول وسعيد : إنشاء السكك الحديدية وقناة السويس — قانون  
الأراضى .

عصر اسماعيل : جهود اسماعيل فى سبيل الاستقلال — الفتوح الإفريقية —  
الزراعة والصناعة والتجارة والمواصلات — التعليم والنهضة الفكرية — ترجمة  
على باشا مبارك .

مصر من نهاية حكم اسماعيل إلى نشوب الحرب العظمى : الارتباك المالى  
وال تدخل الأوروبى — الحركة العربية — الاحتلال البريطانى — الثورة المهدية  
واستعادة السودان — المنشآت العامة — الحركة الفكرية والحركة الوطنية —  
ترجمة الشيخ محمد عبده — ترجمة مصطفى كامل .

مصر والحرب العظمى : نبذة عن الدول الأوروبية العظمى التى اشتركت  
فى الحرب — أسباب الحرب — أثرها فى مصر .

#### ٤ — عهد جلالة الملك فؤاد الأول :

النهضة الأخيرة — إعلان استقلال مصر — ترجمة سعد زغلول — تقدم  
مصر فى هذا العهد .



## فصل تمهيدى

### موازنة بين الركود فى الدولة العثمانية والتقدم فى دول الغرب

#### تمهيد :

ظهرت فى أوربا ، منذ القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، حركة عامة ، عرفت باسم النهضة الأوروبية ، ولقد شملت هذه الحركة جميع نواحي الحياة ، فأخذت تتمحى شيئا فشيئا مظاهر الحياة فى العصور الوسطى ، وتحل محلها مظاهر جديدة ، أصبحت قوام الحياة فى العصور الحديثة .

تناولت تلك النهضة الأدب والفن ، وغيّرت طريقة الناس فى قبول المعلومات ، فبعد أن كانت الكنيسة هى مصدر أهم الآراء ، ولا يجوز أحد على مخالفتها ، مال الناس إلى التفكير الحر ، القائم على نقد الآراء ، وتبين ما فيها من خطأ أو صواب ، وقد ساعد على اتساع المدارك بعض العوامل ، كاختراع الطباعة ، والاستكشافات الجغرافية ، والبحوث العلمية القائمة على التجربة والاستنباط . وشعر الفرد بشخصيته ، وتمتع بقسط من التفكير المستقل ، فذب فى الحياة التجديد ، فى ناحيتها العقلية والمادية ، وظهر أثر الرقى المادى فى بعض الصناعات ، وعلى الأخص فى الأسلحة ووسائل القتال ، كما شمل الرقى العقلى خطط الحرب وأساليبها .

وظهرت الممالك الحديثة ، على أساس قومى ، وعمل الملوك على القضاء على نفوذ أمراء الإقطاع ، وجمع السلطة فى أيديهم ، وأصبحت أوربا تتكون من عدة دول مختلفة اللغات ، يسود فى كل منها الشعور القومى ، أى شعور الأفراد بأنهم أبناء وطن واحد وشعب واحد ، وعمل الملوك على تقوية ممالكهم ، والنهوض بها ماديا وعلميا ، وتوسيع أراضيها وضم بعض المقاطعات إليها ، وتأمين حدودها ، لتعيش فى منعة وأمن .



وسارت عوامل النهضة جنبا إلى جنب في تلك الدول، وكانت تزداد نموا واتساعا كلما تقدم العلماء والفلاسفة في البحث العلمي والتفكير الحر. فلما كان القرن الثامن عشر، شملت معظم دول أوربا حركة فكرية علمية، حمل ألويتها عدد من العلماء والفلاسفة، في فرنسا وإنجلترا وألمانيا، وعن هؤلاء أخذ المفكرون في بقية ممالك غرب أوربا.

أما الدولة العثمانية، فقد ظلت بعزل عن حركة النهضة، فكان ذلك من أكبر عوامل ركودها وضعفها في القرن الثامن عشر. وكان الفرق بينها وبين دول الغرب التي تأثرت بعوامل النهضة السالف ذكرها، فرقا كبيرا في جميع نواحي حياتها. وفيما يلي موازنة بين حالة الركود في الدولة العثمانية، وحالة التقدم في بعض دول الغرب:

### الركود في الدولة العثمانية

كان عصر سليمان القانوني (١٥٢٠ - ١٥٦٦)، أزهى عصور الدولة العثمانية،

ففي ثلاثة قرون، استطاعت هذه الدولة أن تنشر سلطانها على آسيا الصغرى، وسواحل البحر الأبيض المتوسط، وامتد ملكها من مكة في الجنوب، إلى بودابست في الشمال، ومن بغداد شرقا حتى بلاد الجزائر غربا، وقد دانت لها أيضا سواحل البحر الأسود، وخضع لها شطر كبير من بلاد النمسا والمجر.

غير أن هذه الدولة الشرقية العظيمة، أخذت تسير في مدارج الضعف والانحطاط بمضى الزمن، وأخذت الولايات الواسعة الغنية، تنسلخ عنها تدريجا. والواقع أن



(سليمان القانوني)

عوامل الضعف كانت تفت في عضد تركيا خلال ثلاثة قرون، إلى أن بلغ بها الوهن حدا لم يرج معه لها خلاص، حتى لقبها سياسة أوربا بـ "الرجل المريض".



ويعزى هذا الانحطاط إلى أسباب خارجية ، كما أنه يعزى بالأكثر إلى عوامل داخلية .

أما من حيث الأسباب الخارجية ، فقد كان من سوء طالع تركيا ، أن نهضت روسيا نهضتها العظيمة ، بظهور قيصرها العظيم "بطرس الأكبر" ، وهو الذي وضع أسس إضعاف تركيا والاستيلاء على أملاكها ، يضاف إلى ذلك ظهور طائفة من أبرع القواد في المجر و بولندا والنمسا ، وقد تضافروا جميعا على مناوأة تركيا ، والتخلص من سيادتها ، وذلك بشن حروب طويلة عليها .

غير أن تلك العوامل الخارجية وحدها ، لم تكن لتكفي للقضاء على دولة قوية مترامية لأطراف ، ويعزى ضعفها وتحللها إلى المفاصد الداخلية ، التي كانت تفت في عضدها ، وتوهن من قوتها ، وإليك أهم تلك العوامل :

#### ١ — عدم تجانس الشعوب :

كان يسكن بلاد الدولة ما لا يقل عن عشرين شعبا من الشعوب المختلفة ، فالعثمانيون كانوا في آسيا الصغرى وأوربا ، واليونانيون في جزر الأرخبيل وآسيا الصغرى وجنوب البلقان ، والمجر في سهول الطونة الوسطى ، والجرمان في ترانسيلوانيا ، والسلاف في بلغاريا والصرب والجبل الأسود ، والرومانيون في البغدان والأفلاق ، والألبان أو الأرناؤوط على سواحل الأدرياتيك ، والتتار في القرم وسواحل البحر الأسود ، والعرب في مصر والشام وشمال إفريقيا ، والأكراد والأرمن والموارنة والكلدان في سوريا وأعلى دجلة والفرات ، والفرس شرقي دجلة ، إلى غير ذلك من الشعوب .

#### ٢ — اختلاف الأديان والمذاهب :

كانت أغلبية تلك الشعوب تدين بالمسيحية ، وتتبع المذاهب المختلفة من الديانة النصرانية ، في حين كان العثمانيون والتتار والعرب والأكراد والتركان والمماليك والبربر ، يدينون بالإسلام .



### ٣ — سياسة الدولة حيال الشعوب المحكومة :

منذ نزل الترك أرض أوروبا ، وخضعت لهم بلادها المختلفة ، ظلت الشعوب المقهورة المغلوبة على أمرها ، تعتبر التركي غريبا عنها ، لا يلبث أن يجلو عن بلادها ، بسبب التباين في الجنسية والدين واللغة والتقاليد ، ولأن الترك فتحوا هذا الملك الواسع بحد السيف ، وحكموا الشعوب حكم الغالب للغلوب ، ولم يعملوا على تقوية الروابط بينهم وبينها ، وإدماجها في جسم الدولة ، بإزالة الفوارق بين الحاكم والمحكوم ، بل ظلت تلك الأمم محافظة على قوميتها ، طوال الأجيال التي خضعت فيها للترك . ولأجل دوام سلطان تركيا ، كان عليها أن تحتفظ بقوتها الحربية ، وهذا ما لم تفعله ، ولذا أخذت تلك الولايات في التمرد والخروج عليها ، حينما أنست منها ضعفا .

### ٤ — ضعف السلاطين وفساد الإدارة :

تولى السلطنة العثمانية طائفة من ضعاف السلاطين ، الذين أضاعوا ما فتحه أجدادهم بحد السيف ، بغفلتهم وانغماسهم في الشهوات ، وانصرافهم عن مباشرة أى إصلاح يعود على البلاد بالفائدة ، وقد تغافلوا عما هو واقع حولهم ، فقد ظهر في أوروبا عظماء الفاتحين ، وكبار المصلحين ، وسلحوا أنفسهم بسلاح العلم والحضارة ، ونظموا جيوشهم باتباع أحدث النظم الحربية . وقد ظهر في فترات مختلفة بعض السلاطين والوزراء المصلحين ، وأصابت عساكر الدولة بعض الظفر والانتصار في الحروب ، ولكن ذلك كان قليلا . وفي الحق كان تاريخ الترك في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر سلسلة من الانهزامات ، أعقبتها معاهدات لم تجن منها الدولة غير الذل ، واقتطاع بعض الأجزاء ، فقد كانت بلاد الدولة ألعبوبة في أيدي ضعاف السلاطين ، وجهلة الحاكمين ، وحمقى السياسيين ، ولم يكن من بينهم — اللهم إلا القليل — من كان يعمل على تحسين حالة الدولة ورفع شأنها .

ولا ننسى أن "نظام الوراثة" ، الذى كان متبعيا بين العثمانيين ، كان له أسوأ الأثر في اضطراب أحوال الدولة ، وانتشار المفاسد والفتن والقلاقل الداخلية ، فقد كان الوارث للعرش هو أكبر أفراد الأسرة سنا ، لا أكبر أنجال السلطان ،



وكان ذلك مدعاة الى كثرة المؤامرات والفتن ، ومن ثم الى إراقة الدماء وسجن الأبرياء ، أو الى وجود تشاحن ظاهر بين أفراد الأسرة المالكة ، وما يتبع ذلك أحيانا من انقسام أفراد الرعية .

كذلك كان لاتباع "نظام الالتزام" (\*) ، الناجم عن ضعف الحكومة والسلطين ، أثر كبير في سوء الحالة ، وعدم استقامة مجرى الأمور ، هذا الى استبداد بعض أفراد الرعية بجمهور الشعب والفلاحين ، مع انصراف عن الإصلاح ، وإقبال على ابتزاز الأموال .

وفي مثل هذه الحالة وتلك الظروف ، كانت "الرشوة" منتشرة انتشارا يستوقف النظر ، ولا جدال في أن هذه الوسيلة ، إذا دخلت أى عمل أنسدته ، وقضت على روح النظام والعدالة . ومما يؤسف له أن تقديم الرشوة ، كان وسيلة عادية لبلوغ المآرب والغايات في أنحاء الدولة ، يتناولها السلطان والوزراء وغيرهم من كبار رجال الدولة وصغارهم .

#### ٥ - فساد نظام الجيش :

كان يتولى قيادة الجيش في ميادين الحرب ، في بداية الأمر ، أولئك السلاطين البواسل ، الذين كرسوا حياتهم للحرب ، والاهتمام بمصالح الدولة ، ولما آل الملك الى ضعاف السلاطين ، انصرفوا عن الحرب الى ملاذهم ولهوهم ، فدب الفساد في الجيش ، وألف أفراد حياة الكسل والخمول ، وانصرفوا عن الجندية ، الى التدخل في شؤون السلاطين أنفسهم ، فقد ازدادت سلطتهم حتى صاروا يتدخلون في اختيار السلاطين ، فكانوا يولون أصغرهم سنا ، وأقلهم شأنا ، بل بلغ من سلطانهم أن كانوا لا يولون من السلاطين ، إلا من بذل لهم الهبات والعطايا ، وقد صارت الهبات والأموال أحب إليهم من خوض غمار المعارك ، وكسب نخار النصر .



وقد كان نظام القيادة ، من أكبر مساوئ الجندية في الجيش العثماني ، فلم تكن قاصرة على أصحاب الكفايات الحربية ، كما هو الشأن في جيوش الأمم المتحضرة ، بل كان ينالها من يبذل فيها أغلى ثمن ، فكانت القيادة سلعة تباع وتشترى بالمال .

بينما كان هذا حال جيوش الدولة ، كانت أوروبا جادة في تنظيم جيوشها ، وإمدادها بأحدث معدات الحرب ، وتدريبها على أحدث النظم الحربية . وقد وقف الترك طوال تلك العصور موقف الجمود ، فلم يحاولوا تغيير تلك النظم العتيقة ، التي كانت لا تلائم روح العصر . ولماسارت تركيا في طريق الهاوية ، حاول بعض المصلحين من السلاطين ، في مناسبات عدة ، إدخال النظم الحربية الحديثة في الجيش العثماني ، ومن دواعي الأسف أن مساعيهم كانت تذهب أدراج الرياح ، إذ كانت فرقة الإنكشارية تقابل ذلك بالعصيان والتمرد ، إلى أن جاء القرن التاسع عشر ، وكثر الخارجون على الدولة من رعاياها ، حينئذ رأى السلطان محمود الثاني أن فرقة الإنكشارية هي سبب البلاء ، فخطا تلك الخطوة الجريئة ، وأمر بإبادة الإنكشارية عن آخرها ، ومحوها من الوجود ، عام ١٨٢٦ ، وبذلك استطاعت الدولة أن تحفظ مكانها من الفناء ، إلا أنه صادف لسوء حظ الدولة ، أن أبيدت الإنكشارية في وقت كانت الدولة محفوفة فيه بأخطار الحروب والثورات ( راجع حرب استقلال اليونان ، وحروب محمد علي مع الدولة ) .

#### ٦ — حكام الولايات :

كان يتولى حكم ولايات الدولة ولاية أو "باشوات" ، وكانوا يعيشون عيشة الملوك والأمراء ، يستبدون بالرعية ، ويظلمون ولا رادع لهم ، ويصرفون الأموال الطائلة في ملاذهم ، ويقدمون لذوى النفوذ ، وأولى الأمر في القسطنطينية الهدايا النفيسة ، والأموال الوفيرة ، عند انتخابهم لوظائفهم وأثناء ولايتهم ، ليحولوا دون السعاية والوشاية بقصد عزهم ، وليأمنوا جانب ولاية الأمور في الآستانة ، حتى يصمموا الأذان عن مساوئ حكمهم ، ويتغافلوا عن شكايات ضحايا ظلمهم .



وقد كان هذا الحال مدعاة لجشعهم ، فجمعوا الأموال بكل وسيلة استطاعوها ، وشجعهم على ذلك أن الوالى كان لا يملك طويلا فى ولايته ، إذ كان معرضا للنقل فى كل وقت . ولما لم يطق الناس صبرا على مظالم هؤلاء الولاة ، ثاروا فى وجه الدولة ، وخرجوا عليها (\*) .

(\*) قال الأمير « مصطفى فاضل » بن ابراهيم باشا وحفيد محمد على ، من رسالة كتبها للسلطان عبد العزيز سنة ١٨٦٦ ، يصف حال الدولة ، ويطلب لها الدستور :

” مولاي : كل الذين يرجون نفاركم ومجد الوطن ينظرون — والنفس مثقلة بالأحزان — إلى ما حل بالأمة من نقص فى شها متها ، وتدل فى شرفها وعزتها . وأنى لها البقاء على تلك الخلل مهما تأصلت فى نفوسها ، والمسلمون منهم يقاسمون النصارى صنوف الذل ، ويشربون معهم كأس الهوان ، وكلهم يستجير من غسف الولاة والحكام ، رجال ما خضعوا لسلطانك إلا بالامم ، وإلا فاذك لا تدرى ، أ هم ينفذون إرادتك فى الأمة ؟

خلت بلادك من رأى عام ، فأصبح عمالك غير مسئولين أمام وعينك ، ومعناه أنهم أمسوا غير مسئولين أمام عرشك ، فلا من يقدر أن يثب إليك شكوى ، عاثوا فى الرعية ، واستباحوا كل فكر ، وصار الناس طائفتين ، حاكم يظلم ولا من يردع ، ومحكوم يظلم ولا من يشفع ، حاكم يدعى أن سلطانه من سلطانك ، لا حد ولا قيد ، ويتذرع بذلك إلى النقائص والمعاصى ، ومحكوم يهوى إلى حضيض الذل بما يساء إليه ، حاكم سد دون الرعية أبواب الشكوى ، فاذا ما ارتفع بها صوت وملؤه التعظيم ، قالوا قوم ثائرون . لهذا تولى اليأس الرعايا ، وأنوا تحت أحمال الظلم وهم صامتون ، أخذهم الجور ، وأنتم تعلمون أن الجور يفسد الضمائر ، ويطمس العقول .

مولاي : مصابنا فى هذا الزمان ، دون ضعفنا الأدبى وفساد عقولنا ، إنما تلقى أينما مرنا بنحزم عنيد جبار ، هو الفقر . كم رأيت جلالكم خزانكم خاوية ، كم حزتم إذا أعوزكم المال لدفع رواتب العمال ، كم دخل الأمى قلبكم الرحيم إذا علمتم تفاهة ما يجرى من الرزق على خدام دولتكم ؟ ذلك بما علمتم من أن العامل فى الشرق ، إن قل راتبه أكل السحت ، وأخذ مما فى أيدي الرعية ، إلا أن فراغ خزائن الدولة لا يحزننا ، كما نحزن لسوء الحال المدلول عليه بهذا الفراغ ، ذلك خطر أشد .

حكومتكم هى التى تعيش بين الحكومات من خراج قليل ، وملككم متناثية الأرجاء ، كثيرة السكان ، وعجيب أن يشغل كاهل أمة كبرى بمثل هذا الخراج اليسير ، ولكن لا عجب إذا علمنا أن طريقة جبايته ، هى من أكبر الطرق عيوبها ، وأن الأمة لا تعمل إلا قليلا ، وتجهل كل شئ . بهذا عضها الفقر ، وباتت تئن تحت منارم الحكومة ، حين لا يشعر غيرنا بمثل مغارمنا .

هوى كل شئ فى الدولة ، الزراعة ثم التجارة ، وأختهما الصناعة ، فكأنما ضللتنا سبيل الإنتاج وجهلنا وسائله ، وحمدنا فى مشاهدة فقرنا ، فلا يجرك مرأى الفاقة فىنا همة ، ولا يدفعنا إلى عمل .“



## مُثل التقدم في دول الغرب

### نهضة بروسيا

كانت بروسيا في القرن الثامن عشر ، إحدى دول أوروبا القوية الناهضة ، وكانت قوتها ونهضتها ، وليدة ما قام به ملكها فردريك وليم الأول ( ١٧١٣ - ١٧٤٠ ) ، ثم ابنه فردريك الأكبر ( ١٧٤٠ - ١٧٨٦ ) ، وهما من أعظم شخصيات أسرة « هوهنزلرن » ، التي حكمت هذه الدولة منذ نشأتها .

وكانت بروسيا في أوائل ذلك القرن ، تتألف من عدة مقاطعات ، هي : مقاطعة براندنبرج وما حولها ، وهي النواة التي نمت منها تلك الدولة ، منذ القرن الخامس عشر ، ثم بروسيا الشرقية ، وبوميرانيا الشرقية ، وقد ضمنا إليها في القرن السابع عشر .

### فردريك وليم الأول

كان هذا الملك غريب الأطوار إلى حد كبير ، ولكنه كان كثير الجهد والنشاط ، كما كان يكره الكسل والبطالة من أعماق قلبه ، وكان يحب شوارع برلين ، ومعه هراوة غليظة ، فإذا وقع نظره على كسلان أو متعطل في الطريق من أي الجنسين ، ضربه بها ضربا يجعله يفضل العمل على البطالة .

وكان يرى أن مملكته يجب أن تقوم على دعائم ثلاث : حكومة قوية ، ومالية كبيرة ، وجيش مدرّب ، وقضى مدة حكمه يعمل بهمة عظيمة لتحقيق آماله ، فتم بذلك تكوين بروسيا ويكون لها شأن عظيم بين دول أوروبا .

وقد كان له ما أراد ، فانه استطاع أن يكون حكومة مركزية قوية ، ويجمع كل السلطة في يده ، بالقضاء على سلطة الأشراف والمجالس ، وكل هيئة كان يرى فيها خطرا على سلطته ، أو ميلا إلى التحكم في إرادته والتدخل في تصرفاته .







أما الشؤون المالية، فانه وجه إليها مجهودات خاصة، حتى استطاع تنظيمها وتنقيتها من كل شائبة، وساعده على ذلك ما اتصف به من غريزة حب الاقتصاد، حبا يقرب من الشج والتقتير، فاستطاع أن يذخر مبالغ طائلة من المال، كان لها أكبر الأثر في نجاح مشروعاته وإصلاحاته، كما كانت لها النتائج العظيمة في تاريخ روسيا في عهد خلفه. أما الجيش، فقد بلغ ثلاثين ألف جندي، مدربين على القتال. والواقع أن فردريك وليم الأول، كان من أعظم الملوك الذين عملوا على عظمة روسيا، ولقد خلف لابنه من بعده، مملكة واسعة، وجيشا قويا مظمًا، ومالية ثابتة.

## فردريك الأكبر

### شخصيته :

كان فردريك الأكبر يختلف عن أبيه، فقد كان مثقفا مهذبا، وقد لقب بالأكبر لما كان لأعماله من جليل الأثر في بروسيا خاصة، وأوروبا عامة. ولقد نشأ فردريك في صغره، نشأة يحفها الألم، لأن والده كان يقسو في معاملته، ولقد علمته هذه القسوة الصبر والتجمل وضبط النفس، كما أنها شابت نفسه ببعض نقائص، منها جفاء الطبع، وعدم احترام العهود والمواثيق.



(فردريك الأكبر)

وكان فردريك الأكبر حاكما مطلقا، ولا يعزب عن البال أن القرن الثامن عشر كان عصر الملكية المطلقة المستنيرة، أي أن الحاكم يجمع السلطة كلها في يده

ويصرفها في مصلحة شعبه، فكان هناك مثلاً بطرس الأكبر في روسيا، ولويس الرابع عشر في فرنسا، بيد أنه لا يذكر التاريخ في القرن الثامن عشر ملكا مطلقا، أثر مصلحة شعبه أكثر من فردريك الأكبر.



### إصلاحاته :

كان فردريك الأكبر كأبيه ، يباشر كل صغيرة وكبيرة بنفسه ، وقد جعل الصالح العام رائده في كل أعماله ، حتى إن عبارته المأثورة ” أنا أول خادم للدولة “ ، لتتأني مع عبارة ملك فرنسا ، لويس الرابع عشر ” أنا الدولة “ . وكانت بغية فردريك أن ينهض بمملكة بروسيا ، حتى يجعلها في مصاف دول أوروبا الكبرى ، فأقبل على إصلاح شؤونها في همة ونشاط .

وجه فردريك همه إلى إصلاح الزراعة ، فحفر كثيرا من الترع ، وأصلح مساحات من الأراضي المهملة ، ثم زاد المساحات المزرعة ، بأن جفف المستنقعات ، وجولها إلى أرض زراعية صالحة .

واهتم فردريك بالصناعة ، فأنشأ عددا كبيرا من المصانع ، وعاضد الصناعات التي كانت موجودة ببروسيا ، وأدخل بها صناعات لم تكن موجودة من قبل ، مثل صناعاتي الحرير والصوف .

وأعلن فردريك التسامح الديني لجميع الطوائف ، وألغى الرقابة على الصحف ، وبهذا ظهر بمظهر الملك المستنير . كما أظهر اهتماما كبيرا بالجيش ، ودربه على أحدث طرق القتال وأساليب الحرب ، وزوده بأحسن الأسلحة .

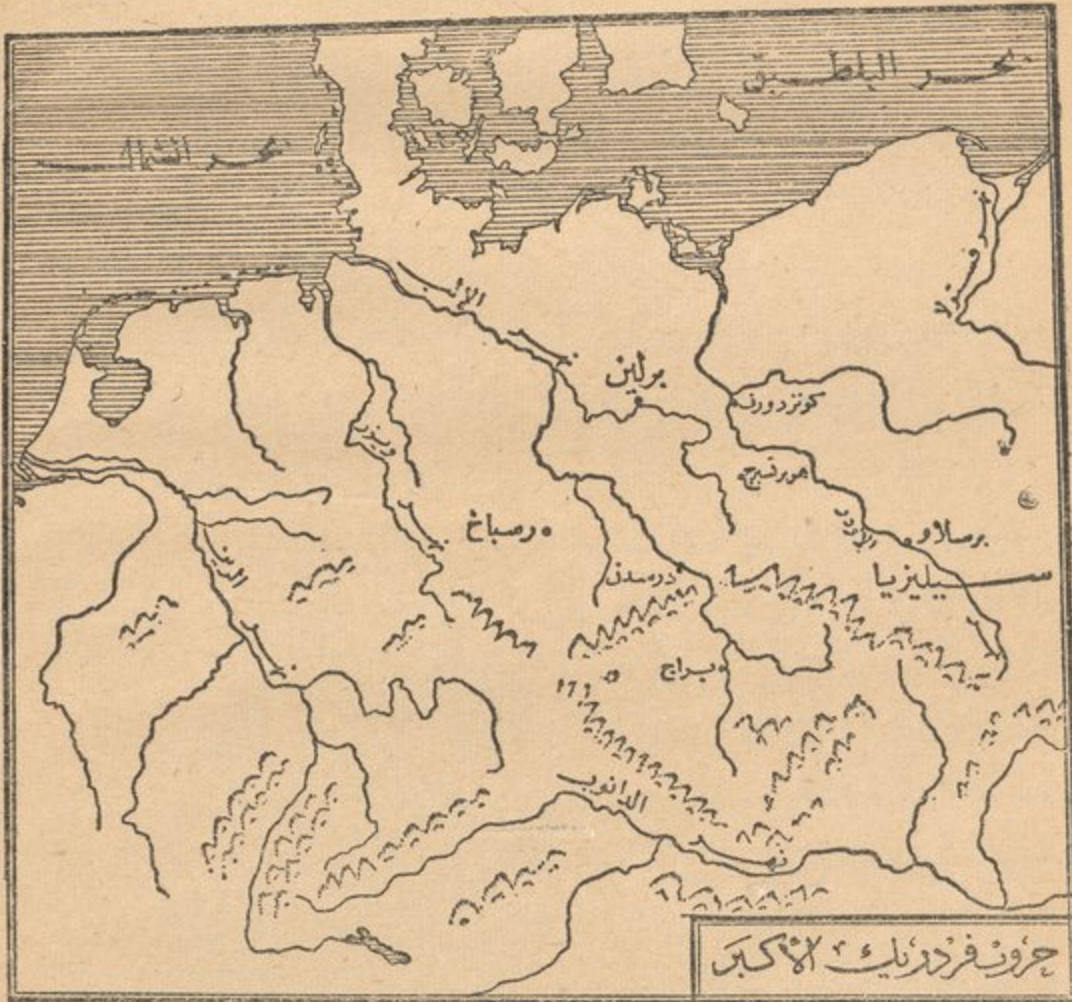
وعنى فردريك بالعلوم والآداب عناية عظيمة ، ولا عجب ، فقد كان على جانب كبير من الثقافة ، فأنشأ مجمعا علميا في برلين ، وجمع حوله نخبة من الفلاسفة ورجال العلم والأدب ، وكان الفيلسوف الفرنسي ” فولتير “ صديقه الحميم ، وكان فردريك ينظم القصائد ، ثم يعطيها له لينقحها . وقد كتب فردريك بنفسه كتابا رد فيه على كتاب ” ميكائلي “ ، وأثبت آراءه فيما يجب أن يكون عليه الملك العادل .

### توسيع بروسيا في عهده :

طمع فردريك في ضم إقليم سيليزيا الخصب إلى مملكته ، فاستخدم الجيش الذي دربه والده والمال الذي تركه له ، في انزاع ذلك الإقليم من النمسا ، فحاض من أجل ذلك غمار حربين ضدها ، فعرفت الحرب الأولى باسم حرب



وراثه النمساوية ١٧٤٠ - ١٧٤٨ ) ، وانتهت بصالح "إكس لاشابل"  
سنة ١٧٤٨ ، وعرفت الحرب الثانية باسم حرب السنين السبع (١٧٥٦ - ١٧٦٣) ،  
وانتهت فيما بين فردريك والنمسا ، بمعاهدة هيو برتسبرج سنة ١٧٦٣ ، وقد ثبتت  
الحربان امتلاك بروسيا لمقاطعة سيليزيا .



وفي عام ١٧٧٢ ، اشترك فردريك مع الروسيا والنمسا في تقسم مملكة بولندا ،  
فضم إلى أملاكه جزءا من سيليزيا الغربية . ومات فردريك الأكبر عام ١٧٨٦ ،  
بعد أن جعل لبروسيا المنزلة الحربية الأولى بين ممالك أوروبا .



## النظام البرلماني في إنجلترا

كانت إنجلترا في القرن الثامن عشر ، من أسبق دول أوروبا ، في مضمار النهوض العلمى والفكرى ، وفي مضمار الصناعة والتجارة العالمية . ولقد انفردت عن جميع الدول بنظامها النيابى ، فبينما كان الحكم المطاق هو الحكم السائد في القارة ، كانت إنجلترا تتمتع بالحكم وفق نظام نيابى ، وصل إليه الشعب البريطانى بفضل جهود طويله ، بدأت في الواقع منذ مستهل القرن الثالث عشر . ١٣

فعام ١٢١٥ ، يعد مبدأ تقييد سلطة الملك في إنجلترا ، إذ فيه اتحد الأشراف ورجال الدين ، وثاروا في وجه الملك " جونا John " ، وكان مستبدا بالأمر ، وأرغموه على إعلان " العهد الأعظم Magna Carta " ، وينص هذا العهد على أمور كثيرة ، منها : أنه ليس من حق الملك فرض أى ضريبة ، عدا الهبات الإقطاعية ، إلا بموافقة المجلس الأعظم ، الذى كان يضم كبار الأشراف ورجال الدين ، ويشير الناس إلى أن هذه المادة هى منشأ سيطرة مجلس العموم البريطانى فيما بعد ، كما أنه بها تقيدت سلطة الملك التشريعية . ومما نص عليه العهد ، أن يتمتع كل فرد بحماية قانون البلاد العام له ، فلا يقبض على أى شخص أو يسجن ، إلا بعد محاكمته على حسب قانون البلاد ، أو بعد محاكمته أمام نظرائه ، وفي هذه المادة تقييد لسلطة الملك التنفيذية والقضائية ، كما أنها أساس حرية الفرد ، ومنشأ نظام المحلفين في إنجلترا .

وزيادة على ذلك ، كفل العهد حقوق الكنيسة الإنجليزية وحرياتها ، ولو أنه لم يحددها ، وقضى العهد بتأليف لجنة من خمسة وعشرين شريفا ، مهمتها الإشراف على تنفيذ مواده ، وتنفيذ ما يعطل منها ، ولو بإثارة حرب أهلية ، إذا اقتضت الضرورة ذلك .

ولما تولى هنرى الثالث بن جونا الحكم ، لم يسر وفق نصوص العهد الأعظم ، بل فرض الضرائب من تلقاء نفسه ، فخاربه الأشراف وهزموه . وفي عام ١٢٦٥ ، اجتمع برلمان يضم نوابا من الأشراف والقسس والمقاطعات والمدن ، فككت تلك أول مرة ، اشترك فيها نواب الشعب مع الأشراف ورجال الدين .



وفي عام ١٢٩٥ ، اجتمع "البرلمان النموذجي" ، وكان يفوق برلمان سنة ١٢٦٥ ، في توسعه في تمثيل طبقات الشعب . وفي القرن الرابع عشر ، انقسم البرلمان إلى مجلسين : مجلس العموم ومجلس اللوردات .

وفي عام ١٤٥٥ ، نشبت حرب الوردتين ، بين أسرتي يورك ولنكستر ، وانتهت باعتلاء هنري السابع العرش عام ١٤٨٥ ، وتأسيس أسرة تيودور .

ويعرف عصر هذه الأسرة في تاريخ إنجلترا بعصر الحكم المطلق ، لأن ملوكها تمتعوا بسلطة واسعة ، ساعدهم على التمتع بها عوامل كثيرة ، منها أن الفوضى التي سببتها حرب الوردتين ، حثت الهدوء إلى الشعب ، كما أن عددا كبيرا من الأشراف قد فنى في هذه الحرب . هذا إلى مضاء عزيمة هؤلاء الملوك ، وقوة الحكومة المركزية في عهدهم ، وتمشيهم مع رغبات الشعب ، وتحاشيهم ما يثير مخبطه ، وتفاديهم عقد البرلمان بقدر ما يستطيع ، والتجاءهم إلى الحكمة والسياسة إذا انعقد . كما أن البلاد كانت معرضة للخطر في معظم سني حكمهم ، فتعلق الناس بالملوك لحمايتهم . يضاف إلى ذلك انشغال كثير من الناس ، بحركة إحياء العلوم ، وحركة الاستكشافات الجغرافية .

وفي عام ١٦٠٣ ، انتقل الحكم إلى أسرة استيوارت ، وكان ملوك هذه الأسرة على عكس من سبقهم من أسرة تيودور ، فسرعان ما اصطدموا بالبرلمان ، وتمسكهم بمبدأ التفويض الإلهي ، وهو أن الملك يستمد سلطته من الله لا من الشعب ، وذلك على الرغم من أن الظروف التي خدمت ملوك التيودور ، كانت قد انتهت ، وأن الطبقة الوسطى زادت ثروتها ، وقويت شوكتها .

ولقد عظم استياء الشعب من الملك "شارل الأول" ، أحد ملوك هذه الأسرة ، لجمعه المال كلما احتاج إليه بطرق غير مشروعة ، فأعد الزعماء وثيقة ، تقدموا بها إلى الملك عام ١٦٢٨ سميت "ملتمس الحقوق" ، وفخواها أنه لا يحق للملك فرض ضرائب أو منح إلا بإذن من البرلمان ، ولا يجوز له أن يسجن أحدا إلا على حسب القانون ، وألا يحاكم أحدا إلا عن طريق المحلفين ، كما أنه ليس له أن يرفع الأهالي على إيواء الجند .



وقد أجاب الملك هذه المطالب ، حتى حصل على المال ، ثم نكث عهده ، واستمر يحكم الشعب أحد عشر عاما ، لم يدع فيها البرلمان ، وكان يحصل على المال بطرق غير مشروعة ، ويسجن معارضيهِ .



( شارل الأول )

على أن الفرصة قد سنحت للبرلمان ، حينما تورط الملك في حرب ضد الاسكتلنديين ، بسبب نزاع ديني بينه وبينهم . فلقد اضطر الملك عام ١٦٤٠ لدعوة البرلمان ، ولما اختلف معه في حله في نفس العام ، وعرف " بالبرلمان القصير " . ولكنه ما لبث أن دعاه الى الاجتماع ، لتقرير المال اللازم ، وقد ظل قائما عدة سنوات ، وعرف " بالبرلمان الطويل " .

اغتم البرلمان فرصة احتياج الملك اليه ، فحرم جمع الضرائب غير المشروعة ، وألغى المحاكم غير الدستورية ، وقرر أنه لا يجوز حل البرلمان الحالي بغير موافقة أعضائه . ولكن الملك بدأ يخالف ذلك ، فقدم البرلمان " الاحتجاج الأعظم " عام ١٦٤١ ، وأثبت فيه مساوئ الملك ، وطلب أن يكون الوزراء مسئولين أمام البرلمان ، فغضب شارل ، وتوجه الى المجلس على رأس قوة ، للقبض على بعض زعمائه ، ولكنهم كانوا قد فروا .

لم يكن بدا إذا من قيام حرب أهلية ، بين الملك والبرلمان ، ف وقعت تلك الحرب عام ١٦٤٣ ، وكان الملك متفوقا في بداية الأمر ، ولكن رجحت كفة البرلمان ، بمناصرة القائد " أوليفر كرومويل " وفرقته له . وانهزم الملك في موقعة " مارستون مور " عام ١٦٤٤ ، وموقعة " ناسبي " عام ١٦٤٥ ، ثم قبض البرلمان عليه سنة ١٦٤٦ ، وحوكم الملك عام ١٦٤٩ ، وحكم عليه بالإعدام فأعدم في تلك السنة .



وحلت بإعدام شارل الجمهورية محل الملكية ، على غير رغبة السواد الأعظم من الشعب ، وثار أهالي أيرلندا واسكتلندا ، ولكن كرمويل أخضعهم ، وفر "شارل الثاني" بن شارل الأول الى فرنسا ، حيث رحب به ملكها لويس الرابع عشر



وبذلك أصبح كرمويل صاحب الأمر والنهي في البلاد ، وعرف باسم حامى الجمهورية . وحاول إرجاع الحياة النيابية ، ولكن المجالس التي دعاها برهنت على عجز وضعف ، فحكم البلاد حكما دكتاتوريا .



وخلفه ابنه بعد وفاته عام ١٦٥٩ ، ولكنه كان ضعيفا ، فتنازل عن العرش بعد بضعة شهور ، وفي عام ١٦٦٠ ، عاد الملك شارل الثانى ، وقد استدعاه الشعب ، فقبول بحماس عظيم .



(أوليفر كرومويل)

وكان شارل الثانى ميالا للاستبداد ، ولكنه كان يتحاشى إغضاب الشعب ، غير أنه على الرغم من ذلك ، وقعت مشادة بينه وبين البرلمان ، أدت الى تكوين حزبين سياسيين ، هما "حزب الهويج" وحزب "التورى" (\*) ، وكان الأول يناصر الحرية السياسية ، ويناصر الثانى الملك . ومن الأول تألف حزب الأحرار فيما بعد ، ومن الثانى حزب المحافظين .

وفي عهد جيمس الثانى ( ١٦٨٥ — ١٦٨٨ ) ، تجدد النزاع بشدة بين الملك والشعب ، لأنه كان كاثوليكيا صريحا ، ولمسكه بمبدأ التفويض الإلهى . وزاد مخطط الناس عليه عام ١٦٨٧ ، حينما أصدر "لائحة التسامح الدينى" ، وعين الكاثوليك فى وظائف الحكومة . وكان الشعب يبنى نفسه باعتلاء ابنته ماري البروتستنتية العرش بعده ، ولكنه رزق ولدا من زوجته الكاثوليكية ، فلم يجد الناس مناصا من الثورة ضده ، ف وقعت ثورة سنة ١٦٨٨ ، التى تعد من أعظم الخطوات ، فى تطور النظام البرلمانى فى إنجلترا ، كما تعد من أعظم الثورات ، لأنها أتت بتغيير عظيم ، دون أن تراق فيها قطرة دم . فلند فر جيمس الثانى ، ودعا الشعب وليم أورنج ملك هولندا وزوجه ماري ( بنت جيمس الثانى ) ، لتولي عرش إنجلترا ، وقدم لها البرلمان التاج ، ومعنى ذلك ، أن الملك يستمد سلطته من الشعب ، وفى ذلك قضاء على نظرية التفويض الإلهى .



## قانون الحقوق :

وأصدر البرلمان "قانون الحقوق" عام ١٦٨٩ ، وهو لا يقل أهمية ، في تاريخ إنجلترا السياسي ، عن ملتزم الحقوق والعهد الأعظم ، فهو آخر وثيقة للحقوق البرلمانية ، وخير ختام للثورة . وبه تقرر ألا يجلس على عرش إنجلترا ، من كان على المذهب الكاثوليكي ، وبذلك حرم "جيمس" وذريته من اعتلاء العرش ، وألا يجوز للملك جباية الأموال ، ولا تجنيد الجيوش في وقت السلم ، ولا إصدار القوانين إلا بإذن من البرلمان . كما حرم على الملك تعطيل تنفيذ القوانين الموضوعة ، أو إنشاء محاكم غير خاضعة لقوانين الدولة ، وأثبت الشعب حقه في تقديم الملتزمات ، وفي حرية الانتخابات للبرلمان ، وحرية الأعضاء في الكلام ، وضرورة الإثارة من دورات انعقاده ، وهكذا قضى على نظرية الحق الإلهي للملك ، وأصبحت السلطة مستمدة من الشعب ، ممثلاً في نوابه .

وأصدر البرلمان كذلك "قانون التسامح الديني" ، عام ١٦٨٩ ، وهو الذي منح حرية العبادة للطوائف البروتستانتية ، دون الكاثوليك ، كما أخذت الحكومة تتغاضى عن القيود ، التي كانت موضوعة على هذه الطوائف ، وسمحت لهم بتقلد الوظائف العامة ، ومناصب الجيش والبحرية والجامعات ، بعد أن كانت مغلقة في وجوههم .

وبعد أن تبوأ وليم وماري عرش إنجلترا ، انتهت المشكلة الدينية ، ببقاء الأمة الانجليزية على المذهب البروتستانتي . أما من جهة المشكلة السياسية ، فقد وضع حد لسلطة الملوك ، فلم يستطع ملك من ملوك إنجلترا ، رفض أى قرار يصدره البرلمان ، ابتداء من القرن الثامن عشر . ولما تولت أسرة هانوفر العرش بعد الملكة "آن Anne" ، إذ لم يكن لها نسل يخلفها ، وكان أول ملوكها "جورج الأول" ألمانيا لا يتكلم الانجليزية ، ولا يحسن التفاهم مع كبار رجال الدولة بآلة لغة أخرى ، فقد استعمل الوزراء بالأمر ، وتكونت هيئة خاصة منهم ، تسمى "Cabinet" مجلس الوزراء ، فكان من الطبيعي ألا يحضر الملك جلساتهم ، مادام لا يفهم المناقشة باللغة الانجليزية ، ومن ذلك الحين ، جرى المجلس على سنة البت في أمور الدولة ، بغير تدخل الملك ، فأصبح هو الحاكم الفعلي لانجلترا ، لا الملك .



وكان في الدولة إذ ذاك حزبان سياسيان ، هما حزب الوحيج وحزب النوري ،  
اللذان سبقتا الإشارة إليهما ، وكان الأول يتألف من تجار المدن ، وأصحاب  
الأموال فيها ، ويتمسك بالنظرية البرلمانية ، التي تقضى بأن يتولى الملك العرش  
ولا يحكم ، أ. أنه يجرد من كل سلطة فعلية ، وتركز هذه السلطة ، في يد وزراء ،  
يختارون من حزب الأغلبية في مجلس العموم ، ويتألف الثاني من كبار المرءعين  
وأصحاب الأراضي وساكني الأرياف ، ويتمسك بالنظرية الدستورية ، التي تخول  
الملك حق اختيار وزرائه ، من أي حزب شاء ، كما تخوله أن يرسم لهم خطة  
العمل .

ولم تستقر إنجلترا على إحدى النظريتين ، طوال القرن الثامن عشر ، ولكنها  
استقرت على الأولى زمن الملكة فيكتوريا (١٨٣٧-١٩٠١) ، وتستمر الوزارة  
في كرسى الحكم ، مادامت لها الأغلبية ، فإذا أعوزتها استقالت وانحل المجلس ،  
ثم تجرى انتخابات جديدة ، والوزارة مسئولة أمام البرلمان ، الذي يمثل جميع  
طبقات الأمة .

غير أن البرلمان في القرن الثامن عشر ، لم يمثل لإرادة الشعب في المملكة ، ففي  
عدد كبير من الدوائر الانتخابية ، كان المرشحون ينتخبون تبعا لإرادة الأشراف ،  
وفي كثير من الأحوال تنفيذاً لرغبة الملك . ولم يسكت الناس على هذا العيب الفاضح ،  
بل رفعوا أصواتهم بالشكى ، وأخذوا يطالبون بالإصلاح النيابي ، لإيجاد  
برلمان يمثل الأمة تمثيلاً صحيحاً ، ولكن لملك جورج الثالث تغاضى عن هذه  
المطالب ، وأخذ يستغل النظام الموجود ، لكي يستطيع استرداد الكثير من سلطة  
العرش ، بتكوين حزب خاص له ، من أعضاء مدينين بانتخابهم له . ولم يحاول  
الملك أن يتعدى على سلطة البرلمان ، وإنما نجح في استعماله كآلة في يده ، ردحا  
من الزمن .

ولكن عين الشعب لم تغفل عن هذه الخطة وأضرارها ، وكثر أنصار الإصلاح  
النيابي ، وكان على رأسهم بعض كبار الساسة أنفسهم .



وبينما كانت الأمور تسير على هذا المنوال ، إذا بالثورة الفرنسية تشغل الأذهان ، وتستغرق كل الجهود لإنقاذ الوطن ، نخفضت الأصوات المطالبة بالإصلاح ، وبدأ عصر اضطهاد للقضاء على كل حركة للمطالبة بالإصلاح أيا كان ، خشية أن يتسلط حزب ثورى على الحكومة ، ويحدث بلندن ما حدث بباريس ، وأصبح الناس ينظرون إلى المطالب بالإصلاح نظرتهم إلى الثورى أو الجمهورى ، ولذلك لم يكن لآراء المصلحين إذ ذاك ، أى أثر فى البرلمان ، ولو أن ذلك الأثر كان كبيرا فى الجليل الناشئ ، وفى الإصلاحات التى تمت فيما بعد .

## الولايات المتحدة الأمريكية

### نشأة الولايات :

دخل الانجليز ميدان الاستعمار متأخرين ، فقد بدءوا حركتهم الاستعمارية بطريقة جدية فى أواخر القرن السادس عشر ، فى أيام الملكة "إليزابث" ، غير أن الحركة لم تصادف نجاحا كبيرا إذ ذاك . ولكن القرن السابع عشر قرن حافل بنجاح المستعمرين الانجليز أكبر نجاح ، وكان السير " والتر رالى Sir Walter Raleigh " أول من وفق منهم فى مجهوداته ، فإنه نزل فى "فرجينيا Virginia" سنة ١٦٠٧ ، ونجح فى تكوين مستعمرة انجليزية هناك ، واستمر الانجليز يستعمرون الجهات الساحلية من أمريكا ، وهى الواقعة بين ساحل المحيط الأطلسى وجبال اليبجاني ، فأخذ عدد المستعمرات فى الازدياد ، حتى بلغ ثلاثة عشر فى أوائل القرن الثامن عشر .

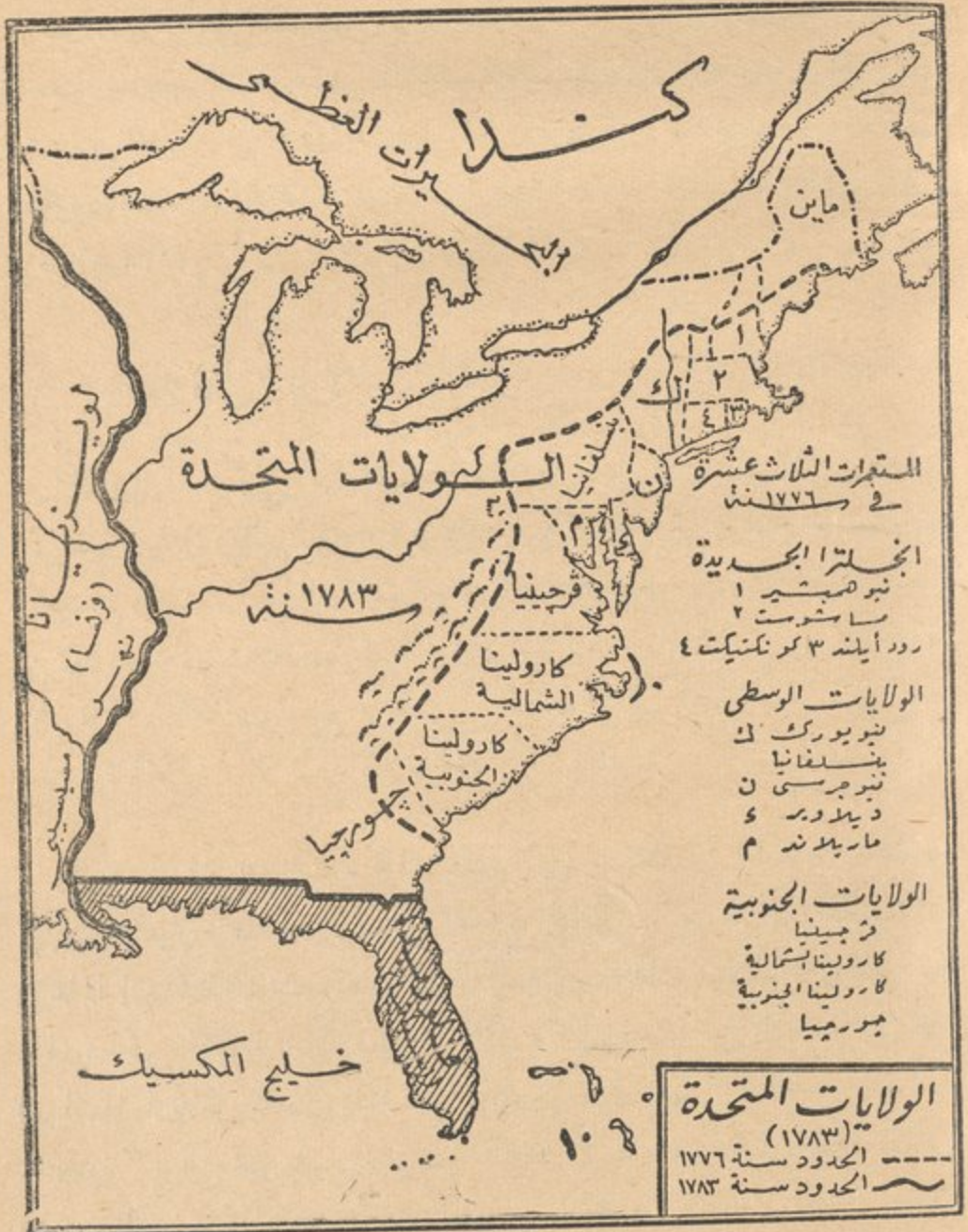


(سير والتر رالى)

وترجع أسباب هذا الاستعمار الانجليزى إلى عوامل دينية واقتصادية وسياسية ، فقد نزح إلى هذه البلاد المضطهدون من الكاثوليك البروتستانت على السواء ، فى عهد الاضطهاد الدينى فى أوروبا وانجلترا . بغية التمتع بحرية العبادة ، بعيدين عن كل تدخل واضطهاد .



وأما من الوجهة الاقتصادية ، فكانت قد ساءت حال الكثيرين من الانجليز في أواخر القرن السادس عشر ، على أثر نزوع أصحاب الضياع الواسعة ، إلى تحويل أرضهم من مزارع إلى مراعي ، وبذلك استغنى عن كثير من المزارعين ،



فصاروا متعطلين ، ينتابهم الفقر ، ولم يجدوا سبيلا لخلاصهم من هذا البؤس ، إلا الهجرة ابتغاء الرق . كذلك كان لإغلاق الحكومة الأديرة ، ووضع يدها على أملاكها الواسعة ، أثر كبير في ازدياد حالة الفقراء البائسين سوءا .



وأما من الوجهة السياسية ، فكان التنافس شديدا بين إنجلترا وأسبانيا إذ ذاك في أوربا ، فأرادت إنجلترا أن تكون لها مستعمرات بالدنيا الجديدة ، تماثل ما لأسبانيا بها ، وقد نجحت آخر الأمر في غرضها .

غير أنه يؤخذ على المستعمرين في هذه الولايات ، أنهم لما رأوا قلة عددهم ، وأحسوا بحاجتهم الشديدة إلى الأيدي العاملة لاستثمار أراضيهم ، لجئوا إلى استحضار المجرمين من إنجلترا ، والعبيد من إفريقيا ، هذا إلى أنهم أخذوا يفتكون بالهنود الحمر ، فقتلوا عددا كبيرا منهم ، وشتتوا الباقين ، وأقصوهم إلى الأصباع النائية .

### العلاقة بين الولايات وإنجلترا :

كان فرار المستعمرين الأوائل من إنجلترا من أجل الحرية ، فكان من الطبيعي أن ينعموا بها في وطنهم الجديد ، والواقع أنهم كانوا أحرارا في تدبير شؤون مدنهام وكنيستهم ومستعمراتهم ، وكانت صحفهم حرة وتفكيرهم حرا ، وكان لكل مستعمرة من تلك المستعمرات الثلاث عشرة ، مجلس نيابي خاص ، يدير شؤونها الداخلية ، وكان قانون الانتخاب أوسع حرية من قانون انتخاب إنجلترا ذاتها ، ولا يربط مستعمرة بأخرى ، إلا تبعية كل منها للتاج البريطاني .

والواقع أن المستعمرات ، كانت تكاد تكون مستقلة عن الحكومة الإنجليزية في جميع الأمور ، عدا أمرين ، هما الدفاع والتجارة ، فقد كان المستعمرون في حاجة إلى إنجلترا ، لتدفع عنهم شر الفرنسيين في كندا ، والأسبان في فلوريدا ، والهنود الحمر سكان البلاد الأصليين (\*) . وكانت إنجلترا تقبل الدفاع عنهم ، لقاء لفوائد المادية التي تحصل عليها منهم ، فقد فرضت عليهم "قوانين الملاحة والتجارة" ، التي تحتم عليهم ألا ينقلوا متاجرهم إلا على سفن إنجليزية ، ولا يشتروا سلعا غير إنجليزية ، إلا عن طريق إنجلترا ، ولا يقيموا صناعة في بلادهم ، إذا كانت لها مثيلة في إنجلترا .

(\*) لم يكن الخطر من ناحية الجنود المحركين لأنهم كانوا قبائل متناثرة متحاربة .



## النزاع مع إنجلترا

### السياسة المالية :

نشبت حرب السنين السبع ( ١٧٥٦ — ١٧٦٣ ) بين إنجلترا وفرنسا ، في ثلاثة ميادين ، وهى أوروبا والهند وأمريكا ، وانتصرت إنجلترا ، وأخرجت فرنسا من كندا ، فزال خطر إغارة الفرنسيين على الولايات ، وكان أكبر الأخطار التى يخشاها المستعمرون الانجليز . غير أن هذه الحرب زادت دين إنجلترا من ٧٠ مليوناً من الجنيهات ، إلى ١٤٠ مليوناً ، ولما كان بعض هذا المال أنفق على الدفاع عن هذه المستعمرات ، وكان الانجليز يريدون إنشاء جيش قائم بها للدفاع عنها ، خاف "جرفيل Grenville" رئيس وزراء إنجلترا ، أن يفرض ضريبة جديدة على بلاده ، حتى لا يتبرم أهلها ، ورأى أن العدل يقضى بأن تتحمل الولايات نصيباً من نفقات الإمبراطورية ، وهو ما يختص بنفقات الدفاع عن نفسها ، وعلى هذا بدأت إنجلترا تتبع سياسة جديدة للحصول على المال الكافى منها ، وكان ذلك سبباً فى سخط سكان الولايات عليها ، والقيام فى وجهها .

وكان سكان المستعمرات منذ زمن ، قد أخذوا يعمل بقوانين الملاحة والتجارة ، لما أيقنوا أنها لفائدة إنجلترا وحدها ، وسلكوا طريق تهريب البضائع ، وأغمضت إنجلترا عينها عن ذلك ، حتى غدت هذه القوانين حبراً على ورق ، ولكن نظراً للأزمة المالية التى أصابها ، بدأت تشدد فى تنفيذ هذه القوانين ، وأخذت تمنع تهريب البضائع من أمريكا ، وأرسلت أسطولاً إلى المياه الأمريكية لهذه الغاية ، فتسبب عن ذلك كساد تجارة أهل المستعمرات ، وظهور الاستياء وروح الكراهية نحو إنجلترا .

### قانون التمغة :

وقام البرلمان الانجليزى يفرض بعض الضرائب على المستعمرات الثلاث عشرة ، فبدأ فى عام ١٧٦٥ بفرض ضريبة "تمغة" على الورق الذى يستعمله المستعمرون فى معاملاتهم الرسمية ، وفى مخاطبتهم الحكومة ، وقد قررت هذه الضريبة رغم



تحذير "وليم پت الأكبر Pitt" (\*) ولقد قابل الأمريكيون هذه الضريبة بالسخط ، واعتبروها ظلما جديدا متما لقوانين الملاحة ، فدقوا أجراسهم ، ونكسوا أعلامهم ، وأغلقوا حوانيتهم ، وأقاموا المظاهرات ، وقاطعوا التجارة الانجليزية ، اذ اعتبروا أن فرض ضريبة عليهم في برلمان ليس فيه من يمثلهم ، اعتداء صارخ على حريتهم ، خصوصا وأنهم كانوا ينظرون بعين القلق إلى إنشاء جيش قائم ، وأبوا أن يقبلوا الضريبة ، وشجعهم على هذا المسلك ، أنهم أصبحوا في غنى عن حماية انجلترا لهم ، بعد إخراج الفرنسيين من كندا .



(وليم پت الأكبر)

وفي خلال هذه الحوادث ، كانت الوزارة قد سقطت وخلفتها وزارة برياسة "لورد روكينجهام Marquis of Rockingham" تولت سحب الضريبة (١٧٦٦) ، ولكن البرلمان أيد حقه بشدة في فرض مثل هذه الضريبة في أى وقت ، وغرض البرلمان من هذا التأييد المحافظة على هيئته .

### ضرائب جديدة :

وهدأت الحال في المستعمرات ، عندما عاد إلى الوزارة "پت" عام ١٧٦٦ ، وكان محبوبا بين سكانها ، غير أنه مرض ، ثم اشتدت به العلة حتى قعدت به عن العمل ، فرأى بعض زملائه ، أن حق البرلمان في فرض الضرائب على المستعمرات لم يبلغ قط ، وفكروا في فرض ضرائب جمركية ، بدلا من الضرائب الداخلية ، التي يعترض عليها الأمريكيون ، لذلك فرض البرلمان في عام ١٧٦٧ ، ضرائب على ما يدخل المستعمرات من الزجاج والشاي والورق والرصاص واللوان التصوير ، فاعترض الأمريكيون على هذه الضرائب ، معلنين أنها ليست من اختصاص البرلمان الانجليزي . واستمسك الملك جورج الثالث وأغلبية البرلمان

(\*) نادى بمبدأ (No taxation without representation) أى (لا تفرض ضريبة على قوم من هيئة لم يمثلوا فيها) . وقال كذلك إنه يقدر صداقة المستعمرين ومرارا عداوتهم .



بتنفيذ القرارات بالقوة ، غير أن "لورد نورث North" الذى تولى الوزارة بعد "بيت" ، حاول التوفيق بين الفريقين ، فألقى الضرائب التى تمردت كلها ، إلا ضريبة الشاي ، وهى سبعة بنسات على الرطل الواحد ، ولم يكن غرضه جمع المال ، بل تثبيت مبدأ حق انجلترا فى فرض الضرائب على المستعمرات ، لأنه عمل ترتيبا كالشاي يباع بمقتضاه فى الولايات أرخص مما يباع فى إنجلترا ذاتها . ولكن بالرغم من ذلك ، رفض المستعمرون ضريبة الشاي ، لا تملأوا لثقلها ، بل تمسكوا بالاعتراض عليهم ضرائب رغم أنوهم ، إذ فى ذلك مضیعة لحریاتهم ، التى بذل أجدادهم فى إحرارها مقاومة . لو كهم ، واعترايا عن أوطانهم

بدأ الأمريكيون المقاومة بالإضراب عن شرب الشاي ، وفى ١٦ ديسمبر سنة ١٧٧٣ ، بلغت میناء "بوسطن" ثلاث من سفن شركة الهند الشرقية تحمل الشاي ، فمنع الأمريكيون إزالته من السفن حتى تسحب الضريبة ، ثم تنكر خمسون من الشبان الأمريكيين فى أى الهنود الحمر ، ودخلوا السفن ، وطرحوا ما فيها من الشاي فى البحر ، فحز جورج الثالث من الغیظ ، ولم يكن ثابت العقل ، واعتزم النكل بالتمردين ، ورات الحكومة ما رأى ، فقررت إقفال میناء "بوسطن" للقضاء على تجارتها ، وعامة الناشرين أمام محاكم انجليزية ، كما قررت إجراءات أخرى لعقاب ولاية "مساوشوت" كإلغاء دستورها .

### مؤتمر فيلادلفيا :

خشى أدل المستعمرات الأخرى أن تصل يد العقاب إليهم أيضا ، فأظهرت براساناتها المختلفة عطفها على "مساوشوت" ، ثم اجتمع أول مؤتمر منهم فى "فيلادلفيا Philadelphia" فى ٥ سبتمبر عام ١٧٧٤ ، وقرر "إعلان الحقوق" ، كما قرر قطع العلاقات التجارية مع إنجلترا ، حتى تزول أسباب الخلاف ، وقرر فى الوقت نفسه الولاء للتاج البريطانى . فقام "بيت" ينصح قومه قائلا : "يجب أن تقدروا قلقهم وغضبهم ، فإذا فلتم ظفرتهم بحتم واعتراهم بالجميل" ، غير أن البرلمان لم يستمع لقوله ، وقرر عقاب تسع ولايات أخرى ، بما عاقب به الأولى .



وقبل أن ينعقد المؤتمر مرة ثانية في فيلادلفيا ، كانت المناوشات قد بدأت بين الفريقين في "لكسنجتون Lexington" عام ١٧٧٥ (\*) ، فقرر المؤتمر جمع جيش من المستعمرات ، وعهد بقيادته إلى "جورج واشنطن" (George Washington) .



(جورج واشنطن)

أما واشنطن هذا ، فقد كان أحد أغنياء مستعمرة فرجينيا ، وقد أبان عن مهارة حربية عظيمة في قتال الفرنسيين في كندا ، في حرب السنين السبع ، وكان قد ناهز الثالثة والأربعين من العمر ، حين عهدت إليه قيادة جيوش الدفاع الوطني . وكان شجاعا مخلصا صادق العزم ، متواضعا يكره الزهو ، صريحا يكره الملق ، تقيا ثابت الإيمان ، وقد وصفه أحد مواطنيه بأنه : "كان

أول الناس في الحرب ، وأولهم في السلم ، وأولهم منزلة في قلوب قومه" . لكل هذا كان المؤتمر موفقا كل التوفيق في اختياره لقيادة جيوشه .

### إعلان الاستقلال :

وفي خلال الحرب ، تحقق الأمر يكون من ضرورة إعلان استقلالهم ، وانفصالهم عن إنجلترا ، وبذلك يزداد حماس الأهالي وتشتد عزائمهم ، لأنهم يعلمون إذ ذاك أنهم إنما يدافعون عن شيء قيم جدير بكل تضحية في سبيله . كذلك لا يكون عند ذاك

(\*) كانت الحكومة الإنجليزية تريد القبض على زعيمين من زعماء الأمريكيين ، وهما "هانكوك وصمويل آدمز Hancock & Samuel Adams" ، وعرفت تلك الحكومة أنهما في لكسنجتون ، على بعد أحد عشر ميلا من بوسطن ، ووصلت فرقة إنجليزية إلى البلد ، وحدث فضال قتل وجرح فيه بعض الناس . وعادت الفرقة فاشلة إلى بوسطن ، وقام الأمريكيون يطلقون الرصاص عليها من وراء الصخور .



أمام المترددين إلا طريق واحد يسلكونه ، وقد كان من بينهم من دفعته مبادئه إلى عدم الاشتراك في مقاومة الحكومة الإنجليزية ، بصفتها السلطة الشرعية العليا في البلاد ، لإعلان استقلال الولايات عن إنجلترا ، سلب هذا الفريق كل حجة لديه في القعود عن مناصرة بني وطنه . هذا إلى أن المستعمرات في هذه الحالة تستطيع أن تنال مساعدة الدول الأجنبية ، ولهذا اجتمع مؤتمر في "فيلادلفيا" في ٤ يولييه سنة ١٧٧٦ ، وقرر نشر "إعلان الاستقلال" (\*) ، وأطلق على الولايات الثلاث عشرة ، لقب الولايات المتحدة الأمريكية .

### الحرب :

وفي الأمريكيون بما عاهدوا أنفسهم وربهم عليه ، فبدلوا أرواحهم وما يملكون في سبيل الدفاع عن حقهم ، وأرسلوا إلى فرنسا بعثة على رأسها "بنيامين فرنكلين" (Benjamin Franklin) تلتهم مساعدتها ، وكانت فرنسا حاقدة على إنجلترا ، التي أخرجتها من كندا والهند ، ولكنها ترددت خوف بطش إنجلترا ، وساعدتهم بالمال سرا ، هذا إلى أن كثيرا من الفرنسيين تطوعوا لمساعدة الأمريكيين ، وكان أظهر هؤلاء "لافايت" (Lafayette) ، الذي قوبل في أمريكا بترحاب عظيم ، واشترك في مقاتلة الجيوش الإنجليزية حتى النهاية ، في عدة مواقع ، أظهر فيها كفاية ومهارة .

وقد ذكرنا أن المناوشات بدأت بين الفريقين عام ١٧٧٥ ، وفي العام عينه حارب الأمريكيون الإنجليز في "بنكرهيل Bunker Hill" ، وكانوا متطوعين ، لا خبرة لهم بالحرب ولا بالنظام بعد ، ومع ذلك لم يستطع الإنجليز انتزاع التل منهم ،

(\*) أقر "إعلان الاستقلال" كل الولايات ما عدا نيو يورك ، وما جاء فيه : "نحن ممثلي الولايات المتحدة الأمريكية ، المجتمعين في هيئة مؤتمر عام ، نشهد الحكم العدل على شريف مقاصدنا ونقش ونعلن في إيمان ، بامم شعب الولايات الكريم وتفويضه ، أن هذه الولايات المتحدة ، أصبحت حرة ومستقلة ، ويجب عدلا أن تكون حرة مستقلة ... وقد نعهدنا بأن نصون هذا الاستقلال بحياتنا وأموالنا وشرقا مؤمنين بمون الله" . وصار هذا الإعلان يقرأ سنويا في عيد الاستقلال .



إلا بعد جهد جهيد ، لاستماتهم في الدفاع عنه ، وفي مارس عام ١٧٧٦ تمكن  
وشنجن من طرد القائد "هاو Howe" من بوسطن وفي العام التالي ، خرج القائد  
الانجليزي "برجوين Burrigoyne" من كندا ، للانقضاض على مؤخرة الأمريكيين  
ولكنه حوصر في "سراتوجا Saratoga" وأرغم على التسليم في ١٧ أكتوبر  
عام ١٧٧٧ . وكان لهذا الحادث دوى هائل في العالم وبعث في نفوس الأمريكيين  
الثقة بالنفس ، والأمل في النصر . وكان من أهم نتائجه أن فرنسا استيقنت  
أن الأمريكيين جديرون باحترامها ، فاعترفت باستقلالهم ، وأرمت معهم معاهدة  
حربية في فبراير سنة ١٧٧٨ ، وأنجدهم بقوات برية وبحرية .



وكان لاشتراك فرنسا في الحرب ، أثر كبير في تغيير طبيعتها ، فبعد أن كانت  
تزالا بين إنجلترا ومستعمراتها ، أصبحت حرا جوهرها المنافسة بين إنجلترا وفرنسا  
السيادة على البحرية والاستعمار . ولم تلبث أن دخلت أسبانيا الحرب كذلك في صف



الأمريكيين ، في صيف سنة ١٧٧٩ ، رغبة منها في استخلاص جزيرة "مينورقة" و "جبل طارق" من يد الانجليز . ومما زاد مركز انجلترا حرجا موقف "دول البلطيق" العدائي ، وعلى رأسها روسيا سنة ١٧٨٠ ، تحت اسم "الحياة المسلحة" "The Armed Neutrality" ، فإنها لم توافق على ادعاء انجلترا ، أن لها حق تفتيش السفن المحايدة ، للبحث عن متاجر تتعلق بأعدائها من المتحاربين ، وتشبثت بأن لها الحق في أن تتاجر مع الدول المحاربة ، وكان ذلك ضربة قاضية على سيادة انجلترا في البحار . وكانت هولندا تتاجر مع الأمريكيين ، وتمدد فرنسا وأسبانيا بالذخيرة ، والواقع أن هولندا أرادت أن تنفع بحلف دول الشمال ، وتوسع نطاق تجارتها ، وتكيد لانجلترا ، فما كان من الأخيرة إلا أن أعلنت الحرب على هولندا في ديسمبر سنة ١٧٨٠

ولكن بالرغم من كل هذه النكبات التي انتابت انجلترا ، لم يتغير وجه الحرب كثيرا بتغير موقف الدول ، واستمرت الحالة كذلك حتى عام (١٧٨١) ، عندما أرغم القائد الانجليزي "كورنوالس" Cornwallis على التسليم لوشنجن ، وزميله القائد الفرنسي في مدينة "يوركوتون" Yorktown ، في ١٩ أكتوبر ، وكانت هذه هي الموقعة الفاصلة في أمر استقلال أمريكا ، إذ فقدت انجلترا الأمل في إبقائها في دائرة الإمبراطورية .

ولم تنف النكبات التي أصابت انجلترا عند حد نكبة يوركوتون ، بل إن مينورقة ومعظم جزائر الهند الغربية سقطت في يد فرنسا ، كما أن فرنسا وأسبانيا حاصرتا جبل طارق ثلاث سنوات ونصف ، ولم تر انجلترا في النهاية بدا من قبول معاهدة فرساي في سبتمبر سنة ١٧٨٣ ، التي اعترفت فيها باستقلال الولايات المتحدة ، استقلالا تاما ، ونص في المعاهدة على أن المسيحي هو حد الولايات المتحدة غربا ، وأن فلوريدا الاسبانية هي حدها جنوبا . وهكذا تمخضت الحرب عن ظهور دولة مستقلة ، أخذت نكد وتعمل ، وتنافس غيرها في ميدان الارتقاء ، حتى أصبحت اليوم من أقوى الدول العظمى .



## اسباب انتصار المستعمرات

- ١ — شجاعة الأمريكيين ، واستماتتهم في الدفاع عما كانوا يعتقدونه حقاً لهم ، فضلاً عن أنهم كانوا يحاربون في بلادهم ، وهم على علم بجاهلها ومسالكتها الداخلية ، بعكس الجنود الانجليز .
  - ٢ — كان على رأسهم " جورج واشنطن " ، وكان وطنياً مخلصاً ، وقائداً قديراً ، وشخصية محبوبة من جميع أتباعه .
  - ٣ — لم يقدر الانجليز خطر الحركة في أول أمرها ، فلم يرسلوا الجيوش الكافية للقضاء عليها في البداية .
  - ٤ — بعد الولايات عن انجلترا ، وصعوبة إرسال المدد والجنود في الوقت الملائم ، وبالسرية المطلوبة ، مع أن الانجليز كانوا في حاجة إلى عدد كبير من الجنود ، لإقامة حاميات في جهات مختلفة ، في بلاد معادية ومتسعة الأطراف .
  - ٥ — ضعف الأسطول الانجليزي نسبياً ، في الفترة التي تلت حرب السنين السبع .
  - ٦ — المنازعات الحزبية في انجلترا ، بين الملك وأنصاره من جهة ، والمعارضة من جهة أخرى ، فلم يقف الجميع يداً واحدة ، في تلك الساعة الخطرة ، بل إن بعض رجال المعارضة كانوا يهملون فرحاً لما يحرزه الثوار من انتصارات .
  - ٧ — تدخل الدول في صف الولايات ، زادها قوة وثقة بالنفس ، كما زاد في أعداء انجلترا ، ووزع قواتها ومجهوداتها ، فأضعف قوة مقاومتها للولايات .
-



## الباب الأول

### مصر العثمانية قبيل الحملة الفرنسية

#### مصر قبل الفتح العثماني :

منذ منتصف القرن الثالث عشر الميلادي ، كان يحكم مصر سلاطين المماليك ، الذين أسسوا لهم دولة بها ، منذ قضوا على الدولة الأيوبية عام ١٢٥٠ م .



( مملوك )

الرياسة ، فيشنون حربا داخلية شعواء ، إشباعا لشهواتهم .

ومنشأ الثروة العظيمة التي تمتع بها هؤلاء السلاطين ، ما كانوا يتقاضونه من الضرائب على التجارة بين الشرق والغرب ، وكانت هذه التجارة تتبع في الحملة طريقين : أولها طريق البحر الأحمر إلى السويس ، ثم إلى القاهرة بالقوافل ، ومنها على ظهر السفن



في فرع رشيد إلى قرب مدينة الرحمانية، ومن هناك إلى الاسكندرية إما بالملاحة في ترعة كانت تصل ما بين النيل والاسكندرية، أو على ظهور الدواب. وثانيهما طريق الخليج الفارسي، ونهر الفرات ثم إلى حلب، ومنها إلى مدن الساحل، وكانت تأتي إلى الاسكندرية وإلى تلك المدن سفن البنادق والجنويين وغيرهم، فتنقل المتاجر إلى أوروبا. وكان سلاطين المماليك يحكون الشام مع مصر، فكان الطريقان في قبضتهم، وبذلك جنوا فوائد مادية عظيمة.

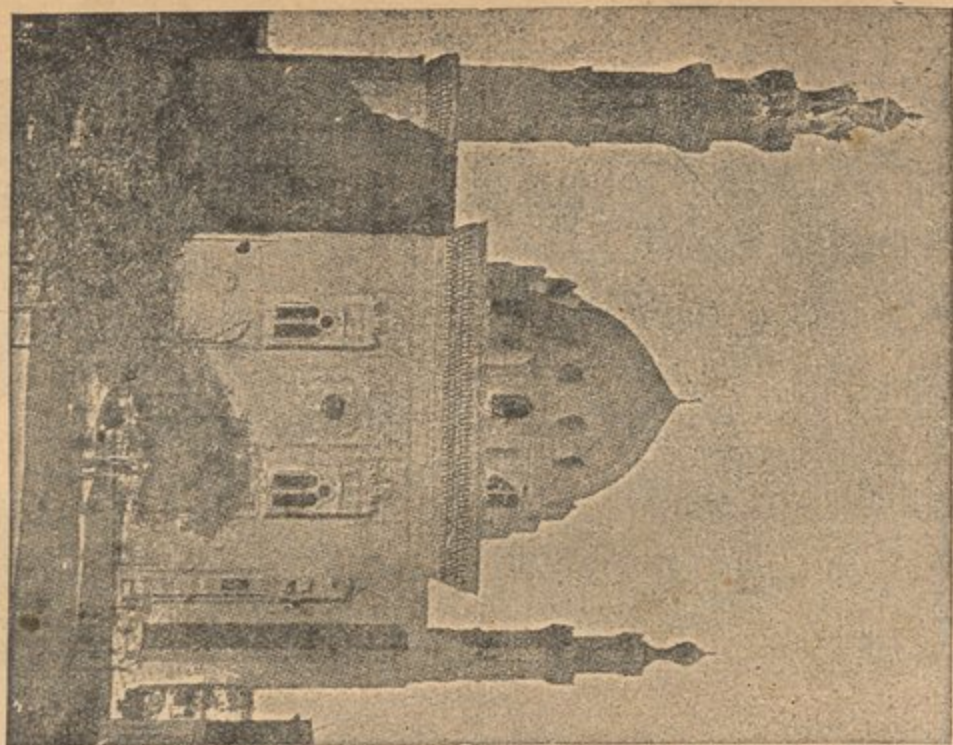
كانوا يحبون ضرائب على هذه التجارة، فيكسبون أموالا طائلة، كما أن الأهالي كانوا ينتفعون بما يتقاضونه من أجر، نظير اشتغالهم بنقل البضائع، إما بالدواب وإما بالسفن، وبتقديم الفنادق والمأكل والمشرب للتجار والمسافرين.

وكان المماليك ينفقون بسخاء، على إقامة المباني المختلفة، كالمساجد العظيمة والقصور الفخمة، والسبل المزخرفة، وفي وسائل الترف، من ملابس وزينة وأثاث فاخر، وخيل مطهمة وغيرها، مما أدى إلى ارتقاء الصناعة والفنون، كما تشهد بذلك آثارهم العظيمة، كمساجد السلطان حسن وبرقوق والمؤيد والغوري، فوجود المال عامل قوى الأثر، في ظهور الحرف والفنون، وتفنن أصحابها بغية الكسب، وكانت تلك الحرف تنقل من جيل إلى جيل، فترداد إتقانها وجمالا.

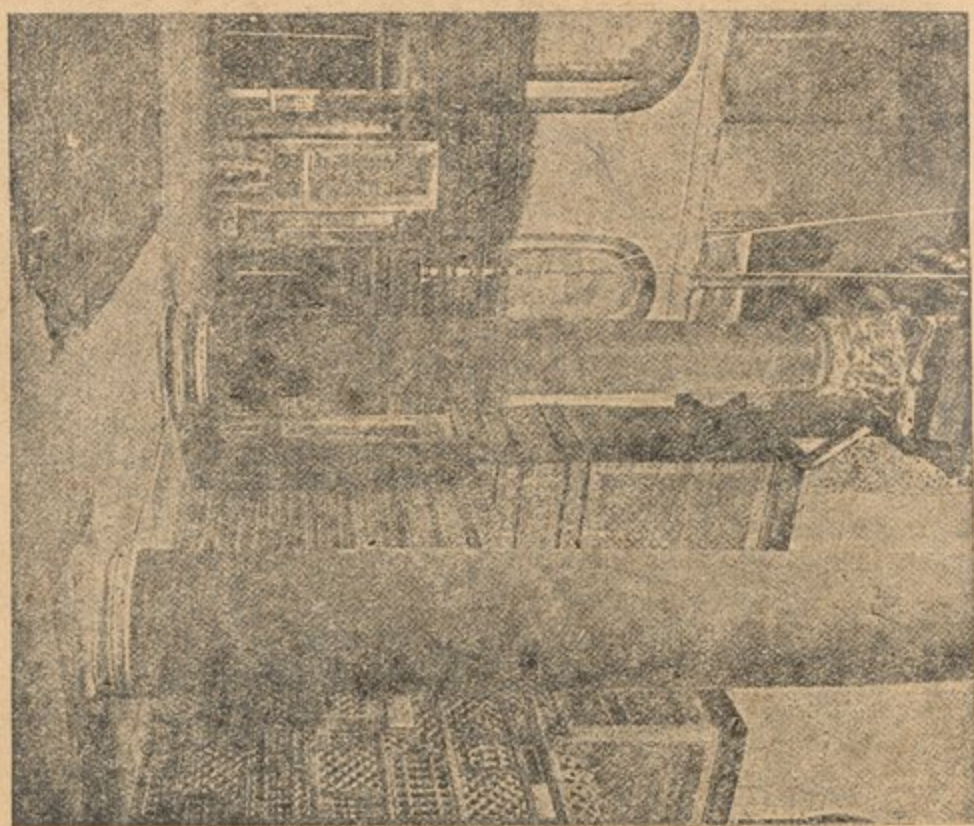
وأنفق هؤلاء السلاطين أيضا بسخاء على العلماء والأدباء، فنبغت منهم طائفة في الأدب والعلم والتاريخ، والنحو والحديث واللغة، وكانت لهم مؤلفات عظيمة، تعد من مفانر هذا العصر.

وبسبب هذا الثراء العظيم، الذي تمتع به سلاطين المماليك، كانت وطانهم في فرض الضرائب الداخلية وجمعها، تخف على الزراع والصناع والتجار نوعا ما، في هذا تخفيف كبير عن كاهل الرعايا، وعلى الأخص الطبقات الفقيرة.



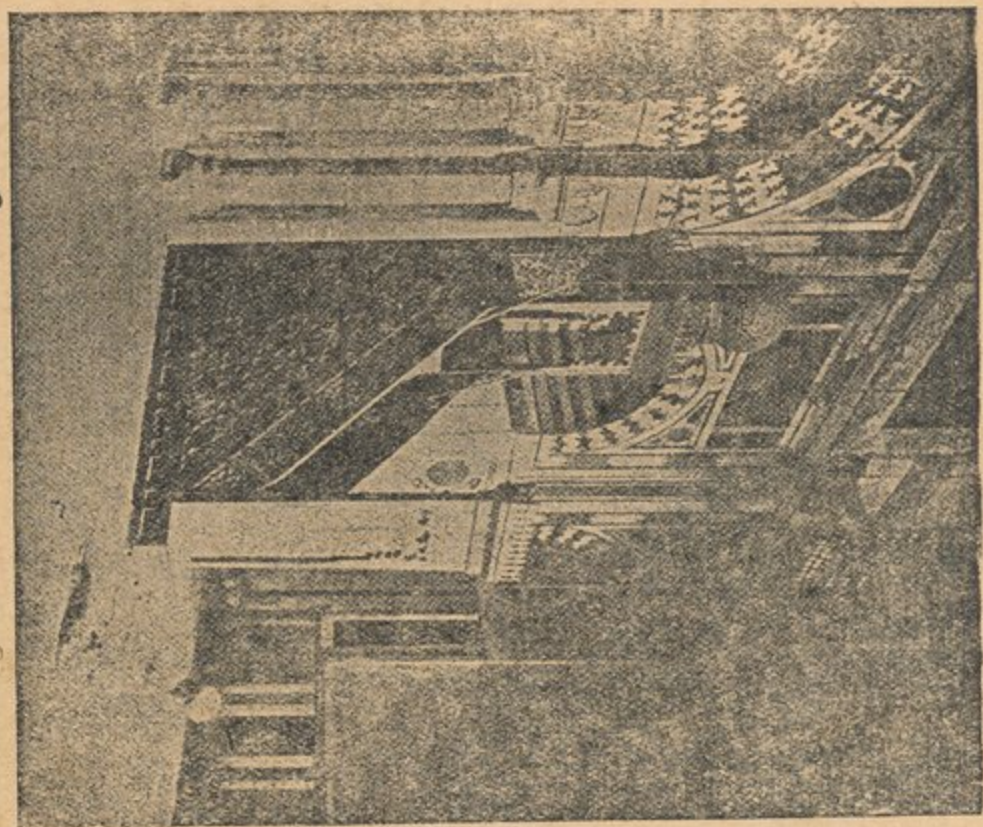
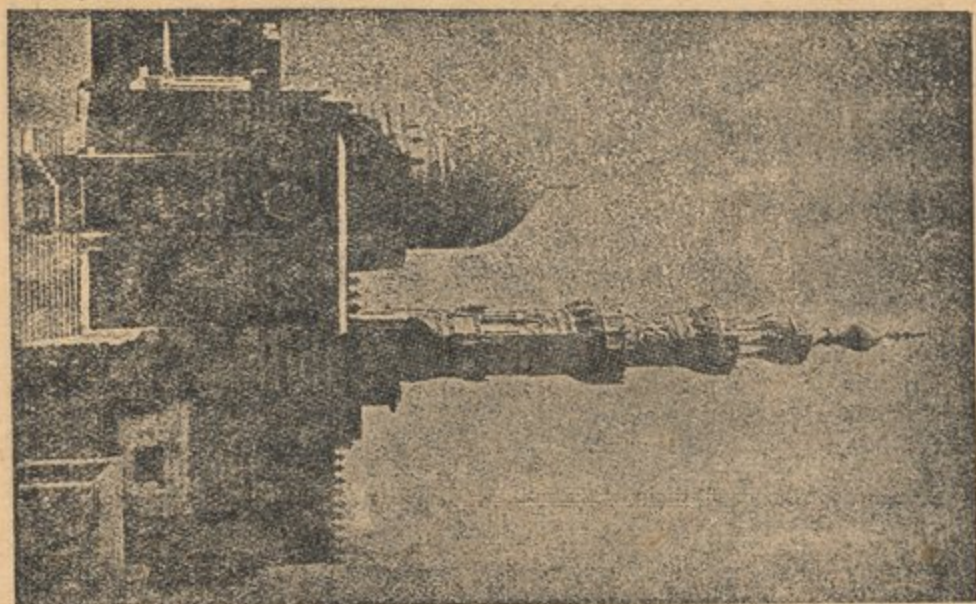


(جامع السلطان حسن)



(داخل جامع تلامودن)







هذا وقد كانت مصر ، بحكم موقعها الجغرافي الممتاز ، مركزا لتجارة رائجة بينها وبين جيرانها ، كما كان يوجد بداخلها بعض المتاجر الكبيرة ، وتعرف بالخانات ، لبيع ما يلزم للمالك وللاثرياء ، وما يحتاج إليه الصانع من أدوات وخامات ، فأثرى من الاشتغال بالتجارة بعض المصريين .



( السلطان سليم الأول )

وظلت مصر على هذه الحالة ، إلى أن كشف الملاح البرتغالي « فاسكوداجاما » طريقا جديدا لتجارة الشرق عام ١٤٩٨ ، هو طريق رأس الرجاء الصالح ، فثبت أن تحولت التجارة إلى ذلك الطريق الجديد ، فأخذت ثروة السلاطين في التدهور ، بسبب هذا الحادث ، منذ أوائل القرن السادس عشر .

ولم تضر إلا سنوات قليلة من هذا القرن ، حتى قضى على استقلال البلاد ، فقد فتح السلطان سليم الأول العثماني مصر عام ١٥١٧ م ، وقضى على دولة المماليك ، ومن ذلك العام أصبحت مصر ولاية عثمانية .

## نظام الحكم العثماني في مصر

### النظام السياسي .

كان لنظام الحكم السياسي في هذا العهد أثر سيئ في حالة مصر العامة ، لأن السلطان سليما ، لم يراع عند وضع قواعد هذا النظام ، مصلحة البلاد المحكومة وسعادة أهلها ، وإنما كان همه الأكبر وضع نظام يكفل بقاء مصر جزءا من الدولة العثمانية ، وهالك جوهر ذلك النظام :



### الوالى (الباشا) :

وضع السلطان السلطة فى يد هيئات ثلاث ، أولاها الهيئة التى تمثل السلطة العليا فى البلاد ، ووضعت هذه السلطة فى يد شخص يسمى "الوالى" أو "الباشا" ، ومدة ولايته قصيرة ، لا تتجاوز فى العادة ثلاث سنوات ، وكان عليه أن يتسلم أوامر السلطان ويقوم بتنفيذها ، ومهمته الإشراف بوجه عام على حال الرعية ، وهو فى مقره بالقلعة .



(والى مصر فى موكبه)

### الديوان :

أما الهيئة الثانية ، فهى "الديوان" ، وقد خلقت لتراقب سلطة الوالى وتشرف على تصرفاته . وكانت مكونة من ضباط جيش الاحتلال ، الذى تركه سايم فى البلاد ، ليقوم بالدفاع عنها . وسلطة هذا الديوان عظيمة ، إذ كان لأعضائه حق قبول قرارات الباشا أو رفضها ، بل كان لهم أن يطلبوا عزله .



ولما مات السلطان سليم ، أنشأ خلفه السلطان سليمان القانوني ديوانين :  
الديوان الصغير والديوان الكبير . فالديوان الصغير ، أو الديوان فقط ،  
كان يتألف من ضباط الجيش ، وبعض كبار الموظفين ، وينعقد كل يوم للنظر  
في شؤون البلاد .



( بعض ضباط الانكشارية )

أما الديوان الكبير ، فكان يتألف كذلك من ضباط الجيش ، وبعض كبار  
رجال الحكومة ، ويضاف إليهم بعض العلماء ورؤساء المشايخ ، والأشراف  
وكبار القضاة . ويبحث هذا الديوان في شؤون الحكومة الرئيسية الهامة ، وله نقض  
أوامر الباشا ، ولكنه لا ينعقد إلا نادرا .

وكان الباشا يضر جلسات الديوانين من وراء ستار ، وليس له حق الاشتراك  
في مداولاتهما ، وعليه تنفيذ قراراتهما .

### الممالك :

ولكي يحفظ التوازن بين الهيئتين السابقتين ، أودع السلطة الثالثة في يد فئة  
كانت في نظره مستضعفة ، وهي " طائفة الممالك " ، فولى زعماءها حكومة  
الأقاليم ، وأصبحوا يؤلفون الإدارة المحلية للبلاد ، فكانوا بطبيعة مراكم أكثر  
اتصالا من والي والديوان بأفراد الشعب ، ومن ثم سهل تسيطرتهم على البلاد



### تطور هذا النظام :

وإن نظرة سطحية إلى خوى هذا النظام، ترينا أنه كان يحمل بين ثناياه عوامل ضعفه، ففي الوقت الذي تحمل فيه السلطة الأولى مظاهر الأبهة والعظمة، نرى أن نقط الضعف فيها بادية، في قصر المدة التي يسمح للوالى أن يتولى الحكم خلالها، وما ذلك إلا لخوف السلطان من أن يثبت أحد الولاة قدمه في مصر، إذا طالت مدة حكمه.

ومن وجهة أخرى، نرى أن للديوان حقوقا تهدم سلطة الوالى، وكثيرا ما أدى هذا إلى نزاع كبير بين الهيئتين، كان نصيب البلاد منه الخراب والدمار، ونصيب الممالك منه الغم العظيم، إذ في ضعفهما أثنى فرصة لاسترداد سطوتهم.

والواقع أن هذا النظام المفكك، بقى بالرغم من كل عيوبه، ما بقيت القوة التي يستمد الحياة منها، وذلك عند ما كان الباب العالى ذا قوة وعظمة حربية. ولكن لم تلبث أن تسربت عوامل الضعف إلى الدولة، فكان هذا الضعف الذى أصابها نذير شر فى مصر أحد أعضائها، إذ أخذت قوة الوالى والديوان فى الضعف، وهى الفرصة التى يتغياها الممالك، فلم يكن الوالى بعد ذلك إلا ألعوبة فى يدهم، لا يبقى فى مركزه، إلا إذا كانوا راضين عنه (\*)

أما الضباط أعضاء الديوان، فقد انحط مركزهم الأدبى، عندما ضعفت الدولة، فضلا عن أن مزاياتهم الحربية أخذت تتلاشى، لبعد عهدهم بالحروب المنظمة، بل أخذوا يندمجون فى المصريين ويصاهرونهم، ويقتنون الأملاك

---

(\*) إذا أجمع الممالك أمرهم على عزل وال، أرسلوا إليه رسولا "أوده باشى" من ضباط الوجاقات، يحمل قرار العزل، فيدخل على الوالى فى مجلسه بالقلعة، ويحييه فى احترام عظيم، ثم يثنى السجادة التى يجلس عليها الباشا، ويقول له "ازل يا باشا"، فيزل من القلعة مكرها، ويصبح فردا عاديا لا خطر له ولا شأن، ويسمى العامة "أوده باشى" أباطبق لأنه كان يلبس «لبادة» فداء كالقبعة ذات حافة كالطبق.



في البلاد ، فضعف ارتباطهم بعاصمة السلطنة العثمانية ، وأصبحوا يتزلفون إلى الممالك بكل الوسائل ، حتى أصبح الديوان وهو في قبضة الممالك ، لا يتصرف في شيء إلا على حسب أهوائهم .



( أبو طبق في مركبه )

وهكذا استرجع الممالك سلطانهم ، وجمعوا مقاليد الأمور في أيديهم ، حتى أعادوا عصور سطوتهم الأولى ، وأصبحوا هم حكام البلاد الحقيقيين ، ولو أنها كانت لا تزال تابعة للدولة اسمياً . وصار لزعم الممالك ، الذي كانوا يختارونه من بينهم ، ويلقبونه "شيخ البلد" سلطة دونها سلطة أي فرد في البلاد ، وكان هذا المنصب هو أقصى ما يطمح إليه الكثير من البكوات الممالك ، ولذلك كثيراً ما جر التنافس للحصول عليه ، إلى حوادث مفرجة ، وحروب مخزنة ، كانت تضيح فيها مصالح البلاد وأهلها .

### على بك الكبير

كان على بك في أول أمره مملوكاً لأحد مشايخ البلاد سمي إبراهيم بك ، وكان هذا زعيم حزب للممالك في مصر ، وفي حوزته عدد كبير من الممالك ، أحبهم جميعاً إلى قلبه "على" . وما زال على يتقدم عند سيده ، لذكائه ومقدرته



حتى رقاؤه إلى رتبة "بك" ، فاستاء أحد زملائه من ذلك وقتل سيده ، فجمع  
 "على" الأموال واشترى المماليك ودربهم على الفنون الحربية ، لينتقم من القاتل  
 إلا أن "شيخ البلد" خاف من استعداداته وضايقه ، ففر إلى الصعيد . ولكنه  
 ما لبث أن عاد وفاز بالنصر ، وتمكن من أن يكون شيخا للبلد عام ١٧٦٣

غير أن بعض أقرانه حقدوا عليه ، فأرغم على الفرار إلى اليمن ، ولكنه عاد ثانية  
 إلى مصر بمساعدة أعوانه ، ورقى كثيرا منهم إلى رتبة البكوية .

ولما أيقن أن البلاد في قبضة يده ، طمع فيما هو أعلى من مركزه ، وعزم  
 على فصل مصر من أملاك الدولة العثمانية ، وإعلان استقلالها تحت لوائه ، وأخذ  
 يمهّد السبيل لتحقيق غرضه بكل الوسائل : فعمل على الإقلال من عدد الجنود  
 العثمانية بمصر ، والاستزادة من أنصاره ، وجعل يعزل كل كبير أو صغير ، تحوم  
 الشكوك حول إخلاصه لشخصه ومبذئه ، ووجد من لم يثق بهم من المماليك من  
 وسائل القوة ، فمنعهم من أن يقتني أحدهم أكثر من مملوك واحد أو مملوكين .



ولكى يقوى مركزه ، تحالف مع "الشيخ  
 ظاهر" والى عكا . ولما أنس في نفسه  
 القدرة على تحقيق آماله ، والوقوف في وجه  
 الباب العالي ، طرد الوالى وأعلن استقلال  
 مصر سنة ١٧٦٩ ، وكانت الدولة في حرب  
 مع روسيا ، منذ سنة ١٧٦٧

وبذل على بك مجهودا كبيرا في إصلاح  
 داخلية البلاد ، ونشر الأمن في ربوعها ،  
 وأمر أن يخطب باسمه في المساجد ، وأن  
 يسك النقود باسمه في القاهرة ولم يقتصر

على القيام باصلاحات متنوعة في الداخل ، بل عمل على نشر التجارة في الخارج ،  
 وثرأ مصر ، وبسط سلطانها على ما جاورها من الأصقاع ، فاستولى  
 على بلاد اليمن ، كما استولى على جدة ومكة ، وعمل على بسط نفوذه في أرجاء  
 شبه جزيرة العرب . وبالإستيلاء على هذه البلاد الواسعة ، أصبحت تجارة البحر  
 الأحمر في يده ، وأخذ يتبادل التجارة مع الهند وغيرها من بلاد الشرق ، وأصبح  
 يطلق على نفسه بحق لقب "سلطان مصر وخاقان البحرين" .



كل هذا لم يشغله عن إعداد نفسه لمقاتلة قوى السلطان ، التي أخذت تتجمع في سوريا ، وتستعد لمهاجمته ، حتى اشتد ضغطها على حليفه "الشيخ ضاهر" ، فلما رأى أن الظروف أصبحت مناسبة ، وأن الخطر ازداد على صديقه ، وأن استعداداته قد تمت ، سير حملة إلى الشام ، مكونة من أربعين ألف رجل ، سنة ١٧٧٠ ، وأسند قيادتها إلى مملوكه "محمد بك أبو الذهب" . سارت الحملة





إلى سوريا ، واستولت على جهاتها الجنوبية ، حتى بلغت القوات دمشق ،  
فحاصرتها وفتحتها عنوة . وباتت الأنظار تتطلع إلى تلك القوى الظافرة ، ولكن  
الأحوال تغيرت فجأة ، وذلك أن الأتراك عند ما فشلوا في ميدان الحرب ، نجحوا  
في إغراء "أبي الذهب" ، فوعده بحكم مصر ، إذا انضم إليهم ، فقبل  
شروطهم ، ثم عمل على إقناع من كان معه من المماليك ، بالانضواء تحت لوائه ،  
وولى وجهه شطر مصر ليقاتل سيده . فعلا دخل "أبو الذهب" مصر ،  
واستولى على الصعيد ، فاضطر على بك ، وقد أخذ على غرة ، إلى الفرار إلى عكا ،  
حيث انضم إلى حليفه الشيخ ضاهر ، وحيث ساعدته روسيا على تكوين قوة  
جديدة ، يسترد بها بلاده . ولم يلبث أن ساعده الحظ في بلاد الشام ، فوجه جيوشه  
بعد ذلك نحو مصر ، غير أن أبا الذهب أعد له كميناً في طريقه ، تمكن من القبض  
عليه ، وأحضره أسيراً إلى القاهرة ، حيث مات متأثراً بجراحه سنة ١٧٧٣

هكذا قضى ذلك البطل نحبه بعد جهاد شريف . أما أبو الذهب فإنه تولى  
وظيفة شيخ البلد ، وأصبح حاكم البلاد الفعلي ، رغم إعادتها تحت سلطة الباب  
العالى ، وبعودته عادت المظالم وسادت الفوضى . ولكن الأقدار لم تمهله طويلاً  
ليتمتع بثمره خيانتته ، إذ أنه أصيب بالحمى ، وهو في بلاد الشام ، عام ١٧٧٥ ،  
فمات بها ، وكان قد ذهب إليها محارباً ومتقماً من الشيخ ضاهر .

### الفوضى قبيل الحملة :

وبموته قبض على زمام السلطة في البلاد ، مملوكان من مماليكه ، هما "إبراهيم بك"  
و "مراد بك" ، غير أنهما لم يكونا على وفاق تام ، لاختلاف كبير في طباعتهما  
وأخلاقهما ، فقد كان مراد رجلاً جريئاً مغروراً بنفسه ، شديد الحرص على  
كرامته ومركزه ، وكان عصبي المزاج حاد الطبع ، في حين أن شريكه إبراهيم ،  
كان رجل دهاء وحيلة ، يفكر في الأمر طويلاً قبل أن يقدم عليه ، فلم يكونا  
يبتعدا إلا حرصاً على بقاء السلطة في أيديهما .



وحدث أن طمعت الدولة في عهدهما في استرداد سلطتها الفعلية في مصر ، فأرسلت حملة لهذه الغاية ، وصالت في شهبونيه سنة ١٧٨٦ ، واستولت على



(مراد بك)

القاهرة ، بعد أن بددت قوات المماليك ، واضطر ابراهيم ومراد إلى الفرار إلى الصعيد ، ثم أسندت شياخة البلد إلى "اسماعيل بك" ، أحد بكوات المماليك ، ولكن هذه الحالة لم تدم طويلا ، إذ استطاع مراد و ابراهيم أن يستردا منصبهما من جديد عام ١٧٩٠

ولم تتحسن حالة البلاد في عهدهما ، بل ظلت في حالة فوضى ، تعاني كثيرا من استبداد الحكام ، الذين لم يكن همهم إلا ابتزاز الأموال ، من المصريين والأجانب النازلين بالبلاد ، وخاصة الفرنسيين ، فقد امتدت أيدي المماليك



وأتباعهم إلى "أموال التجار من المسلمين وأجناس الإفرنج ، حتى تجسست  
العداوة بين المصريين والفرنسيين" كما يقول الجبرتي في كتابه .

وفي عهدهما ، فكر جماعة من تجار الانجليز ، في إعادة نقل المتاجر الهندية عن  
طريق مصر ، ولكن مظالم المالك ، وعدم استتباب الأمن في الصحراء الشرقية ،  
حالت دون تنفيذ تلك المشروعات ، التي كانت تعود على مصر بربح وفير .

واستمر إرهاب المالك للتجار الأجانب ، لا سيما عندما أنسوا من الباب العالي  
العجز عن ردعهم ، لإغضائه عن أعمالهم الظالمة ، رغم ما قدم له من شكاو ومطالب .  
وقد ضج التجار الفرنسيون من هذه الحالة ، فأرسلوا عريضة إلى حكومتهم سنة  
١٧٩٥ ، فكلفت "ماجالون Magallon" قنصلها في الاسكندرية النظر فيها ،  
غير أن مراد بك كان شديد النظرة ، فلم يهتم بالرد على عرائض القنصل ، وشدد  
الجملة على التجار ، بل فكر في تطيل تجارتهم ، وإغلاق محالهم في القاهرة . ومع  
هذه المظالم ، وإثارة غضب الفرنسيين ، لم يكن مركز مصر الحربى إذ ذاك بالشىء  
الذى يعتد به . وبقى إبراهيم ومراد يحكمان مصر ، أو يعيثان بشؤونها ، حتى جاءت  
الحملة الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت .

## النظام المالى

### نظام ملكية الأرض :

كانت النظرية السائدة في مصر منذ القدم ، أن الملك أو الحاكم هو المالك  
لجميع الأرض ، يتصرف فيها كيف يشاء ، فكان يقسمها بين أتباعه وأعوانه ،  
وبين المزارعين والفلاحين ، وهؤلاء يستغلون الأرض نظير دفع الضرائب  
والإتاوات المفروضة عليها ، فلم يكن لهم حق ملكية الأرض ، بالمعنى الذى نفهمه  
اليوم من كلمة ملكية ، إذ أن استغلالهم لهذه الأرض ، ربما كان يتوقف أحيانا  
على أهواء أصحاب النفوذ من الحكام .

تلك كانت الحال في مصر ، حتى وقعت في قبضة السلطان سليم ، وقد صادف  
هذا النظام هوى في نفسه ، فأمر بإبقائه ، وبذلك أصبح المالك لجميع أراضي  
الديار المصرية ، ثم أمر بمسح جميع الأراضي الزراعية وتقسيمها بين الأهالى ، كما



أمر بتسجيل هذه الأراضي وأسماء المستفيعين بها ، وما فرض عليها من ضريبة .  
وبجانب ذلك توجد أراضي الوقف ، وكانت معفاة من الضرائب ، إذا  
كانت موقوفة على بعض أعمال الخير ، ونظار هذه الأوقاف هم عادة من بين  
طائفة العلماء ، الذين كانوا يستغلون هذه الأراضي ، ويتصرفون فيها  
كما يشاءون .

### نظام الالتزام :

كانت الحكومة في أوائل العهد العثماني قوية ، تستطيع تنفيذ أوامرها وجمع  
الضرائب المفروضة على رعاياها ، غير أن الحكومة ما لبثت أن أخذت في الضعف ،  
تبعاً لضعف الدولة في أوروبا ، وأصبحت عاجزة عن تحصيل الضرائب المفروضة ،  
فكان لا بد لها أن تلجأ إلى طريقة تستطيع بها تحقيق هذه الغاية ، ولذلك لجأت  
إلى اتباع النظام المعروف ”نظام الالتزام“ ، وذلك أن يتقدم للحكومة شخص ذو نفوذ  
ويتعهد بتحويل الضرائب المفروضة على ناحية من نواحي القطر ، ويدفع ضرائب  
سنة من ماله الخاص سلفاً . ويحصل هذا العهد إما بالاتفاق مع بيت المال  
مباشرة ، وإما بطريق المزايدة العلنية ، وعند ما يتم الاتفاق نهائياً ، يتسلم ”الملتزم“  
من شيخ البلد عقد الالتزام ، وهو ما يسمى ”تقسيطاً“ ، ومعه خطاب  
من الحكومة إلى أهل القرى الداخلة في دائرة التزامه ، يأمرهم بإطاعته وتأدية  
الخراج إليه ، فيذهب ”الملتزم“ إلى دائرته ليشرف عليها بنفسه ، ويتحكم في شؤونها ،  
ويقوم بجمع المفروض عليها للحكومة ، وما يفرضه هو لنفسه ، ولم تلبث طويلاً ،  
حتى ازدادت سلطة الملتزم في دائرته بالتدريج ، وأصبحت كلمته هناك هي القانون ،  
لا يحسر أحد على معارضته .

وكان الالتزام في بداية الأمر يعطى لمدة سنة أو عدة سنوات ، ولكن ما لبث  
أن أصبح يعطى مدى الحياة ، فترجع القرى إلى الحكومة بعد وفاة الملتزم ، غير أنه  
أصبح للورثة كذلك حق استبقاء الالتزام في أيديهم ، يدفع مبلغ معين للحكومة ،  
كما أنه كان للملتزم الحق في بيع التزامه لغيره ، بشرط أن يخطر بيت المال وشيخ البلد .



وكانت الحكومة تمنح هؤلاء الملتزمين نظير خدماتهم أراضى واسعة ، تسمى أطيان "الوسية" ، ولا تطالبهم بشئ من الضرائب عنها ، فضلا عن أن الفلاحين كانوا يرغمون على الخدمة فى هذه الأراضى دون أجر . هذا إلى ما كان يجمعه الملتزم لنفسه من إتاوات يفرضها على الفلاحين حسب أهوائه ، مضافا إلى ذلك ، الجزء الذى كان يتقاضاه رسميا من ضرائب الحكومة .

### نظام الضرائب :

كانت الضرائب الرئيسية هى التى تجبى على الأراضى ، وكانت متعددة ، ووطأتها على الفلاحين ثقيلة ، وكانت ضريبة الخراج أو "المال الحر" ، توزع بعد جمعها بطريقة خاصة ، فقسم منها يذهب إلى بيت المال ، ويسمى "المال الميرى" ، وقسم يخصص للبك أو الكاشف حاكم المديرية ، ويسمى "الكشوفية" ، وثالث يستولى عليه الملتزمون ويسمى "الفائض" .

وكانت لمصر جمارك فى ثغورها التجارية ، حيث كانت تجبى المكوس على البضائع الصادرة والواردة ، وكانت هذه قبيل الحملة مقسمة بين إبراهيم بك ومراد بك ، فكان جمرك السويس من نصيب الأول ، والجمارك الباقية من نصيب الثانى ، ما عدا جمرك القصير ، الذى كان متروكا لحكام الوجه القبلى . وقد بلغ إيراد جميع الجمارك المصرية فى عهدهما نحو ١٢٠,٠٠٠ جنيه ، بما فى ذلك المصاريف التى تستدعيها إدارة العمل .

وكانت الجزية ترسل إلى الباب العالى من المال الميرى ، وقيمتها فى الأصل ٤٨,٠٠٠ جنيه ، ولكن قلما كان يرسل كل هذا المبلغ للسلطان ، فكثيرا ما كان الممالك عندما استبدوا بالأمر ، يمتنعون عن إرسال الجزية أو جزء منها ، بحجة أنهم صرفوها على إصلاحات ضرورية ، كإقامة القناطر والجسور ، وعمل الترع وتطهيرها ، وما شاكل ذلك من إصلاحات ، لم يتجاوز وجودها حد القلم والقرطاس .



## النظام القضائي

كان يلى القضاء فى مصر ، قبل الفتح العثمانى ، أربعة قضاة ، يمثل كل منهم مذهباً من المذاهب الأربعة (\*) ، ويسمى كل منهم "قاضى القضاة" ، وقد أبقى السلطان سليم هذا النظام على حاله ، إلا أنه عين قاضياً عثمانياً للإشراف على هؤلاء .

وفى عهد السلطان سليمان القانونى ، تغير هذا الوضع ، فألغيت مناصب القضاة الأربعة ، وأصبح القاضى العثمانى هو المشرف الوحيد على القضاء بالبلاد ، وأطلق عليه اسم قاضى مصر . وعلى مر الأيام أصبح يسمى "قاضى قضاة مصر" .

وعلى ذلك ، ففى القرن الثامن عشر ، نجد على رأس القضاء فى مصر ، قاضى القضاة العثمانى ، ومقره القاهرة ، ويصدر مرسوم تعيينه من الآستانة ، كما كان يعين إلى جانبه عدد من القضاة ، أشبه برؤساء محاكم ، وكان عددهم نحو خمسة وثلاثين قاضياً ، فى أنحاء مصر جميعها .

وكان هؤلاء أول الأمر من الأتراك ، ثم أصبح من الجائز تعيين بعض المصريين فى هذه المناصب ، ما عدا منصب قاضى القضاة .

وكان القضاة الأتراك يستعينون بالترجمة ، فعظم نفوذ هؤلاء ، وعلى الأخص ترجمان قاضى القضاة ، وتملقهم أرباب القضايا ، وتوصلوا اليهم بالهدايا والأموال .

وكانت مدة هؤلاء جميعاً فى مناصبهم سنة أو سنتين ، فإذا انتهت المدة ، عين السلطان غيرهم ، أو جدد مدة خدمتهم . ولم يهتم البكوات الماليك بأمر القضاة فتركوهم وشأنهم ، لأنه لم يكن للقضاة نفوذ سياسى ، كما كان للوالى .

وكان منصب القاضى ، فى أغلب الأحيان ، يشترى من الدولة العثمانية بالمال ، كما كان كل قاض تركى يستطيع أن يبيع منصبه لأحد المصريين ، ولهذا تورع العلماء المصريون ، فلم يرضوا أن يولوا القضاء فى مصر فى ذلك الوقت .

(\*) الحنفى والشافعى والمالكي والحنبل .



وكان قاضى القضاة يفصل فى الخصومات والجنايات ، بين أهل القاهرة ، وله أن يعين نوابا عنه فى أقسامها ، نظير مبلغ يدفعه كل منهم له .

وفضلا عن الجنايات والحرائم الكبيرة ، كان القاضى ينظر فى المبايعات والمواريث ، وينظر فى الأوقاف ، من حيث تعيين النظار وعزلهم ، وما يدخل فى ذلك من منازعات ، كما كان ينظر فى الموازين والمكاييل ، ويشرف على حسابات الأديرة والكائس ، وله على كل توقيع على هذه الأمور أجر ، كما كان له جعل شهري من نوابه فى الأقسام ، فضلا عما كانت تدفعه له الحكومة من العوائد والغلال ، وما كان يأخذه كل سنة من المال من موظفى المحكمة ، الذين كانوا بدورهم يحصلون على المال من المتقاضين . ومن ذلك يتضح مقدار ما كان يتكبده المتقاضون من النفقات .

ولقد تفشت الرشوة فى القضاء فى ذلك الوقت ، بحيث كانت الأحكام تصدر فى صالح من يدفع من المال أكثر مما يدفعه غيره ، ولم تكن الحال فى قضاء الأقاليم ، بأحسن منها فى قضاء العاصمة .

## الحالة الاجتماعية

### أولا — السكان

كان عدد السكان فى ذلك الوقت ، يقدر بنحو مليونين ونصف ، من بينهم المماليك والأتراك ، وفئات قليلة العدد من أجناس أخرى .

### المصريون :

خضع هؤلاء للأتراك والمماليك ، ولم يكن لهم أى نصيب فى شؤون الحكم ، وكان معظمهم يسكنون الأقاليم ، وهم المزارعون . أما التجار والصناع ، فكانوا يسكنون المدن الكبرى ، وعلى الأخص العاصمة .



وكان سكان الأقاليم ، إلا فئة قليلة جدا ، يعيشون على الزراعة كأجراء ، إذ لم يكن يسمح لهم بامتلاك الأرض ، فقد كانت كلها ملكا للسلطان العثماني كما قدمنا ، وإنما كانت توزع المساحات الصغيرة على هؤلاء ليزرعوها ، نظير جزء من المحصول كأجر لهم . وكانت حالة هؤلاء المزارعين يرثى لها ، وعلى الأخص في القرن الثامن عشر ، فقد كانوا يلاقون كثيرا من المشاق في زراعة الأرض ، بسبب إهمال الحكام شؤون الزراعة ، وبخاصة مياه الري وطرق توزيعها ، فقلت الترع وأهملت ، واشتدت صعوبة ري الأرض واستثمارها .

وكان الفلاح مع ذلك معرضا لتعسف جباة الضرائب ، من الملتزمين وأعوانهم ، كما كان يستخر في زراعة أراضي البكوات المحاليك ، وغيرهم من ذوى الجاه ، وكثيرا ما كان يعذب بالضرب بالسياط ، وخصوصا إذا تأخر عن سداد ما يطلب منه من الضرائب ، حتى كان بعض المزارعين يهاجرون إلى الأقطار المجاورة .

وساءت حال الأمن في الأقاليم ، لانشغال المحاليك بشؤونهم ومطامعهم ، فكان الفلاح عرضة للسطو والنهب . وكذلك أهملت الحالة الصحية ، فكانت تتفشى الأوبئة في القرى ، وعلى الأخص الطاعون ، ويفتك بأهلها ، كما كان يفتك بماشيتهم طاعون الماشية .

وكان الجهل سائدا ، فنسدر في القرى من كان يعرف القراءة والكتابة ، إذا استثنينا عددا من الأقباط ، كانوا هم الصيارفة من عهد قديم ، فكانوا يتوارثون تعلم القراءة والكتابة والحساب ، وكان من يعرف القراءة والكتابة من المسلمين ، يتعلمها في « كتاتيب » خاصة ، كان يفتحها بعض الفقهاء في دورهم ، بقصد تحفيظ القرآن الكريم ، على أنها كانت قليلة ، لا توجد في الغالب ، إلا حيث يوجد في القرى بعض من تعلم زمنا في الأزهر .

لهذه الأسباب مجتمعة ، ألف الفلاح الخضوع للقسوة ولسطوة ذوى الجاه ، فقد أحاط به كما رأينا الجهل والفقر والمرض . كما أنه كان قليل الخبرة بالعالم ، فلا يكاد يعرف شيئا عما هو خارج عن حدود قريته ، إلا إذا زار مدينة قريبة منه ، على أنه قلما كانت تحدث زيارات من هذا القبيل ، لصعوبة المواصلات وقلة وسائلها في تلك الأيام ، وإهمال شؤون الأمن . وحتى تلك المدن ، لم يكن فيها من مظاهر الحياة ، ما تزيد به دراية المزارعين كثيرا عن العالم ، ولذلك شاعت فيهم الخرافات ، وناشوا عيشة ساذجة بسيطة .



وكان بالأقاليم عدد صغير من الملاك ، ومعظم هؤلاء من أصل تركي ، استوطنوا مصر منذ الفتح العثماني ، واندمجوا في أهلها ، حتى لنستطيع أن نعددهم من الشعب المصري ، ومن بين هؤلاء الملاك بعض الضباط وكتاب الدواوين ، والمترمون من الأعيان . وقد عظم ثروة أفراد منهم ، واكتسبوا لأنفسهم على مر الزمن جاها كبيرا في الأقاليم ، حتى لقد باتت الحكام يخشون سطوتهم .

أما المدن ، فكان يسكنها الكثير من التجار والصناع ، وكانت حالتهم أحسن بكثير من حالة المزارعين ، وعلى الأخص التجار ، لأنهم كانوا أقل من المزارعين تعرضا لتعسف الحياة ، وتنوع الضرائب وفداحتها ، وقد استطاع بعض التجار أن يبنوا الدور الكبيرة ، ويحوزوا الثروات العظيمة . وكان الصناع ينقسمون حسب الحرف إلى طوائف ، لكل طائفة منها رئيس ، يعرف بشيخ الطائفة ، هو المسئول أمام الحكومة عما يطلب من طائفته من الأموال .

وكان سكان المدن أكثر من الفلاحين دراية بالعالم ، بحكم اتصالهم ببعض الجاليات الأجنبية ، من الفرنسيين والبنادقة والأروام ، كما كان فيهم عدد من المعلمين ، كعلماء الأزهر وموظفي الدواوين .

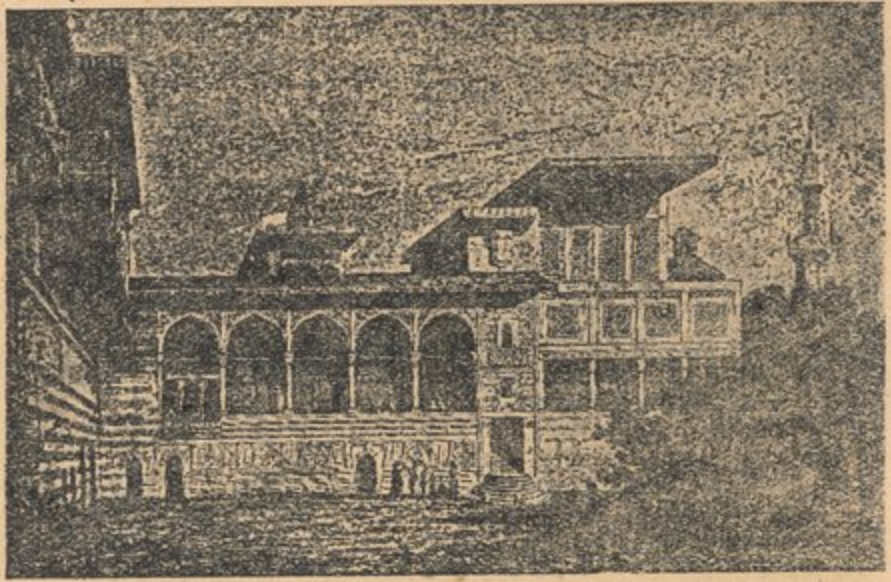
### المماليك :

كان عددهم نحو عشرة آلاف ، ولهم السلطة الفعلية بالبلاد في القرن الثامن عشر ، بسبب اضمحلال قوة الدولة العثمانية ، وقد ظل هؤلاء فئات ، كل منها تتبع سيدها ، وكثرت بينهم المشاحنات والفتن والدسائس ، وشاع الالتجاء إلى السم للتخلص من الخصوم والمنافسين ، وانحطت أخلاقهم ، وصار من الأمور الفاشية فيهم الغدر والخيانة والملق ، بغية الوصول إلى الجاه . كما أن تعودهم الفتك بعضهم ببعض ، ملا قلوبهم قسوة وغلظة ، فهم الرؤساء منهم الإكثار من عدد أتباعهم ، وجمع أكثر ما يستطيعون من الذهب ، لينفقوا على هؤلاء الأتباع ، حتى لا يتركوهم إلى غيرهم ، ثم التمتع بالقصور والجواري ، وهم التابعين أن يحصلوا على المال بأية وسيلة . وكان الطامحون من هؤلاء التابعين يرقبون الفرص ، التي تقر بهم من الرئاسة والنفوذ ، ولقد وصف أحد المؤرخين



هذا النظام بأنه : " نظام لا بد أن يبدأ المرء فيه عبدا لكي يكون سيدا . " ثم إن جهالهم وضيق أفقهم ، جعلهم لا يفهمون معنى الإصلاح والتعمير ، وحسبهم من الحياة تحقيق أطعاعهم في الثروة والجاه .

وكان هؤلاء الممالك في القرن الثامن عشر ، على الرغم من نقص مواردهم نقصا كبيرا ، بسبب تحول تجارة الشرق عن مصر ، يعيشون عيشة مترفة ،



( قصر من قصور الممالك )

في قصور نفخة ، ذات حدائق واسعة ، وغرف فسيحة مزينة بالنقوش الذهبية العربية ، وكانوا يقتنون من الأثاث أعظمه وأجمله ، ومن أدوات الطعام والأواني كل دقيق ثمين ، ومن أدوات التسلية كآلات الموسيقى والتدخين ، ما كان آية في الجمال والأناقة ، هذا إلى تمتع زوجاتهم وجواريهن بالذهب والحرير ، وأصناف النعيم .

وكان الرؤساء يلبسون الملابس الحريرية المزركشة ، من القفاطين والجلب ، والسراويل الواسعة ، المتخذة من الحرير الفرنسي الغالي الثمن ، والعائم المزينة بالجواهر ، وكانوا يثبتون في أحزمتهم الذهبية الحريرية ، أصنافا من الأسلحة



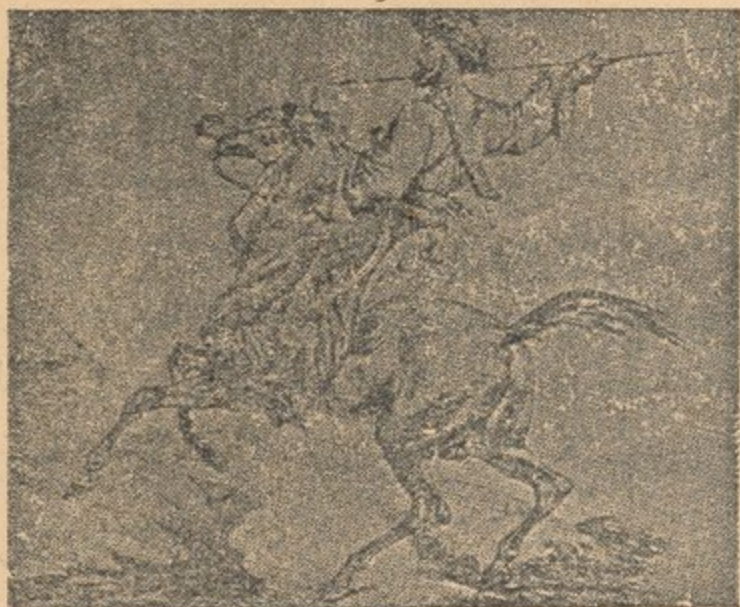
المطعمة بالحلّى ، كما كانوا يركبون الجياد العربية الأصيلة ، وعليها السرج المطهمة ،  
واللحم المذهبة ، المزخرفة بالأحجار  
الكرّية .



وكانوا في حروبهم يعتمدون  
على الفروسية ، وتختصر في ركوب  
الخيال واستعمال السيف ، والكر  
والفر ، والمبارزة الفردية ، فلم  
تكن لهم ثقافة عسكرية حديثة ،  
ولا كان لهم علم بأفانين الحرب  
وأاليب القتال المستحدثة ،  
من دفاع وهجوم ووضع خطط ،  
ولا دراية لهم بالأسلحة المستجدّة  
في ذلك الوقت ، كما كانوا  
يحتقرون نظام المشاة ،  
ويعتبرونه نوعاً من أعمال

(أحد البكوات المماليك ووراءه حامل سيفه)

الخدم ، ولذلك كانوا يتخذون عدداً من المصريين ، لخدمتهم وخدمة خيولهم .



(أحد فرسان المماليك)



وكثيرا ما كانوا يقيمون الحفلات ، التي يظهرون فيها فروسيتهم ومهارتهم ،  
ويقارون فردا لفرد ، مستعملين العصي بدل الأسلحة ، ويمكن المرء أن يتصور  
من معيشة هذه الفئة ، مبلغ ما كان يعانيه الفلاحون من جور وعسف ، لتدبير  
وسائل الترف والنعيم لهم .

### الأتراك :

كان معظم الأتراك في مصر من فرق الجيش العثماني المحيط بالوالى ، وكان  
ينقص عددهم ويزداد على حسب الظروف والأحوال ، ولهذا لا يمكن حصر  
مددهم بالضبط في القرن الثامن عشر ، ولقد كانوا نحو ثمانية آلاف في أوائل  
ذلك القرن .



(بعض رجال الجيش العثماني)

وكان يقطن البلاد من العثمانيين ، من غير فرق الجيش ، جالية صغيرة يشتغل  
أفرادها بالتجارة ، وقد اندمج عدد منهم كما أسلفنا في المصريين ، وامتلكوا  
الأراضي الزراعية ، حتى أمكن هدم من الشعب المصرى .



## ثانياً — الحالة العلمية

من الصعب أن نجد في مصر ، في القرن الثامن عشر ، ما يصح أن نطلق عليه اسم حركة أو نهضة علمية ، فإن تلك الناحية من حياة البلاد كانت غاية في الضعف ، فهؤلاء المالكي ، لم يكن يخطر ببالهم العناية بالعلوم أو الآداب ، على نحو ما كان يفعل السلاطين ، في العهد السابق للفتح العثماني ، ولهذا فقلما وجدت في البلاد مدرسة غير الأزهر ، اللهم إلا بعض " الكتاتيب " الصغيرة الملحقة ببعض المساجد ، في القاهرة وفي بعض المدن والقرى .

أما الأزهر ، فالسرف بقاءه ، مكانة العلماء الدينية في نفوس العامة ، وما كان يجري عليهم من ريع الأوقاف ، ولولا هذا لخلق بغيره . وحتى الأزهر ، لم يكن يدرس في ذلك العهد إلا بعض الدراسات الفقهية ، المتصلة بالقرآن وتفسيره ، وانحطت اللغة العربية ، وضعف البيان والأدب ، وأهملت العلوم الفلسفية والرياضية ، فانقطعت الصلة بين مصر وبين تلك النهضة الفكرية ، التي كانت منتعشة في أوروبا في ذلك القرن . وخيم على مصر الجهل ، وشاعت في الناس الخرافات والأباطيل ، واقتصر الأمر على تداول بعض القصص الخيالية ، مثل قصة عنترة وأبي زيد الهلالي ، والزنادقة خليفة وسيف ابن ذي زن ، وما إليها . وكثيراً ما كان يتلوها على العامة فريق من المغنين عرفوا بالشعراء ، أما تداولها بالقراءة ، فكان نادراً لقلّة من كانوا يقرءون . ولم تظهر في هذا العصر أسماء بارزة من العلماء ، ولا من المؤلفين بطبيعة الحال ، نظراً للركود العلمي العام .

## ثالثاً — الحياة العامة

كانت القاهرة في القرن الثامن عشر ، لا تخرج في مساحتها عما يسمى الآن الأحياء الوطنية القديمة ، وكانت المدينة مقسمة إلى أخطاط أو أقسام ، تفصل بينها مسافات كبيرة ، وكانت معظم شوارعها ضيقة غير مستقيمة ، تتفرع منها حارات ملتوية متعرجة شديدة الضيق ، تنتشر فيها القاذورات والطين ، لإهمال الحكام أمر النظافة والصحة العامة . وكان على رأس كل حارة باب كبير ، يغلق ليلاً ، ويقوم على حراسته رجل يستأجره أهل تلك الحارة .



وفي مكان حديقة الأزبكية الحالية ، كانت توجد بركة كبيرة وميدان فسيح ، تقوم على جوانبه منازل الأمراء وذوى الثراء ، وكانت هذا الحى أجمل أحياء المدينة .



(أحد شوارع القاهرة)

وكانت بولاق مرفأ المدينة من جهة الشمال ، ويفصلها عن حى الأزبكية فضاء خال من العمران ، كما كانت مصر القديمة مرفأ المدينة من جهة الجنوب ويفصلها عن المدينة مزارع وحقول ، ويصلها بها طريق ليس به من العمران إلا قليل من المباني ، مثل قصر ابراهيم بك ( قصر العيني الحالي ) .

وكانت الأسواق التجارية للمدينة ، توجد فى حى الجمالية والحسين الحالى ،

حيث تقوم الخانات الكبيرة ، لتزول التجار بقوافلهم المحملة بالبضائع ، وحيث توجد المقاهى والدكاكين الكبيرة ( الوكالات ) .

وكان بالمدينة عدد كبير من المساجد العظيمة ، والسُّبُل والحمامات الجميلة ، ولا يزال كثير منها قائما حتى اليوم ، ومعظمها من مباني سلاطين المماليك ، وبها اكتسبت المدينة جمالا وعظمة ، حتى لقد كانت تعد أعظم مدن الشرق .

أما وسائل النقل فى المدينة ، فكانت الدواب من الخيل والبغال والحمير . وكان أكثرها شيوعا الحمير ، ومنها ما كان يملكه بعض ذوى اليسار ، تُرى غادية رائحة ، تحمل أصحابها فى شوارع المدينة ، ومنها ما كان يؤجر لعامة الناس ، ولها مواقف خاصة فى مختلف الأحياء .



وكانت وسائل التسلية متنوعة ، منها الاستماع إلى الشاعر ، يغنى على قيثارة (الربابة) في المقاهي أو في دكان خاص ، قصص عنتره وأبي زيد وأضرابهما ، أو الاستماع إلى بعض المغنيات ، ومشاهدة الحفلات الشعبية العامة ، كحفلة المولد النبوي ، وحفلة خروج المحمل ، وحفلة وفاء النيل وأشباهاها . وكثيرا ما كان يلهو الشعب في هذه الحفلات ، بمشاهدة الألعاب المختلفة ، كالمبارزة بالعصى ، والسباق على ظهور الخيل ( البرجاس ) ، وألعاب السحر والشعوذة ، كما كان يتمتع بسماع المغنين والمغنيات والشعراء .



( لمبة ومشاعل )

وكانت مياه الشرب تحمل إلى المنازل على ظهر السقاء ، في قرية من الجبل ، فيختص كل سقاء بعدد من المنازل ، نظير أجر معلوم . أما الإضاءة ، فكانت بالشموع والمشاعل والقناديل الزيتية ذات الفتائل ، وكانت تلك القناديل في منازل الأغنياء بلورية كبيرة الحجم ، متقنة الصنع ، جميلة الشكل ، ساطعة النور ، وكثيرا ما كانت ترى زاهية الأنوار في منازل الأغنياء ، على حافة بركة الأزبكية ، أما في منازل الفقراء ، فكانت القناديل زجاجية صغيرة الحجم ضئيلة النور .

وكانت ملابس الرجال من ذوى اليسار ، الجبة والقفطان والعامة ، وكانت تتخذ من الجوخ والحرير ، أما الفقراء فكان الجلباب ملبسهم المعتاد ، وكانوا في الغالب حفاة .

وقلما كانت تقع الأعين في العاصمة على النساء ، وذلك نظرا للتشدد في الحجاب يومئذ ، فما تخرج المرأة إلا لضرورة ، ويكون ذلك عادة في الليل ، فتخرج مغطاة برداء طويل واسع يخفى جسمها ، من رأسها حتى قدميها ، وعلى وجهها نقاب طويل ، لا يظهر منه إلا عيناها ، ويتدلى حتى صدرها .



وكان الجلوس في المنازل عادة ، على وسائد من الصوف أو الحرير أو القطن ، ملقاة على السجاجيد والبسط في حجرات ، تدور حول جدرانها وسائد أخرى



(زفة عرس)

للاضطجاع ، وفي منازل الكبراء ، كان يخصص جزء مرتفع عما حوله من الحجرة لعلية القوم ، وعلى هذا النمط كانت تؤث وتفرش حجرات الاستقبال ، فلم يتخذ القوم الكراسي ولا المناضد .

وكانت القهوة هي الشراب الشائع ، الذي يقدم للضيوف ، وفي المواسم كان يقدم معها القرفة والزنجبيل ، كما كانت ترى "الشيشة" عادة في حجرات الضيوف ، حيث تدار عليهم كما تدار القهوة .

وفي تناول الطعام ، كان يجلس القوم حول " صينية " من النحاس فوق كرسي ، وقد وضعت عليها الأطباق ، وكثيرا ما يأكلون بأيديهم من طبق واحد ، فلم يألفوا استعمال الملاعق وغيرها من أدوات المائدة الحديثة . وفي بيوت الأغنياء ، يقف الخدم على مقربة من الآكلين ، وبأيدي بعضهم أقداح الماء وأباريقه ، وبأيدي الآخرين مذبات لطرد الذباب ، وكثيرا ما كان هؤلاء الخدم من السود ، الذين يشترون بالمال من تجار الرقيق ، وقلما خلا منزل من منازل الأثرياء من هؤلاء العبيد ، الذين كانوا يعدون مظهرا من مظاهر الزينة ، ودليلا من أدلة الترف والأبهة .



وفي الأقاليم ، كانت حياة الأغنياء لا تختلف كثيرا في بيوتهم ، عن حياة أمثالهم



جماعة يأكلون

من أهل العاصمة ، أما حياة الفلاحين ، فكانت حياة بؤس وشقاء ، وهي في مظهرها لا تكاد تختلف عن حياة فقراء الفلاحين اليوم .



( أفراد من الطبقة الفقيرة )



وكان من العادات الشائعة ، والتي لا يزال بعضها قائما حتى اليوم ، المبالغة في مظاهر الفرح والحزن ، في حفلات الزفاف وفي المآتم . ومن هذه العادات إحياء ليالى رمضان بقراءة القرآن ، وتوزيع الصدقات والسهر ، والإثارة من الحلوى والفقائر والمشروبات . وساد الاعتقاد في شفاعة الأولياء ، فكثرت زيارة أضرحتهم ، للتوسل بهم في قضاء الرغبات وصرف الكرب ، كما شاع الاعتقاد في قدرة بعض الأحياء من الأدياء ، فكان لبعضهم سلطة عظيمة على العامة ، تتجلى في إلحاح هؤلاء عليهم لكتابة الأدعية والتأتم ، والجلود بالمال للحصول عليها . وكذلك راجت سوق المنجمين ، وقصدهم الناس قبل الإقدام على أعمالهم ، يطلبون رأيهم ، واعتقد الناس في السحر ، وقدرة السحرة على إيجاد روابط المحبة بين قلبين أو التفريق بينهما ، إلى غير ذلك من الخرافات .

وكان الناس يستحمون في حمامات عامة ، ساخنة وباردة ، كان يوجد عدد منها في كل حي من الأحياء وفي المواسم والأعياد ، كان يبيت معظم الناس في المقابر ، حيث يوزعون الصدقات ، ويستأجرون من يقرأ القرآن على قبور موتاهم .

#### رابعاً — الحالة الصحية

أهملت الشؤون الصحية في البلاد ، ولم يوجه إليها الحكام أى عناية ، وشاع العلاج بوسائل الشعوذة وكتابة الأدعية ، والسير وفق ما يصفه بعض الجهلاء من عقاير ، يزعمون أنها مجربة ، وما إلى ذلك من أشياء أبعد ما تكون عن الطب ، وألصق ما تكون بالخرافات ، كالتعاويذ والرقى والسحر .

وكثرت في البلاد البرك والمستنقعات ، وانتشرت في المدن القاذورات والأحوال ، وأصبحت البلاد مرة ما خصيبا للأمراض ، وانتابتها الأوبئة ، وفكت بأهلها فتكا ذريعا . ففي عدة مرات ، كان يصيب البلاد وباء ، يودى بحياة عدد كبير من السكان ، حتى أنهم كانوا يدفنون موتاهم بغير صلاة ، كما كانوا يدفنونهم بالليل على ضوء المشاعل ، لانشغالهم بهذه العملية نهارا وليلا ، وكانوا أحيانا يرمون الجثث في الحارات والشوارع ، لكثرتها وعدم وجود من يدفنها ، فبقى هناك عدة أيام ، عرضة للكلاب تنهشها . وحدث في أحد الأعوام ، أن وقع فلاء شديد ، أدى إلى مجاعة خطيرة ، راح ضحيتها كثير من الأنفس ، "وأكل كل



الناس الجيـف وجذور الأشجار ، ومات الكثير منهم جوعاً ، وخت أكر القرى من أهلها ، وخطف الناس الخبز من الأسواق والأفران مع ندرته ، ومات الناس ، فركت جشهم في الطرقات ، فأنشب الوباء أظفاره بالعباد ، ومات من جراء ذلك خلق كثير .

## الحالة الاقتصادية

### التجارة :

تأثرت الحالة الاقتصادية في مصر ، منذ أوائل القرن السادس عشر ، تأثيراً شديداً ، بسبب تحول التجارة بين الشرق والغرب ، إلى طريق رأس الرجاء الصالح كما أسلفنا ، فذهب ما كانت تتمتع به مصر من الرخاء ، وضعف شأن الصناعة والفن ، ويتجلى ذلك من المقارنة ، بين الآثار التي تركها المماليك في كل من العهدين ، أي قبل تحول التجارة ، وبعد ذلك التحول . واقتصرت التجارة على أيـد قليلة ، واشتدت وطأة الحكم في طلب الضرائب ، وزيادة مقاديرها . فلما كان القرن الثامن عشر ، كانت شواهد الكساد والجمول واضحة في مصر كل الوضوح ، ففي التجارة مثلاً ، أغلق في القاهرة عدد عظيم من الخانات الكبيرة ، ولم يبق إلا القليل منها ، وإلى جانبها دكاكين صغيرة ، للعطارة والحلي والجلود ، والمصنوعات الخشبية والأواني وغيرها ، كل ذلك في حيز ضيق ، لسد حاجات السكان . وفي الإسكندرية شوهدت آثار الانحطاط في المدينة ، فصار سكانها لا يزيدون على ثمانية آلاف ، وقد هجرها عدد كبير من الأجانب ، وسدت التركة التي كانت تصلها بفرع رشيد وأهمـل مينائها ، فتهدمت الأرصفة والحوابر .

على أنه قد بقي لمصر بعض العلاقات التجارية بالخارج ، فكانت تستورد حاصلات بلاد العرب والحبشة والسودان وبلاد المغرب ، كالبن والصمغ والعاج وریش النعام ، والزيت والجلود ، والأغطية الصوفية والعقاقير والشمع ، وتستهلك منها بقدر ما يحتاج السكان ، وتصدر ما يتبقى إلى الشام وتركيا وفرنسا ، مضافاً إليه بعض حاصلات مصر نفسها ، كالغلال والأرز . وكانت أهم واردات مصر من هذه الجهات ، المنسوجات الصوفية والحريرية والمعادن .



## الصناعة :

ولم تكن الصناعات والفنون بأوفر حظا من غيرها ، فقد تناولتها عوامل الاضمحلال التي سادت كل شؤون العصر العثماني ، فأهمل أمرها ، وبطلت عدة صناعات كانت زاهية . ويرجع ذلك إلى عدة عوامل ، منها : اضطراب حبل الأمن في ذلك العهد ، مما صرف الكثيرين عن الإنتاج والاشتغال بالصناعة ، ومنها ضعف قوة الشراء عند الأهالي ، نظرا لقلّة لأموال التي كانت تصل إلى أيديهم ، بعد تحول طريق التجارة بين الشرق والغرب ، من مصر إلى رأس الرجاء الصالح . وهذا والمعروف أن الصناعات اليدوية ، كانت تنقل من مكان إلى مكان تدريجا ، حسب تغير طرق التجارة العالمية ، وهذا هو ما حدث بالنسبة لمصر ، بعد فتح الطريق الجديد .

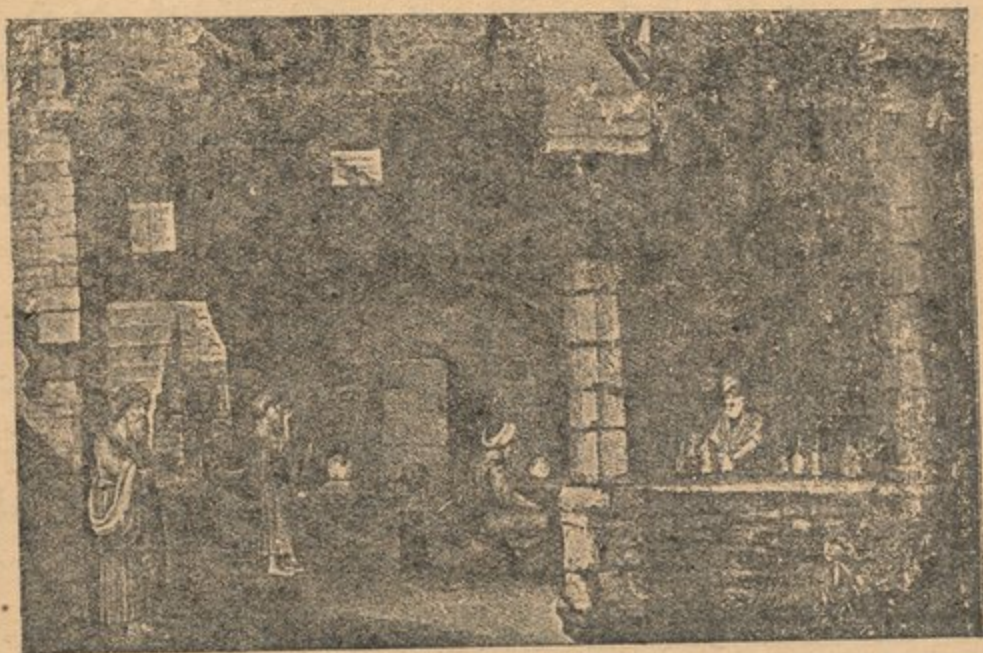


(بقايا الصناعات المصرية — مصنع نسيج)

وفضلا عن ذلك ، فقد كان للسلطان سليم يد في هذا الاضمحلال ، إذ أنه جمع أمهر الصناعات ، وأكفأ الإخصائيين في الفنون ، وبعث بهم إلى الآستانة ، لينشروا فيها ما أوتوا من مهارة ، وحذق في الصناعة . ولم يبق بالبلاد غير الصناعات الصغرى ، التي بقيت في بعض مراكز الصناعة ، كاستخراج الزيت



وعمل السكر ، وصناعة بعض المنسوجات من قطنية وصوفية وكتانية ، وصناعة  
أواني الزجاج والنحاس والفخار والخزف ، وبناء السفن وعمل الأسلحة ، وصناعة



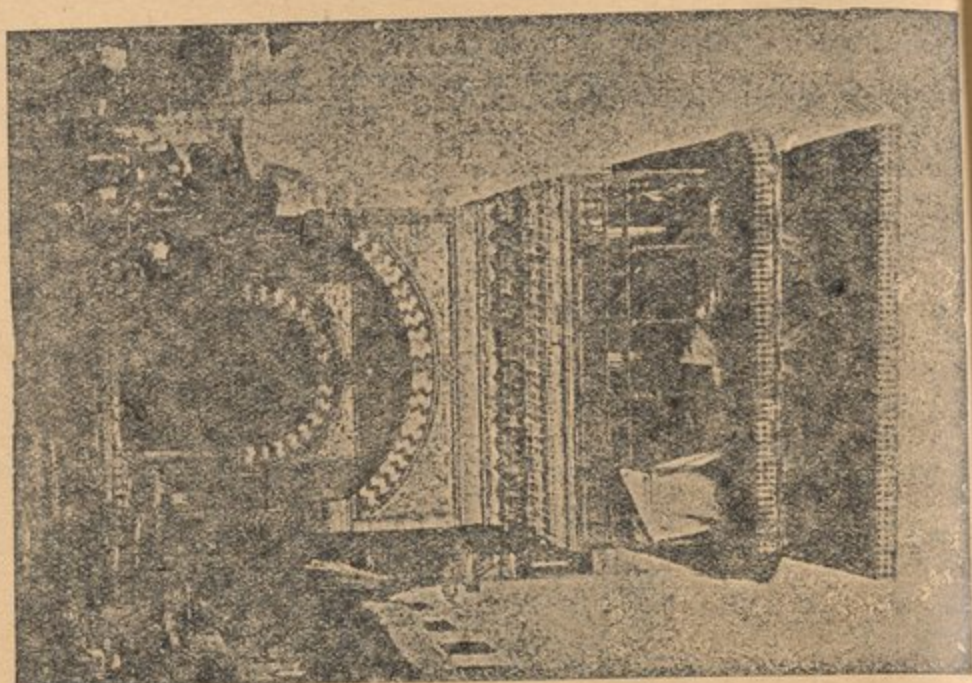
(مصنع زجاج)

البارود والخلي ، ودباغة الجلود وعمل السروج ، والخراطة والتطريز . أما المباني  
فأصبحت صغيرة الحجم ، قليلة الزخارف ، قليلة الدقة في الصناعة ، ولو أنه كان  
بينها ما هو جميل بديع ، كسبيل خسرو باشا بالنحاسين .

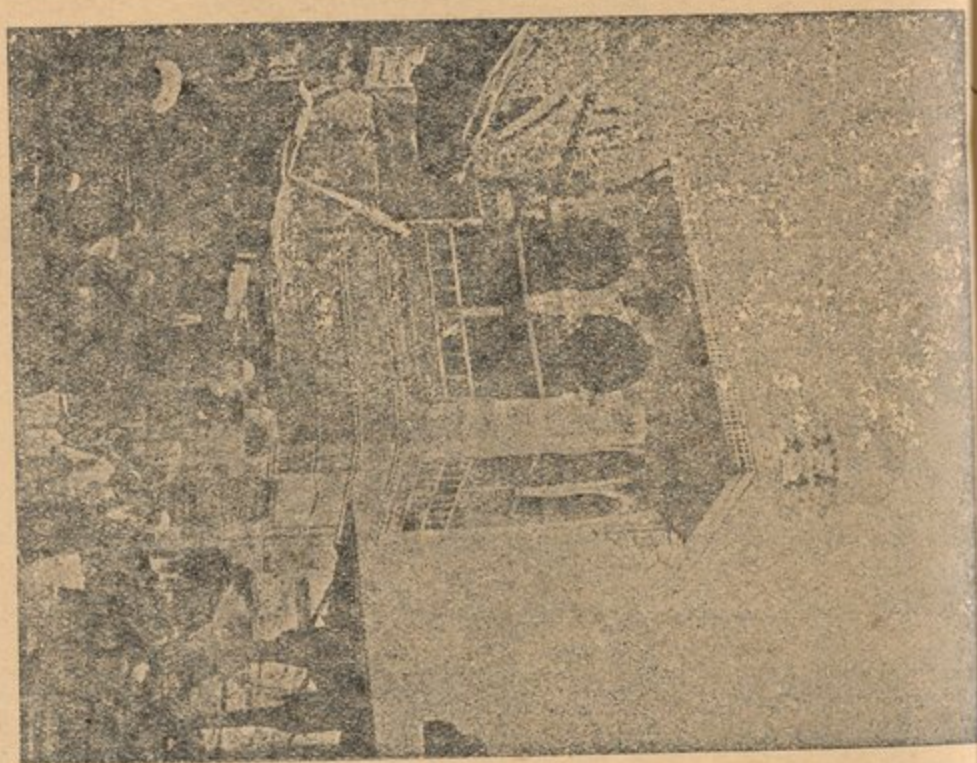
### الزراعة :

وقد أصاب الزراعة في هذا العهد ضرر كبير ، بالرغم من أنها كانت أهم مصدر  
لثروة البلاد وقتئذ . فلم تنظر الحكومة بعين الاهتمام إلى وسائل الإصلاح ، وكان  
هم الحكام الأكبر أن يحيطوا حياتهم بأنواع البسوخ والنعيم ، كما قدمنا ، فكانوا  
يكتفون ما تصل إليه أيديهم من مال ، أو يصرفونه على شهواتهم وملذاتهم ،  
دون اكتراث بما يصيب البلاد من فقر عاجل أو آجل ، وأهملوا أمر الري  
وتوزيع المياه ، وإقامة القناطر والحسور ، وحفر الترع والمصارف ، وتطهير  
ما كان موجودا منها ، حتى ضعفت الأرض ، وانحطت الزراعة ، وقلت  
المحصولات وكسدت التجارة ، وكثرت المجاعات وانتشرت الأوبئة .





(سپیل و مکتب خسرو)



(سپیل و مکتب عبد الرحمن کهنه)



## الباب الثاني

### مصر والحملة الفرنسية

#### الثورة الفرنسية

##### فرنسا قبل الثورة :

كانت الملكية في فرنسا مطلقة مستبدة ، ولقد ذهبت عظمة ملوك البربون ، وانتهى العهد ، الذي كانت فيه فرنسا أعظم دول القارة ، بموت لويس الرابع



(لويس الرابع عشر)

عشر عام ١٧١٥ ، وفي عهد خلفه لويس الخامس عشر ، فقدت فرنسا أملاكها في الدنيا الجديدة والهند ، وأخذت تنحدر الى مهاوى الدمار .

وقد كان الشعب الفرنسي قبل الثورة ، يشكو من عدة أمور ، منها : اشتداد وطأة الحكم المطلق ، وكثرة المظالم التي وقعت فيه على الناس ، ومنها الفوارق الاجتماعية بين طبقات الشعب ، فقد كان الشعب ثلاث طبقات : الأشراف



ورجال الدين والعامه ، وكان العامة محرومين من كثير من الحقوق والامتيازات ، التي يتمتع بها الأشراف ورجال الدين ، ومعظم الضرائب تقع على عاتقهم ، ومنها سوء الحالة الاقتصادية في البلاد ، فقد ساءت الحالة الاقتصادية نتيجة لعدة عوامل ، نذكر منها : جباية الضرائب الداخلية على البضائع ، بين إقليم وآخر ، وإعفاء الطبقتين الممتازين من معظم الضرائب ، ودخول فرنسا في حرب استقلال الولايات المتحدة الأمريكية ، هذا إلى نفقات حروب ملكها لويس الرابع عشر وخلفه .

ولقد أدى سوء الحالة على هذا النحو ، إلى نشاط كثير من الكتاب والمفكرين ، وعلى رأسهم فيلسوفان عظيمان ، هما فولتير وروسو . ونادى هؤلاء الكتاب بوجوب علاج الحالة ، وذلك بالقضاء على الحكم المطلق ، وعلى تعصب الكنيسة ، وتقرير مبادئ الحرية والإخاء والمساواة . وتأثر الناس بهذه المبادئ ، فتهيأت النفوس للثورة .

### الثورة :

اعتلى لويس السادس عشر عرش فرنسا عام ١٧٧٤ ، وكان محبا للإصلاح ، ولكن كانت تعوزه الإرادة القوية . وكانت المسألة المالية في مقدمة المسائل ، التي تتطلب الإصلاح ، فاستعان الملك ببعض النابهين من الوزراء ، ولكنهم لم يوفقوا إلى الإصلاح المنشود ، بسبب دسائس الأشراف ورجال الدين . فلم يكن بد من عقد مجلس طبقات الأمة ، للنظر في هذه المشكلة ، وهو مجلس قديم العهد ، ولكنه لم يدع إلى الاجتماع منذ سنة ١٦١٤ ، فاجتمع في فرساي في ٥ مايو



(لويس السادس عشر)

سنة ١٧٨٩ لهذا الغرض ، غير أن نواب العامة ، ما لبثوا أن جعلوا منهم هيئة ثورية ، حينما أبى نواب الأشراف ورجال الدين الجلوس معهم في حجرة واحدة ، فأعلن العامة أنهم هم "الجمعية الوطنية" وأنهم نواب الأمة الحقيقيون ، وأهملوا



المسألة التي اجتمعوا من أجلها ، وأصبح مطلبهم وضع دستور للبلاد ، بقضى على مساوئها ويحمي مصالحها .

وتطورت الحوادث تطورا سريعا ، ففي ١٤ يولييه من نفس العام ، اتخذت الحركة مظهرا دمويا ، بهجوم الشعب على سجن الباستيل وتحطيمه ، وكان في نظرهم رمزا للظلم والاضطهاد ، ولقد أصبح هذا اليوم عيدا قوميا للفرنسيين .

### الجمعية الوطنية والدستور :

أخذت الجمعية تضع الدستور ، فأصدرت قرارا بإعلان حقوق الإنسان ، الذي تضمن مبادئ الحرية والإخاء والمساواة ، وألغت امتيازات الأشراف ورجال الدين ، ووضعت نظاما جديدا للكنيسة . وبينما كانت الجمعية تمد مواد الدستور ، فر الملك نحو الحدود الشمالية الشرقية ، في يونيه سنة ١٧٩١ ، لأن الدستور حرمه السلطة الحقيقية ، ولكن قبض عليه عند بلدة فارين ، وأعيد هو والملكة إلى باريس ، وسط سخط الشعب واستهزائه ، وبدأ حزب سمي "حزب اليعاقبة" يدعو إلى إعلان الجمهورية . وفي سبتمبر سنة ١٧٩١ أتمت الجمعية وضع الدستور ، وأقسم له الملك يمين الإخلاص .

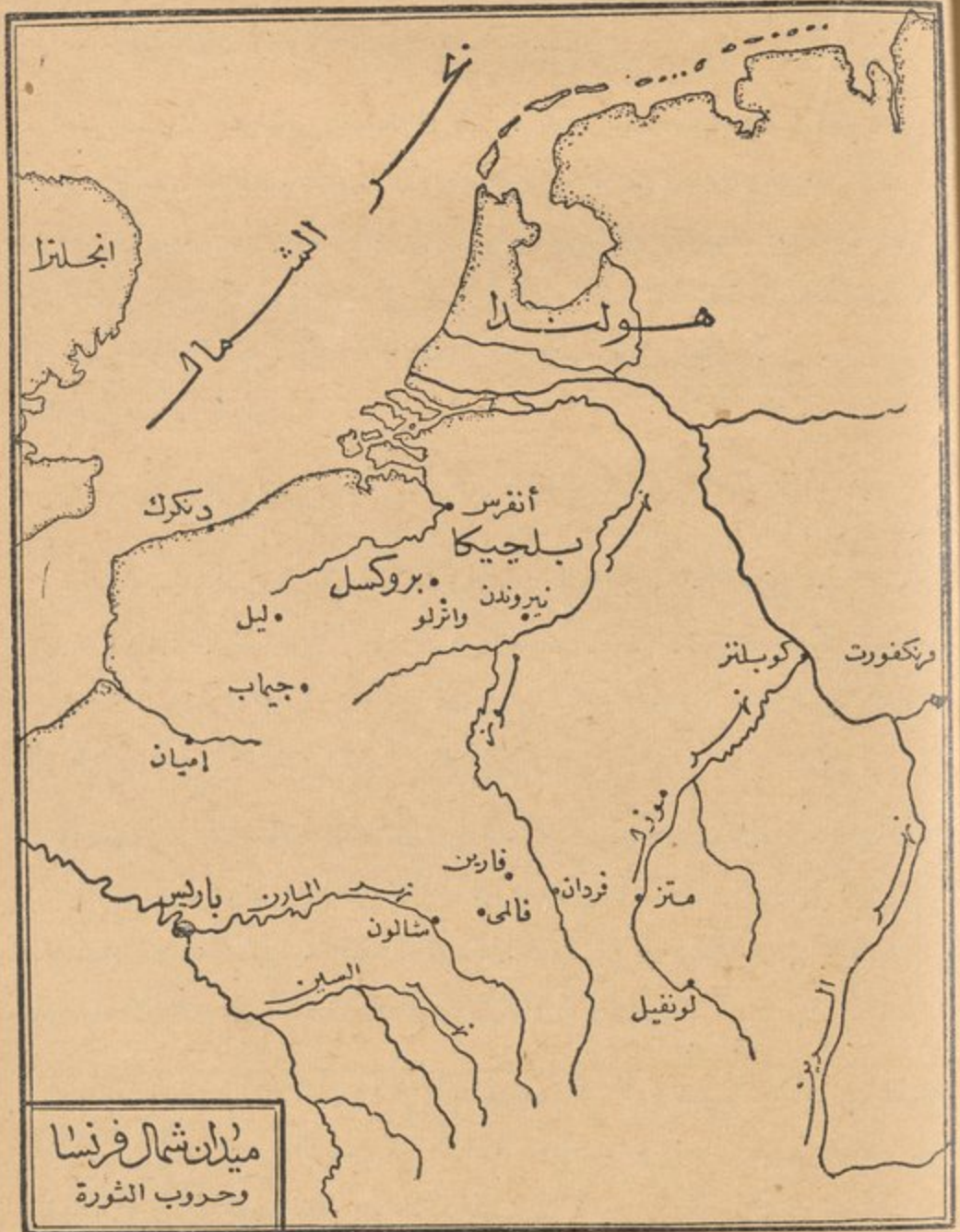
### دول أوروبا والثورة :

في عهد الجمعية التشريعية ، التي انعقدت وفق الدستور ، عقب انحلال الجمعية الوطنية ، تضامن بعض ملوك أوروبا للقضاء على الثورة ، خوفا من تسرب مبادئها إلى دولهم ، وعملا بتحريض كثير من مهاجري الأشراف ، الذين غادروا فرنسا عندما اشتدت بها الاضطرابات الداخلية ، تنقب سقوط الباستيل ، ورغبة في إنقاذ الملكية بفرنسا . ووجه امبراطور النمسا وملك بروسيا بلاغا إلى الثوار ، يهدداهم فيه بالتدخل ، إن لم يوقفوا عند حدهم ، فازداد الهياج ، كما ازداد الشك في نية الملك ، وأرغمته الجمعية التشريعية على إعلان الحرب على النمسا وروسيا ، فأعلنها في أبريل سنة ١٧٩٢



## الحرب وتطور الحالة الداخلية :

توالى الهزائم على الجيش الفرنسي ، فأدت أخبارها إلى ازدياد هياج المتطرفين وقبضهم على السلطة ، بحجة تخليص البلاد من الأعداء ، وأوقف الملك ، ودعيت



البلاد إلى عقد "مؤتمر وطني" للنظر في أمره ، وقبض المتطرفون على عدد من الأشراف ، ثم أعدموهم ، فيما عرف باسم مذابح سبتمبر . وفي ٢٠ سبتمبر ،



وقف الفرنسيون وقفهم المشهورة ، على تلال " فالملى " ، فتراجعت جيوش الأعداء ، وبذلك نجت فرنسا من خطر الغزو ، وفي ٢١ سبتمبر سنة ١٧٩٢ ، انعقد المؤتمر الوطنى ، وأعلن إلغاء الملكية ، واتهم الملك بالخيانة العظمى ، وأعدمه فى يناير سنة ١٧٩٣

### التحالف الدولى الأول ضد فرنسا :

أدى إعدام الملك لويس السادس عشر ، إلى زيادة استياء ملوك أوروبا من الثورة ، فتألف التحالف الدولى الأول ضد فرنسا ، من إنجلترا وهولندا والنمسا وبروسيا وأسبانيا ، وهددت الجيوش فرنسا من كل ناحية ، وتوالت عليها الهزائم ، فى حين كانت تهددها فى نفس الوقت بعض الاضطرابات الداخلية ، التى سببها إعدام الملك ، وقد قام بالتحريض عليها بعض رجال الدين ، وبعض الكارهين لسياسة التطرف .

### عهد الإرهاب :

هيات هذه الظروف الفرصة للتطرفين من اليعاقبة ، للاستمرار فى أعمال العنف ، فالفوا هيئة سموها " لجنة الأمن العام " ، وكانت فى يدها كل السلطة لتسيير دفة الأمور فى فرنسا ، وقامت إلى جانبها " محكمة الثورة " ، لتقضى بالإعدام على كل من يتهم بالخيانة ، وعرقلة الدفاع الوطنى .

وبفضل نشاط اليعاقبة وتسلطهم فى الداخل ، وحماسة الجيوش الفرنسية فى الخارج ، خرجت فرنسا من الأزمة التى هددتها ، فأخذت هزائمها تتحول إلى انتصارات فى الخارج ، وقضت محكمة الثورة على الاضطرابات فى الداخل ، بإرسالها الآلاف إلى المقصلة ، لمجرد الاشتباه فى أمرهم .

ومالبث اليعاقبة أن انقسموا على أنفسهم ، وتمكن " روبسبير " ، أقوى أعضاء لجنة الأمن العام ، من القبض على السلطة وحده ، وإرسال جميع مخالفيه إلى المقصلة ، وكان عهده هو عهد الإرهاب الأكبر ، ولكن دكتاتوريته لم تعمر طويلا ، فقد تأمر أعوانه عليه ، خوفا منه ، وأرسلوه بدوره إلى المقصلة ، فأعدم فى يولييه سنة ١٧٩٤ ، وبذلك انتهى عهد الإرهاب .



## حكومة الإدارة (١٧٩٥-١٧٩٩) :

سمّ الشعب الفرنسي مناظر الدماء ، ورغب في استقرار الحالة ، فوضع المؤتمر دستورا جديدا ، بمقتضاه تكون السلطة التشريعية في يد مجلسين ، هما مجلس الشيوخ ومجلس الخمسة. أما السلطة التنفيذية ، فكانت في يد هيئة تسمى "الإدارة" ، مكونة من خمسة أعضاء ينتخبهم المجلسان ، ويرأس كل منهم الإدارة بالتناوب ، ولكن بعض المهيجين حرضوا الشعب ضد نظام المؤتمر هذا ، فقام رعاي باريس في أكتوبر سنة ١٧٩٥ وهاجموا المؤتمر ، ولكن الحكومة قضت عليهم ، بفضل مساعدة ضابط ناشئ ، أبدى كثيرا من المهارة والهمة ، ذلك هو نابليون بونابرت.

### نابليون بونابرت :

ولد نابليون بجزيرة كورسيكا عام ١٧٦٩ ، وكان والده "شارل بونابرت" "Charles Bonaparte" ، محاميا شهيرا من سلالة أسرة تسكانية شريفة ، استقر بها المقام في الجزيرة في القرن السادس عشر . وفي عام ١٧٦٥ اقترن من "ليتشيا امبولينو Letitia Ramolino" ، وهي فتاة كورسيكية ، كان نابليون ثاني أولاده منها . وقد ورث نابليون عن والده حدة الذكاء والطموح والعمل على كسب الشهرة ، كما أخذ عن والدته الثبات والثقة بالنفس ومكافحة الخطوب . وقد أرسله والده إلى المدرسة الحربية بمدينة "برين Brienne" بفرنسا ، وبعد ذلك أرسله للمدرسة الحربية العليا بباريس عام ١٧٨٤ ، فكان بين طبقة أرسقراطية من الطلبة ، وكثيرا ما كان يتوارى عن مجالسهم لإملاقه ، فانصرف للدرس والتحصيل ، حتى يدفع عن نفسه تلك النظرات ، التي كانت تصوبها له الأرسقراطية ، فامتلا قلبه حقدا على ذلك الشرف الموروث ، وأصبح في مستقبل أيامه لا يعين في مناصب الحكومة بالحسب والنسب ، ولكن تبعا للكفاية . وما كاد يناهز السادسة عشرة من العمر ، حتى عين ضابطا في الجيش . ولما امتدت الثورة الفرنسية إلى كورسيكا ، كان نابليون من دعايتها ضد الحزب الملكي ، ثم هاجرت الأسرة كلها إلى فرنسا ، وبدأ نابليون يهتم بالأحوال فيها ، وانضم للحزب المعارض للملك . ولما تحالفت مدينة "طولون Toulon" مع الإنجليز والأسبان عام ١٧٩٣ ، كان هو



قائدا للدفعية في حصارها ، فدبر خطة سهلت الاستيلاء عليها . وكان طول هذه المدة مواليا "لرؤسبيير Robespierre" ، ولما سقط هذا على حد المقصلة عام ١٧٩٤ ، طالب الشعب بدم نابليون ، ولكنه نجا من سخطه بأعجوبة . غير أن الحظ بدأ يبسم له بعد ذلك ، ووضع الطريق أمامه للشهرة والرقى ، ولما حاول الرعاع الخروج على حكومة الإدارة سنة ١٧٩٥ ، كما أسلفنا ، صوب نابليون مدافعه عليهم وشتت جمعهم ، فذاع صيته وبرزت مواهبه ، وأصبح ذا حظوة كبيرة عند أكابر رجال الحكومة .

### الحملة الإيطالية (١٧٩٦-١٧٩٧) :

وفي عام ١٧٩٥ ، انسحبت بروسيا وأسبانيا من التحالف الدولي بعقد صلح "بال Basle" مع فرنسا ، وبذلك لم يبق في الميدان ضد فرنسا سوى النمسا وانجلترا ، فصممت حكومة الإدارة على ضرب النمسا ضربة قاضية ، وجهزت ثلاثة جيوش للتقدم نحوها ، كان أحدها بقيادة نابليون ، ووكل إليه غزو إيطاليا ، وإخراج النمسا منها .



(نابليون في الحملة الإيطالية)

سار نابليون نحو إيطاليا ، واستولى على سهل لمباردى ، ثم هزم النمساويين في موقعى أركولا وريشولى . وفي فبراير سنة ١٧٩٧ سقطت "منتوا Mantua" .



في أيدي الفرنسيين ، فأصبحت إيطاليا كلها في أيديهم . وواصل نابليون الزحف على ثينا ، فلما رأى النمساويون ذلك ، تقدموا إليه بطلب الصلح ، الذي تم



بمعاهدة "كامبو فرميو" Campo Formio سنة ١٧٩٧ ، وبه تنازلت النمسا لفرنسا عن الأراضي المنخفضة النمساوية (بلجيكا) ، كما اعترفت بنهر الراين حدا لفرنسا ، وتأسست بشمال إيطاليا جمهوريات ما وراء الألب تحت حماية فرنسا ، وفي مقابل



ذلك أخذت النمسا البندقية ، عدا الجزر الأيونية (Ionian Islands) ، التي أصبحت ملكا لفرنسا ، لأن نابليون كان يرمى من وراء امتلاكها إلى غرض واسع النطاق في الشرق .

### بعد الحملة الإيطالية :

وبعد أن فرغ نابليون من حملته على إيطاليا ، لم يبق أمام فرنسا من أعداء غير الإنجليز ، وهؤلاء كان الاشتباك معهم بالبر أو بالبحر متعذرا ، فقدم نابليون إلى حكومة الإدارة مشروعا ، يتضمن إضعاف إنجلترا بضررها في مستعمراتها في الهند ، وتنفيذا لهذا المشروع ، كان لابد من الاستيلاء على مصر ، فوافقت حكومة الإدارة على ذلك ، ومن هنا نشأت الحملة الفرنسية على مصر .

## الحملة الفرنسية على مصر

### فكرة إرسال الحملة :

لم تكن فكرة إنفاذ حملة فرنسية على مصر بنت ساعتها ، بل هي فكرة قديمة ، ظهرت أولا في القرون الوسطى أيام الحروب الصليبية ، أو على وجه التحديد في أواسط القرن الثالث عشر ، ثم ظهرت بعد ذلك عدة مرات ، ولكن الدوافع اليها في كل مرة كانت تختلف باختلاف الظروف .

وكانت مصر محط أنظار ساسة فرنسا طيلة القرن الثامن عشر ، فكثير منهم من قدم التقارير المطولة عن أهمية مصر ، ووجوب استيلاء فرنسا عليها ، ولكن الظروف السياسية المختلفة جعلت فرنسا تتردد في سياستها ، حتى كانت سنة ١٧٧٧ ، فأوفدت من قبلها رسلا ، كانت مهمتهم السرية فحص حالة السواحل المصرية ، ودراسة حالة مصر الحربية ، وجاءت تقاريرهم مشجعة الحكومة على وجوب إرسال حملة تستولى على مصر لأهميتها . وقد اتفقت الآراء ، على أن مصر لا تستطيع أن تقاوم أية قوة منظمة تغزوها ، وكاد يستقر رأى الحكومة إذ ذاك على تحقيق هذه الرغبة ، لولا اشتراك فرنسا في حرب استقلال أمريكا سنة ١٧٧٨ ، ثم قيام الثورة الكبرى فيها عام ١٧٨٩



## أسباب الحملة :

كان الغرض الأساسي الأول من الحملة ، طعن انجلترا طعنة نجلاء ، بمحاولة القضاء على سلطتها في الشرق ، باستيلائها على مصر ، ووصل البحرين الأبيض بالأحمر ، والسيطرة على هذا الطريق ، الذي يعد أقصر طريق بين أوروبا والشرق .

وكان من أغراضها الأساسية كذلك ، تحويل مصر إلى مستعمرة فرنسية ، تروج فيها بضائع فرنسا ، بل وتكون كذلك مركزا لتوزيع التجارة الفرنسية في الجهات المتصلة بها .

وقد خالط هذه الدوافع الوطنية ، وقوى الرغبة في تنفيذها أغراض شخصية ، منها رغبة نابليون في إنفاذ الحملة ، إذ كانت هي الوسيلة الوحيدة ، التي تفتح أمامه باب العمل والأمل ، فأخذ يمني نفسه بإمكان مجارة الاسكندر الأكبر وقيصر وغيرهما ، ممن وجدوا مجالا فسيحا لعظيم الأعمال وتحقيق الآمال في الشرق (\*) .

ومنها رغبة رجال حكومة الإدارة من جانبهم في التخلص من نابليون ، بانهاز هذه الفرصة لإبعاده عن فرنسا على رأس حملة ، إذا نجحت عادت بالخير الوفير على البلاد ، وحققت آمال الشعب والحكومة في القضاء على إنجلترا ، فكانما كانوا يضربون عصفورين بحجر واحد .

ولما كان لا بد لفرنسا أن تستر أغراضها الحقيقية تحت طلاء ظاهري ، أعلنت أنها ذاهبة إلى وادي النيل ، لمعاقبة المماليك والقضاء على سلطتهم ، بحجة أنهم طامحوا تعدوا على أرواح الرعايا الفرنسيين النازلين بمصر ، وكثيرا ما نهبوا متاجرهم وسلبوا أموالهم وأساءوا معاملتهم .

وفضلا عن ذلك ، أظهرت أنها تقصد بحملتها مساعدة الباب العالي صديق فرنسا الحميم ، في إرجاع مصر إليه فعلا ، بعد إبادة المماليك الذين استبدوا بالسلطة دونه .

---

(\*) قال في ذلك لبوربون صاحب مره " إن أوروبا بأمرها ليست إلا جحر فار ، وما صدرت الشهرة العالمية ، وما دوى الصيت الخالد ، إلا من الشرق وفي الشرق " .



## إعداد الحملة :

استقرت الآراء على إعداد الحملة ، وصدرت الأوامر بالقيام بتجهيز كل ما يلزم من سفن ومؤونة وذخيرة ، ونشطت الحركة لهذه الغاية في موانئ فرنسا الجنوبية ، فبر أن وجهة الحملة كانت سرا دفيناً في صدور أعضاء حكومة الإدارة و نابليون ، وقد أحسنوا صنعا في إخفاء أسرارهم ، لأن الانجليز كانوا مرهفين آذانهم لتلقط أخبارها .

وقد زوّد نابليون الحملة بكل ما يعمل على نجاح مهمته ، فلم يقتصر على اختيار أقدر الجند وأكفأ القواد وأمهر الضباط ، بل ضم إلى الحملة كذلك جماعة من العلماء ، هم خلاصة الأخصائيين من الفرنسيين في مختلف فروع العلوم ، وإلى هؤلاء ضم الكثير من الصناع وأصحاب الحرف ، وجهاز الحملة بكثير من الأدوات والآلات العلمية ، كما أنه استحضّر مطبعة عربية وأخرى يونانية وثالثة فرنسية . أما عدد جنود الحملة فكان يبلغ نحو ٣٦٠٠٠ نفس ، وقد أعد لنقلها عدد كبير من السفن ، تحرسها عدة سفن حربية ، تحت قيادة أمير البحر "دي بروي De Brueys" .



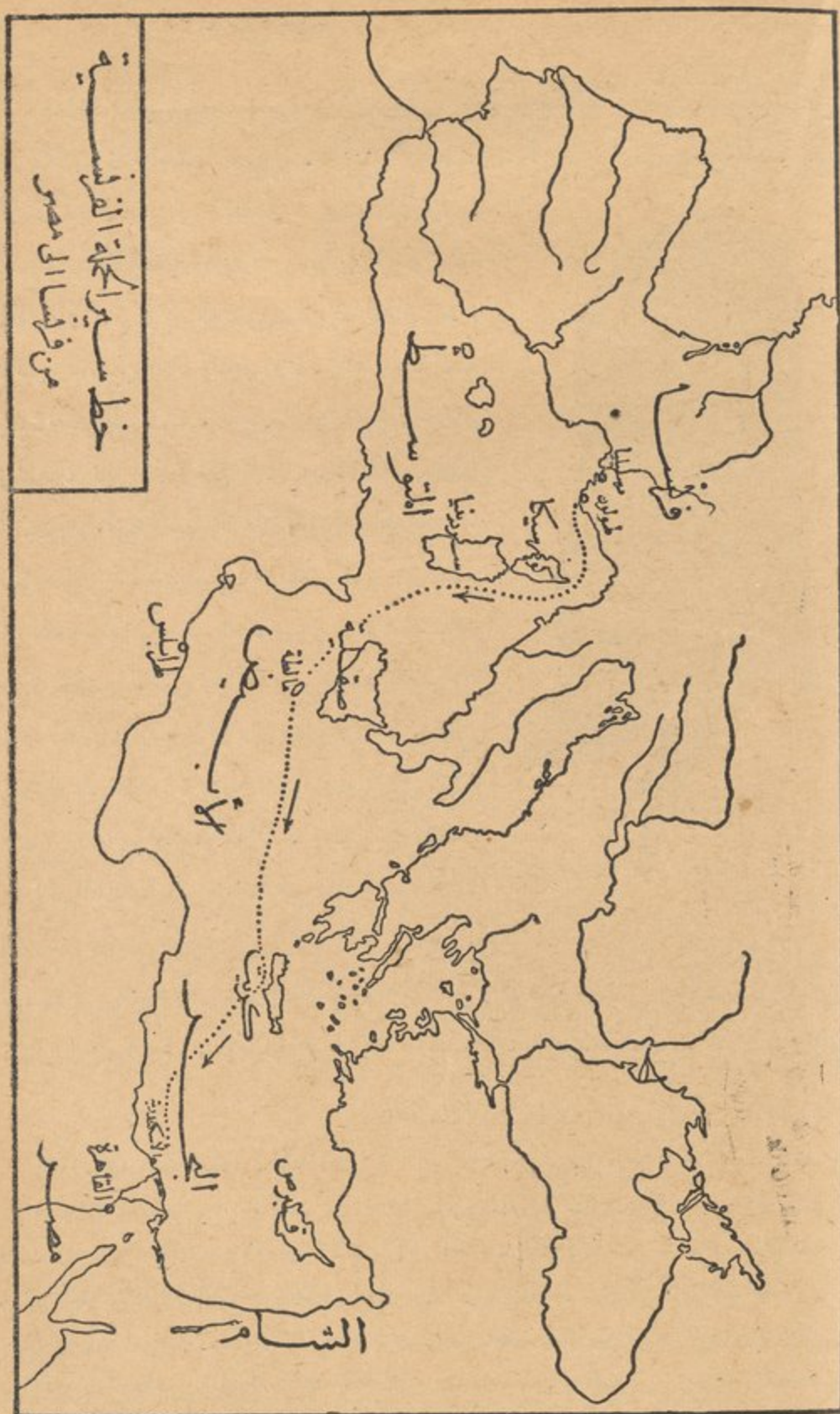
(نابليون)

## سير الحملة

وفي ١٩ مايو سنة ١٧٩٨ أبحر نابليون من ميناء طولون ، واجتمع ببقية سفن الحملة التي خرجت من الموانئ الأخرى ، وأخذت السفن تمخرع باب البحر قاصدة جزيرة مالطة ، فوصلت إليها في ٩ يونيو واستولت عليها بعد مقاومة ضعيفة ، وبقى نابليون بالجزيرة حتى رتب شؤونها . وفي ١٩ يونيو أبحرت الحملة قاصدة كريت ، حيث أصدر نابليون أوامره أن تتوجه الحملة تowa نحو مصر ، وعند

ذاك فقط كشف لضباطه وجنده عن الجهة التي كانوا يتصدونها ، ولم يكن لهم بها علم حتى تلك اللحظة . وفي أول يولييه رست العمارة الفرنسية بالقرب من الإسكندرية .







## الاستيلاء على مصر :

هناك أمر نابليون بسرعة إنزال رجال الحملة ومعداتهما ، ثم تقدمتوا نحو الاسكندرية واحتلها بسهولة ، وأبقى "السيد محمد كريم" حاكمها في مركزه ، بعد أن قدم له فروض الطاعة ، ووعد أن يخدم الجمهورية الفرنسية بإخلاص. وأراد نابليون بعد ذلك أن يسرع في الوصول إلى عاصمة البلاد ، فأمر بتحصين الاسكندرية ، وأعد العدة للسير بجيشه نحو القاهرة ، فأمر بإرسال قوة لاحتلال رشيد ، على أن ترسل هذه بعد ذلك بعض السفن في فرع النيل حاملة المؤونة والذخيرة ، لكي تلتقي ببقية الجيش ، الذي تقرر أن يسير في الصحراء عن طريق دمنهور . وعند ذلك وزع نابليون منشورا باللغة العربية ، أظهر فيه شدة احترامه للديانة الإسلامية ونبيهها ، وعظيم إجلاله للسلطان ، وأبان عن خطئه في عدم التعرض للأرواح والأملاك ، ورغبته في القضاء على المماليك ، الذين خرجوا عن طاعة السلطان ، وأساءوا معاملة المصريين والرعايا الفرنسيين ،



(السيد محمد كريم)

مهتدا من يقاوم الفرنسيين بالدمار والهلاك (\*). ثم سار الجيش في الصحراء فماني كثيرا في طريقه ، إذ كانت الحرارة بالغة أقصاها ، والعرب معادين للجيش ، وآبار

(\*) وإليك بعض عبارات هذا المنشور : "بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله . لا ولد له ولا شريك له في ملكه... يا أيها المصريون قد قبل لكم إمتني ما تركت بهذا القطر إلا بقصد إزالة دينكم ، فذلك كذب صريح فلا تصدقوه ، وقولوا للفرنسيين إمتني ما قدمت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين . وإمتني أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى ، واحترم نبيه والقرآن العظيم ، وقولوا أيضا لهم إن جميع الناس متساوون عند الله وإن الشيء الذي يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط... أيها المشايخ والقضاة... قولوا لأمتكم إن الفرنسيين هم أيضا مسلمون مخلصون... ومع ذلك الفرنسيون في كل وقت من الأوقات صاروا يحين مخلصين لحضرة السلطان العثماني وأعداء أعدائه ، أدام الله ملكه..."



الماء إما طمست عيونها أو أفسد مأوها . لهذا تنفس رجال الجيش الصعداء ، عندما وقعت أبصارهم على ماء النيل عند "الرحمانية" ، حيث التقوا بسفنهم القادمة من رشيد ، لتصحبهم في رحلتهم إلى الجنوب ، ثم تقدم الجميع نحو "شبراخيت" .

أما الممالك في القاهرة ، فكانت قد وصلت إليهم أنباء الحملة وتقدمها .

"ولما وردت هذه الأخبار إلى مصر حصل للناس انزعاج ، وعول أكثرهم على الفرار والهياج" ، وثارث ثورة الممالك ، واتهموا تركيا بمالأة الفرنسيين ، غير أنه ما لبث أن داخلهم الغرور كالمعتاد ، وأخذوا يستهترون بقوة أعدائهم من الفرنجة ، قائلين إن جنودهم ما هي إلا كلب "الفسق" للكسر والأكل !! ثم نهضوا جميعا يستعدون لملاقاة العدو ، وهو في طريقه إلى القاهرة ، بفهزوا جيشا كبيرا سار إلى الشمال ، تحت إمرة مراد بك ، تصحبه بعض السفن في النهر ، حاملة المؤونة والذخيرة .

#### موقعة شبراخيت :

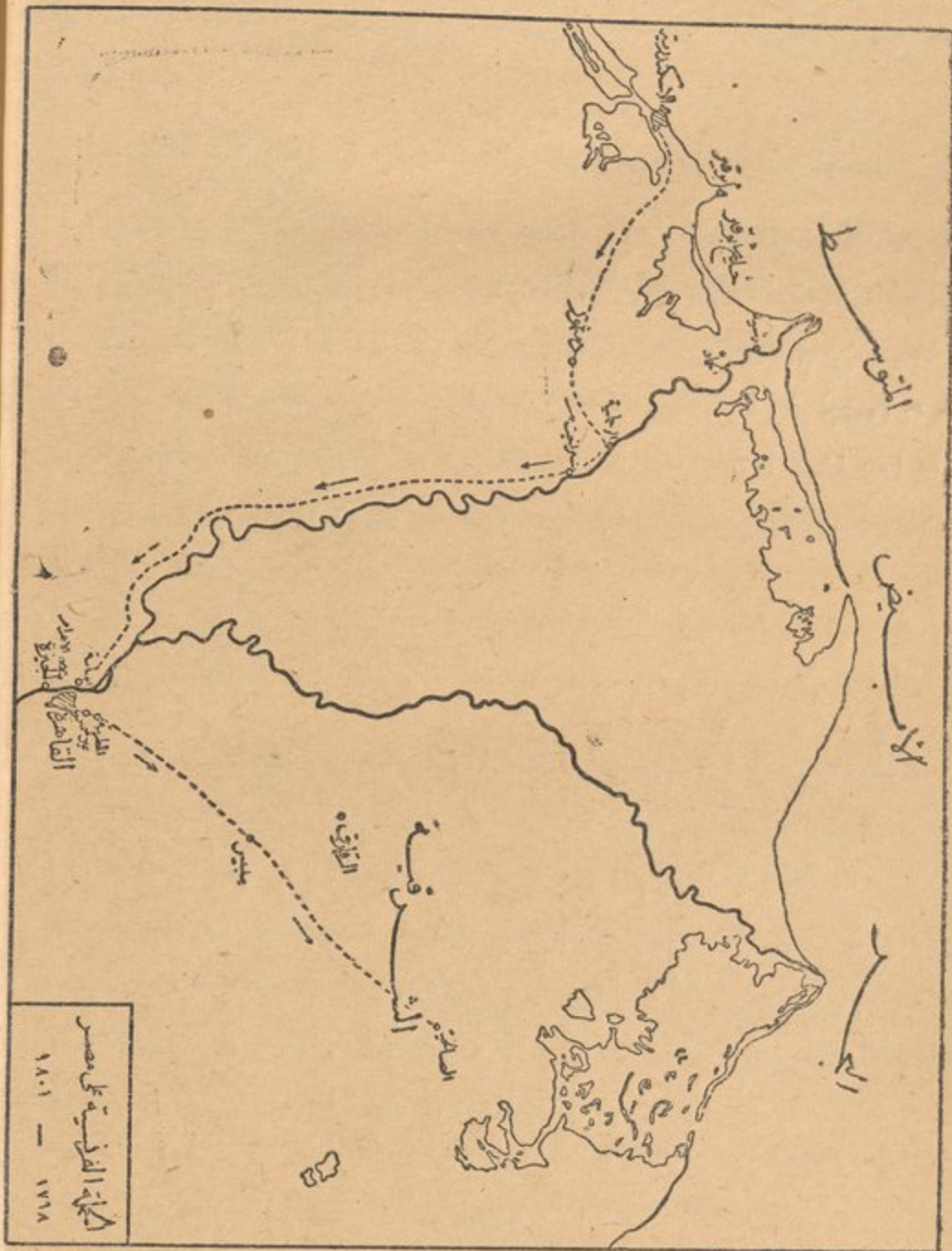
وأخيرا تلاقى الجيشان في ساحة القتال عند "شبراخيت" ، وانهزم الممالك ، بعد أن أظهروا الكثير من ضروب البطولة والفروسية . ولم تكن عمارتهم البحرية بأوفر حظا من جيشهم ، فبعد أن كادت تتفوق على العمارة الفرنسية ، أصيبت سفينة الذخائر بقنبلة حطمت أجزاءها ، فتناثرت قطعها هنا وهناك ، وانزعج الممالك . واضطر مراد إلى التقهقر جنوبا ، وأخذ يحصن جهة إنبابه حيث وقف بجنده ينظرون وصول الفرنسيين ، في حين كان زميله إبراهيم بك واقفا على الضفة اليمنى للنيل ، ومعه الجنود الاحتياطية .

#### موقعة إنبابه ( أو الأهرام ) :

أما الفرنسيون فإنهم واصلوا السير إلى الجنوب ، فوصلوا إلى إنبابه في ٢٠ يولييه ، وفي اليوم التالي حدثت بين الفريقين المعركة المتظرة ، ولم تمض إلا ساعات قلائل ، حتى أخذ الفشل يدب في صفوف الممالك ، فقتل منهم عدد كبير ، وغرق في النيل جمع وفير ، وفر الباقي عن طريق الصحراء . أما مراد بك فإنه فر



إلى قصره، ليحمل منه بعض غالى كنوزه، ثم هرب إلى الصعيد، يستجمع قلوبه وأعدائه ليستعد لمناخلة الفرنسيين من جديد. وأما إبراهيم بك، فإنه لم يكدر يري



نتيجة الموقعة حتى ولى هارباً نحو الشرقية، يصحبه الباشا التركي وبعض الزعماء المصريين، وعلى رأسهم "السيد عمر مكرم". وأخذ بقية سكان القاهرة يخذون حذو رؤسائهم، فترك المدينة أفواج من المهاجرين، حتى عم الفزع وساد الاضطراب.



## نابليون في القاهرة :

أخذ الجنود الفرنسيون يجمعون الكثير من الغنائم على أثر انتهاء الموقعة ، ثم بدءوا يأخذون قسطهم من الراحة ، ونزل نابليون في قصر مراد بك بالجيزة ، يترقب تطور الحوادث السريع ، غير أنه لم يطل انتظاره ، فإن العلماء والمشايخ وبعض أعيان القاهرة اجتمعوا بالجامع الأزهر غداة الموقعة ، وأخذوا يمشون الموقف ويدرسون الظروف ، فقر قرارهم على التسليم ، وإيفاد وفد منهم إلى نابليون . يطلب منه الأمان ويعرض عليه تسليم المدينة ، فسر نابليون لذلك كثيرا ، وأكد لهم حسن نيته ومقدار عطفه على المصريين ، وصداقته لسلطان المسلمين . وأبان لهم عن سياسته في احترام حق الملكية ، وعدم التعرض بشم للأديان والمعادات والشعائر القومية ، فسرت أخبار تلك المقابلة بين سكان المدينة ، وأخذ يذهب عنهم الجزع ويقل الخوف . أما نابليون فإنه دخل القاهرة في ٢٤ يولييه ، ونزل بمصر محمد بك الألفي على شاطئ بركة الأزبكية ، وعهد إلى القائد "ديبوي Dupuy" بحكومة المدينة ، وأخذ يتودد إلى المصريين ، ويظهر لهم شدة رغبته في الإصلاح ما أدخلوا إلى السكينة .

## النجلترا والحملة

### نلسن ونابليون :

اتصل خبر هذه الحملة بعلم الحكومة الإنجليزية ، وكانت تعلم تمام العلم أنها موجهة ضدها ، ولكنها كانت تجهل تمام الجهل الموضع الذي اختارته لتضر بها فيه ، وتضاربت الأفكار في هذا الصدد ، فمن قائل إنها كانت تقصد أيرلنده أو جنوب إنجلترا ، ومن قائل إنها كانت تقصد البرغال أو جزائر الهند الغربية ، ولهذا أمرت الحكومة الإنجليزية أن يقف أسطولها بالمرصاد عند ميناء "قادس" . ولكي يستوثق الإنجليز من الموقف ، أرسل "نلسن Nelson" ببعض سفن الأسطول إلى داخل البحر الأبيض ، ليبقى قريبا من الموانئ الفرنسية يراقب أخبار الحملة وحركاتها .



غير أنه شاءت الأقدار أن يغتال نابليون من يد الإنجليز ، إذ هبت عاصفة شديدة أحدثت عطبا في بعض سفن نلسن ، فاضطر إلى الالتجاء إلى جزيرة سردينيا

لإصلاح ما أصابها من جراء العاصفة ، وفي تلك الأثناء أبحر نابليون بالحملة فلما ، عاد نلسن لمراقبة أخبارها علم أنها أفلتت من يده ، فبعم وجهه تجاه شواطئ "نابلي" ، وهناك فهم أنها كانت مارة جنوبي جزيرة صقلية ، فاعتقد منذ ذلك الحين ، أنها تقصد مصر ، فصمم على مقابعتها ، غير أنه لما وصل إلى مالطة ، كان نابليون قد أقبل بالحملة منها ، وعند ذلك واصل السير بأسطوله إلى



(الأميرال نلسن)

الإسكندرية ، فوصلها في ٢٨ يونيه

أى قبل وصول العارة الفرنسية بثلاثة أيام ، فأرسل رسلا قابلوا "السيد محمد كريم" حاكم الثغر ، وأخبروه أنهم يفتشون عن عمارة فرنسية ، تقصد الاستيلاء على مصر ، وأنهم يطلبون أن يسمح لهم بالزاد والماء والمؤونة نظير أثمانها ، وأن يسمح لهم بالبقاء في الميناء ، حتى يستطيعوا أن يدافعوا عن المدينة ضد الفرنسيين ، غير أن الحاكم رفض كل طلباتهم ، فاضطروا إلى مغادرة القطر ، لقضاء ما كانوا إليه محتاجين ، ولمتابعة البحث عن نابليون .

### موقعة أبي قير البحرية :

ولهذا أبحر الأسطول الإنجليزي ، يقصد سواحل الشام وآسيا الصغرى ليمتار منها ، ومكث يحوب البحار طيلة شهر يوليه يبحث عن الحملة ، ولما كان مساء أول أغسطس ، ظهر الأسطول الإنجليزي أمام السواحل المصرية ، وكان الأسطول الفرنسي ، إذ ذاك في خليج أبي قير ، حيث أقام بعد إنزال الحملة



في الإسكندرية ، فلما أبصر "بروي" أسطول "نلسن" ، ظن أنه يقصد محاصرة الخليج فقط ، ولهذا لم يخرج بالأسطول ، ليلاقى الأسطول الإنجليزي في عرض البحر ، وبهذا أعطى فرصة لنلسن أحكم فيها خطة الهجوم .

وسرمان ما بدأت الموقعة ، واستمرت حتى الساعة الثانية عشرة من ظهر يوم ٢ أغسطس ، وكانت في أول أمرها غامضة النتيجة ، فiran كفة الإنجليز أخذت في الرجحان ، فدمروا معظم سفن الأسطول الفرنسي . ولقد استمات الفريقان في النضال والدفاع ، وأتوا من ضروب الشجاعة والبطولة ، ما يستحق أن يكون درسا للأجيال المقبلة ، في الإخلاص والتضحية ونكران الذات (\*)

### نتائج الموقعة :

تعتبر هذه الموقعة من المواقع الفاصلة ، فقد كانت في الواقع بعيدة الأثر في مجرى الحوادث في الشرق والغرب معا . ونلخص أهم نتائجها فيما يلي :

( ١ ) تحطمت آمال رجال الحملة ، بتحطيم عمارتهم البحرية في هذه الموقعة ، إذ فقدوا وسائل الاتصال بالوطن ، وأصبحوا محصورين لا يستطيعون فرارا .  
( ٢ ) بعثت هذه الكارثة اليأس في روح الجند ، وقد تأمرت عليهم الظروف القاسية منذ قدومهم ، فجعلتهم يملون الإقامة في ديار بعيدة عن الحضارة ، ولهذا أخذت روح الجيش المعنوية في الانحطاط .

( ٣ ) أما المصريون فسرت فيهم روح الارتياح لهزيمة المغتصبين ، بل سرت فيهم روح جديدة ، فيها شيء من الاستخفاف والاستهتار بقوة الفرنسيين .

( ٤ ) وقد كان سرور الإنجليز بها أعظم ، فهم يعدونها من المواقع الحربية الهامة ، التي كانت لها يد طولى في بناء عظمة إنجلترا البحرية ، وتأمين تجارتها ومستعمراتها .

( ٥ ) كان لها أثر كبير في سياسة نابليون في مصر ، وكذلك في سياسة إنجلترا حيال الحملة ، كما سيحدث بعد .

(\*) جرح بروي في رأسه ويده ، ومع ذلك استمر في مركزه يصدر أوامره حتى عاجله قنبلة أطارت نحوه الأيسر وقتلته . وأصيب نلسن في رأسه حتى انسدل لحمه على عينيه ، فرفعه إلى جبينه بيده وهو يلقن أوامره .



## سياسة نابليون في مصر

### أولا — سياسته الداخلية

#### سياسة التودد :

جرى الفرنسيون في معاملة المصريين على سياسة التودد ، واحترام ملكية الملاك ، والمحافظة على الأوقاف الخيرية ، والعمل على إبقاء الأنظمة القضائية ، كما كانت ، ولم يعتدوا إلا على ما خلفه المماليك الفارون والأعيان المهاجرون .

وقد أصدر نابليون الأوامر المشددة لجنوده بعدم التعرض للسكان بشر ، وأن يسلكوا معهم سبيل المودة والاحترام . ولم يفرض نابليون على السكان ضرائب جديدة ، بل اكتفى بجمع ما كان مفروضا منها ، بطريقة منظمة ولهذا لم يلبث المصريون أن اطمأنوا إلى الحالة الجديدة ، وانصرفوا إلى أعمالهم العادية ، إذ كثرت المحال التجارية المنظمة ، وتعددت المطاعم وفتحت القهاوى ، وتأسست بعض المصانع ، وقام الفرنسيون بأمور بتنظيف الشوارع والمنازل والحارات ، وإضاءتها ليلا ، واتباع كثير من الأنظمة الصحية ، التي بدأ يعمل الفرنسيون على نشرها بين طبقات الشعب ، للقضاء على الأمراض .

#### الديوان :

وجريا على سياسة العطف والتودد ، أصدر نابليون أمره يوم وصوله إلى القاهرة بتشكيل "ديوان" من المشايخ والعلماء "لتدبير الأمور والنظر في راحة الرعية وإجراء الشريعة" . وأمر بجملة أعضائه تسعة ، يكون السكرتير عاشرهم . وقد انتخب "الشيخ عبد الله الشرفاوى" رئيسا لهذا الديوان ، كما انتخب "الشيخ المهدي" سكرتيرا . وكانت وظيفة هذا الديوان ، مساعدة حاكم القاهرة الفرنسي بالاجتماع كل يوم للنظر فيما يعرض له من شؤون ، وكان نابليون يحترم أكثر



قراراته ، ويعمل غالبا على تنفيذها ، فكان هذا حادثا جديدا في تاريخ مصر الحديث ، لأننا نرى لأول مرة على صفحات هذا التاريخ اشتراك العناصر الوطنية في الحكم ، وكان لهذا أثره في نفسيتهم . وعلى هذا الخط سار نابليون في حكم



الشيخ الشرفاوى



الشيخ المهدي

الأقاليم ، فقد أمر بتشكيل ديوان من سبعة أعضاء في كل مديرية ، يساعد الحاكم على استتباب الأمن ، والعمل على راحة السكان .

### مطاردة المماليك :

رأى نابليون أن لا بد له من القضاء على قوى المماليك الباقية في البلاد ، قبل أن تثبت له فيها قدم ، أو يستتب له فيها حكم . نظر حوله فاذا بابراهيم بك ومن معه معسكرين في بلبس ، وإذا بمراد يجمع فلوله وقواه في المنيا بالصعيد . أما مراد بك ، فإنه اختار لمطاردته أحد الأكفاء من قواده ، وهو "ديزيه Desaix" ، فنجح هذا في مهمته ، وانتصر عليه عدة مرات ، استولى بعدها على الفيوم ، ثم أخذ يطارد قوى المماليك في الصعيد ، حتى وصل إلى أسوان ، غير أن الأمر لم يستتب للفرنسيين في تلك الأقاليم ، إلا في أواسط سنة ١٧٩٩

وأما ابراهيم بك ، فإن نابليون ذهب بنفسه يتعقب قواه ليبيدها ، وقد تحققت رغبته ، ففي ١٠ أغسطس ، تقابل الجيشان في "الصالحية" ودارت الدائرة على ابراهيم ، الذي فر إلى الشام شرقا ، بعد أن ترك الكثير من الذخيرة والكنوز ، فوقعت في أيدي الفرنسيين ، ولم يعد نابليون إلى القاهرة ، إلا بعد أن حصن جهات مصر الشرقية ، وولى عليها حكاما من الفرنسيين .



فير أنه وهو في طريقه إلى العاصمة ، لاقاه رسول من القائد "كبير" ، أفضى  
إليه بنجر كارثة الأسطول عند أبي قير. ولشد ما تألم نابليون لهذا الحادث وجرع



( الديوان الوطني )

ولكنه أظهر الجلد والصبر ، وأخذ يستفزهم الضباط والجنود ، ويبعث فيهم  
روح الأمل ، ويبث فيهم عاطفة الاطمئنان إلى المستقبل .



## ما بعد الواقعة :

وقد كان أثر الواقعة في سياسة نابليون بعيد المدى ، إذ عندما عزم نابليون على غزو مصر ، كان موطننا العزم على أن يكون منها مستعمرة فرنسية ، تتصل بفرنسا كغيرها من المستعمرات . وأما هو شخصيا فكان مزجها الإقامة بها ، ريثما تنهيا له الظروف ، للتبض على زمام الأمور في فرنسا نفسها ، غير أن تخطيط الأسطول ، وقطع سبل الاتصال بينه وبين فرنسا ، جعله يفكر مرغما في الإقامة نهائيا بهذه البلاد ، واتخاذها مركزا لأمبراطورية شرقية ، تحقق له أحلامه وآماله . وأخذ يعمل على تحقيق أغراضه ، باتباع السياسة الملائمة لظروف الأحوال ، ولتخصها فيما يأتي :

( ١ ) أخذ نابليون يتوسع في سياسة التودد والتقرب من المصريين ، لكي يأمن جانبهم ويستجلب رضاهم ، فما كاد يصل إلى القاهرة ، حتى بدأ يزور العلماء والمشايخ وكبار الأعيان في منازلهم ، وكان كثيرا ما يظهر شديد ميله للديانة الإسلامية ، ويبدى عظيم احترامه للعادات القومية ، ثم أخذ يشترك في الحفلات الوطنية ، كحفلة وفاء النيل ، والاحتفال بالمولد النبوي ، وبتقليد إمارة الحج .

( ٢ ) ولكي يهيئ أسباب الإقامة والاطمئنان للفرنسيين ، رأى وجوب درس طبيعة البلاد وأهلها وتاريخها وأنظمتها ، حتى يكون العمل ممكنا ومثمرا ، ولهذا أصدر أمرا بإنشاء "المجمع العلمي المصري Institut d'Egypte" . وكان ذلك في ٢٢ أغسطس عام ١٧٩٨ ، وعين "منج Monge" كبير الرياضيين رئيسا له ، وجعل نفسه وكيله ، وبدأ العلماء أعمالهم ليهيئوا جوا صالحا لنجاح الحالة الجديدة .

( ٣ ) أمر نابليون بتحصين القاهرة والأقاليم ، حتى يأمن جانب المشايخ من مماليك أو مصريين ، ولتنفيذ خطته اضطر إلى هدم بعض المساجد والآثار وأبواب الحارات ، وأخذ يشدد في مراقبة الخارجين من المدينة والداخلين إليها ، مما عكر على الناس صفو الحرية .

( ٤ ) رأى نابليون أنه في حاجة ماسة إلى المال لتسيير دفة الأمور ، فانه لم يجد بمصر المال الكثير الذي كان يمني به نفسه ، فالمماليك إما أخفوا أموالهم



بعد موقعة إنبابه ، وإما حملوا بعضها معهم خارج البلاد . هذا إلى أن حصار الأسطول الانجليزي للسواحل المصرية ، بعد موقعة أبي قير البحرية ، زاد حالة مصر الاقتصادية سوءا ، إذ ركبت بها الحركة التجارية والصناعية .

بإزاء ذلك ، اضطر نابليون إلى فرض ضرائب متنوعة على الشعب ، منها رسوم تسجيل حجج العقارات والنصرانات العقارية ، ورسوم عن قيد المواليد ، وأخرى عن التصريح بدفن الموتى ، وعن إثبات الوراثة ، مما كان له أسوأ الأثر في نفوس المصريين .

### ثورة أكتوبر ( ٢١ أكتوبر ١٧٩٨ )

ما كاد يتصل خبر فرض الضرائب الجديدة بسكان القاهرة ، حتى أصبح موضوع حديثهم وتذمرهم . ولما كان فجر يوم الأحد ٢١ أكتوبر ، تجهر من سكان القاهرة عدد كبير ، يمحوا وجههم شطربيت القاضي التركي ، لكي يتظاهروا إليه ، ويوسطوه لدى نابليون لإزالة هذه الكفة المالية الجديدة ، ولكنه رفض التوسط ، فاشتد سخطهم ، ورشقوا بيته بالجمارة ، وساد الهرج والمرج في حي الأزهر وما جاوره .

وما كاد الجنرال "ديبوي" حاكم القاهرة يسمع بالأمر ، حتى قام لساعته ومعه قوة صغيرة من الجنود ، ليقف على مجرى الأمور ، فرماه أحد الثائرين بحربة قضت على حياته ، وأقام الثائرون المتاريس في مداخل الحارات والشوارع (\*) وقتلوا كل من صادفوه في المدينة من الفرنسيين ، وكان من بينهم بعض علماء الحملة .

أما نابليون فكان خارج القاهرة إذ ذاك ، فعاد مسرعا ، وأخذ يفاوض العلماء والأعيان ، ليكفوا عن أعمال العنف ، فلم يتشلوا ، فأخذ يماطل في مقاضاته ، حتى تمكن من نصب مدافعه على تلال المقطم ، ثم أمر بإطلاقها على المدينة ، وبالأخص على حي الأزهر مبعث الفتنة . عند ذلك دعر الثائرون ،

---

(\*) يقول في ذلك الجبرتي "... وهدموا الحوائط وجعلوا أحجارها متاريس للكرنكة لبعوق هجوم العدو في وقت المعركة ، ووقف دون كل مراس جمع عظيم من الناس " .



وذهب وفد من العلماء إلى نابليون يسأله العفو والأمان ، فأجابهم إلى طلبهم ، بعد أن لامهم أشد اللوم ، وانسابت جموع الفرنسيين في الحارات والأزقة ، واتخذت من الأزهر الشريف اصطبلًا لخيولها مدة يومين (\*) .

### أسباب الثورة :

إن السبب المباشر للثورة هو الضرائب الجديدة ، التي اضطر نابليون لفرضها على الشعب ، كما قدمنا ، فكان وقعها أليمًا على النفوس ، واثارت عوامل الحقد والانتقام عند عامة شعب القاهرة ، الذين لم يألوا دفع هذه الضرائب المنتظمة .

كذلك اتبع نابليون ، بعد موقعة أبي قير البحرية ، سياسة الشدة مع كل من حامت نحوه شبهة الاتصال بالمماليك أو غيرهم من أعداء الفرنسيين ، فأعدم بعض المصريين ، وكان من بينهم "السيد محمد كريم" ، قتال الناس لذلك ، وتقمروا عليه ، وأساءوا الظن به .

هذا إلى استياء المصريين من بعض أعمال الفرنسيين وعاداتهم ، كشرابهم الخمر وبيعهم جهازا نهارا ، إلى غير ذلك من أمور لم يألوها المصريون من قبل .

وكان من أكبر العوامل التي شجعت المصريين على القيام بالثورة ، النشاط الذي أبداه الانجليز والمماليك والأتراك ، في الاتصال بالمصريين ، بعد موقعة أبي قير البحرية ، وتحريضهم على الثورة ، بإرسال الرسل والمنشورات خفية ، يفندون بها دعوى الفرنسيين ، في صداقتهم للسلطان ، وينبئونهم عن جيوش الدولة ، التي تستعد لطرد الغاصبين من البلاد ، ثم عن تحطيم أسطول الحملة في أبي قير ، فقد شجعت هذه الكارثة المصريين على الاستهتار بقوة الفرنسيين والثورة في وجههم .

(\*) يقول الجبرقي : " ... ودشتوا الكتب والمصاحف ، وعلى الأرض طرحوها ، وبأرجلهم ونعالهم داسوها ... وكسروا أوانيها ، وألقوها بضخه ونواحيه ، وكل من صادفوه عروه ، ومن ثيابه أنرجوه " .



## أثر الثورة :

(١) انهارت آمال نابليون، التي كانت ترمي إلى اتخاذ مصر دار إقامة ومستعمرة فرنسية .

(٢) أصبح أساس السياسة الجديدة ، أخذ الحذر من المصريين ومعاملتهم بالشدة ، ولذلك أرسل نابليون بعض ضباطه إلى الأقاليم ، ليخمدوا ما يبق من روح الثورة ، فعاملوا الأهالي بالقسوة والغلظة ، وأرهقوهم بالغرامات .

(٣) أخذ في تحصين حدود مصر الشرقية ، وأمر بتحصين السواحل المصرية الشمالية ، كما أخذ يتوسع في أعمال التحصين في القاهرة .

(٤) كوّن فرقة عسكرية من المتطوعين من الأروام والعناصر المسيحية الشرقية .

(٥) استنمض هم العلماء والمخترعين ، للإسراع في استخراج ما تحتاج إليه الحملة من معدات وذخائر .

(٦) ألغى نابليون الديوان ، وأسند مهام الأمور إلى رجاله وأعوانه . غير أن استعداد الأتراك لغزو البلاد ، اضطره أن يعود إلى سياسة التودد مرة أخرى ، فبعد أن بقي الديوان مغلقا مدة شهرين ، أصدر أمره في ٢٥ ديسمبر بإعادة إنشائه ، ولكن على طريقة جديدة ، وهي أن ينشأ ديوان يسمى "الديوان العمومي" ، ويكون من ستين عضوا ، من مشايخ وأقباط وتجار وأجانب ، على أن لا يجتمع هذا الديوان إلا عند الضرورة ، وقرر أن ينتخب من بين هؤلاء أربعة عشر عضوا ، يكونون "الديوان الخصوصي" ، ويجتمع هذا كل يوم ، للنظر في مختلف الشؤون .

## ثانيا - سياسته الخارجية

### التودد إلى تركيا :

منذ أن فكرت فرنسا في إرسال حملة ، للاستيلاء على مصر ، أخذ الجميع يشكرون في تحديد العلاقة بين تركيا وفرنسا في هذه الحالة ، فاستقر الرأي على



محاولة إقناع الباب العالي ، بأن فرنسا لا تقصد بحملتها سوى تأديب المماليك ، واسترداد مصر إلى سلطته ، وإظهار الصداقة والمحبة للسلطان ، وفلا تم الاتفاق على إرسال مندوب يقوم بهذه المهمة .

أما نابليون ، فإنه اتبع نفس هذه السياسة ، منذ أن حل بأرض مصر ، ويظهر ذلك جليا في مذكوره الشهير للمصريين ، وفي عدة ظرف أخرى . فقد كتب إلى قبودن الأسطول العثماني الراسي بالاسكندرية إذ ذاك ، كما كتب إلى الوالي التركي ، ثم إلى الصدر الأعظم ، بنفس الروح ، ولكنه في كل حالة لم يتلق جوابا .

### نابليون والعالم الإسلامي :

حاول نابليون كثيرا أن يتودد إلى أمراء المسلمين في الشام والحجاز ، فكتب عدة مرات إلى رجال الباب العالي ، وإلى أحمد باشا الجزائر وإلى عكا ، كما كتب إلى الشريف غالب أمير مكة ، بقصد التودد إليهم ، لكي يأمن جانبهم ، ويتخذ من عدم عدوهم وسيلة لإقناع المصريين ، بأن خليفة المسلمين راض عن احتلال الفرنسيين وادي النيل . هذا إلى أنه حاول مصادقة والي طرابلس ، كما عملت الحكومة الفرنسية على استجلاب مودة باي تونس وداي الجزائر .

ولجأ نابليون إلى علماء مصر ، فاستكتبهم رسالة مطولة ، أشادوا فيها بذكر الفرنسيين ، ثم أمر فطيع منها عدد كبير ، علق بعضه في شوارع القاهرة ، وأرسل البعض الآخر إلى البلاد الإسلامية المجاورة ، بقصد التأثير في شعور أهلها وحكامها ، ولكنها كانت كلها محاولات فاشلة .

### نابليون والشرق :

ولم تم عين نابليون عن الهند ، فقد أخذ يتصل ببعض أمراءها ، المتذمرين من التدخل البرياني في بلادهم ، ويحثهم على القيام في وجه الإنجليز ، ويمنحهم بمساعدة فرنسا . أما آله في تكوين إمبراطورية عظيمة في الشرق ، فلم يكن يفكر في تحقيقها في المرحلة الأولى من فتح مصر ، وإنما لاحت له فرصة تحقيقها فيما بعد ، كما سيجيء .



## انجلترا تقاوم سياسة نابليون

### تحريض تركيا :

ساء تركيا تعدى فرنسا على أملاكها ، وهما في حالة سلام ، ولكنها لم تعلن الحرب عليها ، بالرغم من تحريض إنجلترا ، فقد كانت ضعيفة القوى لا تستطيع منازلة فرنسا ، وكانت تخشى في الوقت ذاته هجمات روسيا ، ولكن موقعة أبي قير البحرية ، كانت خيرا ما قدمته إنجلترا لإقناع تركيا ، بالإقدام والعمل على طرد الفرنسيين من مصر . وبالفعل لما أيقنت تركيا أن قوة فرنسا في البحر الأبيض المتوسط قد تلاشت بتحطيم أسطولها ، أعلنت الحرب عليها في سبتمبر سنة ١٧٩٨

### موقف الحكومة الإنجليزية :

وكان هناك رأيان في إنجلترا ، بشأن تحديد موقفها بإزاء الحملة في مصر ، بعد تحطيم الأسطول الفرنسي ، أما الرأي السائد ، فيتلخص في عدم الاكتراث بوجود الحملة في مصر ، إذ اعتبر هذا أمرا لا يهم إنجلترا ، بل إن كثيرين من الإنجليز ، كانوا مرتاحين لفكرة وجود جيش فرنسي كبير محاصر في أفريقيا ، وبالأخص لحجز نابليون وإبقائه بعيدا عن أوروبا أما أصحاب الرأي الآخر ، فكانوا يعتقدون



(سير سديني سميث)

أن مجرد وجود جيش فرنسي في مصر ، خطر داهم على مستعمرات إنجلترا في الشرق غير أن الحكومة الإنجليزية اتخذت طريقا وسطا في تنفيذ سياستها ، فعزمت على ترك مسألة طرد الفرنسيين من مصر إلى تركيا ، والاكتفاء بمدادها ببعض الضباط وبقوة بحرية صغيرة تحت قيادة "السير سديني سميث Sir Sidney Smith".

والواقع أن إنجلترا لم تضع شؤون مصر بعد الموقعة في الصف الأول من اهتمامها ، بل حصرت جل عنايتها ، فيما كان يجري

من الحوادث بأوروبا ، وعلى ذلك ترك العبء الأكبر على كاهل تركيا .



## تحرير العالم الإسلامي :

غير أن " السير سدي سمث " قام بدوره خير قيام ، فحاصر الشواطئ المصرية ، وبذلك قطع اتصالها بالخارج ، وأخذ يتصل بالمصريين والمماليك في خارج القطر وداخله ، ويشير شعورهم ضد الفرنسيين ، كما اتصل بالعالم الإسلامي وأمراء المسلمين في البلاد المجاورة لمصر ، وأخذ ينشر الدعوة ضد أعدائه ، وكان هو الرأس المدبر لخطط الحربية والسياسية ، التي اتخذها الباب العالي ضدهم .

## التحالف الدولي الثاني :

وكذلك نشطت إنجلترا في ميدان السياسة في أوروبا ، واتخذت من غياب نابليون عن فرنسا ، وضعف الأمل في عودته سائلا إليها ، وكذلك من ضعف حكومة الإدارة ، وسائل لإقناع بعض دول أوروبا لشن الغارة على فرنسا . وقد نجحت في ذلك ، وتكون على أثر مجهوداتها التحالف الدولي الثاني ، من إنجلترا وتركيا والروسيا والنمسا ضد فرنسا ، في ديسمبر سنة ١٧٩٨

وعند ذلك وضعت خطة لغزو مصر ، بقصد طرد الفرنسيين منها ، وتلخص هذه في إعداد جيشين ، يتجمع أحدهما في جزيرة رودس ، ثم تنقله السفن لمهاجمة مصر من الشمال ، ويتجمع الآخر في سوريا ، ليهاجما من الشرق .

## الحملة الفرنسية على الشام

( من فبراير الى مايو سنة ١٧٩٩ )

## أغراض الحملة :

اتصل خبر هذه الخطة بنابليون ، فصمم على اتخاذ خطة الهجوم ، لمداخلة أعدائه قبل أن يتموا استعداداتهم ، ولأنه وجد أن في بقائه بمصر ، انتظارا لهجوم أعدائه عليها من جهتين ، تعرضا لخطر في وقت واحد . هذا إلى أنه كان غير مرتاح إلى الشعب المصري ، فمن المحتمل أن كان يتهمز فرصة هذه الإغارة المزدوجة ، ويقوم بثورة ضده ، وحينذاك يقع الفرنسيون بين نارين ، نار داخلية وأخرى خارجية .



ورأى نابليون كذلك ، أن في إسراعه بمهاجمة العثمانيين ، وإيقاع الهزيمة بهم ، فرصة يضطرهم فيها الى عقد صلح منفرد مع فرنسا . هذا إلى أنه باستيلائه على موانئ سوريا ، يستطيع أن يمنع الماء والزاد عن الأسطول الانجليزي المحاصر للشواطئ المصرية .

وفضلا عن الأغراض الأساسية السالفة ، كان نابليون يرى في هذه الخطة ، الفرصة المناسبة لتحقيق أحلامه في الشرق ، بتأسيس امبراطورية شرقية عظيمة ، "تنقش اسمه على أحجار الأبدية" ، فكانت هذه الفكرة من عوامل التشجيع على اتباع خطة الهجوم .

### الحملة :

أسرع نابليون في إعداد الحملة ، فاختر لها خيرة جنوده وضباطه ، وجعلها بما تحتاج اليه من معدات ، ثم أعلن أنه ذاهب إلى سوريا للقضاء على البقية الباقية من المماليك في تلك الديار . وفي أوائل فبراير عام ١٧٩٩ ، تحرك الجيش الفرنسي ، وهو مكون من نحو ثلاثة عشر ألف مقاتل ، يقصد بلاد الشام عن طريق الصحراء .

أما الدولة ، فإنها كانت قد كلفت "أحمد باشا الجزائر" وإلى عكا ، إعداد جيش كبير في سوريا ، لغزو مصر من جهة الشرق ، ولكنه لم يظهر اهتماما الأمر . وجد نابليون في المسير ، حتى وصل إلى العريش وحاصرها ، فسقطت أمام حملاته بسهولة ، ثم تقدمت القوة الفرنسية ، واحتلت الموانئ الشامية التي في طريقها حتى وصلت إلى "يافا" ، واستولت عليها بعد حصار شديد (\*) . وبالرغم من انتشار الطاعون بين رجاله ، تمكن نابليون من الوصول إلى "عكا" ومحاصرتها ، في ١٩ مارس عام ١٧٩٩ ، ذلك الحصار الذي دام نحو من شهرين .

---

(\*) ودنا وقعت "مذبحة يافا البشرية" وذلك أن حامية المدينة ، ويبلغ عددها أربعة آلاف مقاتل ، سلمت إلى الفرنسيين على شرط تأمينهم على أرواحهم . ولكن نابليون ضاق بهم ذرعا وفكر في الأمر طويلا فرأى أنه إن أطلق سراحيهم انضموا إلى حامية عكا ، وإن أبقاهم فأن له بالجند التي تحرسهم أو الزاد الذي يكفيهم أو السفن التي تنقلهم إلى مصر أو روسيا ، فلم يجد طريقا لحل الإشكال سوى التخلص منهم بأعدائهم جميعا رميا بالرصاص وهم عزل من السلاح . وقد كان لهذا الحادث أثر عظيم في استئصال رجال عكا واستماتتهم في الدفاع عن مدينتهم ضد القوى الفرنسية .



وقد فرح أهالي سوريا ولبنان بقدوم الفرنسيين وانتصاراتهم ، وكان في هزمهم أن ينضموا اليهم علانية بعد سقوط عكا ، ولكن حملات الفرنسيين المتكررة على المدينة ، كانت بلا جدوى ، لأنها كانت متينة التحصين ، في حين



كان نابليون يحاصرها بقوة مدفعيته الضعيفة ، لأن جزءا كبيرا من مدافع الحصار وقع في أيدي رجال الأسطول الإنجليزي وهي في طريقها بحرا من مصر إلى الشام ، فاستعملوها في الدفاع عن المدينة . هذا إلى أن طريق الاتصال كان مفتوحا أمامها من جهة البحر ، بفضل سفيتين إنجليزيتين حربيّتين ، بقيادة السير سدي سمث . وقد استبسل الجزار ورجاله في الدفاع عن المدينة ، في حين أن الطاعون كان يفتك رجال نابليون .

وقد نشطت الدولة لإنقاذ المدينة ، فأرسلت جيشا ليهاجم الفرنسيين من جهة البر ، فيحصرهم بين نارين ، ولكن نابليون أسرع تقابل هذا الجيش ، وهزمه في موقعة "تل طابور" جنوبي عكا ، في ١٦ أبريل سنة ١٧٩٩ . وقد أعاد هذا النصر روح النشاط في الجيش الفرنسي ، وعاوده الأمل بعد طول الملل ، فاتهمز



نابليون هذه الفرصة ، واستعد للقيام بالهجوم الأخير على عكا . ولما أيقن الفشل قرر انسحاب قواته ، في مايو سنة ١٧٩٩ ، والعودة بها إلى مصر ، لاسيما وأنه كان يتوقع وصول الحملة العثمانية الأخرى إليها . وهكذا وقف السير سدني سميث في وجه نابليون ، باذلا جهود الجسارة للعمل على فشله ، وقد نجح في إلحاق الهزيمة به ، حتى تحطمت آماله على صخور عكا .



(عودة نابليون من عكا)

وقد لاقى نابليون صعوبة في انسحابه ، كان يضطر معها إلى إحراق بعض البلاد والقرى في طريقه ، وأخيرا وصل إلى القاهرة بعد أن خسر ما يقرب من ثلث



جيشه ، ودخل المدينة في ١٥ يونيه ، بين مظاهر الأفراح ومعالم الزينات ، والله يعلم أنه كان مكتئبا حزينا في داخلية نفسه ، كما أن المصريين كانوا على علم بالنتيجة الحقيقية ، ولم تخف هذه النتيجة عن مماليك الصعيد ، الذين تقدموا تحت قيادة مراد بك ، وعسكروا قرب الجيزة مهددين القاهرة .

### موقعة أبي قير البرية :

لم يلبث نابليون طويلا بالقاهرة حتى اتصل به خبر وصول حملة عثمانية إلى أبي قير في ١٤ يولييه ، فأصدر أوامره إلى "ديزيه" بإخلاء الصعيد ، والتوجه بقواته إلى الشمال ، كما أمر باقي القوات الفرنسية بالتجمع عند الرحمانية ، ثم سار لقيادة هذه القوات بنفسه ، فهاجم الأتراك عند أبي قير في ٢٥ يولييه ، ومزق شمل جيشهم ، وأسرقائده مصطفى باشا ، وفر من بقي . وكان من بين الفارين "مجد على" الذي يقال إنه أوشك على الفرار ، أولا أن انتشلت يد السير سيدنى ، فانتشلت بانتشاله عظيما من عطاء القرن التاسع عشر .

وكان من نتائج هذه الموقعة ، أن انتعشت نفوس الجنود الفرنسية ، بانتصارهم تلك البقعة ، التي بجوارها حطم أسطولهم العظيم . ووجد نابليون في هذا النصر فرصة ، لفتح باب المفاوضات مع تركيا ، فبعث برسالة مطولة إلى الباب العالي يعرض عليه الصلح .

وكذلك بعث برسولين عقب الموقعة إلى السير سيدنى ، ليتفاوضا معه في تبادل الأسرى ولكي يقفا كذلك على نفسيته . وعند انصرافهما زودهما "سمت" ببعض الصحف الأوربية التي حملها إلى نابليون ، وفيها أخبار الكوارث التي حلت بفرنسا ، مما أكد له صحة الأخبار التي كانت قد وصلت إليه قبل ذلك ، عن سوء الحالة في بلاده ، فجعلته يعقد العزم على مغادرة مصر ، والعودة إلى فرنسا في أقرب فرصة مناسبة ، لأنه رأى أن الطريق أضحت ممهدة أمامه للقبض على زمام السلطة في فرنسا . وفي ٢٣ أغسطس سنة ١٧٩٩ ، ترك نابليون أرض مصر ، بعد أن كتب رسالة إلى "كلير" ، يعينه فيها قائدا على الحملة بعده ، ويشرح له تفاصيل السياسة الواجب عليه اتباعها ، وأخيرا وصل إلى فرنسا في ٩ أكتوبر سنة ١٧٩٩ ، بعد أن أفلت من رقابة الأسطول الانجليزي .



## عهد كليبر

### كليبر والحملة :

غضب كليبر لما علم بخروج نابليون من مصر ، ولكنه كتم هذا الشعور ، وأخذ يدرس الموقف من جميع نواحيه ، وأصدر منشورا للضباط والجنود ، يبرر



فيه رحيل نابليون ، ويستنهض هممهم لمواصلة خطة سلفه ، ولكن من وجهة أخرى ، اهتدى به درس الموقف الى استحالة نجاح الحملة في البقاء بمصر ، فقد كانت البلاد مهددة من الجهة الشرقية بجيش تركي ، يبلغ نحو الأربعين ألف مقاتل ، تجمع في الشام بعد انسحاب نابليون منها ، وشرع في غزو مصر بقيادة الصدر الأعظم يوسف ضيا باشا . وبالرغم من تعرض مصر لهذا الغزو

( القائد كليبر )

من الشرق ، ولمهجمات الأعداء من الشمال ، كانت مفاتيح البلاد وثغورها في حالة ضعف شديد ، لا تستطيع معه طول المقاومة . وفضلا عن ذلك ، كانت قوات المماليك مسيطرة على عدة جهات في أنحاء البلاد ، وكانت تهدد القاهرة نفسها . وكان الأهالي من ناحيتهم مرتاحين لسماعهم بزحف جيش تركي ، يرمى إلى تخلص البلاد من حكم الفرنسيين .

أما رجال الحملة ، فكانوا في حالة نفسية سيئة ، بعد أن تركهم نابليون في ذلك المركز الحرج ، وقد تناقص عددهم وأصبحوا عرضة لفتك الأمراض ، بعيدين عن الأهل والأصدقاء . وقد كان من أثر ذلك أن الأعلىية العظمى منهم أصبحوا يعتقدون في ضرورة الجلاء عن مصر ، والعودة إلى بلادهم ، وكان



على رأس هذا الفريق القائد "كليب" نفسه ، ولذلك كتب إلى حكومة بلاده يصف الحالة في مصر ، مبالغا في حرج مركز الفرنسيين بها ، ثم كتب رسالة إلى الصدر الأعظم بالشام ، يطلب منه إرسال مندوب عنه للمفاوضة في شروط الصلح .

### معاهدة العريش :

تلک الصدر الأعظم في إجابة الفرنسيين إلى طلبهم ، واستمر في إعداد معداته ، ولكن بعد أخذ ورد ، ووساطة السير سدننى سمث ، اجتمع المفاوضون في معسكر الصدر الأعظم بالعريش ، ومن بينهم السير سدننى نفسه ، واستطاعوا أن يعقدوا لاتفاقية المروفة بهذا الاسم ، وهى "معاهدة العريش" في ٢٤ يناير سنة ١٨٠٠ ، وبقتضاها تم الاتفاق ، على أن تتجلى الجيوش الفرنسية عن مصر ، بكل معداتها وأسلحتها ، على أن يقوم الباب النالى بتقديم السفن اللازمة لنقلها إلى فرنسا ، ويكون ذلك في خلال ثلاثة شهور . وبدأ الفريقان في تنفيذ الاتفاقية ، فأخلى الفرنسيون المواقع البعيدة ، واحتلها العثمانيون دون قتال ، فدخلوا الصالحية والسويس ، وعسكر الصدر الأعظم في بلبس ، ودخل جزء من الجيش العثمانى القاهرة نفسها ، وعين الأتراك واليا على الصعيد .

وبينما كانت هذه الحركة قائمة على قدم وساق ، إذ وصلت أوامر الحكومة الانجليزية ، برفض أى اتفاقية مع الفرنسيين في مصر ، على غير أساس تسليم أنفسهم أسرى حرب . ولا يفوتنا أن نذكر ، أن إنجلترا أصدرت هذه الأوامر بعد أن وصلتها صورة من التقرير الأسود ، الذى كان أرسله كليب إلى حكومته ، وقبل أن يصلها خبر عقد اتفاقية العريش ، واشترك سدننى سمث فيها ، لأنه بعد أن اتصل بها هذا الخبر ، وافقت على الاتفاقية ، ولكن الفرصة كانت قد أفلتت من يدها ، لأن الأوامر الأولى كانت بمثابة إعلان للحرب ، ولهذا أرسل كليب إلى الصدر الأعظم ، يأمره بسحب قواته إلى سوريا ، وإلا اضطره إلى ذلك بالقوة ، فلما لم يدعن إلى ذلك ، أمد كليب جيشا فرنسيا لإرغامه على ترك مصر ، وهناك حول "عين شمس والمطرية" ، التقى الفرنسيون بأربعة أمثالهم من الأتراك ، وأنزلوا بهم هزيمة منكرة ، ثم طاردوهم إلى الصالحية فسوريا .



### ثورة القاهرة الثانية :

وبينما كان كليبر يطارد الجيش العثماني إلى سوريا ، إذ قامت في القاهرة ثورة ضد الفرنسيين ، بتحريض العثمانيين والمماليك والمصريين ، الذين دخلوا القاهرة بعد اتفاقية العريش ، وكانت هذه الثورة تشبه في كثير من مظاهرها ثورة القاهرة الأولى ، فلما عاد كليبر ووقف على الحالة ، حاصر المدينة حصارا دام سبعة وثلاثين يوما ، وكان يمتطرها من وقت إلى آخر بوابل من قنابل المدافع ، وفي ١٥ أبريل دخل كليبر القاهرة بموكب حافل ، ثم قبض على الأتراك والمماليك رأس هذه الفتنة ، وأخرجهم من البلاد إلى الشام ، وأما الأهالي ففرض عليهم غرامة حربية كبيرة ، استعمل القسوة في تحصيلها . وقد تمكن كذلك من إخضاع الأقاليم النائرة بالوجه البحري ، حتى استتب له الأمر فيه ، كما أمكنه إخضاع الصعيد ، باتفاقه مع مراد بك ، في ٥ أبريل سنة ١٨٠٠ ، على أن يحكم الصعيد تحت سيادة الفرنسيين ، وبقي مراد محافظا على عهده وولائه ، حتى مات بسوهاج في أبريل سنة ١٨٠١ .

### خاتمة عهد كليبر :

قوت هذه الانتصارات همة الفرنسيين ، فتبدل اليأس أملًا والوهن عزيمًا ، وصمم كليبر على البقاء ، واتخاذ وادي النيل مستعمرة فرنسية دائمة ، ولهذا رفض الرغبة التي أبداهها له الأتراك والانجليز ، في تنفيذ شروط معاهدة العريش ، وأخذ ينظم الجيش ، ويعمل على تحصين مركزه الحربي ، واستأنف عهد الإصلاح ، فنشط أعضاء المجمع العلمي ، وكونوا اللجان لدرس حالة مصر من جميع نواحيها ، وأخذت حالة الحملة تسمير في طريق التحسن ، غير



(سليمان الحلبي)

أنه لم يلبث أن حدث حادث كان له أثر كبير في مجرى الحوادث ، وذلك



أنه في يوم السبت ١٤ يونيه سنة ١٨٠٠ ، امتدت يد "سليمان الحلبي" إلى صدر كليبر بنحجر طعنه به عدة طعنات أودت بحياته . وحوكم سليمان أمام مجلس عسكري قضى عليه بالإعدام .

## عهد مينو والجللاء

مينو "Menou" :

آلت إليه قيادة الحملة بعد كليبر لأقدميته ، لالكفائيته . ولم يكن محبوبا لدى الجند ، لأنهم لم يروه في ميدان القتال يقودهم إلى النصر ، وكان موضع سخطهم ، لأنه اعتنق الدين الإسلامي ، قبل توليه منصبه الجديد ، وتزوج من سيدة مصرية<sup>(١)</sup> . وكان معظم ضباط الحملة غير راضين عنه ، لأنه أحاط نفسه بطائفة من الضباط المتملقين له ، وكان يرفعهم إلى أرقى مناصب الجيش ، فخرم أكفا الضباط من هذه المناصب العالية .

أما المصريون ، فلم يكونوا أقل استياء من حاكمهم الجديد ، لأنه أخذ يردقهم بالضرائب والإتاوات ، حتى أخذ الكثيرون يهجرون دورهم ومتاجرهم فرارا من وجه الظلم . ولكي يجلب مظالمه عن العيون ، أعاد فتح "الديوان" ، وكان قد أبطل منذ التوقيع على معاهدة العريش ، على أن يكون ديوانا واحدا ، ويكون أعضاؤه تسعة من المسلمين ، ولكن ذلك لم يقرب منه القلوب كما كان يرجو .

## الجللاء :

أيقن الإنجليز أن الأتراك لن يستطيعوا بأنفسهم طرد الفرنسيين من مصر ، ولهذا عزموا على الاشتراك معهم اشتراكا فعليا في إخراجهم ، وتم الاتفاق بينهم على إرسال أربعة جيوش إلى مصر ، جيش إنجليزي وآخر تركي يغزوانها من الشمال ، ثم جيش الصدر الأعظم يغزوها من الشرق ، وكذلك جيش من الهند يدخل مصر عن طريق القصير .

(١) اسمها زبيدة بنت السيد محمد البواب ، أحد أعيان رشيد ، وسمى مينو نفسه في وثيقة الزواج "عبد الله باشا مينو" .



وقد اتصل بنابليون خبر هذه الترتيبات الحربية ، وكان وقتئذ الحاكم بأمره  
في فرنسا ، فأصدر أوامره بإرسال أسطول إلى الإسكندرية ، يحمل ما يقرب



(القائد مينو)



هي خمسة آلاف مقاتل وكثيرا من المعدات والذخائر ، لإمداد الحملة وتعزيز مركزها ، ولكن حالت دون تحقيق أمنيته سيطرة الأسطول الإنجليزي على مياه البحر الأبيض المتوسط ، وبالأخص بعد استيلاء إنجلترا على جزيرة مالطة في سبتمبر سنة ١٨٠٠ ، ففشلت محاولاته ، كما فشلت لنفس السبب ، محاولة حكومة الإدارة لإمداد الحملة من قبل ، عام ١٧٩٩

وفي أثناء ذلك أتمت الحليفتان استعداداتهما ، فترك الإنجليزي عند أبي قير ، في أوائل مارس سنة ١٨٠١ ، ولم يلبث أن أصبح الطريق مفتوحا أمامهم إلى القاهرة ، بعد أن دهموا جيش "مينو" في موقعة "كانوب Canope" جنوبي أبي قير ، واضطروه إلى الانزواء في الاسكندرية ، حيث قطعت سبيل الاتصال بينه وبين بقية البلاد ، بقطع سند أبي قير وإحاطة المدينة بالماء .

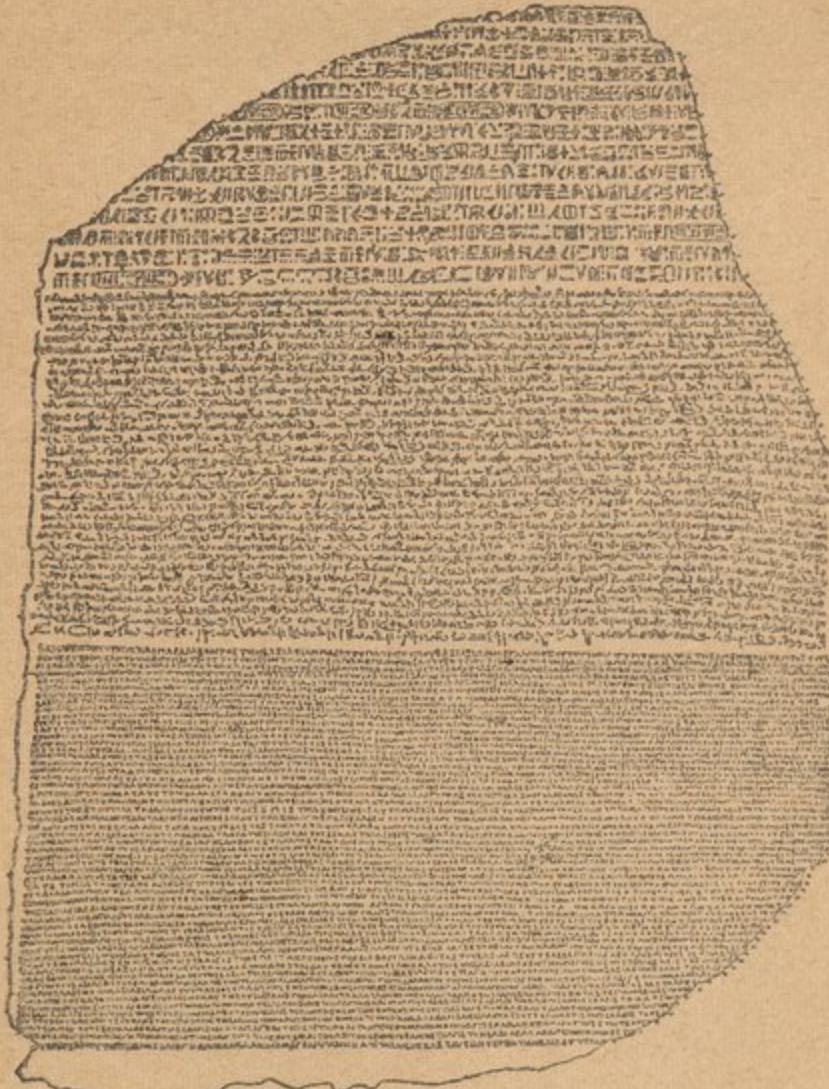
أما الإنجليزي ففقدوا قائدهم في تلك الموقعة ، وخلفه القائد "هتشنسن Hutchinson" ، لدى تقدم بجيشه إلى الجنوب ، حيث تلاقي مع القوة العثمانية البحرية عند الرحمانية ، فاستولوا على المدينة ، ثم اتخذوا طريقهم نحو الجنوب قاصدين القاهرة ، وقد قويت صفوفهم إذ ذاك بانضمام فرسان المماليك إليهم . فلما وصلوا قرب القاهرة ، كما وصل كذلك الجيش العثماني البري ، وجد "بليارد Belliard" القائد الفرنسي في المدينة أنه لا يستطيع المقاومة ، فقررأيه على التسليم ، وعقد الصلح بين الطرفين ، في ٢٧ يونيه سنة ١٨٠١ ، على أن ينقل هو وجميع رجاله إلى بلادهم على مراكب إنجليزية ، بكل ما معهم من معدات . وتم جلاؤهم فعلا ، ودخل العثمانيون القاهرة ، وبقى الإنجليز في الجزيرة ، ووصل جيش الهند متأخرا فلم يشترك في القتال . أما مينو ، فإنه ظل محصورا بالاسكندرية أكثر من شهرين ، وأخيرا فاض القيادة الإنجليزية على التسليم ، وحدث الاتفاق بين الفريقين على الجلاء بنفس الشروط السابقة . وتم الجلاء في أكتوبر سنة ١٨٠١ ، وعادت البلاد ولاية من ولايات الدولة العثمانية ، وبذلك طويت صفحة حافلة من صفحات تاريخ مصر الحديث .



## نتائج الحملة

### النتائج العلمية :

لعل أعظم نتائج الحملة أثرا ، وأكثرها خلودا ، هي نتائجها العلمية ، فقد رأينا ان نابليون استصحب معه فريقا من العلماء والاختصاصيين في مختلف العلوم ، وقد قاموا بأعمال جليلة ، كانت أكبر خدمة للمدنية .



( حجر رشيد )

ومن أهم أبحاثهم ، أعمالهم الخاصة بكشف الآثار القديمة ودراستها ، وكانوا طيلة مدة أبحاثهم أيام الحملة ، لا يستطيعون فهم تلك الآثار ، فوجهوا همهم



إلى رسمها بأيديهم . ثم حدث في سنة ١٧٩٩ ، أن كشف أحد الضباط الفرنسيين حجرا قرب رشيد ، وكان مكتوبا عليه بعض عبارات بكتابات ثلاث : هي الهيروغليفية والديموطيقية والإغريقية ، وهو المعروف "بـحجر رشيد" ، غير أنه لم يلبث أن وضع الإنجليز أيديهم على هذا الحجر عام ١٨٠١ ، ونقلوه إلى لندن ، حيث أودعوه المتحف البريطاني .

ومرت به الأعوام بعد ذلك ، وهو باق بطلاسمه المجهولة ، حتى أتاه العلماء الأثري الفرنسي "شمبليون Champollion" عام ١٨٢١ ، وأقبل عليه يحل رموزه ،



(شمبليون)

وقد وفق في مهمته ، وبذلك أبان للعالم طريقا للوصول إلى حياة المصريين القدماء ، يستطلعون منها أنوار المدنية الأولى ، وبدأ العلماء يهتمون بدراسة تلك الآثار وأخبارها ، منذ ذلك الحين حتى نشأ علم جديد ، هو علم الآثار المصرية (Egyptology) .

وبلى ذلك مشروع توصيل البحرين الأبيض بالأحمر ، بترعة من مائهما ، فقد تكونت لجنة لهذا الغرض برئاسة

المهندس "ليبير Lépère" ، ودرست الموضوع دراسة وافية ، غير أنه خابت الآمال ، عندما أدت غلطة حسابية إلى اعتقاد "ليبير" ، أن سطح البحر الأحمر أعلى من سطح البحر الأبيض بتسعة أمتار .

وبعد أن عادت الحملة الفرنسية إلى بلادها ، أمر نابليون بجمع مباحث العلماء ومذكراتهم ونرائطهم في كتاب يطبع على نفقة الحكومة ، وقام العلماء بعمل ذلك الكتاب ، بعد أن قضوا في إنشائه وتنظيمه عدة أعوام ، وسموه كتاب "وصف مصر Description de l'Egypte" ، وهو كتاب شامل لموضوعات شتى عن وصف مصر ، منذ القدم حتى آخر عهد الحملة . وتنقسم أجزاءه قسمين ، قسم خصص للرسوم والنرائط والأشكال ، ومن بينها خريطة للقطر المصري وقسم لتدوين المذكرات والمعلومات الأخرى ، ويعتبر من خير ما وضع في موضوعه .



### النتائج الحربية :

لا شك في أن الحملة لم تنجح من الوجهة الحربية ، فقد أرغمت في النهاية على أن تعود إلى بلادها دون أن تحقق شيئاً من أغراضها ، ويرجع أهم أسباب هذا الفشل ، إلى قوة إنجلترا البحرية ، التي حطمت البارة الفرنسية في أبي قير ، ثم أوردت نابليون موارد الهزيمة أمام عكا ، كما أنها كانت السبب في فشل مجهودات الحكومة الفرنسية ، لإتخاذ الحملة وإمدادها بما يلزمها من رجال وذخيرة ومال .

### النتائج السياسية :

وجه احتلال الحملة الفرنسية لمصر أنكار الدول ، وخاصة إنجلترا ، إلى أهمية مصر ، من حيث موقعها بالنسبة لأواصلاتها .

وإن سياسة الفرنسيين التي تضمنت إشراك العنصر الوطني في الحكم ، ولدت عند المصريين روحاً جديدة لم تكن لديهم من قبل . فضلاً عن أن كسر شوكة الممالك الحربية ، وتبديد شملهم ، على يد الفرنسيين ، أضعف من شأنهم ، وقال من نفوذهم بين المصريين ، مما مكن أفراداً من الشعب من الظهور ، والوصول إلى مرتبة الزعامة . وقد مهدت الحملة السبيل لقيام حكومة حديثة منظمة بمصر فيما بعد .

### النتائج الاجتماعية :

لم تكن أقدام الفرنسيين نطاً أرض مصر ، حتى مرى الخبر في جسم الشعب مريان تيار كهربائي ، أيقظ حواسهم النائمة شيئاً فشيئاً ، فأخذوا يشاهدون حركة وحياة تدب ، حيث كان الجمود والنوم ، وإن الوسائل الصحية ، التي رأى رجال الحملة تعميمها بين السكان ، أفدتهم بلا شك ولو أنهم لم يالفوها في بداية الأمر واستاءوا منها .



### النتائج الاقتصادية :

ساءت الحالة الاقتصادية بمصر إلى درجة كبيرة ، بالنظر إلى حصار الأسطول الإنجليزي للشواطئ المصرية ، وإلى أن البلاد كانت ميدانا للقتال ، معظم وقات الحملة ، وكذلك إلى ثورات المصريين في القاهرة والأقاليم ، من وقت لآخر ، في وجه الفرنسيين ، فكان لكل هذا أسوأ الأثر في حياة البلاد الاقتصادية كساد أسواقها ، وانتشار الفقر بين أهلها . فضلا عن هذا البؤس ، اضطرو الفرنسيون كما رأينا ، إلى إئصال كاهل السكان بضرائب وإتاوات جديدة ، سجنوا منها ، ولاقوا الشدائد في تسديدها .

غير أننا مع هذا ، نرى أن الفضل يرجع إلى الفرنسيين ، في وضع النواة الأساسية للنشاط الصناعي والتجاري ، الذي ظهر بالبلاد فيما بعد ، فإن الفرنسيين اضطروا في مدة إقامتهم ، إلى إنشاء عدة معامل ومصانع لتكوين الجيش ، فكانت تخرج كميات كبيرة من البنادق والمدافع والبارود ، وقذرا عظيما من المنسوجات والجلود المدبوغة ، وما شاكل ذلك .

---



## الباب الثالث

### محمد علي الكبير

الحالة بمصر بعد جلاء الحملة

( من ١٨٠١ إلى ١٨٠٣ )

جلا الفرنسيون عن البلاد ، وتركوها فريسة للقوات التي كانت تعمل متضامنة على خلاصها ، وهذه القوات هي الأتراك والمماليك والإنجليز . اتفق الثلاث معا على غرض واحد ، هو طرد الفرنسيين من مصر ، ولكن لم يكده يتحقق هذا الغرض ، حتى بدأت تظهر مطامع كل فريق ، وأخذت تتضارب بعضها مع بعض . وكانت هناك بجانب ذلك قوتان ، هما فرنسا ، وزعماء الشعب ، وسيكون لكل منهما شأن خاص .

#### تضارب الخطط السياسية :

١ - موقف الحملة ١ -

لما كان الفرنسيون بمصر ، كانت السياسة الإنجليزية موجهة ضدهم ، لإخراجهم من البلاد ، وإعادة لها للسلطان صاحبها الشرعي . وقد بذلت إنجلترا مجهودات كبيرة في سبيل تحقيق هذه الغاية ، ولما كملت مجهوداتها بالنجاح ، وكانت الحوادث قد لفتت نظرها إلى أهمية مصر لمواصلاتها ، ترددت في الوصول إلى خطة سياسية معينة نحوها . غير أن أغلبية الآراء اتفقت على بقاء الجيوش الإنجليزية بمصر ، واحتلال الموانئ الشمالية على الأقل ، وذلك تأميناً لنفوذها في البلاد ، ومنعاً لوقوعها مرة أخرى في يد الفرنسيين . ولكن هذه الخطة كانت تقضي بالحصول على موافقة الباب العالي صاحب السيادة على مصر ، ومن ثم العمل على إرضائه ، ولهذا كن يضيرها أي تقرب بين تركيا وعدوتها فرنسا .



وكانت أمام الإنجليز طائفة المماليك ، الذين انضموا إليها في قتالهم ضد الفرنسيين ، بعد أن لوحوا لهم بالفوائد التي تعود عليهم من ذلك ، فكان على الإنجليز إذاً إظهار الود لهم والعطف على مطالبهم .

هكذا كان موقف الإنجليز أمام هذه القوات . ولما كانت سياسة هذه القوات متضاربة بعضها مع بعض ، أو مع السياسة الإنجليزية ذاتها ، وجدت إنجلترا نفسها في مركز دقيق ، فعولت على إبقاء قواتها بالحيزة والاسكندرية ، وترك المسألة للظروف .

أما فرنسا فأخذت تتقرب من تركيا ، بعد جلاء الحملة عن مصر ، وتعمل على إعادة روابط الصداقة القديمة بينهما ، واستمرت الحالة كذلك ، حتى تم بينهما الصلح النهائي عام ١٨٠٢ . وقد غضبت إنجلترا لهذه السياسة ، فأخذت تتوعد إلى المماليك وتناصرهم في طلباتهم لدى الباب العالي ، وتختصر في رغبتهم في إعادة الحالة في مصر ، إلى ما كانت عليه قبل الحملة . غير أن إنجلترا لم تنابر على اتباع هذه السياسة ، سياسة مناصرة المماليك ، لأنها كانت تحمل شأنهم أحياناً ، كلما بسمت لها تركيا .

أما الأتراك ، فكانوا ينقمون على إنجلترا توددها إلى هذه الطائفة ، كلما حدث ذلك ، لأنهم كانوا يريدون القبض على زمام السلطة الحقيقية في البلاد . وكانت خطتهم ترمي إلى إبادة بقية المماليك ، إن أمكن ، أو إلى إبعادهم عن مصر بأية حيلة .

### الصراع بين القوات الثلاث

(الأتراك والمماليك والإنجليز)

أخذت كل قوة من القوات الثلاث تتحين الفرص للإيقاع بالآخرى ، وكان الصدر الأعظم في خلال ذلك يسيطر على شؤون مصر ، وهو في مقره بالقاهرة ، ثم سعى في تقليد "مجد خسرو باشا" ولاية مصر ، وكان من أتباع القبطان باشا قائد العمارة العثمانية بأبي قير ، فكان أول وال عثماني عين بعد جلاء الفرنسيين .



بقى الوالى الجديد مقبلا بأبن قير ، وأرسل من ينوب عنه فى القاهرة . أما الصدر الأعظم فأخذ يعمل على الفرقة بين طوائف المماليك ، ويزيد فى هوة الخلاف بينهم ، تمهيدا للنضاء عليهم جميعا . وفعلا تأمر ضيا باشا والقبطان على الفتك بهم بطريق الحيلة والغدر ، ودر مؤامرة للإيقاع بزعمائهم والخلص منهم ، إما بالقتل وإما بالأسر ، وإرسالهم إلى الاسنانة حيث يقرر مصيرهم .

وقد نفذت المؤامرة (\*) ، ولم يكن الانجليز على علم بها ، فلما اتصل بهم الخبر استشاط القائد "هتشنسن" غضبا ، وأغلظ القول للقبطان باشا ، ثم أسر بفك أسير المعتقلين فى الحال ، وتسليم جثث القتلى ، وخضع الأتراك للأمر ، بعد أن كادت تنشب الحرب بينهم وبين الانجليز ، واحتفل بتشييع جنازة القتلى احتفالا عظيما ، وبذلك كسب الانجليز مودة المماليك ، وأقلع القبطان باشا إلى الاسنانة فى أواخر نوفمبر سنة ١٨٠١

أما المماليك ففقدوا كل ثقة بالأتراك ، وأخذوا ينظمون قواتهم ، دفاعا عن أنفسهم ، واستردادا لسلطتهم بقوة السيف . وفى أواخر يناير سنة ١٨٠٢ انتقلوا إلى الوجه القبلى ، ليستمدوا لمقاتلة الأتراك ، الذين أصبحوا بعد ذلك أصحاب السلطة فى القاهرة والوجه البحرى . ثم حضر خسرو إلى القاهرة فى ٢١ يناير سنة ١٨٠٢ ، وتسلم زمام الأمور بنفسه ، ورحل الصدر الأعظم إلى سوريا ، يصحبه جزء من الجيش العثمانى .

(\*) اتفق الاثنان على أن يدعو القبطان باشا "الطموورجى بك" خلف "مراد بك" هو وأتباعه لزيارة بآبن قير ، موهما إياهم بأنه سيتفق معهم على تسليمهم زمام الأمور فى البلاد حسب فرمان سلطانى ورد إليه . وكذلك يدعو الصدر الأعظم فى القاهرة "ابراهيم بك" وأتباعه لزيارته فى معسكره للقرض ذاته . فلما وصلت الدعوة إلى المماليك ترددوا فى الأمر كثيرا ، إلا أنهم بعد ذلك أجابوها وذهبوا لتأدية الزيارة المطلوبة . أما القبطان باشا فانه قابلهم بالبشر والترحاب ، ثم دعاهم إلى زيارة القائد الانجليزى فى إحدى البوارج وركبوا القوارب لهذه الغاية . ولما ابتعدوا عن الشاطئ لحق بهم قارب آخر يطلب القبطان للاطلاع على بعض الرسائل الهامة ، فاستأذن وانصرف ، ولما ابتعد قاربه هاجم البحارة والجند من كان بالقرب من زعماء المماليك ، فكان هناك نضال بين الفريقين انتهى بقتل بعض الزعماء ومنهم الطموورجى بك ، وجرح البعض الآخر ومنهم عثمان بك البرديسى ، الذى أصبح بعد ذلك زعيم المماليك المرادية بالاشتراك مع محمد بك الألفى . وقد نفذت المؤامرة كذلك فى القاهرة ، فقتل بعض المماليك وأسر البعض الآخر وأودعوا بمنجى القنعة .



## صلح أميان والجللاء :

وفي غضون ذلك ، كانت مفاوضات الصلح في أوروبا جارية بين فرنسا وإنجلترا ، وأفضت إلى عقد صلح " أميان Amians " بين الدولتين ، في مارس سنة ١٨٠٢ ، وتعهدت إنجلترا في هذا الصلح بجلء جيوشها عن مصر ، وتركها للسلطان صاحبها الشرعي ، ولكن بالرغم من هذا التعهد الصريح ، تلكأت إنجلترا في الجلء ، رغبة منها في البقاء ، واستمرت قواتها شتلة البلاد ، ولم تقبل عنها إلا في مارس ١٨٠٣ ، أمام إلحاح نابليون المتكرر .

\*  
\* \*

هكذا تضاربت أهواء القوات الثلاث ، مما أدى إلى صراع بينها ، ظهرت في خلاله قوة أخرى على مسرح هذا النضال ، تلك هي " قوة الشعب " ، التي كانت في حيز المهملات قبل مجئ الحملة . غير أن احتلال الفرنسيين لمصر أيقظ هذا الشعب النائم ، ففتح عيذه على حالة جديدة ، وبدأ يشعر بالحياة تدب في جسمه رويدا رويدا . على أننا لا يجب أن نغالي في أهمية تلك القوة وقدرها في ذلك الحين ، فانها لم تعد بعد ذات شأن يذكر كقوة قائمة بذاتها ، لأن مدة حكم الفرنسيين كانت قصيرة ، والتغيير في حال أي شعب من الشعوب لا يكون إلا بطيئا ، ولذلك أهملت القوات الثلاث شأنها .

ولكن رجلا حاد الذكاء ، توقع ماسيكون لما من أهمية ، فعقد النية على التقرب إليها ، واستغلها في مصلحته في الوقت المناسب ، ذلك هو " محمد علي الكبير " .

## نشأة محمد علي

في سنة ١٧٦٩ ، في بلدة " قولة " من ثغور مقدونيا ، ولد " محمد علي " ، من أبوين فقيرين ، وكان أبوه إبراهيم أغا شيخ الحراس ، المكلف حراسة الطرق ببلده ، ولم يشأ القدر أن يحفظ له من أولاده السبعة عشر غير محمد علي ، ومع ذلك فقد قست الظروف على الولد ، فمات أبواه وهو صغير ، لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره ، فتعهد به عمه طوسون بالرعاية والتربية ، ولكن لم يلبث أن مات العم ، تاركا ابن أخيه تحت رحمة القدر ، فساق له قلبا رحيا في شخص " الشوريجي " حاكم البلد ، فتولى تربيته وإعداده للحياة .



وقد زوجه حاكم قولة من قريبة له ، كانت لها ثروة واسعة ، وهي أم أولاده  
 ” ابراهيم وطوسون واسماعيل “ . وانصرف حينما يستغل ثروة زوجته في تجارة  
 الدخان ، وهي التجارة الرائجة في بلده إذ ذاك . وقد ساقته الظروف إلى التعرف



(مجد على الكبير)

بتاجر فرنسي من أهل مرسيليا ، كان مقبلا في قوله ، هو المسيو ” ايون “ فاشتدت  
 أواصر الصداقة بينهما ، وأخلص له هذا الفرنسي النصيح والإرشاد ، حتى تربت  
 لديه ملكة التجارة ، ونمت فيه روح الاقتصاد .



ولم تلبث الظروف أن ساقطت إليه الفرص لظهور عبقريته في ميدان آخر ،  
هو ميدان القتال . تلك هي الظروف التي نتجت عن الحملة الفرنسية على مصر ،  
فقد انخرط محمد علي في سلك الجيش العثماني الذي حضر إلى مصر ، واشتبك مع  
نابليون في موقعة أبي قير البرية ، التي تمزقت فيها القوى التركية شرممق . فعاد  
محمد علي إلى بلاده ، ولكن ما لبث أن سحب القوة البحرية العثمانية التي غزت  
مصر من الشمال ، تحت قيادة حسين القبطان باشا ، فوصل إلى مصر للمرة الثانية  
في أوائل سنة ١٨٠١

وقد اشترك محمد علي في الوقائع الحربية ، التي انتهت بجلاء الفرنسيين عن مصر ،  
وأظهر بسالة وشجاعة فائقة ، وخاصة عند مهاجمة الرحمانية ، وكان قد عهد إليه  
بمهاجمة القلعة واحتلالها ، فساعدته الحظ وكلت مجهوداته بالنجاح . وأخذ يرتقى  
إلى مراتب الضباط ، فنال رتبة " بكاشي " قبل جلاء الفرنسيين ، ومنح رتبة  
" لواء " في أواخر سنة ١٨٠١ ، وبقي منذ ذلك الحين بمصر .

### تولية الحكم

( من ١٨٠٣ إلى ١٨٠٥ )

#### ولاية خسرو باشا :

لم يلبث خسرو طويلا حتى أرسل جيشا إلى الصعيد لمقاتلة المماليك ، غير  
أن هؤلاء وحدوا كلمتهم وجهودهم أمام الخطر المشترك ، واشتبكوا مع الأتراك  
في موقعة كان النصر فيها لحليفهم ، ثم زحفوا على الوجه البحري ، واتصلوا بالإنجليز  
في الاسكندرية . وفي ٢٠ نوفمبر سنة ١٨٠٢ ، هزموا الأتراك مرة أخرى عند  
دمهور .

ولكنهم لم ينجحوا ثمرة انتصارهم ، وذلك لأن القوات الانجليزية أقلعت من  
الاسكندرية ، في مارس سنة ١٨٠٣ ، تنفيذا لشروط صالح أميان ، وقد صحبها  
محمد بك الألفي عند رحيلها . وبجلاء الانجليز أصبحت الاسكندرية في قبضة  
الأتراك ، فلم تعد ملجأ للماليك ، ولهذا قرروا الانسحاب إلى الوجه القبلي ، حيث



أخذوا يهاجمون قوات الأتراك ، فذعر خسرو وعزم على تجريد حملة ضدهم ، واستدعى لذلك الألبانيين بقيادة أحمد طاهر باشا ومحمد علي ، فدخلت جنود طاهر المدينة ، وبقيت جنود محمد علي خارجها . ورأى محمد علي أن الفرصة قد منحت للتخلص من خسرو ، فأوعز هو وطاهر إلى الجنود بالمطالبة برواتبهم المتأخرة ، وصادف ذلك هوى في نفس الجنود ، وخاصة لما علموا أنهم مرسلون للقتال في الصعيد . أما خسرو فلم يستطع إجابة مطالبهم ، ولما ثارت ثائرتهم أمر بضربهم بالمدافع من القلعة ، ولم يقبل توسط طاهر في الأمر ، فأنتهى النزاع باستيلاء طاهر وجنوده على القلعة ، وفرار خسرو إلى دمياط ، حيث أراد أن يستعد لاسترجاع مركزه . ولكن ولايته الفعلية انتهت بفراره ، وقد وصفه الجبرتي بقوله " إنه كان سيئ التدبير لا يحسن التصرف ، يميل إلى سفك الدماء ، ولا يضع شيئا في محله " .

عند ذلك جمع طاهر باشا رؤوس العلماء وأبرز الأعيان للتشاور في الأمر ، اتفقوا على أن يكون طاهر نائبا عن الوالي ، حتى يصدر أمر السلطان بتعيين من يراه ، وكان ذلك في مايو سنة ١٨٠٣ . غير أن طاهر لم يتمتع بمركزه الجديد طويلا ، حتى وجد نفسه في مركز سلفه ، إذ عجز عن دفع رواتب الجند المتأخرة ، فثاروا عليه واهتالوا ضابطان من ضباط الانكشارية ، ولم تدم مدة حكمه سوى اثنين وعشرين يوما .

وفي خلال ذلك ، كانت قوات المماليك خارج القاهرة ، وكان قد استدعاهم طاهر قبل مقتله ، لمفاوضتهم في عقد صلح معهم ، وكان في ضواحي القاهرة كذلك محمد علي وجنوده الألبانيون ، ولكن الانكشارية أرادوا انتهاز الفرصة للسيطر على البلاد ، فاخترأوا أحمد باشا والي المدينة المنورة واليا على مصر ، وكان موجودا إذ ذاك بالقاهرة ، في طريقه إلى مقر ولايته .

### تحالف محمد علي والمماليك :

حاول أحمد باشا أن يسترضي " محمد علي " ، الذي أصبح قائد الجنود الألبانيين بعد طاهر باشا ، وكان يقرب عددهم من ٤٠٠٠ مقاتل ، ولكنه لم يجبه إلى طلبه ، بل تودد إلى المماليك ، وقابل إبراهيم بك في الجيزة ، وعقد معهم صلحا ،



ودخل الجميع القاهرة وطردهوا أحمد باشا والانكشارية وتسلموا زمام السلطة .  
ومن هذا الوقت بدأ محمد علي يظهر في الميدان السياسي ، ولو أنه كان في أول  
الأمريعمل من خلف ستار ، فترك السلطة الظاهرة في يد "عثمان بك البرديسي" ،  
وبقي هو القوة المحركة في الخفاء . وقد بدءوا عهدهم ، بإلقاء القبض على خسرو  
وسجنه في القلعة .

وفي خلال ذلك ، كانت الأخبار قد وصلت إلى الاستانة ، تحمل نبأ فرار  
خسرو وتحالف محمد علي مع المماليك ، وكان لها أسوأ وقع في النفوس ، ولذلك  
عزم السلطان على استعادة سلطته ، فعين "علي باشا الجزائري" واليا على مصر ،  
ليكبح جماح المماليك ويعيد السيطرة العثمانية على البلاد ، غير أن المماليك طرده  
من مصر ، وقتلوه وهو في طريقه إلى سوريا ، في يناير سنة ١٨٠٤ ، وكان في مقتله  
القضاء على هيبة الدولة في مصر . وبهذا تخلص محمد علي من إحدى القوتين ، اللتين  
يريد القضاء عليهما ، وأخذ في العمل لسحق الثانية .

لم يكف يتخلص محمد علي والبرديسي من علي باشا ، حتى ظهر منافس جديد في شخص  
محمد بك الأنفي ، الذي كان قد رافق الانجليز إلى لندن ، عند جلائهم عن  
الاسكندرية ، ومكث هناك مدة من الزمن ، يسعى للحصول على مساعدة انجلترا  
لبسط نفوذه في مصر ، نظير أى امتيازات تطلبها . غير أنه لم يستفد كثيرا من  
رحلته إلى لندن ، لان الحكومة الانجليزية لم تر إمداده بأية قوة لمساعدته ، خوفا  
من إغضاب تركيا ، فرجع الأنفي من انجلترا ونزل بأبي قير ، في ١٢ فبراير سنة ١٨٠٤  
وخاف محمد علي عاقبة الأمر ، ولكن الله قبض له البرديسي ليخلصه منه ، وذلك  
أن عوامل الحسد دفعت البرديسي إلى البقاء في جانب محمد علي ، وتمسك في النهاية  
من تشبثت شمل الأنفي وأتباعه ، ففروا إلى الصعيد ، يستجمعون قواهم  
من جديد .

### التخلص من المماليك :

بعد أن تخلص محمد علي من الأنفي ، عزم على التخلص من زميله البرديسي  
وابراهيم بك ، وهما اللذان استعملهما آله لتحقيق اغراضه ، وبدأ بمطالبة البرديسي  
بدفع رواتب جنده المتأخرة ، وإلا اضطر أن يتركه وحيدا أمامهم ، فما كان من



البرديسي إلا أن أبي الطلب صاغرا ، وأمر بجمع المال اللازم من التجار والأهالي ، واستعمل القسوة في جمعه فاستاء الأهالي منه . وانتهر محمد على هذه الفرصة ، وأظهر استياءه من هذه المعاملة ، ووعد الأهالي بالتوسط لدى المماليك لرفع الحيف عنهم ، فأحبه الناس كثيرا ومالوا إليه . فانتهر هذه الفرصة ، وجمع جنده وأتباعه ، وحاصر قصر البرديسي ، في فجر يوم ١٢ مارس سنة ١٨٠٤ ، ولكن البرديسي وأبراهيم بك تمكنا من الفرار إلى سوريا . وقتل في ذلك اليوم عدد كبير من المماليك وأجنادهم ، في القاهرة وغيرها من أمهات مدن القطر . أما الضريبة التي سببت هذه الحوادث ، فقرر محمد على إلغائها في اليوم التالي .

### ولاية خورشيد باشا :

أصبح الطريق ممهدا في الظاهر أمام محمد على ، لاعتلاء عرش الولاية المصرية ، فبرأه رأي بتأقب نظره أن الفرصة لم تسنح كاملة بعد ، لتحقيق غرضه النهائي ، وذلك لأنه كان موقنا أن المماليك لا بد مجتمعون للتخالف ضده ، وأن جنوده الألبانيين لا يقوون لقسلة مددهم على مقاومة تلك القوة المتحدة ، الخبيثة بأحوال البلاد وعاداتها . هذا إلى أن الباب العالي كان ساخطا عليه ، يعتبره شريكا للمماليك في القضاء على سلطة الدولة في مصر . فلكل هذا رأى إرجاء الخطوة الأخيرة حتى يحين حينها ، وعمد إلى القلعة وأخرج خسرو من سجنه ، وأعادته إلى مركز الولاية . ولقد برهن للشعب بعمله هذا ، على أنه لم يكن يرمى إلى مصلحة شخصية ، وكذلك أظهر للباب العالي أنه إنما اتبع تلك السياسة ، لكي يتمكن من القضاء على سلطة المماليك بالحيلة والدهاء . ولكن خطته كادت أن تفشل ، لأن الجنود لم يرضوا بخسرو واليا عليهم ، وأرغموه بعد ثلاثة أيام على السفر إلى رشيد ، ثم الإقلاع إلى الآستانة ، ولكن سرعان ما استقر رأي محمد على والعلماء وزعماء الجنود ، على تعيين " خورشيد باشا " حاكم الاسكندرية ، في منصب الولاية ، فحضر إلى القاهرة وتسلم منصبه الجديد ، في أواخر مارس سنة ١٨٠٤ .

وفي أثناء ذلك ، كان المماليك قد اتحدوا وجمعوا قواهم لمناوأة الأتراك ، واستمرت الحرب بين الفريقين سجالا عدة أشهر ، حتى تراجع المماليك إلى الصعيد . وكان خورشيد يرى في شخص محمد على منافسا قويا له من أول الأمر ، ولهذا



عزم على التخلص منه ، حتى يصفو له الجو ، فاستصدر فرمانا من السلطان ، يستدعي "محمد علي" وجنوده الألبانيين إلى بلادهم . وفهم محمد علي المكيدة ، فتظاهر بالخضوع وأخذ يستعد للسفر ، إلا أن العلماء طلبوا منه البقاء بإلحاح ، لأنه حاميم والمدافع عنهم ، فأعلن عزمه على البقاء لإرضاء لهم ، وأخفق خورشيد في غرضه .

غير أنه عزم بعد ذلك على إبعاده عن القاهرة ، فأرسله إلى الصعيد لمقاتلة المماليك ، حتى يصيب عصفورين بحجر واحد . وفي أثناء غيابه عن القاهرة ، أخذ خورشيد يدبر الوسائل للتخلص منه ، فأرسل إلى الآستانة يطلب جيشا يساعده على تحقيق غرضه ، فأرسلوا له جيشا كان من أسوأ رجال الدولة وأردأ عناصرها . وقد تجمع هذا الجيش في سوريا ، ثم يمم وجهه نحو مصر ، وهو في حالة يرثى لها من الجوع والعري ، ولم يكدرى أرض وادى النيل ، حتى بدأ رجاله النهب والسلب ، وإتلاف الأملاك ، وإزهاق الأرواح .

ولم يكدرى يتصل خبر وصول هذا الجيش بأسماع محمد علي ، حتى قفل راجعا إلى القاهرة على عجل ، وتمكن من استمالة رجاله بالأموال والهدايا ، فلم يعترضوا سبيله ، ودخل القاهرة دخول المنتصر الظافر ، في إبريل سنة ١٨٠٥ ، وأصبح أمام خصمه ومنافسه وجها لوجه ، وأمر جنده أن لا يشتركوا في أعمال السلب والنهب ، التي ضج الناس منها بالشكوى ، واعتبروا الوالى المسئول عنها . وفي غضون ذلك ، وصل فرمان بتعيين محمد علي واليا على "جدة" ، ولكنه فهم المقصود منه ولم يلتفت إليه .

### تولية محمد علي :

استمر جنود خورشيد في طغيانهم وارتكاب جرائمهم ، حتى ضاق بهم الناس ذرعا ، واتفقت كلمة زعماء الشعب على عزل خورشيد ، وتعيين محمد علي مكانه ، وذهبوا إلى دار محمد علي في جمع حاشد ، وأخبروه الخبر ، وطلبوا منه أن يكون واليا عليهم بشروطهم ، فأظهر محمد علي شيئا من الامتناع في أول الأمر ، غير أنه عاد فقبل ، ونهض السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوى وألبسوا "الكرك والقفطان" ، وهما شارة الولاية ، وكان ذلك في ١٣ مايو سنة ١٨٠٥ ، وبذلك تم انقلاب خطير في نظام الحكم في مصر .



وذهب وقد بعد ذلك إلى القلعة ، يحمل إلى خورشيد القرار بعزله وتولية محمد علي ، ولكنه احتقر شأنهم ، وأبى أن يعزل "بأمر الفلاحين" ، فنشب القتال بين الفريقين ، واستمر كذلك حتى وصل إلى القاهرة في يولييه سنة ١٨٠٥ فرمان يتضمن تثبيت محمد علي في الولاية على مصر ، "حيث رضى بذلك العلماء والرعية ، وأن خورشيد باشا معزول من ولاية مصر". عند ذلك خضع خورشيد وسلم القلعة ، ثم رحل عن البلاد ، فكان آخر وال عثماني حكم مصر بإرادة الدولة .

### توطيد سلطته

(من ١٨٠٥ إلى ١٨٠٧)

حقق محمد علي غرضه الأول ، وهو الوصول إلى عرش الولاية ، ولكن كان بينه وبين توطيد سلطته عدة صعوبات ، كان لابد من التغلب عليها قبل أن يهدأ له بال ، وهذه هي : الصعوبة المالية ، وخطة الباب العالي ، وبنفس الممالك ، واطماع الإنجليز .

### الصعوبة المالية :

تولى محمد علي زمام الأمور في البلاد ، والخزينة خاوية ، فكان في حاجة شديدة إلى المال ، لتسديد الأمور ، طريقة تتفق مع موقفه بإزاء الشعب وزعمائه ، ومحاربة الممالك الذين كانوا محاصرين القاهرة نفسها ، ولدفع رواتب الجند المتأخرة ، حتى لا يقع في نفس الحيرة التي وقع فيها أسلافه ، ثم لإرضاء الباب العالي بالهدايا والمال . ولما كان لا يستطيع أن يحصل على أموال عن طريق جباية ضرائب من الفلاحين ، إذ كانت معظم الأراضي في قبضة الممالك ، لجأ إلى المشايخ والأعيان ، فأعانوه بمبلغ كبير من المال . وكذلك حصل على بعض المال من أقباط القاهرة ، وذلك أنه لجأ إلى فحص دفاتر الحساب التي في عهدتهم . فوجد بها اختلافا لا يقل عن عشرين ألف جنيه ، وأجبرهم على دفعها ، وبذلك تغلب على الصعوبة الأولى .



## خطة الباب العالي :

قبل الباب العالي على كره منه تعيين محمد علي واليا على مصر ، فأخذ يتحين الفرص لطرده ، ولذلك فإن أمير البحر التركي ، الذي أحضر فرمان التولية ، بقي بمارته في المياه المصرية ، وأخذ يتصل بالممالك ، غير أن "محمد علي" تمكن من التخلص منه ، في أكتوبر سنة ١٨٠٥ ، بتقديم الهدايا الكثيرة إليه . ولكن لم يلبث طويلا حتى عاد ، ومعه "موسى باشا" والي سالونيك ، ليحل محل محمد علي ، الذي قرر السلطان نقله مكانه ، فتظاهر محمد علي بالخضوع للأمر ، وأخذ أمير البحر يتصل بالألفي ، الذي غمره بالهدايا . ولكن سرعان ما تبين له ، أن الممالك منقسمون على أنفسهم ، فبدأ ينصرف عنهم إلى معاضدة محمد علي ، الذي ساعد الحظ قضيته ، بنشوب حرب في ذلك الوقت بين روسيا وتركيا ، على أثر تقرب الأخيرة من فرنسا عام ١٨٠٦ ، اضطر معها الأتراك إلى استدعاء عمارتهم إلى المياه التركية ، فأجزل محمد علي العطاء إلى القبطان ، وأرسل الهدايا إلى السلطان ، متعهدا بدفع كل ما كان مطلوبا من الممالك . وضمنا لتنفيذ تعهده ، بعث بابنه ابراهيم إلى الآستانة ، فوصل فرمان بتثيته في ولاية مصر ، في نوفمبر سنة ١٨٠٦ .

## خطر الممالك :

كان الممالك يحاصرون القاهرة في مبدأ ولاية "محمد علي" ، فكانوا حائلا دون تثبيت سيادته في أنحاء البلاد ، ولذلك لجأ إلى الحيلة للتخلص منهم ، فاستطاع أن يغرد بهم ، ويقتل منهم عددا كبيرا في أغسطس سنة ١٨٠٥ ، غير أن سلوك "محمد علي" زاد في كرههم له ، فلموا شعهم تحت زعامة الألفي والبرديسي ، ثم أثاروا على قوات محمد علي في الوجه البحري ، وتغلبوا عليها ، وأخيرا حاصروا دمنهور ، غير أن الأهالي استماتوا في الدفاع عنها ، وأخذ "محمد علي" يستعد للقضاء على مدويه العظمين ، ولكن الحظ كفاه مؤونة الاستعداد والنضال ، إذ أراحه الموت من الزعيمين ، فمات البرديسي بالحمى في أكتوبر سنة ١٨٠٦ ، ومات الألفي في يناير سنة ١٨٠٧ ، وكان موتها نذيرا بتفرق أتباعهما ، وفرار معظمهم إلى الصعيد .



## الحملة الانجليزية عام ١٨٠٧

### أسباب الحملة :

يرتبط تاريخ هذه الحملة ، بتاريخ التطور الذي حدث في السياسة الأوروبية ،  
قيل إنفاذها إلى مصر ، وذلك أن نفوذ فرنسا بدأ يزداد في الآستانة منذ أوائل  
سنة ١٨٠٦ ، فساء هذا التقرب كلا من روسيا وانجلترا ، اللتين كانتا في حالة  
حرب مع فرنسا . ولهذا فانهما حاولتا أن تقضيا على نفوذ فرنسا في تركيا ، فلما  
لم تجد محاولتهما السياسية نفعا ، تسرعت روسيا فأعلنت الحرب على تركيا ،  
أما انجلترا فانها رأت أن تحاول تنفيذ عزمها بطريق الإرهاب أولا ، فأرسلت  
جزءا من أسطولها إلى المياه التركية لهذه الغاية . ولما رفض السلطان إجابة  
المطالب الانجليزية ، أرسل أمير البحر الانجليزى إلى الجنرال " فريرز Fraser "   
بجزيرة صقلية ، يأمره بالاستيلاء على الاسكندرية ، ولما رأى أن الأتراك  
جادون في تحصين الدردنيل ، قرر أن يفلت من هذا المأزق ، فقفل راجعا  
بأسطوله من المياه التركية ، وقد أصاب بعض سفنه شيء من العطب عند  
انسحابه .

### أغراض الحملة :

كان غرض الحملة الأساسى احتلال الاسكندرية ، خوفا من وقوعها ووقوع  
مصر كلها في يد الفرنسيين مرة أخرى ، خير أن قائد الحملة كان في حل من  
التدخل في شؤون البلاد ، واحتلالها " إن أمكن " ، بالاتصال بالمماليك .

### الحملة :

وصلت الحملة بقيادة " فريرز " أمام الاسكندرية ، في مارس سنة ١٨٠٧ ،  
واستولت على المدينة بسهولة ، ثم أرسل الانجليز حملة صغيرة احتلت رشيد ،  
بعد أن أخذت حاجتها على غرة ، ولكن ما كاد يستقر بالفاتحين المقام ، حتى  
انصبحت عليهم النيران من البيوت ، فقتل منهم عدد كبير وفر الباقون .



وفي خلال ذلك كان محمد علي في الصعيد يقاتل المماليك ، فلما بلغه الخبر جزع له أولا ، ثم هدأ روعه ، وأخذ في مفاوضة المماليك لعقد صلح معهم ، على شرط أن يقاتلوا الانجليز معه ، ثم ترك العلماء وبعض الفرنسيين ليتموا شروط الصلح ، وأخذ يستعد لملاقاة الانجليز .

وفي أثناء ذلك أرسل الانجليز حملة أخرى لتستولي على رشيد . غير أنها هزمت عند "الحمد" جنوبي رشيد ، وتقهقر رجال الحملة إلى الاسكندرية ، حيث أمر "فريزر" بقطع سد بحيرة مريوط ، وأحيطت الاسكندرية بالماء الملح كما حدث عام ١٨٠١ . وبقي الانجليز بالشعر ينتظرون ما يقوم به مماليك الألفى ، الذين انتخبوا "شاهين بك" خلفا له ، غير أن هؤلاء كانوا منقسمين على أنفسهم ، وكانوا يكرهون بعضهم البعض أكثر من كراهيتهم لمحمد علي ، ولهذا أفلح العلماء والفرنسيون في إقناعهم بضرورة الصلح ومقاومة عدو البلاد . ومع ذلك فإن انهزام الانجليز في شمال الدلتا ، كان أكبر مشجع للمماليك على عقد الصلح مع محمد علي . وما كاد يتم هذا ، حتى سارت جيوش الوالي إلى الشمال ، تقصد الدفاع عن البلاد ضد الانجليز ، حتى وصلت إلى دمنهور ، ولشد ما دهش محمد علي عندما جاءه رسل الانجليز يطلبون عقد الصلح ، وتم ذلك فعلا "باتفاقية دمنهور" ، وفي سبتمبر سنة ١٨٠٧ أقلت الحملة من الاسكندرية .

أما الذي دفع الانجليز إلى طلب هذا الصلح ، فهو خروج روسيا من صفهم ، بعقدها صلح "تيلست Tilsit" مع نابليون ، في يولييه سنة ١٨٠٧ ، وقد أعقب ذلك صلح بين إنجلترا وتركيا ، على أساس الجلاء عن مصر .

### نتائج الحملة :

نرى من ذلك أن الحظ قد خدم "محمد علي" خدمة كبيرة ، وكان لجلاء الانجليز عن البلاد رنة فرح عظيمة ، وظهر محمد علي في نظر الأهالي بمظهر المتقذ للبلاد والحايمي ذمارها ، فألوه لذلك محبة أزيد وإخلاصا أكثر . أما الباب العالي فسر لهذه النتيجة ، وأظهر رضاه عن محمد علي ، بأن أهداه خلع وسيف شرف ، وأمر بإرجاع ابنه إبراهيم إليه ، وكان معتقلا في الآستانة ، كما منحه حكومة السواحل المصرية ، وكانت حتى ذلك الوقت تحت حكم السلطان مباشرة . ولا يخفى ما كان لهذه المنح من أثر في تثبيت سلطته في ولايته .



## نهضته بمصر

### سياسة محمد علي الداخلية :

قام "محمد علي" بعدة إصلاحات عظيمة الشأن جليلة الفائدة ، واسعة النطاق ، كانت أساسا لتقدم البلاد ، ولا بدع إذا عد محمد علي منسئ مصر الحديثة ، فإن مصر في عهد المماليك ، لم تخرج عن كونها كانت دولة في العصور الوسطى ، في جميع مناحي الحياة . فلما جاءت الحملة الفرنسية أخذت تهدم ما وجدت من صروح بالية ، إلا أن عصر تلك الحملة لم يطل ، فلم تكن المدة التي أقامتها كافية لتنظيف الأرض ، وإقامة صروح جديدة ، تتفق مع روح العصر الحديث . وقد وقعت هذه المهمة على عاتق محمد علي ، فقام بها خير قيام ، وانتقل بمصر شوطا كبيرا في سبيل المدنية ، ولذلك نستطيع أن نعتبر عصر الحملة كقنطرة ، انتقلت عليها مصر من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة ، ومن هنا نعرف أن مهمة محمد علي في الإصلاح كانت مهمة وعرة شاقة .

وقد وضع محمد علي لنفسه خطة واضحة للسير عليها ، وهي تقوم على قواعد ثلاث : أولها رغبته في الانفراد بالحكم ، وثانيها عزيمته على تعزيز مركزه ، وثالثها عمله على زيادة موارد الثروة في بلاده .

### الانفراد بالحكم

كان "محمد علي" يطمح أن يكون الحاكم المطلق المتصرف في شؤون البلاد المصرية ، وبذلك لا يدع مجالا لأي فرد آخر أن يتدخل في تصرفاته ، أو يشاركه في السلطة مشاركة أيا كان نوعها ، وقد زادت تلك الرغبة في نفسه بعد أن ساعده الحظ في التخلص من الحملة الانجليزية الأخيرة . ولكي يصل إلى غرضه رأى أن يتخلص من ثلاث قوات خطيرة ، هي : المماليك ، وجنده الألبانيون وزعماء الشعب ، وسنرى فيما يلي كيف عمل على القضاء على كل منها :



## القضاء على المماليك :

كان "مجد على" موقنا أن الجولا يصفو له ، إلا إذا تغلب على المماليك وأخضعهم لسلطته ، وكان يبلغ عددهم في ذلك الحين نحو ٢٥٠٠ مقاتل ، فركن إلى استعمال الحيلة والتودد ، حتى أمكنه استمالة "شاهين بك" ، على أن يمنحه بإيراد إقليم الفيوم وجزء كبير من البحيزة وبني سويف ، وأن يقيم في قصر أعد له بالبحيزة ، وكان ذلك في ديسمبر سنة ١٨٠٧ . ثم استمر في استمالة غيره من زعمائهم ، ونجح إلى حد كبير ، حتى أصبحت الحالة في الصعيد هادئة نسبيا ، غير أنهم تألبوا عليه عدة مرات بعد ذلك ، وكان في كل مرة يكسر شوكتهم ، وأخيرا تقدموا إليه يطلبون العفو ، فعفا عنهم وسمح لهم بالإقامة في القاهرة ، في أكتوبر سنة ١٨١٠ ، وأخذوا ينصرفون منذ ذلك الحين عن حياة القتال والضال ، إلى حياة السرور والأفراح .

وفي غضون ذلك ، كان السلطان يلح على مجد على في قبول مهمة إخضاع بلاد العرب الثائرة ، وفتح طريق الحج ، فقبل الوالى هذه المهمة في النهاية بعد تردد شديد ، وأخذ في الاستعداد للقيام بها . ولكن الوسواس أخذت تخامرهم من جهة المماليك ، الذين نازعوه السلطة عدة سنين ، والذين ما انفكوا يضمرون له السوء . ففكر في المتك بهم عن طريق الحيلة ، واتخذ من الحملة الحربية وسيلة لتنفيذ غرضه ، فوجه الدعوة إلى كبار رجال الدولة ، وإلى زعماء المماليك وأتباعهم ، ليحضروا إلى القلعة في يوم الجمعة أول مارس عام ١٨١١ ، للاشتراك في الاحتفال بتقليد ابنه أحمد طوسون باشا رئاسة الحملة إلى بلاد العرب . فلما كان ذلك اليوم ، اجتمع المدعوون وبيدهم حمسات من المماليك ، ولم يكن الموكب يسير قليلا ، حتى أعمال الجند سيوفهم في رقاب المماليك ، وأما رؤسهم وأبلا من الرصاص من كل صوب ، فكانت القاضية عليهم .

ولم يكن خبر "مذبحة القلعة" يصل إلى الجمهور ، حتى فتر الجمع من الأماكن العامة وأخذ الكثير من الجند ينيرون ويقتلون ، تحت ستار البحث عن المماليك ،



واستمرت هذه الحالة طيلة يوم الجمعة إلى يوم السبت . ولم تهدأ الحالة في القاهرة ، إلا بعد نزول محمد علي وابنه طوسون إلى شوارع المدينة ، يتزلان العقاب بأى جندى يعيث بالأمن والأرواح . وأما في الأقاليم ، فكانت الأوامر



(محمد علي ومذبحة القلعة)

قد صدرت للحكام باقتفاء أثر المماليك ، وقتل كل من يعثرون عليه ، ولم ينج منهم إلا من فر إلى بلاد النوبة فدنقلة ، أو إلى بلاد الشام . ويبلغ عدد من قتل من المماليك في هذا الظرف نحو ألف مملوك ، وبذلك قضى على هذه الطائفة ، التي طالما عانت في الأرض فسادا . أما أولادهم فقد أدخلهم محمد علي في خدمته ، في حين أن زوج نساءهم لأعوانه وضباط جيشه .

### الجنود الألبانيون :

بعد أن تخلص "محمد علي" من الحملة الإنجليزية ، عزم على إنفاذ قوة كبيرة إلى الصعيد ، لمقاتلة المماليك ، ولكنه علم وهو في الإسكندرية أن الجنود قد نزعوا إلى التمرد والعصيان ، ولجئوا إلى النهب والقتل في القاهرة والأقاليم ، ففزع لهذا الخبر وصمم على تأديبهم ، فأسرع في الحضور إلى القاهرة ، حيث تقدم إليه الناس بشكاويهم من أعمال الجند ، وفكر في التخلص منهم ، سيما وأنه كان قد تخلص من قبل من أشد عناصرهم جنوحا إلى التمرد ، بإرسالهم إلى سوريا .



والواقع أن العناصر غير النظامية في جيوشه ، كانت خطرا يهدد النظام والأمن ، بل يهدد الوالى فى شخصه وحياته ومملكه ، فهم جنود لم يعتادوا الطاعة ، بل

كانوا أقرب إلى الفوضى منهم إلى النظام ، وكانوا ينظرون إليه نظره إلى واحد منهم ، لا يفترق عنهم إلا برتبته العسكرية ، ولهذا كانوا أقرب إلى إطاعة أهوائهم منهم إلى إطاعة رؤسائهم .



( اثنان من الجنود الألبانيين )

وقد وصل بهم التهور حدا أدى إلى تمردهم عليه ، فى أكتوبر سنة ١٨٠٧ ، إذ تجهروا أمام سرايه وأرادوا قتله ، ولم ينقذه من الموت ، إلا فراره إلى القلعة ليلا . واستطاع أن ينجد فقتلهم ، بإعطائهم جزءا من مرتباتهم المتأخرة ، ولكن بعد أن عاثوا فى البلاد فسادا سبعة أيام متوالية .

واتهز "محمد على" هذه الفرصة ، وأمر بنفى زعمائهم ، أما بقية الجنود ، فإنه استرضاهم ، على أن يعمل على التخلص منهم فى أقرب فرصة .

### زعماء الشعب :

رأى "محمد على" كذلك أن يقضى على سلطة زعماء الشعب ، وهم الذين ولوه عليهم بشروطهم . وقد ساعده الحظ بظهور عوامل التنافس والتشاحن بينهم ، مما مكنه من التخلص من أكبر زعمائهم ( السيد عمر مكرم ) بنفيه سنة ١٨٠٩ إلى دمياط ، وبذلك ضعفت قوتهم .



## تعزير مركزه

(تكوين الجيش المصرى وبناء القوة البحرية المصرية)

رأى "محمد على" أن آماله لا تتحقق ، إلا إذا استندت إلى قوة ثابتة ، هي قوة الجيش والأسطول ، فبذل جهده فى تكوين جيش عظيم وأسطول قوى ، يستطيعان أن يردا عنه عادية الأعداء ، ويستطيع أن يحقق بهما ما كان يحول بصدوره من آمال .

## الجيش

كان "محمد على" موقنا ، أنه لا يستطيع أن يعتمد على جنده الألبانيين ، فى تحقيق أغراضه ، وقد كانوا بالحالة التى وصفناها . ولذلك كن شديدا الرغبة فى أن يكون له جيش مدرب على حسب الأنظمة الأوروبية الحديثة ، وأخذ يتحين الفرص لتنفيذ هذه الرغبة . ولم تلبث أن جاءت الحروب فى بلاد العرب ، فتخلص فيها من عدد كبير منهم ، وفى أغسطس سنة ١٨١٥ حاول تنفيذ فكرته ، ولكنه فشل أمام عنادهم وإجماعهم . غير أن الفرصة المناسبة جاءت بعد أن عاد ابنه إبراهيم باشا ، متصرا من بلاد العرب ، فقد صمم محمد على إذ ذاك على العمل ، وكان من حسن حظه ، أن وصل إلى مصر فى هذا الوقت ضابط فرسى ، يدعى "Seves" سيف ، قدم نفسه لمحمد على بخطاب توصية ، فقبله فى خدمته ، ووجد فيه ضابطا قديرا وخادما مخلصا ، وعهد إليه بمهمة تكوين الجيش الجديد .

وقد وقع الاختيار على أسوان ، لتكون مقرا للدراسة الحربية الأولى التى أنشئت بمصر ، فتوجه "سيف" إليها عام ١٨٢٠ ، ومعه نحو ألف من شبان المماليك أتباع محمد على ، وهناك فى جو هادئ أخذ يدرّب تلاميذه على الأنظمة الحديثة ، ليكون منهم النواة الأولى للجيش . وقد أظهر "سيف" همة تشكر فى الثام بأعباء وظيفته ، وتمكن بفضل ذلك وشجاعته من اجتذاب تلاميذه نحوه ، فأحبوه ، وعلى الأخص عندما أعلن إسلامه ، وأصبح يعرف باسم "سليمان باشا الفرنساوى" .



واستقر الرأي بعد ذلك على أن يكون الجند الجدد من السودانيين ، اعتقادا في شجاعتهم وصبرهم على المصاعب ، فاستورد محمد علي نحواً من ثلاثين ألف رجل



(سليمان باشا الفرنسي)

من السودان ، وأخذ الضباط يقومون بتدريبهم على الأعمال العسكرية ببلدة "بني عدى" قرب منفوط. ولم يأت عام ١٨٢٤ ، حتى شهدت مصر جيشاً منظماً كامل العدة ، يستطيع خوض غمار القتال . غير أن التجارب دلت على أن السودانيين لم يقووا على احتمال المتاعب بعيداً عن بلادهم ، مما جعل "محمد علي" يلجأ إلى تجنيد المصريين .

وبالرغم من شدة كراهية المصريين للجندية ، وفرارهم إلى بلاد العرب وسوريا ، وتشويه أنفسهم ، تخلصاً

منها ، استمر محمد علي في التجنيد منهم ، حتى أنه كان يقود الكثيرين إلى نكبات الجيش في السلاسل والأغلال . ولكن هذا الكره الشديد أخذ يقل بالتدريج ، لما رأى الناس أناقة الملبس العسكري ، وبروز شخصية الجندى ، ورغد عيشه بالنسبة لبقية الفلاحين . وقد أظهر المصري شجاعة وهمة في الحرب ، وحباً للنظام ، وطاعة للرؤساء ، حتى أصبح الجيش المصري من أحسن جيوش العالم مقدره ونظاماً .

وقد كان لتكوين الجيش المصري ، أثر كبير في خارج مصر ودخلها ، أما في الخارج فقد كان عماد محمد علي في حروبه المتعددة ، التي أحرز فيها النصر ، ووسع أملاك مصر ، وكون أمبراطورية عظيمة . أما في الداخل ، فقد كفى البلاد شر تلك الفئات الطاغية ، التي كانت تتكون منها جيوش محمد علي الأولى ، تلك الجيوش التي لم يكن يهمها غير النهب والسلب والقتل . ولا ننسى أن انحراط الفلاح في سلك الجندية ، وما يقتضيه هذا من نظافة وأناقة ونظام ، قد نرجح به من حياة الضعف والاستكانة ، التي كان يحياها في قريته ، إلى حياة العزة والشجاعة ، التي أخذ يألفها في نكبات الجيش وميادين القتال .



## الأسطول :

ووضعت النواة الأولى للبحرية المصرية ، في عصر "محمد علي" ، أيام الحروب في بلاد العرب ، إذ اضطرته هذه الحروب إلى إنشاء أسطول ، ينقل الجنود من السواحل المصرية إلى تلك البلاد ، ويكون حلقة اتصال بين مصر وميادين القتال . ثم أخذ في تقوية الأسطول بالحديد ، بشراء السفن من البلاد الأجنبية ، واشترك هذا الأسطول في بعض الحروب ، ولكنه حطم في إحدى المواقع البحرية عام ١٨٢٧ ، فلم يثن هذا من همة محمد علي العظيمة ، بل صمم على إنشاء أسطول جديد . وعزم على أن يكون بناء سفن هذا الأسطول بمصر ، مع إمداد هذه السفن بكل ما تحتاج إليه من البلاد ، حتى لا يضع نفسه ومصدر قوته تحت رحمة الدول الأجنبية ، التي قد تنصرف عنه في أوقات الشدة ، فاستعان في مهمته الجديدة بمهندس بحري فرنسي ، هو ميسو "دي سريزي Cerisy" ، كان يشتغل في بناء السفن في طولون . فلما كان عام ١٨٢٩ بدأ "سريزي" في إنشاء دار صناعة بحرية في الاسكندرية (الترسانة) ، وجعل بها أحواضا للسفن ، ولم يرض عليها إلا قليل من الزمن ، حتى بدأت الاسكندرية تضارع كثيرا من دور الصناعات البحرية في أوروبا . وأُنزلت أول سفينة بحرية من الأسطول الجديد إلى البحر ، في ٣ يناير سنة ١٨٣١ ، ومن ثم أخذ عدد السفن في الزيادة ، حتى تكون أسطول مصر العظيم ، الذي كان خير عون للجيش .

والواقع أن "سريزي" بذل جهود الجسارة في القيام بعمله ، بتدريب العمال المصريين على صنع جميع حاجات الأسطول ، من حبال وحديد ونحاس وأخشاب ، هذا إلى تدريب عدد وفير منهم ، ليكونوا بحارة في الأسطول الجديد . وقد استعان بكثير من العمال الأجانب في أول الأمر ، ليساعدوه في تعليم الصناع المصريين مختلف الصناعات والحرف المطلوبة ، ولكن عددهم أخذ يقل تدريجاً ، كلما حذق المصريون الصناعة وحلوا محلهم .

## إصلاحات محمد علي

ولكى يقوم بتكوين جيشه وأسطوله ، بالرجال والذخيرة والمواد الضرورية ، رأى محمد علي أن لا بد له من المال ، ومصر المفلسة لا تستطيع أن تمتد له يداً ، إذا بقيت على



حالتها التي كانت عليها ، فكان عليه أن يقوم بإدخال عدة إصلاحات ، تنمي ثروة القطر ، وتبقيها مصدرا دائما للتزينة ، ولذلك عزم على القيام بهذه الإصلاحات بقدوم ثابتة ، فتناولت جهوده الإدارة والزراعة والصناعة والتجارة .

### الإصلاحات الإدارية :

نجم "محمد علي" في إيجاد نظام للحكم في مصر ، بعد أن سادت فيها الفوضى واضطرب جبل الأمن ، فأنشأ المجالس والدواوين لتساعده في الحكم ، ولو أنه لم يجعل لها أية سيطرة على إرادته ، فكانت كلها مجالس استشارية ، وبقي هو الحاكم المطلق ، المصرف للأموال بزيادة ، طيلة مدة حكمه .

وأول هذه الدواوين "الديوان العالي" ، ومقره القلعة ، ويرأسه الوالي أو نائبه ، وكان يجتمع بانتظام لينظر في العرائض التي تقدم للبasha ، ويدرس الشؤون الحكومية المهمة قبل تنفيذها . وفوق ذلك كان هناك "ديوان" خاص ، لكل فرع من فروع الحكومة ، ينم اسمه عن اختصاصه ، كديوان المدارس وديوان الحربية ، وتعتبر هذه كفروع للديوان العالي . وفي يناير عام ١٨٤٧ أنشأ كذلك "المجلس الخصوصي" ، وكان ينظر في شؤون الحكومة الكبرى ، وإصدار القوانين والتعليمات لمصالح الحكومة ، ويرأسه ابراهيم باشا .

وبجانب هذه المجالس الحكومية ، أنشأ "مجلس المشورة" سنة ١٨٢٩ ، وكان يختار أعضائه بنفسه ، من كبار رجال الحكومة والأعيان والعلماء ، وكان ينظر في المشروعات الكبرى ، وشؤون البلاد الهامة ، برياسة ابراهيم باشا ، وينعقد مرة في كل سنة ، ويكون انعقاده بجلسة أو عدة جلسات ، ولكنه كان قصير الأجل .

وأمر محمد علي بمسح أراضي القطر ، ثم قسمها سبع مديريات ، يحكم كلا منها مدير ، ثم قسم كل مديرية مراكز يحكم كلا منها مأمور ، وكل مركز نواح يرأس كلا منها شيخ البلد ، وكان يساعده في عمله "الحولى" لمسح الأقطان ، "والصراف" لجمع الأموال الأميرية ، "والشاهد" وهو المعروف الآن بالمأذون . وجعلت كل من القاهرة والاسكندرية ورشيد ودمياط والسويس محافظة .



## الفلاح والزراعة

كانت الزراعة أول ما نال قسطا وفيرا من إصلاحات محمد علي ومجهوداته ، فكانت أول خطوة في هذا السبيل ، أن جعل نفسه المالك لجميع الأراضي المصرية تقريبا ، والمشرف على زراعتها ، فعمل على نزع ملكية الأراضي من أيدي أصحابها ، بحجة أنه نائب الخليفة ، المعتبر بحكم الفتح الاسلامي القديم مالك الأرض ، كما أنه ألغى الالتزام ، وأعطى الملتزمين راتبا سنويا تعويضا لهم .

وأمر محمد علي مديري البلاد بمسح الأراضي التابعة لكل منهم ، وتعيين مقدار الأفدنة الخاصة بكل قرية ، ثم أمر بتوزيع الأراضي على الفلاحين ، بنسبة تتراوح بين ثلاثة أفدنة وخمسة للفلاح ، يقوم بحراثتها وزرعها والعناية بها والاستفادة بنحيراتها ، نظير دفع الأموال الأميرية المطلوبة ، فإن عجز عن الدفع طرد من الأرض .

وكان محمد علي يقسم الأراضي مناطق ، يخصص كل منطقة منها لزراعة محصول خاص ، وكانت جميع المحصولات تجمع ، وتوضع في مخازن الحكومة ، ثم يأتي عمالها ويقدرون أثمان كل نوع من المحصولات ، ويؤخذ جزء نظير الضرائب المقررة ، وتشتري الحكومة الباقي ، فتستعمل بعضه في مصانعها ، وتبيع الباقي إلى التجار الأجانب ، وقد جنى محمد علي من هذه الطريقة أموالا طائلة ، مكنته من القيام بإصلاحاته وحروبه .

وكان لهذه الخطة التي جرى عليها محمد علي مزايا كبيرة ، إذ أمكنه أن يدخل عدة تحسينات في طرق الزراعة ، وكان في استطاعته أن يشتري الآلات الحديثة لاستعمالها ، وأن يزود الفلاح بما كان في حاجة إليه من ماء أو مواش أو إرشادات . كذلك أمكن محمد علي أن يدخل محاصيل جديدة في مصر ، ما كان باستطاعة الفلاح لو ترك لنفسه أن يفكر في الحصول عليها أو زراعتها ، وأهم هذه القطن مصدر ثروة البلاد اليوم ، فقد أشار بزراعته مسيو " جيميل Jumel " عام ١٨٢٠ ، وهو نساج فرنسي كان في خدمة الحكومة المصرية وقتئذ ، وقام بعدة تجارب في زراعته ، فنجحت نجاحا باهرا . وكان القطن يزرع في مصر قبل عصر محمد علي ، ولكنه كان من نوع رديء ، أما محمد علي فإنه جلب بذوره أولا من الهند ، ثم جلب أجود أنواع البذور من أمريكا .



وقد أدخل كذلك زراعة القنب والنيلة والخشخاش والغابات ، ثم زراعة الحدائق وشجر التوت . ووجه عناية كبيرة لزراعة قصب السكر ، بمد أن جلب أجود أصنافه من جزائر الهند الشرقية ، وأنشأ عدة معامل لصناعة السكر .

ولكن من وجهة أخرى ، نرى أن الفلاح لم يستفد في ذلك الوقت من تلك الإصلاحات فائدة مباشرة ، لأن عمال الحكومة كانوا يغبونونه ، فكانوا يستعملون موازين مغشوشة ، ثم يخسون ثمن المحصولات ، ومع ذلك فكان الفلاح لا يتسلم قيمة محصوله نقداً ، بل كان في معظم الأحيان ، يرغم على استبدالها كلها أو معظمها بمصنوعات معامل الحكومة ، فزرى من ذلك ، أن الفلاح لم يستفد شخصياً من خطة محمد علي ، وإن كانت مصر نفسها قد استفادت كثيراً ، كما استفاد محمد علي نفسه أكبر الفوائد .

وكانت الأراضي مصدر ثروة أخرى لمحمد علي ، إذ فرض الضرائب على جميع الأراضي الزراعية ، ما عدا الأراضي الموقونة على أعمال الخير ، وكان مقدار الضريبة على الفدان يتفاوت ما بين خمسين قرشا وخمسة قروش ، على حسب جودة الأطنان وريادتها ، وكانت هذه النسيمة قابلة للتغيير .

### أعمال الري الكبرى :

ومن العوامل التي أدت إلى ترقية الزراعة وازدياد مساحة الأراضي المزروعة ، ما قام به محمد علي من حفر الترعة الكثيرة وإقامة الجسور والقناطر ، وقد بدأ عمله في هذا السبيل بسد "ترعة الفرعونية" في يناير ١٨٠٩ ، وكانت هذه الترعة تصل فرع دمياط بفرع رشيد فتعد الثاني بمياه من الأول ، لصالح مديرية البحيرة ، غير أن هذه العملية كانت تلحق ضرراً كبيراً بالأراضي الواقعة شرق فرع دمياط ، وبخاصة شمال المنصورة ، وتوالت شكاوى سكان تلك الجهات من هذه الحالة ، فلفت ذلك نظر محمد علي ، فأمر بسدها بجسر من الحجارة ، ثم حفر عدة ترع لتمد أراضي البحيرة بالمياه اللازمة ، وتوضها عن خسارتها المائية التي نجمت عن هذا السد .

ومن أكبر الترع التي قام محمد علي بحفرها "ترعة المحمودية" ، نسبة إلى السلطان محمود الثاني ، وقد استخدم الألوف من العمال لحفر هذه الترعة بطريق السخرة ،

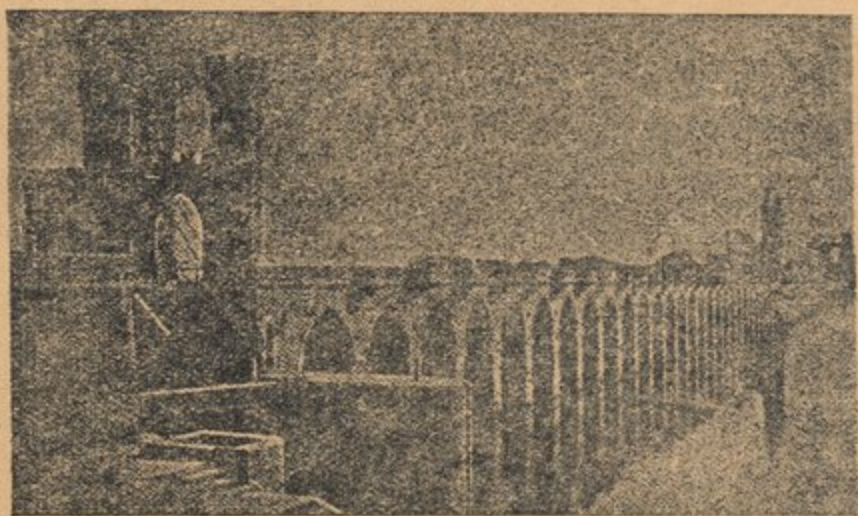


حتى تمت في ديسمبر سنة ١٨١٩ ، بعد أن هلك عدد عظيم من هؤلاء العمال بسبب إرهابهم في العمل ، أو بسبب قلة الزاد والمؤونة . وبجانب فائدتها التجارية الكبرى ، وأهميتها في تقدم الاسكندرية في الثروة والعمران ، كانت سببا في إصلاح مساحات واسعة من الأراضي التي تخترقها .

ومن أهم الترع الأخرى التي شقت في عهده ترعة الخطاطبة والمنصورية والشرقاوية والنعاغية والباجورية وترعة الوادي والباسوسية ، وكلها بالوجه البحري ، ثم ترعة البراقعة والفشن والمرعشلي والرمادي بالوجه القبلي .

ولكي يمنع مياه النيل من أن تغطي على الأرض الواقعة على شاطئيه ، أنشأ الجسور على الشاطئين ، كما أنشأ عدة جسور فرعية أخرى ، وقد اشترك أهالي البلاد والقرى في إقامة هذه الجسور . كذلك قام محمد علي بإصلاح سد أبي قير ، كما قام بعمل جسر من الأحجار لسد فتحة بحيرة أبي قير ، مما أدى إلى منع اتصالها بالبحر ثم جفافها تدريجاً ، وتحولها في النهاية إلى أراض صالحة للزراعة . وقام محمد علي بإنشاء القناطر الكثيرة على الترع ليستطيع التحكم في مياهها ، والانتفاع بها لرى الأراضي في الأوقات المناسبة .

وأخذ أعماله ذكراً لإنشاء "القناطر الخيرية" عند رأس الدلتا ، ولو أن هذا المشروع الجليل لم يتم في عهده ، إلا أن له الفضل العظيم في التفكير فيه والبدء



(القناطر الخيرية)



بإنشاء القناطر ، فإنه لما رأى أن الماء يقل في النيل لدرجة كبيرة زمن التحريق ، وأن القطن الذي انتشرت زراعته في الوجه البحري ، ينمو ويروى في فصل الصيف ، أخذ يفكر في وسيلة لإيصال المياه اللازمة للأراضي المتزرعة في ذلك الفصل ، فاقترح عليه "لينان بك Linan" (لينان باشا فيما بعد) ، إقامة قناطر على فرعى النيل قرب تفرعهما . وبدئ بالعمل في هذا المشروع في أواخر عام ١٨٣٣ ، ولكنه أوقف بعد قليل ، وبقي كذلك حتى سنة ١٨٤٢ حينما استؤنف العمل من جديد ، تحت إشراف المسيو "موجيل Mougil" ، ولكن "محمد علي" مات قبل أن يتم المشروع ، الذي تقلب في أدوار كثيرة ، قبل أن يتم في أواخر عهد سعيد عام ١٨٦١ . وبعد أن تم بناء القناطر ، وجد أنها لم تأت بالنتيجة المطلوبة منها ، وحدث تصدع ببعض أجزائها ، وعلى ذلك أدخلت عليها عدة إصلاحات في أيام إسماعيل وتوفيق . وأما فائدة المشروع فواضحة للعيان ، لا يجهلها إنسان .

### الصناعة الحديدية :

كان محمد علي يعتمد في بداية الأمر على الدول الأجنبية ، في شراء المصنوعات المختلفة ، ولوازم الجيش ومعدات الأسطول ، ولكنه رأى أن يستغنى عن هذه الدول ، بإنشاء المعامل والمصانع في البلاد ، حتى يكون مسيطرا بنفسه على جميع الموارد ، التي يمد منها جيشه وأسطوله . وقد أغراه على ذلك وجود المواد الخام بمصر ، ورخص أجور العمال بها ، فصمم على تنفيذ فكرته ، دون أن يكثرث بالعقبات التي تقوم في سبيله ، من عدم وجود الفحم والحديد والآلات اللازمة للصناعة بمصر ، مع عدم وجود ما يقوم مقامها في البلاد إذ ذاك . يضاف إلى ذلك جهل العمال المصريين بهذا النوع الحديد من العمل ، مما اضطره إلى استخدام كثير من الأجانب في مصانعه ، حتى يتم تدريب المصريين ليحلوا محلهم .

قام محمد علي بتنفيذ هذه الفكرة ، فتناولت مجهوداته جميع مناحي الصناعة ، فأقام الكثير من معامل الغزل والنسيج ، وأنشأ معامل الجوخ والطرابيش ، وكذلك معامل السكر ومعاصر الزيت ، وجلب الأغنام الجيدة الصوف من الخارج لتربيتها ، ولو أن الفكرة لم تتجح لعدم ملائمة الجو لتلك الأغنام ، وكذلك زرع أشجار التوت بكميات وافرة ، وأحضر عددا من الإخصائين في تربية دودة القز . هذه



إلى المصانع الكثيرة، التي كانت تقوم بصنع المعدات اللازمة للجيش والأسطول، فانتشرت المعامل ومصانع في أنحاء القطر . ولكن مما يؤسف له ، أن المشروع أخفق في النهاية ، عدم ما ضعف الدافع الأساسي للقيام به ، ولذلك نرى أن جانبا كبيرا من هذه المصانع ، أهمل شأنه في المدة الأخيرة من أيامه ، حتى أضحي الكثير من المصانع خرابا . ومما يسترعى النظر أن المشروع لم يخفق نهائيا في أيام محمد علي ، لأنه كان يتولاه برعايته ، وكانت خزانة الحكومة تتحمل خسائره ، كما كانت الفلاحون يجبرون على استبدال مصنوعات المعامل بمحاصلاتهم ، فبقيت هذه الحالة ما بقيت اربة والدوافع ، وما كادت تضعف الرغبة وتنعدم الدوافع ، حتى بدأ صرح المشروع ينهدم أمام بانيه .

### التجارة الخارجية والطريق البري للشرق :

إن عناية "محمد علي" بالتجارة ، ورغبته في الحصول على المال ، دفعتاه إلى التفكير في الاستفادة من مركز مصر الجغرافي العظيم ، وهي الواقعة في ملتقى قارات ثلاث ، وحلقة اتصال هامة بين الشرق والغرب ، لأنه بالرغم من ذلك كانت التجارة قد كسدت في مصر وموانئ البحر الأبيض المتوسط عامة ، منذ أن تحول طريق التجارة إلى المحيط الأطلسي ، وهو السبيل إلى أمريكا والشرق لأقصى .

وكان محمد علي شديد الرغبة في العودة إلى طريق مصر ، لما كان ينتظره من أرباح طائلة للتزينة ، ولهذا عمل على نشر الأمن واستتباب النظام وتسهيل المواصلات للتجار والمسافرين ، ففرض على لصوص البحر ، وكبح جماح عربان الصحراء الشرقية ، ثم أنشأ طريقا للنقل بين السويس والقاهرة على ظهور الإبل ، وكذلك حفر ترعة المحمودية عام ١٨١٩ ، فأصبحت السفن تستطيع أن تسير من الاسكندرية إلى القاهرة مباشرة وبالعكس ، ثم أمر بتحصين المكوس مرة واحدة ، بعكس ما كان في أيام المماليك ، من إرهاق التجار بالضرائب الثقيلة المتعددة .

لهذا فكر كثير من الانجليز في أيام محمد علي ، في إعادة فتح هذا الطريق البري القصير ، ولكنهم لم يوفقوا إلى غايتهم ، غير أن اهتمامهم بالأمر لم يتناقص ، حتى كتب السجاح لضابط انجليزى كان في خدمة "شركة الهند البريطانية" ، وهو



”توماس واجهورن Thomas Waghorn“، وذلك أنه فكر في هذا الموضوع وعرض آراءه على الشركة عام ١٨٢٣ ، ولكنها لم تأخذ بها ، فلم يثن هذا من همته ، واستمر يناضل لإنفاذ فكرته نحواً من عشرين عاماً ، وكان يمد على يساعده في مجهوداته مساعدة جديده ، ونجحت الفكرة في النهاية وفتح الطريق للتجارة في أكتوبر سنة ١٨٤٥ ، ثم أخذت أهميته تزداد بالتدريج ، والتجارة تتحول إليه ، حتى رأى محمد على ضرورة إنشاء مصلحة خاصة به .

ورأى محمد على أن ازدياد الحركة التجارية يتطلب إصلاح مرفأ الاسكندرية ، حتى تتناسب مع أهمية الطريق الجديد ، وحتى يجذب إليها التجار الأجانب تسهيلاً لبيع حاصلات البلاد ، التي احتكر شراءها كما رأينا ، فكان التاجر الوحيد والزارع



( بوغوص بك يوسف )

الوحيد والصانع الوحيد . وعهد الى ”موجيل بك Mougel“ بهذه المهمة فقام بها ، وبدأ التجار يتكاثرون بالثغر ، ويتنافسون في شراء الحاصلات ،



كما أنها أصبحت صالحة لبناء السفن ، نتيجة لمجهودات " سرىزى " الذى صر ذكره . وكان أهم أعوان محمد على فى المسائل التجارية والمالية " بوغوص بك يوسف " ، وهو أرمنى كفاء ، عينه محمد على لإدارة الخارجية والتجارة ، فأخلص فى خدمته .

### التعليم والنهضة الفكرية :

كان لابد لمحمد على أن ينشر التعليم بين عدد كبير من أفراد الأمة ، كان فى حاجة الى خدماتهم ، لتنفيذ إصلاحاته الواسعة والقيام بحروبه الكثيرة . ولكنه لما هم بتحقيق هذه الغاية ، اعترضته عقبات كثيرة ، فلم تكن المهمة سهلة ، فى بلاد ساد فيها الجهل عدة قرون ، إذ كان الآباء يمنعون أبناءهم من الذهاب إلى المدارس ، التى أنشأها محمد على ، رغما من قيامه بإيوائهم وإطعامهم وكسوتهم ، ودفع رواتب شهرية لهم . وقد بلغ إجماع الناس عن التعليم حدا ، اضطر الوالى أن يسوق التلاميذ أحيانا إلى دور العلم مكباين بالسلاسل والأغلال .

ولكن ! الرغم من كل الصعوبات التى اعترضته فى هذا السبيل ، نجح إلى حد كبير فى تعليم عدد وفير من أهل البلاد ، كانوا خير عون له فى تنفيذ مشروعاته ، فأسس المدارس على اختلاف درجاتها وأنواعها ، كان من بينها مدارس ابتدائية وتجهيزية وخاصة . وأهم المدارس الخاصة مدرسة الطب التى أسسها بأبى زعبل عام ١٨٢٧ . ويرجع الفضل فى إنشائها الى لدكتور " كلوت بك . Clot Bey "



( كلوت بك )

الفرنسى ، الذى كان فى خدمة

الحكومة المصرية . وقد أنشأ كذلك مدرسة للطب البيطرى وأخرى للهندسة ، ومدرسة لتحسين الزراعة العمية ومدرسة الألسن .





(بعض طلبة البعوث العلمية)



(مختار بك أول ناظر للعارف بمصر)



ولم يقصر همه على التعليم في هذه المدارس ، بل أرسل البعث العلمية الى أهم ممالك أوروبا وبالأخص فرنسا ، لكي يتلقى شبان مصر العلوم الحديثة ويحذقوها علميا وعمليا ، كما يتتبعوا كل ما حسن من عادات البلاد التي يعيشون فيها ، حتى يستطيعوا أن يدخلوا هذه التحسينات إلى بلادهم عند عودتهم . وقد أرسل نحواً من أربعة وأربعين طالبا عام ١٨٢٦ ، وأخذ هذا العدد في الازدياد حتى أصبح أكثر من مائة وعشرين طالبا في سنة ١٨٤٢ ، وقد أفاد هؤلاء الطلبة البلاد بما تعلموه ، وكانوا نعم الساعد لمحمد علي في أعماله وإصلاحاته . واهتم الوالي كذلك بترجمة كثير من الكتب الأوربية إلى اللغة العربية ، وساعدت المطبعة الأميرية ببولاق على طبع عدد كبير منها ، كما أصدر "الجريدة الرسمية" عام ١٨٢٨ .

### رفاعة بك الطهطاوى

هو من رجال الأمة الفلاحين ، وهو أبو النهضة العلمية في مصر زمن محمد علي . ولد بطهطا سنة ١٨٠١ ، في نفس العام الذي جلا فيه الفرنسيون عن مصر ، ويتهم



(رفاعة بك الطهطاوى)

نسبه إلى الحسن بن علي ، وقد نشأ فقيرا وحفظ القرآن . وكان منذ صباه شغوفا بالعلم والتحصيل ، كثير التردد على مجالس العلماء ، وقد درس بالأزهر ، وكان



كثير الاتصال بشيخه ، فأخذ عنه كثيرا من فنون الأدب ، وتفتقت نواحي ذهنه إلى البحث والتفكير ، فعين مدرسا بالأزهر ، ولم يبلغ الثانية والعشرين من عمره . وكان في دروسه كثير من الإمتاع والتشويق ، فأقبل الطلبة على الاستماع له والأخذ عنه . وفي سنة ١٨٢٤ انفتح أمامه باب رزق آخر غير التدريس ، ذلك أنه عين واعظا وإماما لإحدى فرق الجيش ، الذي كونه محمد علي ، فأخذت ميوله تنجبه إلى نواح جديدة . وفي سنة ١٨٢٦ أرسل محمد علي بعثة كبيرة ، كان من بين أعضائها رفاعة بك ، وكانت وجهتها فرنسا ، فانفتح باب الأمل أمامه ، بل تمهد السبيل لإظهار نبوغه وعبقريته ، وبذلك بدأت حياته تتخذ مجرى آخر ، لأنه وهو في باريس ، شمر عن ساعد الجدة ، يستثمر المواهب الدفينة في نفسه ، من حدة الذكاء ومضاء العزيمة وقوة الإرادة ، حتى بلغ من التهذيب والثقافة مبلغا كبيرا ، واستمر حتى وفاته من أكبر العوامل التي أثرت في الحركة العلمية بمصر .

وكان الغرض من إرسال الشيخ رفاعة إلى فرنسا أن يكون إماما للبعثة ، ولكن نفسه الوثابة أبت عليه أن يكون من القاعدين ، فأكب على درس اللغة الفرنسية ، واتصل بأكابر العلماء في باريس ، واتجهت ميوله إلى دراسة الأدب الفرنسي والفلسفة والجغرافية ، وقرأ كثيرا من مؤلفات الفرنسيين ، وأتقن فهمها ، ثم مالت نفسه وهو في باريس إلى الترجمة والتأليف ، فترجم إلى العربية كتاب "ملطبرون" Maltbrunn في الجغرافية ، وكان ملطبرون هذا قد نهج منهاجا جديدا في بحوثه الجغرافية ، كما ترجم غيره من الكتب ، وفوق ذلك درس نظام الحكم في فرنسا ، أثناء وجوده في باريس ، وقرأ بعض مؤلفات فولتير وروسو ، فغرست هذه الدراسة في نفسه ميلا إلى العلوم السياسية .

وفي سنة ١٨٣١ رجع رفاعة إلى مصر ، بعد أن قضى في باريس ما يقرب من ست سنوات ، فعين لتدريس اللغة الفرنسية في مدرسة الطب ، التي أنشئت بأبي زعبل سنة ١٨٢٧ ، وبعد ذلك بقليل نقل إلى مدرسة المدفعية بطرة ، فأخذ يترجم من الكتب ما له اتصال بالعلوم والفنون الحربية . وقد اقترح على "محمد علي" أن ينشئ مدرسة الألسن ، ليحكم الصلة بين الثقافة الغربية والثقافة الشرقية ، فأنشئت بالقاهرة ، وجعل هو ناظرا لها ، وكانت تدرس بها آداب اللغات العربية والفرنسية والانجليزية والشريعة الإسلامية والسرائع الأجنبية ، وبذلك وضع مركزه ، وصار



حاملا قويا في حياة البلد العلمية والإدارية والقانونية . وقد جمع إلى نظارة مدرسة الألسن وظائف أخرى ، كرياسة تحرير الوقائع المصرية ، ونظارة المدرسة التجهيزية بأبي زعبل ، وإدارة مخزن عموم المدارس . وفي هذه الفترة ترجم عن الفرنسية كتاب " مبادئ الهندسة " ، وفي سنة ١٨٤٥ أنعم عليه بالبرقية ، تقديرا لمجهوده ومكافأة له على إنتاجه العلمي .

بقى رفاعة بك ناظرا لمدرسة الألسن ، حتى أغلقت سنة ١٨٥١ ، زمن عباس الأول ، الذي كان يرغب عن تعليم الشعب ، وضاق صدره بالعلماء أمثال رفاعة بك ، فأمر بنقله إلى السودان ، ليكون ناظرا لمدرسة ابتدائية أنشئت بالخرطوم ، فبقى بها أربع سنوات ، شعر فيها بمرارة الوحدة وغضاضة النفي ، وقد اشتغل وهو في السودان بالتأليف والترجمة فوق إدارة المدرسة .

وفي سنة ١٨٥٤ تولى سعيد باشا الملك في مصر ، فرجع رفاعة بك من منفاه بالسودان ، وعين ناظرا للقلم الافرنجى بمحافظة مصر ، ثم ناظرا للمدرسة الحربية ، وتولى رياسة قلم الترجمة ومدرسة الهندسة ، لأن سعيد باشا جمع ماتبقى من المدارس من عهد عباس ، وجعلها كلها تحت إدارة رفاعة بك سنة ١٨٥٦ ، على أن هذه المجموعة من المدارس لم تدم طويلا ، بل ألغيت سنة ١٨٦٠ ، وبقى رفاعة بك بلا عمل ، حتى جاء عهد الخديوى اسماعيل ، ودبت الحياة العلمية في مصر من جديد ، فعاد رفاعة بك إلى العمل ، وأعيد قلم الترجمة بوزارة المعارف ، ليقوم بأعمال الترجمة التي يحتاجها عصر اسماعيل ، وكان من الطبيعي أن تسند إدارته إلى رفاعة بك ، بفعل ناظرا له . وعهدت إليه الحكومة بتعريب القوانين الفرنسية ، وتلك مهمة شاقة تستدعى اطلاعا واسعا في أحكام الشريعة الإسلامية ، فقام رفاعة بك بذلك على الوجه الأكمل ، وكثرت إنتاجاته العلمية في تلك الفترة من حياته ، على الرغم من أنه كان قد جاوز الستين من عمره ، فظهرت له رسالة في الأبرومية ، وترجم القانون المدنى الفرنسى .

وفي هذا العهد كذلك ، تولى رياسة التحرير بمجلة روضة المدارس ، على الرغم من انهماكه في تحريرها ، ظهر له في هذه الفترة " المرشد الأمين للبنات والبنين " ، وبقى مثابرا على التحرير والتأليف ، حتى أدركته المنية سنة ١٨٧٣



## فتوح محمد علي في بلاد العرب والسودان

### الحروب الوهابية

( ١٨١١ — ١٨١٩ )

#### الوهابيون :

في سنة ١٦٩٦ ، ولد في " العيننة " إحدى بلاد نجد ، رجل ذاع صيته ، في منتصف القرن الثامن عشر ، في بلاد العرب ، ذلك هو " محمد بن عبد الوهاب " . وكان أبوه متفقهاً ، فلقنه ما استطاع من علمه تبعاً لتعاليم المذهب الحنبلي ، وقصد " محمد " بعد ذلك معظم بلاد الشرق ، التي اشتهرت بأوساطها العلمية ، وخاصة البصرة ، للدرس والتحصيل على أيدي علمائها ، وزار مكة والمدينة في أثناء طوافه ، ثم عاد إلى بلاد نجد ، حيث أزمع الإقامة ، وحيث اشتهر بين الناس بشدة صلاحه وقهواه .



( زعيم الوهابيين )

وقد لاحظ ابن عبد الوهاب ، أن الدين الإسلامي قد دخلته بعض البدع التي لا تنتمي إليه في شيء ، فأراد أن يرجع بالدين إلى فطرته وبساطته الأولى . وتتلخص آراؤه في توحيد الله ، والرجوع إلى القرآن والسنة ، للأخذ

بتعاليمهما وأحكامهما ، مع رفض جميع تفاسير القرآن ، التي لم تأت من طريق السنة .

ومما دعا إليه ابن عبد الوهاب عدم التوسل إلى الله بالأنبياء والأولياء ، وعدم النياحة على الموتى ، والامتناع عن إقامة الأضرحة لهم ، وبناء القباب فوقها ، كما أنه حرم على الرجال التزين بالذهب والحريز ، ودعا إلى تحريم شرب الدخان ، لأنه عد ذلك إسرافاً في المال .



### انتشار المذهب الوهابي :

أخذ محمد بن عبد الوهاب يحض من حوله على التمسك بأهداب الدين الصحيح ، فغنى عليه الكثيرون وأرادوا قتله ، ولكنه لم ينثن عن عزيمته ، بل استمر في طريقه ينشد الإصلاح كما يراه ، ويعمل على نشره بكل الوسائل .

وقد انضم إليه عدد كبير من العرب ، أطلق عليهم خصومهم اسم " الوهابيين " ، فصار مذهبهم يعرف " بالمذهب الوهابي " . أما ابن عبد الوهاب وأتباعه ، فلا يرون أنهم أصحاب مذهب خاص ، لأنهم لم يأتوا بشيء جديد ، وإنما دعوا المسلمين إلى التمسك بقواعد دينهم على حقيقتها ، وترك ما يخالفها من العادات السيئة . وكان أعظم من ساعده في نشر دعوته " محمد بن سعود " حاكم " الدرعية " ، فإنه أخذ ينشرها في بلاد العرب كلها ، بقوة رجاله وسلاحه ، حيث لا تجدى الدعوة بالحسنى . وقد زادت صلاته بابن عبد الوهاب بعد أن تزوج ابنته . وفي سنة ١٧٦٥ توفي محمد بن سعود ، وخلفه ابنه عبد العزيز .

وكان " عبد العزيز " يطمع في بسط نفوذه في وادي دجلة والفرات ، ولكن إلى بغداد كان شديد المراس فهزمه وردّه عن البلاد ، غير أنه تمكن من الاسيلاء على مكة المكرمة عام ١٨٠٢ ، ولكنه لم يعمر طويلا بعد ذلك ، إذ قتل في نفس العام بالدرعية .

وتولى بعده ابنه " سعود " ، المعروف بسعود الكبير ، وكان شجاعا تقيا ، يعد أعظم رجال الأسرة ، فقد استولى على المدينة المنورة عام ١٨٠٣ ، وأخذ يعمل على توطيد سلطته في أنحاء البلاد ، بل فكر في غزو العراق والشام .

ويدلنا هذا على مقدار ما وصلت إليه سلطة العثمانيين من الضعف في تلك البلاد ، كما تبين لنا صعوبة المهمة التي وكل أمرها إلى منشي مصر ، وهي إخضاع بلاد العرب ، وإرجاعها تحت سيطرة الدولة .

### موقف محمد علي :

إزاء شدة وطأة الوهابيين في بلاد العرب ، تكررت طلبات الباب العالي إلى محمد علي ، تأمره بإعداد حملة يقضى بها على سلطانهم ، وإزاء هذه الطلبات المتكررة ، لم ير محمد علي بدا من إجابة السلطان إلى رغبته ، وأخذ يستعد لإنقاذ



حملة إلى بلاد العرب يكون نصيبها النصر، فطلب من الاستانة إرسال الأخشاب اللازمة لعمل السفن ، وأصدر أوامره إلى عمال الحكومة بجمع كل ما يمكن جمعه من أخشاب ، في أنحاء القطر ، فأخذوا يقطعون الأشجار ويرسلون أخشابها إلى ساحل بولاق ، حيث أقيمت دار صناعة كبيرة ، تم بها صنع أجزاء خمس عشرة سفينة . وكانت هذه الأجزاء ترسل على ظهور الإبل إلى السويس ، بعد أن يوضع على كل منها رقم خاص ، وهناك كانت تبني بسهولة . وكلاهما على يشرف بنفسه على هذه العملية في السويس ، في حين كان أعوانه يقومون بإعداد الجيش ولوازمه ، ثم تقرر أن يسير الفرسان عن طريق النيل فالقصر ، ويسير المشاة عن طريق السويس .

### الحملة المصرية ضد الوهابيين

#### حملة طوسون :

بعد أن تخلص "محمد علي" من المماليك في مذبحه القلعة ، خرجت الحملة بقيادة ابنه طوسون ، وكان لا يزال شابا لم يناهز الثامنة عشرة من عمره ، ولكنه كان شجاعا محبوبا من جنده . ولم تلبث الأساطيل طويلة حتى بلغت "ينبع" ، فسلمها لهم "غالب" شريف مكة طوع إزادته ، ثم تقدمت الجيوش المصرية نحو "المدينة" ، واستولت على قرية "بدر" في طريقها ، ولكنها أخذت على غرة بعد ذلك ، وكاد يقضى العرب عليها ، ولكن جزءا منها استطاع الفرار والعودة إلى ينبع .

وما كادت تصل هذه الأنباء إلى محمد علي ، حتى أرسل مددا كبيرا إلى ابنه ، عام ١٨١٢ ، استطاع معه التقدم ، بعد أن استمال القبائل المختلفة في طريقه ، حتى وصل إلى "المدينة المنورة" واستولى عليها عنوة . واستولى المصريون بعد ذلك على "جدة ومكة" ، وقابلهم "غالب" بكل ترحاب وإكرام . أما الجيوش المصرية فإنها استمرت في مقاتلة الأعداء ، واستولت على "الطائف" ، ولكنها عادت فهزمت في موقعة "تربة" ، وأخذ الوهابيون يهددون المواقع التي احتلها المصريون ، ومنها المدينة نفسها ، فلما رأى طوسون ما صارت إليه الأمور ، أرسل إلى والده يطلب المدد .



## حملة محمد علي :

بإزاء ذلك عزم "محمد علي" على الذهاب بنفسه إلى بلاد العرب ، وتسلم القيادة العامة . وفي أغسطس سنة ١٨١٣ سافر عن طريق السويس إلى "جدة" ، وكان وصوله مشجعاً للجيش ، وباعثاً لروح الثقة في ضباطه وجنده . وبعد أن أدى



فريضة الحج ، بدأ أعماله باعتقال الشريف غالب ، عندما أيقن عدم إخلاصه ، وأرسله إلى القاهرة ، ومن هناك أرسل إلى سالونيك ، حيث توفي سنة ١٨١٦

وما كاد محمد علي يبدأ أعماله الحربية ، حتى خلصه الموت من خصمه الشديد المراس "سعود الكبير" ، فانه مات بالدرعية في إبريل سنة ١٨١٤ ، وخلفه ابنه "عبدالله بن سعود" . وكان رجلاً ضعيفاً لين العريكة لا يميل إلى القتال ، وكان أقل



ذكاء وحرارة من أبيه. ولم يلبث أن هزمه محمد على هزيمة منكرة في موقعة "بشيل" (١) في يناير سنة ١٨١٥. وتوالت بعد ذلك انتصارات الجيش المصري، فبعث الوهابيون إلى طوسون يطالبون الصلح، فعقد معهم هدنة، ليتسنى له الاتصال بوالده، ليفاوضه في الأمر.

وفي أثناء هذه الهدنة، كانت قد وصلت إلى محمد على أخبار مقلقة، أثارته وساوسه، فقرر العودة إلى مصر، وأرسل إلى ابنه طوسون ينبئ به بذلك القرار، وترك له قوات كافية لمواصلة القتال. أما هذه الأخبار فكانت عن مؤامرة، قيل إن "لطيف باشا"، أحد أتباع محمد على كان يدبرها لاغتياله، والاستئثار بالعرش لنفسه، وسواء أكانت هذه المؤامرة حقيقية أم خيالية، فإن "محمد لاظ أوغلي" نائب محمد على في مصر إذ ذاك، قبض عليه وأعدمه. وكذلك عن فرار نابليون من جزيرة "إلبا Elba" (٢) في ذلك العهد، فقد أزعج هذا الخبر "محمد على"، وجعله يؤثر أن يكون وجودا في بلاده، في مثل هذه الظروف السياسية، حتى يقبض على ناصية الأمور فيها، ويشرف على تطور الحوادث.

لهذا عاد "محمد على" مسرعا إلى مصر، عن طريق القصير فقنا، ووصل إلى القاهرة في ١٨ يونيو سنة ١٨١٥، وهو اليوم الذي حدثت فيه موقعة "وترلو Waterloo"، التي قضت على نابليون. وبعد وصوله بقليل هم بتنظيم الجيش على النسق الأوروبي، فأبى عليه الجند ذلك وهبوا لمقاومته، حتى اضطر أن يتنازل مؤقتا عن فكرته. ولكن خبر هذا العصيان البسيط، وصل إلى طوسون مبالغاً فيه، فعاد إلى مصر في الحال، تاركا مسألة الوهابيين معلقة. ولكنه لم يلبث أن أصيب بمرض، لم يمهله أكثر من عشر ساعات، ومات في سبتمبر سنة ١٨١٦، مبكرا عليه من الجميع.

(١) بين ترربة والطائف.

(٢) بعد أن عاد نابليون من مصر إلى فرنسا استطاع أن يقبض على زمام السلطة فيها، ولم يلبث أن توج نفسه امبراطورا عليها، وتمكن من الانتصار على معظم دول أوروبا، غير أنه هزم في النهاية أمام قوى هذه الدول المتضافرة عام ١٨١٤، وتقرر نفيه إلى جزيرة «إلبا»، ولكنه لم يلبث أن هرب من الجزيرة وعاد إلى فرنسا في العام التالي، وتمكن من الجلوس على عرشها مرة أخرى، غير أن الدول هبت في وجهه وتمكنت من هزيمته في موقعة "وترلو" عام ١٨١٥، ثم قته إلى جزيرة "سنت هيلانة" (St. Helena) حيث مات عام ١٨٢١.



### حملة ابراهيم :

شدد "محمد علي" في شروط الصلح ، فلم يقبل "عبد الله" كل الشروط ، وبدأ مهاجمة القوات المصرية من جديد . أما محمد علي ، فإنه أخذ في إعداد حملة جديدة ، للقضاء على قوة الوهابيين ، وبسط نفوذ مصر في بلاد العرب ، وأسند رياستها إلى ابنه "ابراهيم" ، فسار بالحملة في سبتمبر عام ١٨١٦ ، عن طريق قنا والقصير ، ثم إلى ينبع فالمدينة ، التي اتخذها قاعدة لحركاته الحربية .

تقدم إبراهيم بقواته شرقا ، قاصدا "الدرعية" عاصمة الوهابيين ، وهي تبعد عن المدينة بنحو أربع مائة ميل ، فأخذ في إخضاع المدن والقرى ، التي كانت في طريقه إليها ، وأخيرا تمكن من حصارها في إبريل سنة ١٨١٨ . ومكث ابراهيم عدة أشهر في ذلك الحصار ، ولكنه كان مشال الشجاعة والنبات أمام العقبات التي كانت تعترضه ، ومنها انفجار أحد مخازن ذخيرة جيشه ، وانتهى الأمر بخضوع "عبد الله" وتسليمه المدينة ، في سبتمبر سنة ١٨١٨

ورأى ابراهيم في بقاء الدرعية رمزا لقوة الوهابيين البائدة ، فأمر بتخريبها ، وتركها أثرا بعد عين ، ثم أقام ابراهيم ببلاد العرب بعد ذلك ، يبسط نفوذ مصر في أنحائها ، ويثبت مركزه فيها ، وفي أواخر عام ١٨١٩ ، عاد إلى مصر ، فبلغها في أوائل ديسمبر ، واستقبل بها استقبالا فخما .

### نتائج الحروب الوهابية :

( ١ ) كان لنجاح "محمد علي" في هذه الحروب أثر كبير في توطيد سلطته بمصر ، إذ بدأ السلطان يهابه ويخشى قوته ، ولا يفكر في خلعه ، بالرغم من كراهيته له .

( ٢ ) بقيت الجنود المصرية ببلاد العرب بعد هذه الحروب ، تسيطر على معظم أجزائها ، حتى امتدت سلطتها إلى شاطئ الخليج الفارسي ، وبذلك اتسع نفوذ مصر .

( ٣ ) هيات هذه الحروب الفرصة لتكوين أسطول مصرى ، كان النواة لعظمة مصر البحرية في المستقبل .



( ٤ ) اضطارت ظروف هذه الحروب "محمد علي" أن يفكر في التخلص من المماليك ، حتى كانت مذبحة القاعة .

( ٥ ) . كانت فرصة للتخلص من جزء كبير من جنوده الألبانيين في حروب استفاد من نجاحه فيها .

( ٦ ) كان لها أثر كبير في رفع منزلة مصر في العالم الإسلامي ، لأن جيوشها نجحت في فتح طريق الحج من جديد ، حيث فشل السلطان .

( ٧ ) قضت هذه الحروب على نفوذ الوهابيين الحربي والسياسي ، وانتزعت البلاد من سيطرتهم .

( ٨ ) أنفق محمد علي في سبيل هذه الحروب أموالا طائلة ، تحملت ثقل وطأتها مصر ، بدفع الضرائب المختلفة ، حتى خجرت النفوس ، واستاء الناس من سياسة محمد علي المرحقة .

( ٩ ) قيام علاقات تجارية بين بلاد العرب ومصر ، ففتحت بذلك أسواق تجارية جديدة في وجه المصنوعات المصرية .

## فتح السودان

### أهم أسباب فتح السودان :

( ١ ) إبادة القية الباقية من المماليك ، وهم الذين فروا إلى الجنوب بعد مذبحة القاعة ، واستوطنوا بلاد دنقلة ، حيث أقاموا المماقل والحصون ، وأصبحوا مصدر شر وقلق لدولة محمد علي بمصر .

( ٢ ) التخلص من جنوده الألبانيين ، بإرسالهم إلى ميدان جديد يخفى منه النفع ويلتصون فيه الهلاك .

( ٣ ) كشف منابع النيل وروافده ، والتسيطر عليها ، ليضمن ورود المياه الكافية للرى والزرع .



(٤) رغبة محمد علي في تجنيد السودانين، لأنهم حسب اعتقاده إذ ذاك أقوى من المصريين على احتمال الشدائد.

(٥) رغبته في العثور على كميات كبيرة من الذهب بأراضي السودان، فيعوض عليه ما خسره في حروبه.



(٦) إعادة فتح سبل التجارة القديمة بين السودان ومصر، حتى تكون موردا ثابتا من موارد الخزينة.



### استعدادات محمد علي :

رأى محمد علي أن يستولى على واحة سيوة ، قبل قيام الحملة إلى السودان ، حتى يأمن على حدوده الغربية ، وحتى لا تكون مصدر شر له ، فبعث إليها بجملة صغيرة استولت عليها في فبراير سنة ١٨٢٠ ، دون كبير مقاومة ، ومنذ ذلك الوقت أصبحت هذه الواحة جزءا من مصر . أما الحملة فقد تم إعدادها في خلال ذلك ، ولم يحل شهر يولييه سنة ١٨٢٠ ، حتى سارت الحملة من القاهرة جنوبا ، وأخذت تتجمع قواها في أسوان . وقد أسندت رياستها إلى "اسماعيل" ، ثالث أنجال محمد علي ، وصحب الحملة بعض العلماء الفرنسيين ، لكي يساعدها بنتائج أبحاثهم ومعلوماتهم ، وكان أشهرهم مسيو كايو "Caillaud" .

### الحملة :

عبرت الحملة الحدود المصرية ، ولم يكدر خبر وصولها إلى دنقلة يصل إلى أذان الممالك ، حتى استولى عليهم الفرع ، وانقسموا فريقين ، فريق سلم أمره صاغرا ، وفريق استعد للمقاومة ، ولكن الجيوش المصرية شتت شملهم ، ففروا إلى كردفان وغيرها من جهات السودان ، فكان هذا آخر أمرهم في التاريخ . تقدم الجيش بعد ذلك جنوبا ، ولم يلق مقاومة تذكر في طريقه ، حتى وصل إلى مدينة "كورتى" ، وهناك تصادم مع القبائل المعروفة بعرب "الشائقة" ، فقاوموه مقاومة عنيفة ، ولكنه تمكن في النهاية من إزال الهزيمة بهم ، ثم تقدم نحو "بربر" و "شندى" ، واستولى عليهما بدون مقاومة ، ويم اسماعيل بعد ذلك وجهه نحو الجنوب ، حتى وصل إلى ملتقى النيل الأبيض بالنيل الأزرق ، وسار شطر الثاني وبسط نفوذه على "سنار" وما جاورها ، ثم أخذ يجمع السودانيين من تلك الأصقاع ، وأرسل آلافا منهم إلى مصر ، لتدريبهم على النظم الحربية الحديثة .

وكان محمد علي قد أرسل جيشا آخر ، بقيادة صهره "محمد بك الدفتردار" لفتح كردفان ، وكانت تابعة اسميا لسلطان دارفور . وقد نجح هذا الجيش في مهمته ، إذ انتصر على القبائل القاطنة هناك عند "بارا" ، ثم استولى على "الأبيض" وضم كل الإقليم إلى مصر .



هكذا انتصرت جيوش مصر في أصقاع السودان ، غير أن تفشي الأمراض بين رجالها ، جعلها في حالة سيئة ، مما اضطر اسماعيل أن يستنجد أباه ، فليجد على الطاب وأرسل جيشا كبيرا لنجده ، تحت قيادة "ابراهيم باشا" ، فتقابل الأخوان عند ملتقى النيلين ، وهناك اتفقا على تقسيم العمل والجيش معا ، فكان على اسماعيل أن يزحف إلى أعالي النيل الأزرق بقدر الاستطاعة ، ويزحف ابراهيم إلى أعالي النيل الأبيض حتى يكشف منابعه . فوصل اسماعيل بجيشه إلى حدود الحبشة ، وأخذ ينقب عن الذهب في تلك الجهات ، بمعاونة "سيو" "كاو" ، ولكنه لم يلبث طويلا حتى قفل راجعا إلى سنار ، ثم كتب إلى أبيه يستأذنه في الرجوع إلى مصر . أما ابراهيم ، فلم يوفق إلى تنفيذ خطته ، لأنه أصيب بمرض لم يمكنه معه لاستمرار في فتوحه ، فعاد إلى مصر ، بعد أن وصل إلى تلال "دنكا" ، قرب مصب نهر سوباط .

ولكن شأت الظروف السيئة ، أن لا يعود اسماعيل إلى أبيه ، فإنه وهو في طريقه إلى مصر ، أهن "نمرا" ملك شندى ، فخنق عليه ، ودبر مؤامرة قتله فيها حرقا . وقد كان لهذا الخبر أسوأ الأثر في نفس محمد على وصهره الدقتردار ، الذى أقسم أن ينتقم لمقتله ، وتوجه بجيشه إلى شندى فأحرق المدينة ، وقتل ما لا يقل عن عشرين ألف نفس من أهلها ، ولكنه لم يظفر بقتل "نمر" لأنه فر هاربا . ثم قام الدقتردار بإنشاء مدينة الخرطوم ، سنة ١٨٢٣ ، وجعلها حاضرة بلاد السودان .

### نتائج الحملة :

حققت الحملة بعض الأغراض التى أرسلت من أجلها ، فقد ضمت أملاكا واسعة إلى مصر ، وفتحت أسواقا جديدة لتجارتها ، وأعطت فرصة لإبادة البقية الباقية من المماليك ، وإفناء عدد كبير من الجنود الألبانيين ، ولكنها لم تحقق كل آمال محمد على فيها ، فلم تعثر الحملة على لذهب الوفير الذى كان يبنى به نفسه ، وفشلت في النهاية فكرة تجنيد السودانيين ، كما أن طارق القوافل التى نجحت في إعادتها أولا ، لم تأت بالثمر المطلوب ، لكثرة ما كان يفرض عليها من الضرائب على الحدود المصرية . ولا ننسى أن يذكر أن ازدياد الرابطة بين مصر والسودان ، كان سببا في ازدياد تجارة الرقيق زيادة كبيرة .



## علاقات مصر الخارجية

### مصر والثورة اليونانية

#### ثورة المورة :

لم تكن بلاد اليونان ، في أوائل القرن التاسع عشر ، في حالة سيئة ، كما يتوهم البعض من ثورتها ، وإنما كان اليونانيون أرفه حالا وأكثر مالا وأوسع تجارة من شعوب بعض الممالك الأخرى. والواقع أن هذا هو الذي دعاهم إلى القيام في وجه الأتراك ، ينشدون الاستقلال لبلادهم .

وتقع هذه الثورة في دورين ، أما في دورها الأول ، فقد هب اليونانيون في شمال البلقان ، ينادون بطرد الأتراك من أوروبا ، وإعادة الدولة البيزنطية ، ولكنهم فشلوا في ثورتهم . وأما في دورها الثاني ، فقامت في شبه جزيرة المورة ، وترمى إلى الانفصال والاستقلال. واندلع لبيب الثورة في شبه الجزيرة في سنة ١٨٢١ ، واتخذ شكل مذابح فظيعة ، فقام اليونانيون يقتلون المسلمين والأتراك أينما وجدوهم ، وهاجموا المدن المحصنة واستولوا عليها ، وناثرت نائرة الأتراك للفظائع التي ارتكبتها الثوار ، وشرعوا يعاملونهم بالمثل ، ولكن الثوار فازوا في النهاية ، ولم ينصرم عام ١٨٢٢ ، إلا وكانت حكمه الثوار مهيمنة على بلاد المورة ، ولم يبق للسلطان أثر من السلطة فيها . ولكن السلطان لم يسكت على هذه الهزيمة ، بل أرسل في عام ١٨٢٣ أكثر من جيش ضد الثوار ، لسحق قواتهم واستعادة سلطته ، غير أن سوء الحظ كان رفيق جيوشه ، ففشلت في مهمتها ، ولم يعد أمامه قوة يستعجدها في شدته ، غير قوة والى مصر ، قاهر الوهابيين وفاتح السودان .

#### ابراهيم في المورة :

طلب السلطان إلى محمد علي ، أن يساعده في إخماد الثورة في بلاد المورة ، وفي عام ١٨٢٤ عينه واليا عليها ، بفهر جيشا كبيرا ، يبلغ عدده ١٧٠٠٠ مقاتل ، وجعله تحت قيادة ابنه " ابراهيم " ، وتحرك الجيش والأسطول من ميناء



الاسكندرية ، في يولييه سنة ١٨٢٤ ، قاصدين جزيرة "رودس" ، حيث التقى  
الأسطول المصرى بالأسطول العثمانى . وفى فبراير سنة ١٨٢٥ ، تمكن ابراهيم من  
إزالة جنده فى ميناء "مودن" ، فى جنوب غرب المورة ، وبذلك بدأت صفحة  
جديدة فى تاريخ الثورة ، فقد تمكن المصريون من رفع الحصار عن ميناء



( ابراهيم باشا بملابسه العسكرية )

"كورون" ، ثم بذلوا جهودا ناجحة فى الاستيلاء على ميناء "نوارين" . وتقدمت  
الجيش المصرى بعد ذلك إلى داخل البلاد ، فاكتملت قوات النوار فى كل  
مكان ، واستولت على أمهات المدن ، مثل "تريبولترا" و "بتراس" ، وأصبحت  
كل المورة فى قبضة يدها ، إلا "نوبليا" مقر حكومة الثوار . وكان ابراهيم يتخذ  
الأهبة لخصارها ، عندما بعث إليه رشيد باشا ، يطلب معونته فى حصار "مسولونجى" ،  
وكان يحاصرها لعدة أشهر دون جدوى . وقد كان لمساعدة ابراهيم كل الأثر  
فى التغلب على الثوار ، الذين اضطروا إلى تسليم المدينة ، فى أبريل سنة ١٨٢٦ ،  
وبعد قليل حاصر رشيد "أثينا" ، واستولى عليها بعد مقاومة شديدة ، فى يونيه



سنة ١٨٢٧ ، ثم أخذ محمد علي والسلطان في الاستعداد ، للقضاء على قوة الثوار  
الباقية ، وهي الأسطول الراسي عند " هيدرا " ، ولكن تدخل الدول حال دون  
الوصول إلى هذه الغاية .

### موقف الدول بإزاء الثورة :

ما كادت تذاع أنباء الثورة ، والفظائع التي ارتكبت فيها ، حتى قامت الشعوب  
الأوربية تندد بوحشية الأتراك ، وألفت في الممالك المختلفة " جمعيات أصدقاء  
اليونان " ، تعمل على مساعدتهم بكل الوسائل ، وتدافع عن قضيتهم بقوة القلم



واللسان ، كما استمرت تحض حكوماتها على نصرتهم بقوة السيف والمدفع ، ولكن  
بالرغم من عطف هذه الشعوب ، سلكت الحكومات مسلكاً ، يتفق مع مصالحها  
السياسية الخاصة .



كان الثوار يأملون كثيرا في مساعدة روسيا لهم ، وهذا ما كان يبغيه القيصر  
اسكندر ، غير انه كان قد ترك المبادئ الحرة في هذا الوقت ، وجارى السياسة  
الأوربية ، التي كان من شأنها حينذاك ، القضاء على ثورات الأحرار في كل مكان ،  
ومساعدة أصحاب الحقوق الشرعية ، ولكن حدث في أثناء ذلك أن اندزفت إنجلترا  
بمحكمة الثوار ، في مارس سنة ١٨٢٣ ، بحجة أن هذا الاعتراف ضرورى لحماية  
التجارة الانجليزية في البحر الأبيض المتوسط ، لأن السلطة الفعلية في البلاد كانت  
في يد تلك الحكومة ، ولكن مسلك الحكومة الانجليزية أزعج الناصر ، فحاول  
عقد مؤتمر في بطرسبرج عام ١٨٢٤ ، لحل المسألة ولكنه فشل .

وفي عام ١٨٢٥ مات الاسكندر ، وتولى بعده "نقولا الأول" ، ولم يكن مترددا  
كسلفه ، ولذلك اعترم من بداية الأمر ، أن يتدخل في المسألة ، وخشيت الدول  
منه ذلك ، فقامت مفاوضات انتهت بعقد "معاهدة لندن" ، بين إنجلترا وروسيا  
وفرنسا ، في يولييه سنة ١٨٢٧ ، وهى تنص على التوسط في الحصول على تسوية ،  
تقضى بمنح اليونان استقلالها داخليا ، وعند هدنة بين الفريقين ، لا يظر في أمر  
التسوية ، وإرسال كل من الدول الثلاث أسطولا ، تسند قيادته العامة إلى القائد  
الانجليزى " كودرينجتون Codrington " .

وقد رحب الثوار بهذا التدخل ، وكانوا في أشد حالات الضيق ، وأعلنوا  
قبولهم لشروط المعاهدة ، وقبل ابراهيم اهـدـنـ ، وأوقف الأعمال الحربية .  
أما الباب العالي فإنه غضب لهذا التدخل ، وأعلن رفضه شروط المعاهدة .  
وحدث في خلال الهدنة ، أن وقع احتكاك بين أسطول الحلفاء ولأسطول لمصرى  
التركي ، أدى إلى حدوث "موقعة نوارين البحرية" بين الطرفين ، في ٢٠ أكتوبر  
سنة ١٨٢٧ ، ولم تدم الموقعة أكثر من ثلاث ساعات ، دمرت في خلالها معظم  
سفن الأسطول المصرى التركى .

### موقف الدول بعد الموقعة :

غضبت تركيا نتيجة الموقعة ، وأعلنت سحقها على الدول ، وطالبتها بتعويض  
كبير لتدمير أسطولها ، كما أعلنت الجهاد الدينى ضد الدول المسيحية ، وخاصة



الروسيا ، فتدفع القيصر بذلك ، وأعلن الحرب على تركيا ، في أبريل سنة ١٨٢٨ .  
أما إنجلترا فلأنها غيرت سياستها حيال تركيا ، وأعلنت أسفها رسميا لتحطيم الأسطول  
المصرى التركى .

وكانت إنجلترا وفرنسا ترغبان في حسم النزاع ، وإيقاف الحرب ، ولهذا عملتا  
على إجبار محمد على على سحب جيوشه من بلاد المورة ، فأرسلت فرنسا نحوًا من  
١٥٠٠٠ جندي ، لتحتل المورة في أغسطس سنة ١٨٢٨ ، وأرسلت إنجلترا قوة  
بحرية بقيادة " كدرنجتن " إلى الاسكندرية ، لترغم " محمد على " على إخلاء  
المورة . ورأى والى مصر أن لا فائدة تعود عليه من مناصبة الدول العداء ، في سبيل  
إرضاء السلطان ، لا سيما وأن الحكومة الانجليزية كتبت اليه ، تظهر أسفها لما  
لحق أسطوله من خسائر بسبب موقعة " نوارين " ، وتظهر له في الوقت نفسه  
رغبتها في أن تكون العلاقة بينهما ودية ، حتى في حالة نشوب حرب بينها وبين  
السلطان ، فتعامله كقوة محايدة اذا لزم الحياد . ولذلك تم الاتفاق على إخلاء  
المورة في أغسطس سنة ١٨٢٨ ، بشروط أهمها ، أن يطلق محمد على سراح الأسرى  
اليونانيين الذين كانوا بمصر ، كما تعهد " كدرنجتن " بإرجاع الأسرى المصريين ،  
وأن تنسحب الجيوش المصرية من المورة ، على أن تنقل في سفن مصرية ، بحميتها  
الأسطول الانجليزى ، وقد قام ابراهيم بإخلاء المورة ، في أكتوبر سنة ١٨٢٨ ،  
وأصبحت مصر في حالة سلم مع الدول الأوروبية .

بعد ذلك عملت إنجلترا وفرنسا على إيقاف الحرب بين تركيا وروسيا ، غير أن  
تركيا أصرت على الاستقرار فيها ، وكانت جيوشها منتصرة قرب نهر الدانوب .  
ولكن ثقة السلطان بقوته أمام روسيا لم تلبث أن تبددت ، حينما ترك الروس  
حصون الشمال ، واخترقوا جبال البلقان ، وحاصروا " أدرة " مفتاح القسطنطينية ،  
عند ذلك ذابت شجاعة السلطان ، واضطربت أعصاب رجال الدولة ، ووافقوا  
على إنهاء الحرب " بمعاهدة أدرة " ، في سبتمبر سنة ١٨٢٩ ، وبها اعترفت



الدولة باستقلال اليونان استقلالاً داخلياً . غير أن هذه الحالة لم ترض الدول ، لأن فيها فرصة لبسط نفوذ روسيا على اليونان ، ولذلك حدث اتفاق الدول في مايو سنة ١٨٣٢ ، على أن تستقل اليونان استقلالاً تاماً .

وكان السلطان قد طلب إلى محمد علي إرسال قوة حربية لمساعدته ضد روسيا ، ولكنه لم يجبه إلى طلبه ، بزعم أن المسافة بين مصر وميدان القتال طويلة براً ، والوباء منتشر في ذلك الوقت في مصر والشام ، في حين أنه يتعذر نقل القوات بحراً ، لتسيطر أساطيل الحلفاء على الطريق ، وقصر مساعدته على إرسال مبلغ مليون ريال للسلطان ، فأثار بذلك كامن أحقادده عليه .

### نتائج حرب المورة بالنسبة لمصر :

( ١ ) أظهر الجيش المصري مقدرة فائقة في بلاد المورة بانتصاراته الكثيرة ، حيث أخفقت جيوش السلطان ، فكان هذا مدعاة لرفع مركز محمد علي في نظر الدولة وخوفها من سطوته .

( ٢ ) كذلك كسبت مصر مركزاً دولياً ، فقد فاوضت الدول "محمد علي" رأساً دون وساطة السلطان ، وعقدت معه اتفاقاً لا يرضاه الباب العالي . وقد ذهبت الحكومة الانجليزية إلى أبعد من ذلك ، بإبداء رغبتها في جعل علاقتها بمصر ودية سلمية ، حتى لو أعلنت الحرب بينها وبين تركيا .

( ٣ ) لم تكسب مصر شيئاً من الوجهة المادية ، اللهم إلا جزيرة كريت ، التي أبقاها السلطان لمحمد علي ، مكافأة له على ما تكبد في حروب المورة ، وكانت هذه الجزيرة لا يسكن ثورانها ، حتى أنها كانت على مصر غرماً لا غناً .

( ٤ ) خسرت مصر أسطولها في موقعة نوارين البحرية .

( ٥ ) كانت هذه الحروب وما تولد عنها سبباً في فتح باب النزاع بين محمد علي والسلطان .



## العلاقات بين محمد علي والدولة العثمانية

الحروب في سوريا والأناضول

### حرب الشام الأولى

( ١٨٣١ - ١٨٣٣ )

#### أسباب الحرب

موقف محمد علي :

تألم محمد علي لصغر شأن المكافأة التي نالها ، بعد أن ضحى بما ضحى من رجال وسفن ومال ، ورأى من حقه أن يطلب من السلطان مكافأة أجدى نفعا من هديته الصغيرة ، وعرض عليه بالفعل أن يمنحه ولاية عكا ، متواضعا في طلبه ، لأنه كان يرمى الى الاستيلاء على كل سوريا .

موقف السلطان :

وكان السلطان من جهة أخرى متحفزا به يريد القضاء عليه ، بسبب رفضه لإرسال حملة عسكرية لمساعدته في الحرب الروسية التركية ، ولم يستطع السلطان أن يكتم حقه وغضبه ، ففي عام ١٨٣٠ أمره أن يسلم الموانئ المصرية ، لوضعها في دائرة نفوذ القبطان باشا ، هذا إلى أن خسرو باشا الذي كان واليا على مصر ، وأصبح قطب السياسة في الدولة العثمانية وصاحب النفوذ فيها ، استمر يوغر صدر السلطان عليه ، ويعمل على طرده من مصر ، انتقاما لنفسه ، وجبا في أن يخلفه على عرشها . وظهرت نيات الباب العالي نحوه بوضوح ، عندما طلبت فرنسا من محمد علي في هذه الآونة ، أن يشترك معها في فتح بلاد الجزائر ، فإن السلطان هدهد بالخلع إن هو أجابها إلى طلبها ، ويقال إنه كان على وشك أن يخلعه ، بالرغم من رفضه الاشتراك مع فرنسا .



### الظروف الملائمة :

لهذا رأى "محمد علي" ضرورة محاربة الدولة تعزيزاً لمركزه، وقد كانت الظروف ملائمة كل الملائمة لغرضه، فإن الدولة كانت حينذاك منهوكة القوى بعد الحروب



( الأمير بشير الشهابي )



( السلطان محمود الثاني )

الأخيرة ، بل كانت بلا جدش مدرب ، ولم تمض بعد فترة كبيرة على إبادة العساكر الانكشارية ، التي فتك بها السلطان عام ١٨٢٦ . زد على ذلك أن أهالي الشام كانوا متذمرين من الحكم التركي الجائر ، فلم يتوقع منهم محمد علي مقاومة بليوشه ، لا سيما وأنه صادق "بشير الشهابي" كبير أمراء لبنان ، كما استمال بعض زعماء سوريا .

### السبب المباشر :

أما السبب المباشر للحملة ، فهو نزاع قام في ذلك الوقت بين محمد علي وعبدالله الجزار والى عكا ، وذلك أن عددا كبيرا من الفلاحين المصريين يبلغ ستة آلاف هاجر إلى ولاية عكا فرارا من أعمال السخرة ، ودفع الضرائب الفادحة ، وتخلصا من الخدمة العسكرية الإجبارية ، فطالب محمد علي إلى الجزار أن يرد إليه المهاجرين



المصريين ، لأن مصر أولى بخدماتهم ، ولكن الجزائر رفض أن يجيبه إلى طلبه .  
هذا إلى أنه كان يساعد المصريين على تهريب تجارتهم من الجمارك المصرية ، باتباع  
طريق صحراء الشام .

لكل هذا صمم محمد علي أن يرسل حملة إلى سوريا ، وقد أعد الحملة بالفعل ،  
وأعلن أنه ذاهب لتأديب الجزائر ، وتحقيق طمأنينة بالقوة ، ولم يظهر أنه يحارب  
تركيا أو خارجا عليها ، بل كان يتظاهر بالولاء والإخلاص للسلطان ، في الدور  
الأول من الحرب ، وأنه لم يجرّد الحملة إلا لتأديب وال متمرّد شبه مستقل .



( الجنود المصريون يقسمون يمين الإخلاص للعلم )

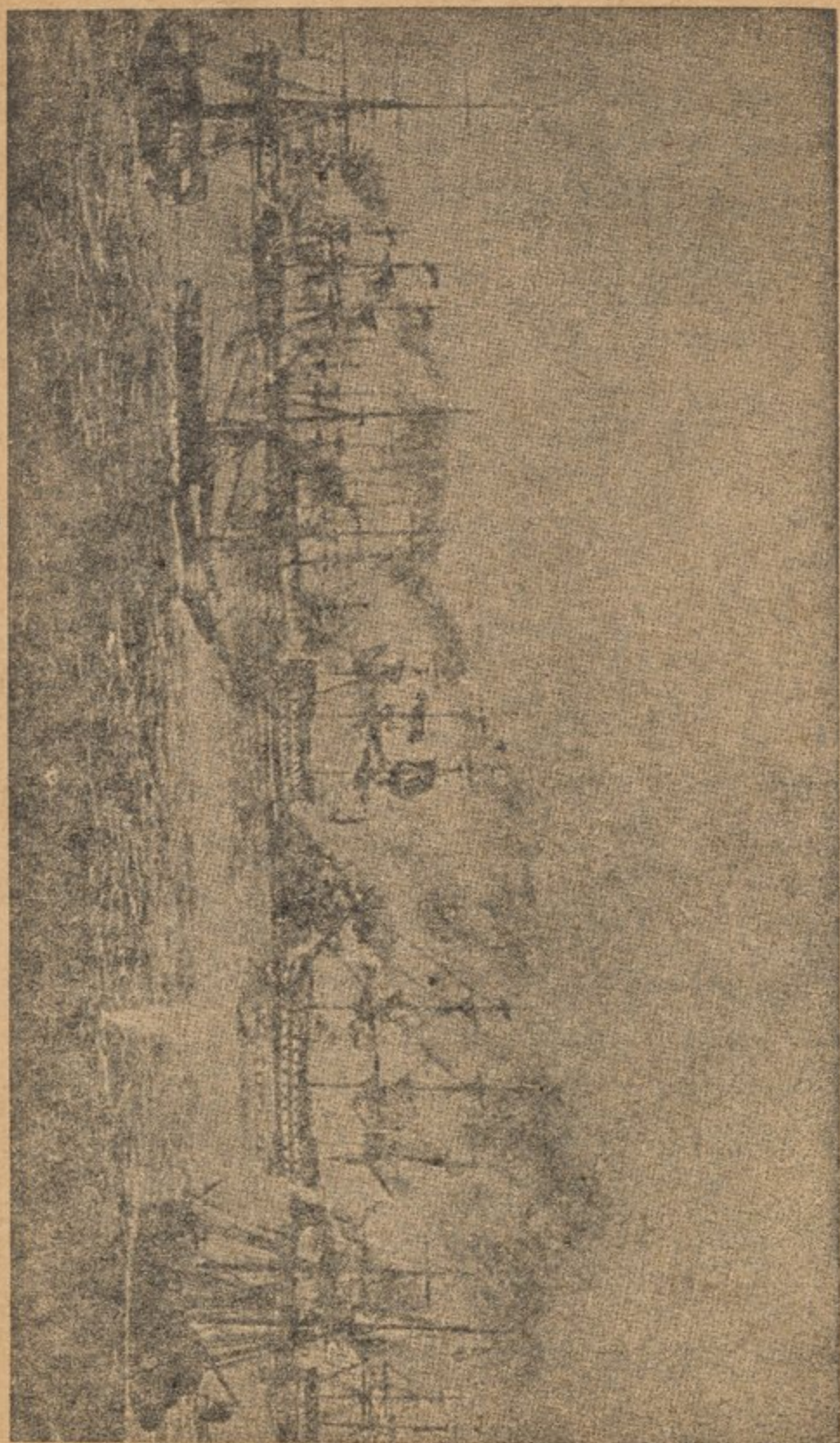
## الحرب :

أعد "محمد علي" الحملة في أوائل عام ١٨٣١ ، وكان عدد الجنود يتراوح بين الثلاثين  
الأربعين ألفا ، ولكن تفشى الأمراض والوباء بمصر ، أخر سيرها حتى شهر  
أكتوبر ، وفي ٢٩ من هذا الشهر ، تحرك معظم الجيش قاصدا سوريا عن طريق  
الصحراء إلى العريش ، فاستراحوا هناك يوما ، ثم اخترقوا الحدود السورية ،  
واستولوا على "غزة" ثم على "يافا" دون مقاومة . أما القائد العام "إبراهيم باشا"  
فانه أقبل في غضون ذلك بالأسطول من الاسكندرية ، ومعه أركان حربه ،









(مركز عكا البحرية)



إبراهيم هزمه هزيمة منكرة ، ثم هاجم المدينة هجوما عنيفا ، حتى سقطت في يده  
في ٢٧ مايو سنة ١٨٣٢ ، وسلم الجزار نفسه إلى إبراهيم ، فكرم مشواه ، ثم أرسله  
إلى الاسكندرية ، حيث أحسن محمد علي وفادته .

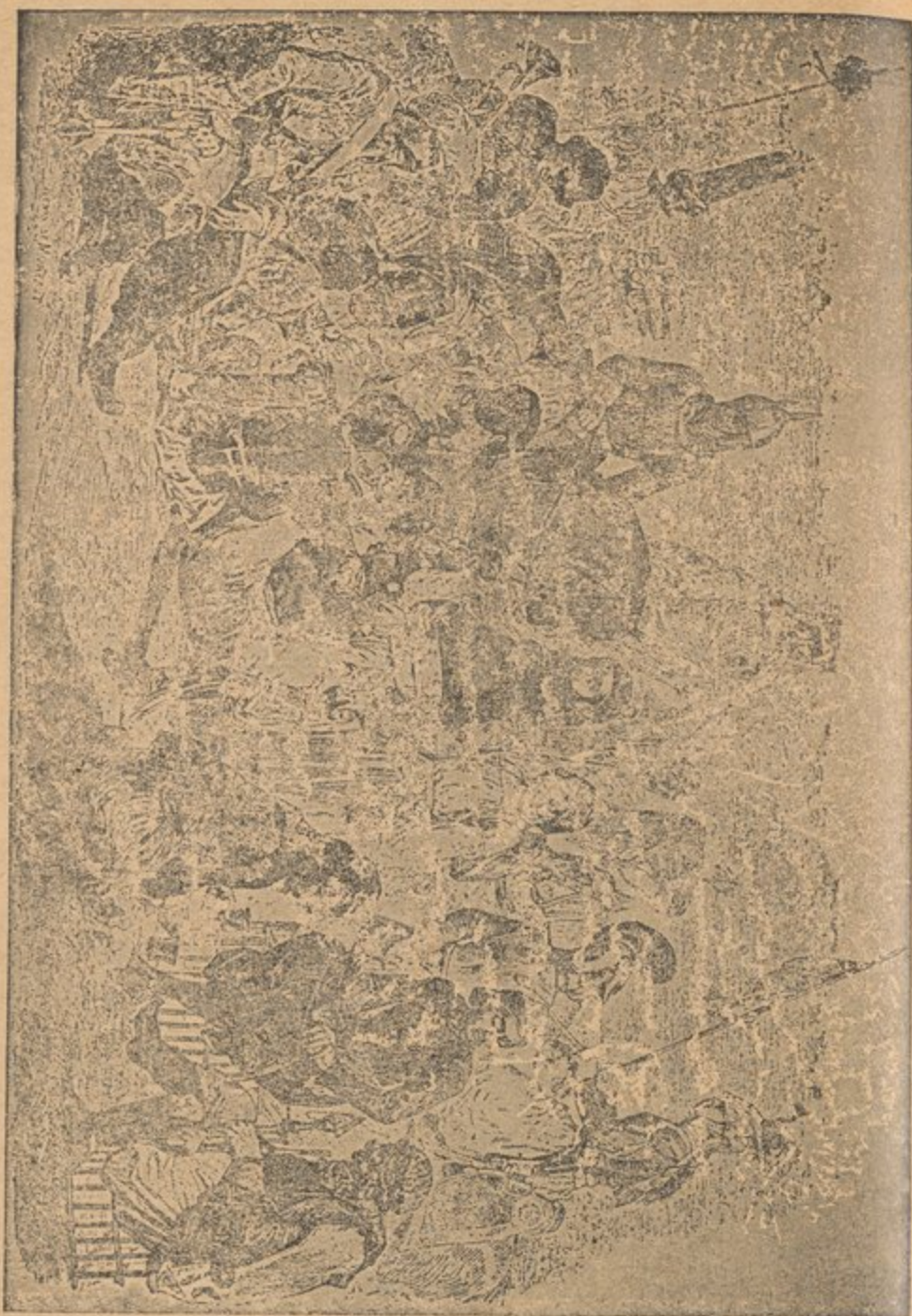
وقد كان لسقوط عكا دوى كبير في مختلف الجهات ، وأثر واضح في سوريا  
نفسها ، إذ أقبلت القبائل المختلفة فرحة ، تعان قبوطا للحكم المصري ، وانضم  
الأمير "بشير النهابي" صراحة لمحمد علي ، وساعد الجيش المصري مساعدة  
تذكر . وفي أثناء حصار عكا ، كانت القوات المصرية قد استولت على صبور  
وصيدا وبيروت وطرابلس وبيت المقدس دون مقاومة .

أما السلطان فاشتد حقه على محمد علي ، وأعلن عصيانا ونحروجه على إرادته ،  
وفي ٢ مايو سنة ١٨٣٢ ، أصدر فرمانا بعزله عن مصر وكريت ، وعزل ابنه  
إبراهيم عن بلاد العرب . وبالرغم من ذلك ، فإن "محمد علي" عرض على السلطان  
بعد سقوط عكا ، أن يوقف القتال ، على أن يولييه سوريا علاوة على مصر ،  
ولكن السلطان رفض أن يسمع لطلباته ، وصمم على تأديبه وطرده من ولايته .  
وبإزاء ذلك تقدم إبراهيم بجيوشه نحو "دمشق" ، فاستولى عليها ، كما استولى  
على حمص وحلب ، ثم قاتل الجيش التركي مقاتلة عنيفة في "بيلان" ، انتهت  
بانهزام جيوش السلطان ، في ٢٩ يولييه سنة ١٨٣٢ . وهكذا استولت الجيوش  
المصرية على كل بلاد سوريا في بضعة أشهر ، بفضل شجاعة رجالها ومقدرة قائدها  
العام إبراهيم ، ورئيس أركان حربه سليمان الفرنساوى .

عند ذلك عرض محمد علي شروط الصلح مرة أخرى على الباب العالي ، ولكن  
إصرار السلطان على الرفض ، جعل إبراهيم يتقدم بجيوشه نحو الشمال ، وأرسل ابن  
أخيه "عباسا" بقوة من الحند ، استولت على "أذنة" خلف جبل طوروس ،  
وكان هذا النصر إيذانا بانضمام الكثيرين من سكان آسيا الصغرى إلى المصريين .  
وتقدم إبراهيم حتى وصل إلى "قونية" ، حيث كان الجيش العثماني الجديد  
معسكرا في شمالها ، تحت قيادة "محمد رشيد باشا" ، الذي اشرك مع إبراهيم  
في حصار "مسولونجي" ، وسرعان ما حدثت بين الفريقين "موقعة قونية" ،  
في ٢١ ديسمبر ، وانتهت بتشتيت شمل الجيش التركي وأسر قائده ، فكانت نكبة  
شديدة الوقع على السلطان . وعلى أثر ذلك أرسل إبراهيم قوات مختلفة ، استولت



على أكثر بلاد الأناضول ، وتندم هو بجيشه نحو "كوتاهية" . وفي غضون ذلك  
ستؤنفت مفاوضات الصلح التي أدت في النهاية إلى إبرام "اتفاق كوتاهية"



(جيش محمد علي في بلاد مصر)

بين الطرفين ، في مايو سنة ١٨٣٣ ، وهو يقضى بمنح محمد علي بلاد سوريا دلاوة  
على مصر ، وتعين ابنه إبراهيم حاكما على ولاية "أذنة" .



## حكومة محمد علي في سوريا :

ما كاد يستتب الأمر لمحمد علي في بلاد سوريا ، حتى بادر إبراهيم بوضع حكومة منظمة عادلة ، يتساوى أمامها جميع الناس ، من مختلف المذاهب والأديان ، كما أنه عهد إلى كثير من السوريين أنفسهم بتصويب من الحكم ، وأخذ يقضى على عوامل الفوضى والاخلال بالنظام ، التي كانت البلاد موبوءة بها ، فطهر البلاد من العصابات واللصوص وقطاع الطرق .

وقد فرح أهالي سوريا بانتصارات إبراهيم كما أسلفنا ، واستمروا مرتاحين زمنا لحكومته ، يثنون على عدالته . غير أن جزءا من سياسته أغضب سكان البلاد ، وجعلهم ينفرون منه شيئا فشيئا ، ويتناول هذا احتكاره لجميع أصناف الحرير وبعض المواد الأخرى ، طمعا في الحصول على الأموال ، التي يستطيع أن يمد بها جيشا قويا ، يقيه شر غضب السلطان ودساتيه . كذلك أخذ إبراهيم يرغم السكان على دفع حاصلات وغرس نباتات خاصة ، مما سبب استياء الأهالي ، ودفعهم إلى الهجرة إلى بلاد الجزيرة وآسيا الصغرى .

وبينا كانت الأمور سائرة على هذا المنوال ، ودسائس الباب العالي والانجليز مستمرة في الخفاء ، إذ بمحمد علي يصدر ثلاثة أوامر ، ويطلب من إبراهيم تنفيذها ، وهي : فرض ضريبة على كل رجل ، مهما كانت جنسيته أو ديانتة ، وتنفيذ مبدأ التجنيد الإجباري في سوريا ، ونزع السلاح من جميع السكان . وقد كانت هذه الأوامر شديدة الوطأة ثقيلة الوقع ، على نفوس سكان تعودوا حمل السلاح والدفاع به عن أنفسهم من عادات اللصوص والمجرمين . ولهذا ندمر الأهالي وثاروا ضد الحكومة في ربيع عام ١٨٣٤ ، وانتشرت الثورة في عدة جهات ، حتى اضطر محمد علي أن يتوجه إلى بلاد سوريا بنفسه ، على رأس قوة كبيرة ، وقد أفلح هو وابنه إبراهيم في إخمادها ، غير أنه ما أنفك يظهر لها بين حين وآخر ، وأصبح إبراهيم على حذر دائم ، فاستبدل بالحكام الملكيين غيرهم من رجال الجيش ، ونشر عساكره في أنحاء البلاد .



## حرب الشام الثانية

الهدنة المسلحة :

لم يكن "اتفاق كوتاهية" في الواقع إلا هدنة مسلحة ، فإن الباب العالي أذعن لطايات "محمد علي" على الرغم منه ، فكان من المتوقع أن يتهمز أي فرصة للإيقاع به ، وكان محمد علي يعرف شعور السلطان ورجاله نحوه ، فرأى أن ما أخذه بالقوة ، يجب أن يحافظ عليه بالقوة ، ولهذا لم ينفك الطرفان عن إعداد كل عدة حربية ممكنة ، لتكون نصيره في تحقيق أغراضه ، إذا ما حان الوقت المناسب . ولذلك أخذ السلطان يحرك عوامل الثورة في بلاد الشام ، ضد حكومة محمد علي ، ولما تجملت الظروف لقيام ثورات مختلفة بالفعل ، في أنحاء سوريا ، عام ١٨٣٤ ، رأى السلطان أن الفرصة قد سنحت ، لشن الغارة على والى مصر ، للأخذ بالتأثر واسترجاع البلاد المفقودة ، غير أن تدخل الدول في الأمر ، حال دون قيام حرب بين الطرفين وقتئذ . ولكن بالرغم من ذلك ، استمر الجانبان في القيام بالاستعدادات الحربية ، فاستعانت تركيا بضباط من الأسطول الإنجليزي لإصلاح أسطولها ، وبقواد بروسين لتنظيم جيوشها ، كما عين حافظ باشا حاكما على ما بين النهرين ، وعهد إليه بجمع جيش كبير ، والعمل على إثارة القلاقل ، وتحريك عوامل الثورة ضد الحكم المصري في سوريا . وأخذت القناصل من جهة أخرى تتوسط لدى محمد علي ، لإيقاف الاستعدادات الحربية ، ولكنه رفض أن يصنى لنصائحهم ، واكتفى بأن أرسل إلى ابنه إبراهيم يأمره بأن لا يهاجم الجيش التركي حتى يبدأ بالعدوان .

الحرب :

ولكن نصائح الدول وتهديداتها ، لم تجد نفعا لدى السلطان الغاضب الحائق ، إذ تراءى له أن لاضير عليه إن هو غامر بالبقية الباقية له ، وأبى أن يرضخ للطايات والناثر ، ولذلك أصر على الحرب ، وأسرع بإرسال الأوامر إلى حافظ باشا ، ليتقدم بجيشه ويفتك بالجيوش المصرية ، فأذعن القائد لأوامر سيده ، وصر



نهر الفرات ، وتحصن عند قرية " نصيبين " . أما ابراهيم ، فإنه نفذ رغبات والده ، فلما وردت اليه الأوامر برد عدوان الأتراك ، تقدمت الجيوش المصرية نحو الجيش التركي ، وكانت النتيجة "موقعة نصيبين" ، في ٢٤ يونيه سنة ١٨٣٩



( ابراهيم باشا في نصيبين )

ولم تدم الموقعة أكثر من ساعتين ، وانتهت بهزيمة الأتراك هزيمة منكرة ، وأصبحت الدولة بلا جيش للمرة الثانية في حروبها مع محمد علي . وقبل أن يصل خبر الموقعة إلى الآستانة ، مات السلطان محمود الثاني ، وخلفه على العرش ابنه "عبد المجيد" ، ولم تزد سنه إذ ذاك على السادسة عشرة ، وأصبح كل النفوذ في يد خسرو باشا ، الذي تولى منصب الصدارة العظمى .

ولم تقتصر نكبة الدولة على جيشها وسلطانها ، فبعد بضعة أيام من موقعة نصيبين ، أبحر أمير البحر التركي " أحمد فوزي باشا " بالأسطول العثماني ، الذي كان موكولا اليه مساعدة حافظ باشا ، إلى الجنوب قاصدا الاسكندرية ، حيث سلم الأسطول طائعا لمحمد علي ، فأضحت الدولة من الضعف ، بحيث لا تستطيع أن تقاوم رغبات محمد علي ، مهما تغالى فيها .



## سياسة الدول بإزاء المسألة الشرقية والمصرية

(من ١٨٣١ إلى ١٨٣٩)

### موقف الدول بعد قونية

#### موقف روسيا :

كانت الدول الأوربية في شغل شاغل عن النزاع بين محمد علي والسلطان ، بمسائلها الخاصة ، فلما طلب الباب العالي المساعدة من إنجلترا لم تجبه إلى طلبه ، وإنما وعدته بالتوسط في الأمر وإقناع محمد علي بالعدول عن خطته . أما روسيا فإنها فزعت لانتصارات محمد علي المتوالية السريعة ، وخافت إن هي تركت السلطان وحيدا ، لا يلبث أن يستولى على الآستانة ، ويكون دولة قوية على أنقاض الدولة العلية المحطمة ، ولم يكن هذا من صالح روسيا ، ولذلك أسرع وعرضت على السلطان مساعدتها البرية والبحرية ، غير أن السلطان تمهل في قبول هذه المساعدة ، وبادر بمفاوضة محمد علي ، الذي أصر على ضم كل سوريا وولاية أذنة .

#### موقف إنجلترا وفرنسا :

ولكن تدخل روسيا أزجج الدول ، وخاصة إنجلترا وفرنسا ، لأن سياسة إنجلترا في ذلك الوقت ، كانت ترمي إلى المحافظة على كيان الدولة العلية ، ومقاومة نفوذ روسيا فيها ، كما أنها كانت في نفس الوقت تكره "محمد علي" ولا يسرها أن تراه مسيطرا على طريق الهند . وأما فرنسا ، فكان موقفها إزاء المسألة الشرقية ، هو نفس موقف إنجلترا ، ولكنها كانت ترغب في مساعدة محمد علي وتقوية مصر الناهضة . ولذلك فبالرغم من هذا الخلاف الواضح ، بين سياسة إنجلترا وفرنسا نحو مصر ، كانت الدولتان متفقتين بالنسبة لروسيا ، ولذلك تضامتا لمقاومة النفوذ الروسي في الآستانة ، وتوسطتا بين الفريقين لمقد صلح يرضاه الطرفان ، ولكن بدون جدوى ، لأن "محمد علي" تشبث بطلباته ، وأصر ابنه إبراهيم أن يتقدم نحو القسطنطينية ، إن لم يقبل السلطان شروط الصلح .



### معاهدة كوتاهاية :

وفي غضون ذلك استولى ابراهيم على " كوتاهاية " ، في فبراير سنة ١٨٣٣ ، فارتعدت فرائص السلطان وطلب المعونة رسميا من روسيا ، ولشد ما طربت روسيا لهذا الطلب ، وأسرعت بإرسال عمارة بحرية ، وجيش برى مؤلف من ١٢,٠٠٠ مقاتل ، أقامت عند " أنكيار سكلسى " " هنكار اسكله سى " ، على شاطئ البسفور الأسيوى . ولكن هذا التدخل أزعج إنجلترا وفرنسا ، ورأتا أن الحل الوحيد لإجلاء القوات الروسية من البسفور ، إنهاء حالة الحرب ، ولذلك شددتا على الباب العالى ، ليقبل شروط محمد على ، فقبلها وأبرم بين الطرفين " اتفاق كوتاهاية " السابق الذكر .

### معاهدة أنكيار سكلسى :

انتهت مخاوف إنجلترا وفرنسا بامضاء هذا الاتفاق ، غير أنه لم يلبث أن حدث ما كانتا تخشيه ، وذلك أنه في يوم ٨ يوليه سنة ١٨٣٣ ، أبرمت معاهدة دفاعية هجومية بين روسيا وتركيا ، تعرف بمعاهدة " أنكيار سكلسى " ، وتنص أهم شروطها على تعهد روسيا بالدفاع عن البلاد العثمانية ضد أى دولة ، في نظير أن تغلق تركيا البوغازات في وجه أساطيل جميع الدول ، كلما دعت الضرورة إلى ذلك ، ومعنى هذا أن تصبح الدولة في مركز بواب يأتمر بأوامر روسيا ، التى تصدر هذه الأوامر حسب مصالحها الخاصة . ويدل هذا على مقدار الضعف الذى وصلت اليه الدولة حينذاك . وقد حفظ أمر هذه المعاهدة سرا ، غير أنه لم يلبث أن سرى خبرها إلى علم إنجلترا وفرنسا ، فاشتد حنقهما على أنروسيا ، وقدمتا احتجاجاتهما لدى الباب العالى والقيصر ، وازدادت الصلات بينهما وثوقا .

### موقف الدول بعد كوتاهاية

#### أزمة سنة ١٨٣٤ :

كان موقف السلطان بعد اتفاق كوتاهاية ، موقف المتحفز يبنى الانتقام ، وموقف محمد على موقف المدافع عن أملاكه يبنى الزود عنها ، فانتهر السلطان فرصة قيام الثورة فى سوريا ، وأعلن للدول عزمه على تأديب ذلك الوالى النائر .



واتصل هذا الخبر بمساع محمد علي ، فأعلن أنه مستعد لدفع القوة بالقوة . أما الدول فأجمعت على نصيح الباب العالي بالمحافظة على نصوص الاتفاق ، وعلى عدم مساعدته بأي حال إذا بدأ بالعدوان .

هكذا كان موقف الدول إزاء أزمة عام ١٨٣٤ ، فاضطر السلطان إلى التنازل عن فكرته مؤقتا ، وبذلك بقي السلم بين الطرفين بضع سنوات . وقد فكر محمد علي في تلك السنة أن يعلن انفصاله عن الدولة ، ويبقى بعيدا عن دسائسها ، ولكن الدول وقفت في وجهه ، ورفضت أن توافقه على فكرته ، فانصرف عنها مرغما .

ما بين ١٨٣٤ و ١٨٣٩ :

غير أنه بالرغم من ذلك استمر الجانبان في القيام بالاستعدادات الحربية . وكان أكبر عون للسلطان ، في خطة الإصلاح والدسائس ، سفير إنجلترا في الاستانة . لورد "بسنبي" Ponsoby ، ووزير خارجيتها "بالمرستون" Palmerston . ولم تقتصر مجهودات تركيا على القيام بالاستعدادات الحربية ، بل عملت من وجهة أخرى ، على إضعاف مركز محمد علي المالي ، فأخذت ترهق خزينته بكثرة طلباتها



(بالمرستون)

وعقدت مع الحكومة الانجليزية معاهدة تجارية عام ١٨٣٨ ، تقضى بإلغاء احتكار التجارة ، في جميع ولايات الدولة ومن ضمنها مصر ، نظير زيادة ضريبة الواردات إلى ٨٪ ، وكانت هذه ضريبة شديدة على مورد مهم من موارده المالية . ولهذا رأى محمد علي أن يضع حدا لمركزه بإزاء الباب العالي ، وأبان لقناصل الدول في القاهرة عام ١٨٣٨ ، أن الوقت قد حان لوضع حد للسألة الهامة ، المتعلقة بضمان

حق الوراثة لذريته ، وأعلنهم في اجتماع خاص ، بعزمه على الانفصال والاستقلال . غير أن الدول وقفت في طريقه للمرة الثانية ، وأعلنت عدم موافقتها على مشروعه . فاستاء محمد علي ، ثم ترك مصر في نفس العام ، وتوجه إلى السودان لتفقد أحواله . ولم يلبث طويلا حتى عاد إلى مصر ، وتطورت الحوادث بشكل أدى إلى استئناف الحرب التي أفضت إلى كارثة نصيدين .



## موقف الدول بعد نصيين

### موقف تركيا :

رأى خسرو باشا أن يفتح باب المفاوضات مع محمد علي بعد الموقعة ، فأمرع بإرسال رسول الى الاسكندرية ، كانت مهمته في الظاهر إعلان الوالى بتولية سلطان الجديد ، وفي الواقع كان يحمل شروطا للصالح تتضمن إعطاء محمد علي مصر وراثية ، ولكن الوالى تشبث بإضافة حكومة سوريا .

### موقف إنجلترا :

أما "المرستون" ، فإنه غضب لنتيجة الموقعة ، وأعان عزمه على مقاومة رغبات محمد علي .

### موقف روسيا :

لم تشترك روسيا في الحرب ضد محمد علي ، استنادا على أن السلطان هو الذى بدأ بالعدوان ، فتركته وحيدا أمام القوات المصرية ، ولما دارت الدائرة عليه ، أعلنت أنها ترى عدم تدخل الدول في المسألة ، ما دامت تركيا أوروبا بعيدة عن الخطر ، كما ترى أنه لا يصح للدول أن تتدخل في الأمر ، إلا في حالة فشل المفاوضات التى كانت جارية بين الطرفين .

### موقف فرنسا .

أما فرنسا فرأت أن الفرصة مناسبة للحصول على أحسن الشروط لمحمد علي ، الذى أظهرت اهتماما كبيرا بشأنه . غير أن اهتمامها بسياساتها إزاء روسيا كان أكبر ، فكانت تعمل على معاكسة السياسة الروسية في الآستانة . ولذلك انتهزت فرصة إعلان روسيا لسياساتها السابقة ، وعملت على جمع الدول ضدها في المسألة الشرقية ، فاقترح "سولت Soult" رئيس وزراء فرنسا على الدول ، أن تعلن الباب العالى ، بأن أية مفاوضة بينه وبين محمد علي رأسا ، دون علم الدول ، تعد لاغية في نظرها ، فارتاحت إنجلترا وفرنسا لهذا الاقتراح ، ولم تعارض روسيا فيه .



## المذكرة المشتركة :

وعلى ذلك اشتركت الدول الخمس في تقديم "مذكرة مشتركة" إلى الباب العالي بالمعنى السابق ، في ٢٧ يولييه سنة ١٨٣٩ . غير أن فرنسا ساءها اشتراك روسيا في تقديم المذكرة ، لأنه جاء على غير انتظار منها ، وكان لهذه المذكرة أكبر الأثر فيما تلاها من الحوادث . ويعد اقتراح فرنسا غلطة سياسية كبرى ، لأن آراءها في تسوية المسألة المصرية ، كانت تخالف آراء جميع الدول الأخرى .

## التدخل الأوربي وتسوية ( ١٨٤٠ - ١٨٤١ )

### الخلاف بين إنجلترا وفرنسا :

فتمت فرنسا غلطاتها ، وأرادت أن تعمل على ملاقاتها ، فطلبت من إنجلترا أن تبين الأفاليم التي ترى منحها لمحمد علي ، وعلى هذه الصخرة ، تحطم الوفاق الذي كان سائدا بين الدولتين حتى هذه اللحظة ، فإن الخلاف بدأ يدب بينهما ، لاختلاف وجهة نظر كل منهما إلى محمد علي . أما " بالمرستون " فكان من رأيه أن ينكمش محمد علي في ولايته مصر فقط ، على أن تمنح له وراثية ، واقترحت فرنسا أن يمنح مصر وسوريا وراثيتين ، فلم يوافق بالمرستون على ذلك ، مع رغبته في إبقاء العلاقات الودية مع فرنسا . غير أنه عاد فأظهر شيئا من التساهل ، وعرض على الحكومة الفرنسية أن يمنح مصر وراثية ، وكذلك ولاية عكا إلى طرابلس ودمشق ، بشرط أن تتعهد فرنسا بالاشتراك مع الدول ، في إخضاعه بالقوة ، إذا رفض هذه الشروط . وما كان من فرنسا ، إلا أن وضعت نفسها موضع محمد علي ، ورفضت الشروط المتقدمة ، محتجة على استعمال أى قوة ضد وإلى مصر .

وعندما بدأ الخلاف يظهر بين إنجلترا وفرنسا ، في خلال هذه المناويزات العلوية ، انتهزت روسيا الفرصة وتقربت من إنجلترا ، فوافقتها على وجهة نظرها ، وأعلنت تنازلها عن شروط معاهدة " ألكسندر سكلسي " ، فأساء هذا التقرب الشعب الفرنسي وحكومته ، وسرت روح الاستعداد الحربى في أنحاء فرنسا ، وسقطت وزارة " سولت " ، وحلت محلها وزارة " ثيير Thiers " الذي كان قد عقد النية على مساعدة محمد علي ، مهما كانت الظروف .



وكانت خطة "تير" ترمي إلى العمل على إبرام اتفاق مباشر بين محمد علي والسلطان ، ينال فيه الأول كل بلاد سوريا زيادة على مصر ، ويرى أنه إذا تم مثل هذا الصلح ، فلا يكون للدول حق التدخل لإلغائه ، ولو أنه يعلم أن ذلك مخالف لفحوى المذكرة المشتركة .

### معاهدة لندن (١٥ يولييه سنة ١٨٤٠) :

استاء "بالمرستون" من مسلك فرنسا ، ولم يربدا من الإسراع في عقد مؤتمر من الدول ، لحل المسألة دون اشتراكها ، خوفا من ضياع الفرصة ، ولذلك اجتمع مندوبو الدول الأربع ( النمسا وروسيا والروسيا وانجلترا ) في لندن ، وأخذوا يدرسون المسألة من جميع وجوها . وفي النهاية أبرمت "معاهدة لندن" مع الدولة العثمانية ، في ١٥ يولييه سنة ١٨٤٠ ، بدون اشتراك فرنسا ، وتتلخص أهم شروط هذه المعاهدة (\*) فيما يأتي :

(١) يمنح محمد علي مصر وراثية ، وولاية عكا طول حياته ، ويتعهد بإخلاء ما عدا ذلك من أملاك الدولة العثمانية ، وإرجاع الأسطول العثماني إلى الأستانة .

(٢) إذا رفض محمد علي هذه الشروط ، يكون للدول الحق في إرغامه على ذلك بالقوة ، ويكون لها الحق في حصر الموانئ المصرية والسورية ، ومساعدة كل من يريد ترك أملاكه والإقامة في ولايات الدولة الأخرى .

(٣) إذا تقدمت قوات محمد علي نحو القسطنطينية ، وأصبحت هذه في خطر ، كان للدول الحق في إرسال سفنها إلى الدردنيل والبسفور ، للدفاع عن الدولة ، ولا يكون لها هذا الحق ، مادامت هذه الجهات بعيدة عن الخطر .

(٤) يعمل بنصوص هذه المعاهدة فورا ، دون انتظار تصديق الحكومات المختلفة عليها ، لاقتضاء الظروف ذلك .

(\*) انظر ملحق (١) صفحة ٣٥٤ — ٣٥٧



(٥) تعرض شروط المعاهدة على محمد علي ، فإذا قبلها في مدة عشرة أيام ، أعطى مصر وراثية ، وولاية عكا مدة حياته ، وإذا رفض ، فمصر فقط ، وإذا رفض ذلك في مدة عشرة أيام أخرى ، نظر السلطان في الأمر من جديد ، مسترشدا بآراء الحلفاء .

### أثر المعاهدة في فرنسا ومصر :

ما كادت تصل أخبار هذه المعاهدة إلى فرنسا ، حتى ثارت ثورة الفرنسيين ، وشارك الملك وحكومته الشعور العام ، وازداد الصخب وعم الاستياء ، واعتبروا مسلك الدول جارحا لعواطف الأمة الفرنسية ، وماسا بكرامتها ، وسرت الروح الحربية في جميع الأفراد ، حتى المعتدلين منهم ، وأخذ "لويس فيليب Louis Philippe" يهدد أوربا بإطلاق العنان للثورة ، وبدأ "تيير" يفكر في اتخاذ الأهبة الحربية اللازمة ، لصيانة شرف فرنسا .

ولما عرضت الشروط على محمد علي ، في أوائل أغسطس ، حنق على الدول ، واستاء لصرامة الشروط التي عرضت عليه ، ولكنه قابل الخبر بثبات ورباطة جأش ، ورفض أن يرضخ لشروط المعاهدة أولا وآخر ، وأخذ يعد المعدات الحربية ، استعدادا لدفع الطوارئ . وقد شجعه على سلوك هذا المسلك ، أمله في مساعدة فرنسا ، واعتماده على قوة جيش إبراهيم في بلاد الشام .

### محمد علي والحلفاء :

لما أصر "محمد علي" على رفض شروط الدول ، أمرت الحكومة الانجليزية أسطولها بمحاصرة موانئ الشام ومصر ، وقطع المواصلات بينها ، كما أعلن السلطان عزل محمد علي ، وكان "بنسني" قبل ذلك ، يعمل على إثارة الفلاقل ضد الحكم المصري في سوريا ، ونجح في مهمته ، فاستمال إليه كثيرا من رؤساء القبائل ، ووزع عليهم السلاح والمال ، وأقنعهم بالقيام في وجه إبراهيم . وبالفعل قامت ثورة كبيرة في لبنان ، استطاع إبراهيم إخمادها في أول الأمر ، ولكنها عادت فاشتعل لهيبها من جديد ، واتسع نطاقها عند ظهور أساطيل الحلفاء ، أمام الموانئ السورية ، فكانت أشد خطرا على الجيوش المصرية من قوات الحلفاء .



وصات أساطيل الحلفاء بقيادة "ستيفورد Stopford" و "ناپير Napier" الانجليزيين ، أمام "بيروت" في سبتمبر سنة ١٨٤٠ ، وأطلقت القنابل عليها ، ثم أنزلت جيشا عثمانيا بالقرب من المدينة ، ودافع سليمان باشا عنها دفاعا مجيدا ، ولكن سرعان ما وصلته أنباء الهزائم ، التي لحقت بالجيش المصري ، وهي في طريقها لإمداد بيروت ، وغيرها من مدن الساحل ، فأخلى المدينة وانضم بقواته إلى ابراهيم ، ووقعت معظم الموانئ في أيدي الحلفاء ، الذين حاصروا "عكا" بعد ذلك ، فسلمت بعد ثلاثة أيام ، وعلى أثر تسليم عكا سلمت بعض الثغور الأخرى ، وأصبح مركز الجيش المصري غاية في الحرج .

وقد حزن محمد علي عند ما بلغه خبر سقوط عكا ، وكان قد أيقن قبل ذلك بانصراف فرنسا عن مساعدته ، وذلك أنه في غضون هذه الحرب ، بدأت السياسة الفرنسية تتخذ لنفسها مجرى آخر ، بالرغم من استمرار الشعور الحربي في البلاد ، وميل الرأي العام إلى مساعدة محمد علي . ويرجع هذا إلى أن "لويس فيليب" ملك فرنسا ، على أثر انتصار الحلفاء في سوريا ، وتهديدات "بالمستون" له ، أسقط وزارة "تير" ، وأخذ ينصرف بالتدريج عن الاستعدادات الحربية ، وبذلك تخلت فرنسا عن محمد علي في أحرج الأوقات ، بعد أن كانت السبب الأكبر في إصراره على رفض شروط الدول ، ودخوله في حرب معها .

### الصالح النهائي :

وبعد سقوط عكا ، أبحر الضابط الإنجليزي "ناپير" بجزء من أسطول الحلفاء إلى الاسكندرية ، للتيقن بمظاهرة بحرية ، يرغم بها "محمد علي" على الخضوع فلما وصل إلى مصر ، رأى أن يفتاح "محمد علي" في الصالح ، فعرض عليه أن يخضع للسلطان ، ويعيد إليه الأسطول العثماني ، ويأمر ابراهيم بإخلاء سوريا ، وفي نظير ذلك تضمن الدول أن يمنحه الباب العالي مصر وراثية ، ثم هددته بضرب الاسكندرية بالمدافع ، إذا رفض هذه الشروط . ولمّا كان اليأس قد استولى على "محمد علي" ، من جراء انهزام جيشه في سوريا ، ومن تخلى فرنسا عن مساعدته ، قبل الشروط المعروضة ، وأبرم الاتفاق في ٢٨ نوفمبر سنة ١٨٤٠ ، وعلى أثر ذلك أمر ابراهيم بالاستعداد لإخلاء سوريا ، ثم بعث برسالة استعطاف إلى الباب العالي ، ومن ثم توسطت الدول لدى السلطان ليمنحه مصر وراثية ، فتم ذلك بإصدار فرمان ١٣ فبراير سنة ١٨٤١



## فرمان فبراير سنة ١٨٤١ :

وتتلخص أهم شروط هذا فرمان ، في أن الباب العالي يختار والى مصر من بين أفراد أسرة محمد على المذكور ، وأولاد أولادهم المذكور وهكذا ، على أن يذهب الوالى الجديد إلى مقر الخلافة اتسليم فرمان التولية بنفسه . وينص فرمان على أنه لا يجب أن يبلغ عدد الجيش أكثر من ١٨٠٠٠ ، في وقت السلم ، وأن ليس للوالى الحق في منح الرتب العسكرية إلا لرتبة "صاغ" ، وأن يدفع ربع انتحصل من الضرائب إلى الباب العالي ، وتصرف الثلاثة الأرباع الباقية في شؤون مصر .

وصدر فرمان آخر في نفس اليوم ، بتولية محمد على أفاليم السودان ( النوبة وكردفان ودارفور<sup>(\*)</sup> وسنار وجميع ملحقاتها ) مدة حياته ، على أن يقدم حسابا سنويا عن هذه الولايات إلى السلطان ، وأن يعمل ما في وسعه لإصلاح حالة هذه الأقاليم وساكنيها .

وتألم محمد على كثيرا ، من شدة وطأة ما حواه فرمان من قيود ، وطلب من الدول أن تتوسط لدى السلطان لتخفيف شروطه ، فقبلت الدول ذلك ، وأوعزت إلى السلطان بالعمل على إرضائه ، وعلى ذلك صدر فرمان آخر في أبريل سنة ١٨٤١ معدلا لمض شروط فرمان السابق . ويتناول هذا التعديل حق الوراثة ، بفعله لأكبر الأولاد المذكور سنا ، كما أعطى الوالى الحق في منح الرتب العسكرية لفاية رتبة "أميرالاي" ، وأوقف الحمل بالمادة الخاصة بتقدير الجزية ، إلى أن حددت قيمتها في يونيه من السنة نفسها بثمانين ألف كيس ، أى ٣٢٠,٠٠٠ جنيه . وقد وافقت الدول على هذا التعديل ، فصدر فرمان في أول يونيه سنة ١٨٤١ ، يتضمن مواد فرمان الأول مع ما أدخل عليه من تعديلات .

وبذلك نرى أن "محمد على" ، نجح في تثبيت أسرته على عرش مصر ، وإن لم يحن غير ذلك من حروبه وانتصاراته على السلطان ، وأصبحت معاهدة لندن هي الوثيقة السياسية ، التي قام عليها استقلال مصر ، من سنة ١٨٤٠ حتى سنة ١٩١٤ ، ولو أنه كان استقلالا مقيدا ببقاء السيادة التركية .

(\*) فالرغم من ذكر دارفور في فرمان ، لم تكن قد أخضعت بعد لسلطان مصر .



وهكذا انتهت الأزمة في الشرق ، وحاولت الدول بعد ذلك لإرضاء فرنسا ، فرضيت بشرط أن تنتهي مخالفة الدول الأربع ، فوافق الجميع على ذلك ، ثم تم اتفاق الدول الخمس على "معاهدة المضائق" ، وبمقتضاها تقفل البوغازات في وجه جميع السفن الحربية .

### سكون العاصفة :

كان فرمان يونيه حدا فاصلا بين عهدين ، إذ بعد صدوره انكمش محمد علي في ولاية مصر ، وبدأت العاصفة التي أثارها في مصر والخارج تسكن ، وأخذ الخمول يتسرب إلى جميع مناحي الحياة في مصر ، من صناعية وتجارية وزراعية وعلمية ، فأقفل الكثير من المدارس ، ونقص عدد المتعلمين ، من عشرين ألف إلى أحد عشر ألف ، وأهملت دور الصناعة وقل شأنها ، حتى أغلق عدد كبير منها ، وضعفت الحركة التجارية وساءت حالة الزراعة . ويرجع السبب في وقوف دولاب الحركة الإنشائية العمرانية ، إلى ضعف الدافع الأساسي إلى القيام بها ، وهو تكوين الجيش والأسطول ، فقد نقص عدد الجيش ، وقلت العناية بالأسطول . وأخذ محمد علي يحسن علاقته بالدول الأوروبية ، وظهر أثر ذلك عند ما زار ابنه ابراهيم إيطاليا وفرنسا وانجلترا عام ١٨٤٥ للاستشفاء ، فقد أحسن الجميع



(ابراهيم باشا)

استقباله . كما أنه عمل على تحسين الصلة بينه وبين الباب العالي فسافر إلى الآستانة ، في يونيه سنة ١٨٤٦ ، لتقديم فروض الطاعة والولاء للسلطان ، فقبول من الجميع بالإكرام والإجلال . وبعد إقامة قصيرة رجع إلى مصر ، بعد أن زار مسقط رأسه "قولة" . ولكن حالته الصحية ، وما أصابه من ضعف عقلي وجثاني ، جعله يترك زمام الحكم لحفيده عباس باشا ، لأن حالة ابراهيم الصحية كانت سيئة ، ولذلك أشار عليه

الأطباء بالسفر إلى أوروبا للمرة الثانية . ولم يلبث أن عاد ابراهيم إلى مصر ،



وفي يولييه سنة ١٨٤٨ ، صدر الفرمان بتوليته بدلا من أبيه ، ولكن المرض لم يمهل على العرش طويلا ، إذ مات في شهر نوفمبر من السنة نفسها ، وآلت الولاية بعده إلى ابن أخيه "عباس باشا" ، الذي عاد من مكة ، وتسلم مقاليد الحكم في البلاد .



( مسجد محمد علي بالقلمة )

أما محمد علي ، فإنه بقى بالاسكندرية يعاني آلام المرض ، ويقاسى ضعف الشيخوخة . ومما زاد في ألمه خبر وفاة ابنه الأكبر ابراهيم . واستمر على هذه الحالة عدة شهور ، حتى لحقته منيته في ٢ أغسطس سنة ١٨٤٩ ، فاتت بموته حياة عظيم من عظماء الشرق ، ونقلت جثته إلى القاهرة ، حيث دفنت بمسجده الشهير بالقلمة .



## الباب الرابع

عصر عباس الأول وسعيد

عباس باشا الأول

( ١٨٤٨ — ١٨٥٤ )

نشأته :

هو ابن طوسون ابن محمد علي ، تولى الحكم في ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٤٨ ، وكان يبلغ السادسة والثلاثين من عمره ، وقد اهتم جده بتربيته وتعليمه اعظم محبته له ،



(عباس باشا الأول)

وقد نشأ كمعظم افراد الأسرة نشأة حربية ، ورافق عمه ابراهيم باشا في حملته على سوريا ، واشترك في عدة وقائع حربية .



هذا إلى أنه تولى عدة مناصب إدارية في عهد جده ، غير أنه كان يظهر في تصرفاته شيئا من القسوة في معاملة الأهالي ، وكان جده ينهيه عن هذا المسلك ، ولكنه لم ينتفع بنصائح ، فغضب عليه عمه إبراهيم ، واضطره إلى مغادرة البلاد ، والإقامة في بلاد الحجاز ، ولم يعد إلى مصر ، إلا بعد وفاة عمه ، ليتولى زمام الملك طبقا لقانون الوراثة إذ ذاك .

### سياسته :

كان "عباس" حاكما مطلقا مستبدا ، اتبع في حكم البلاد سياسة كانت قائمة على قواعد واضحة : حبه للأتراك ، وبغضه للأجانب ، واستعماله الرهبة .

### حبه للأتراك :

كان "عباس الأول" تركيا قبل كل شيء ، ولذلك كان يفضل كل ما هو تركي ، فراه قد أحاط نفسه بأنظمة تركية بحمة ، وبجيش من الخدم والمحاسب الأتراك ، وكان هؤلاء يجرون وراء مصالحهم الشخصية ، حتى بات بلاطه بيئة فاسدة للفس والنميمة . كذلك أهمل عباس خطة مجد على ، وأحل هواه وإرادته محل الدواوين ، ومع ذلك فإنه لم يشرف على الإدارة الإشراف الواجب ، الذي يؤدي إلى حسن سير العمل ، بل بقي في عزلة عن الناس ، وترك الأمور تجري كما تشاء ، أو يشاء كبار الأتباع والحكام من الأتراك .

وقد دفعه حبه للأتراك ، إلى جعل أغلبية الجيش المصرى منهم . ولما قامت حرب القرم بين تركيا وروسيا في أواخر عام ١٨٥٣ ، وطلب منه السلطان إرسال حملة عسكرية ، تشترك مع جيوش الدولة ، لبي الدعوة بارتياح ، وقام بإعداد حملة كبيرة لهذه الغاية ، ولما أخذت أهبتها للسفر من بولاق ، ذهب بنفسه لوداعها أمام حشد كبير من الناس ، وألقى في الجماهير خطابا حماسيا .

### كرهه للأجانب :

كان "عباس الأول" شديد الكره للأجانب ، وقد يعزى هذا إلى شدة حقه عليهم ، وقد شاهد بنفسه ، أنهم يتدخلون بين مجد على والسلطان ، قضوا على



آمال جده الواسعة ، وحرموه ثمرة انتصاراته وتضحياته ، فولدت تلك الظروف السياسية الضعيفة في نفسه من جهة الأوربيين ، ولهذا لم يرغب أن يفيد اليوم ، من حرموه الفائدة بالأمس .

وكان يعتقد فوق ذلك ، أن معظم أولئك الأجانب الذين كانوا بمصر حينذاك ، لم يكونوا إلا من أحط الأوساط ، ولا هم لهم إلا جمع الثروة من حوله بكل الوسائل ، ولو أدت شراحتهم إلى خراب البلاد الاقتصادية ، ولذلك كان يعمل على طردهم من البلاد ، ثم جعل نفسه بمعزل عنهم ، لا يقابل إلا عددا محدودا من قناصل الدول ، مما جعل الكثيرين يذمونهم ويرمونهم بالتعصب .

### استعماله الرهبة :

ما كاد "عباس" يعتلي العرش ، حتى قام نزاع بينه وبين عمه سعيد ، بخصوص تقسيم التركة ، وانضم بقية الأمراء إلى سعيد ، واشتد النزاع بين الفريقين ، فاشتد في معاملتهم ، حتى لجأوا إلى الباب العالي يشكون أمرهم إليه ، وتوسط السلطان في الأمر ، وانتهى النزاع بقبول الفريقين الصلح . ولكن بالرغم من ذلك ، بقي ناقما على عمه طيلة مدة حكمه ، وخاصة لأنه كان يحكم منه ولى العهد ، ولذلك كان يرصد عليه العيون ، يرقب حركاته وسكاته .

ولم يكن سعيد وأمراء الأسرة وحدهم موضع كراهيته ، بل كان يسئ الظن بالكثيرين من العظماء كذلك ، وخاصة أولئك الذين استعان بهم جده وعمه إبراهيم ، في القيام بمشروعاتهما العظيمة ، وكان يتوهم أنهم يتآمرون عليه ، يريدون التخلص منه ، ولذلك كان يسئ معاملتهم .

ولكى يقف على أخبار من كان يشك في إخلاصه من رعاياه ، بث العيون والأرصاد في كل الجهات ، فانتشرت الجاسوسية ، حتى خاف الكثيرون على حياتهم وأملاكهم ، فهجروا البلاد قاصدين أوربا والآستانة ، إذ كان من الأمور العادية ، أن ينفي المغضوب عليهم إلى السودان وتصادر أملاكهم .



ولكن سياسة الرهبة هذه ، كان لها جانبها المحمود ، فإن معاملته القاسية كانت ضربة قاضية على انتشار اللصوصية والإجرام ، فقد خشي قطاع الطرق والعاثون بالأمن قسوته وشدته ، فكفوا عن أعمالهم الإجرامية ، وبذلك عم الأمن وسادت الطمأنينة من هذه الناحية .

### ركود حركة الإصلاح :

كانت الفترة ما بين ١٨٤١ و ١٨٤٨ من عصر محمد علي ، فترة ركود عام كما رأينا ، إذ أهملت فيها المدارس ، وأغلق الكثير من المصانع . واهمل شأن المعامل ، حتى أضحي معظمها خرابا . وما عصر عباس إلا متم لهذه الفترة من حكم جده ، فإنه لما تولى أزمة الملك ، رأى أنه في غير حاجة إلى جيوش جرارة ، وبالتالي لم ير ما يدعو إلى القيام بإصلاحات واسعة ، لذلك عزم على أن يسلك طريق الهدوء والسكينة ، التي يعتقد أن مصر في حاجة إليها ، بعد تلك الأنواء السياسية التي مرت بها ، ولهذا أنقص عدد الجيش ، كما أغلق ما بقي من معامل ومصانع ، بدعوى الاقتصاد ، ثم أجرى امتحانا لمدرسي المدارس وطلبتها ، فكانت النتيجة غير مرضية ، ولذلك أقفل معظم المدارس ، وفي سنة ١٨٤٩ أنشأ مدرسة سماها " المفروزة " ، لأنه اختار لها أكفأ المدرسين والطلبة من المدارس المغلقة . وفضلا عن ذلك ، فإنه بعث ببعض كبار رجال التعليم البارزين إلى السودان ليتخلص منهم .

وكان من رأيه ، أنه يحسن بالمصريين أن ينصرفوا إلى فلاحه الأرض واستغلالها ، وقد أصدر قرارا بإلغاء الاحتكار ، لإعطاء شيء من الحرية للفلاح .

### إصلاحاته :

غير أنه بالرغم من مسلكه هذا ، قام عباس ببعض الإصلاحات في البلاد . ففي سنة ١٨٤٩ ، أعاد تأليف " المجلس الخصوصي " الذي أنشأه جده في سنة ١٨٤٧ ، وأسند رياسته إلى الكتخدا باشا ، وجعل أعضائه من كبار العلماء والأعيان . واستمر هذا المجلس قائما حتى عهد إسماعيل .



ومما يذكر له بالفخر قيامه بمد الخط الحديدي ، الذي يربط القاهرة الاسكندرية ، وهو لم يكن الأول من نوعه في مصر فقط ، بل في الشرق أجمع ، ونعهد بعمله "روبرت ستيفنسن Robert Stephenson" مخترع القطر البخارية ، فبدأ أعماله في سنة ١٨٥٢ ، وأتم المشروع في عهد سعيد ، عام ١٨٥٦ . والحكومة الانجليزية هي التي أوحى إليه بهذا المشروع ، لمصلحة المسافرين والبريد بين أوروبا والهند ، وقد أجابها إلى طلبها ، لما كان لها من النفوذ والحظوة عنده ، بفضل قنصلها في مصر إذ ذاك . وقد عارضت الحكومة الفرنسية في عمله ، ولكن بالرغم من ذلك ، استمر انفاذ المشروع حتى النهاية ، لأن النفوذ الفرنسي كان قد تقلص ظله في مصر في عهده .

وبلى ذلك ، تمهيد الطريق بين القاهرة والسويس ، فإنه تسهيلات للسفر بين الشرق والغرب عن طريق مصر ، قام برصف هذا الطريق رصفا متينا ، وجعل عرضه ثلاثين مترا ، كما أعد على الجانبين اتساعا قدره متران لسير المشاة ، ثم حفر بعض الآبار ، وبني بعض المنازل للاستراحة ، وبذلك أصبح الطريق سهلا ومريحا . والواقع أن هذا المشروع كذلك ، لم يتم إلا تنفيذ الرغبة قنصل إنجلترا في مصر ، إذ كانت له منزلة كبيرة عند والي .

وقد شجع "عباس" مسيو "مارييت Mariette" على البحث والتنقيب عن الآثار ، فوجه عنايته نحو آثار سقارة ، وكشف بها مدافن العجول سنة ١٨٥١ ، وبفضل مجهوداته زادت أهمية دار الآثار ، وكانت مهمة الشأن حتى ذلك الوقت ، وأخذت محتوياتها في الزيادة ما بين ١٨٥٣ و ١٨٥٤ .

### وراثه الملك :

كان في نية "عباس" أن يغير مجرى الوراثة ، فيحرم عمه "سعيد" من الملك ، ويولي ابنه "إلهامي باشا" ، ولكن المقادير شاءت غير ما أراد ، إذ قتل (\*) في قصره بنها ، وكان ابنه غائبا خارج القطر ، ولما حاول الألفي بك محافظ

(\*) تضاربت الاشاعات الكثيرة عن مقتل عباس ، فنسبه بعضهم إلى أسباب سياسية ، في حين يستند آخرون إلى تأمر بعض أفراد الأسرة على قتله للتخلص منه . ويقال إن إحدى قريباته ، وكان قد أساء إليها ، بعثت بخصيين إلى قصره حيث اختبأ ثم انقضا عليه وهو نائم في فراشه فقتلاه خنقا . وقد أخفى خبر موته عدة أيام ، ونقلت جثته على اعتبار أنه لا يزال على قيد الحياة إلى قصره بالعباسية ، التي



القاهرة أن ينفذ رغبة سيده ، فينادى بالهاتمي باشا واليا على عرش مصر .  
اعترضه القناصل واحتجوا عليه ، ففشل مشروعه ، وانتهى الأمر بتولية سعيد  
الملك ، في ١٢ يولييه سنة ١٨٥٤

محمد سعيد باشا

( ١٨٥٤ — ١٨٦٣ )

نشأته :

هو ابن "محمد علي" ، ولد في الاسكندرية عام ١٨٢٢ ، وكان في حداثة موصع  
عناية والده وحبه ، ولذلك عني بتربيته عناية قل أن حظى بها غيره من أمراء



( محمد سعيد باشا )

الأسرة ، وتربى تربية أهله لتولى زمام  
الملك . وقد عهد محمد علي إلى مسيو  
«ديلبس» بالعناية بتربيته الرياضية  
في حداثة ، فقام بالمهمة خير قيام ،  
وكان سعيد في حاجة شديدة إلى الرياضة  
البدنية ، لأنه كان بدينا عظيم الجثة .

سياسته :

تولى "سعيد" زمام الأحكام  
عام ١٨٥٤ ، وكان سهلا إن العريكة ،  
لا سيما مع الأجنب ، الذين عرفوا

كبف يستغلون كرمه لمصالحتهم . وكان سعيد يحب الشعب والبلاد ، ولذلك  
اجتهد في عمل ما يؤدي إلى سمادة الفطار وأهله ، وأخذ يعمل على إزالة الأسباب  
التي أدت إلى تدمير الشعب ، فكان عزمه بوجه عام عصر هدوء وتحسن بطيء .  
وإن كان خلوا مما يستلقت النظر لعظمته .

وجرى سعيد في طريقة حكمه للملاد ، على سياسة هي تقيض سياسة سلفه عباس ،  
فكان يحب المصريين ، ويكره الأتراك ، ويميل للأجنب .



### حبه للمصريين :

وقد نشأ حبه للمصريين ، من اختلاطه بهم كثيرا منذ حدثته ، لأن أباه كان بعده لقيادة البحر ، واستدعى ذلك اختلاطه بطائفة من أبناء الشعب منذ صغره ، فولد هذا الاختلاط في نفسه ميلا شديدا للبلاد وأبنائها ، كان لذلك يفخر بمصريته ، ويعمل ما في وسعه لترقية البلاد ، وتهذيب العنصر الوطني وتقويته ، ليحل المحل اللائق به في بلاده ، ولهذا كانت إصلاحاته بعيدة الأثر ، حتى عد عصره بحق "عصر الفلاح الذهبي" .

### كرهه للأتراك :

كان "سعيد" ينقم على الأتراك والشراكسة ، ويروى عنه أنه قال مرة : "إنى أود أن أعرف العروق والشرابين التركية والشركسية في لأفتحها ، وبذلك أتخلص من آخر نقطة من هذا الدم الممقوت" ! .

وقد يعزى هذا إلى الأثر السيئ ، الذي تركه في نفسه ذلك النزاع بين أبيه والسلطان ، ولهذا استغنى عن كل بطانة عباس التركية ، واتخذ له حاشية خاصة من المصريين . وللسبب عينه جعل اللغة العربية هي اللغة الرسمية ، بعد أن كانت التركية ، وطهر الجيش من العناصر التركية والشركسية ما أمكن ، وصبغه بالصبغة الوطنية . وكان أول حاكم نظر بعين العطف إلى رجال الجيش من المصريين ، وقرر إباحة ترقية العسكري من تحت السلاح إلى أرقى مناصب الجيش .

### ميله للأجانب :

أما الأجانب ، فكان سعيد يكرم منوهم ويحسن وفادتهم ، ويميل إلى عشرتهم ، مما كان سببا في إضاعة شيء من هيئته . وقد يرجع السبب في ذلك إلى تربيته الفرنسية ، وكذلك إلى رغبته الخاصة في الاستعانة بهم لتحسين أحوال البلاد ، فزاد عددهم ، وكثر اختلاطهم بأفراد الشعب ، غير أن معظم تلك الطوائف الأجنبية ، التي نزحت إلى مصر في ذلك الوقت ، لم تكن من الصنف الذي يتعفف



من السلب ، لهذا فإنه يعاب على سعيد ، تساهله في معاملة أولئك الأجانب<sup>(١)</sup> ، الذين بدءوا منذ عصره ، يعملون على استنزاف الثروة المصرية ، بالوسائل المشروعة وغير المشروعة .

## أهم أعماله

### الإصلاحات الإدارية :

وتتلخص هذه الإصلاحات في الإشراف الدقيق على الحكام ، الذين كانوا يستبدون بالرعية بحكم مراكرهم . ولكي يمحصر سلطة مشايخ البلاد ، ويبعث الطمأنينة في نفوس الناس ، جعل الخدمة العسكرية حسب "ترتيب المواليد" ، كما أنه جعل مدتها قصيرة ، لكيلا يحرم الأرض من الأيدي العاملة . ولم يشأ أن يترك الناس تحت رحمة الحكام في جمع الضرائب والعوائد ، فأمر بتحديد المطلوب من كل فرد ، وتقييده في دفاتر خاصة ، وتوقع هذا الإصلاح بإلغاء وظائف المديرين ، وجعل المأمير ومشايخ البلاد تحت سلطة وزارة الداخلية مباشرة .

وفي فبراير سنة ١٨٥٧ ، أصدر سعيد أمرا بتحويل بعض دواوين أبيه إلى نظارات<sup>(٢)</sup> ، فأنشأ نظارات ثلاثا ، هي الداخلية والمالية والحربية ، كما أنه أنشأ "مجلس الحكومة" ، وأمسند رياسته إلى الأمير اسماعيل ، وتناول دائرة اختصاصاته وضع اللوائح الإدارية ، وخص جميع القرارات والأعمال الهامة ، قبل عرضها على الوالى . وحصل سعيد على إذن من السلطان ، يعطيه حق تعيين القضاة في البلاد ، وكان هذا من حق قاضى القضاة التركى ، وبهذه الطريقة استطاع وضع القضاء تحت رقابة الحكومة ، فبدأت تتحسن حالته نسبيا وفي الواقع أخذت حالة الإدارة العامة في التطور والتقدم ، بعد أن اختل دولابها في أيام عباس .

(١) شكوا مرة أحد الأجانب إلى سعيد من غبن زعم أنه لحقه من تقدير عمل قام به بالليارات الإيطالية فقال سعيد على الفور "إذن دعهم يقدرونه بالليارات الإنجليزية" ، غير مكثر بأن الليرة الإنجليزية تساوى الإيطالية ٢٥ مرة !



## الزراعة والفلاح :

وأهم إصلاح قام به سعيد ، خدمة للفلاح والزراعة ، إصداره " قانون الأراضى " عام ١٨٥٨ ، وهو الذى وزعت بمقتضاه الأراضى على الفلاحين ، ليقوموا بزرعها ، ويتصرفوا فى غلاتها ، على حسب ما يشتهون ، ثم أمر بتقييد هذا التوزيع فى سجلات خاصة ، لمعرفة أصحاب الأراضى وإثباتا للملكيتهم وبذلك أصبحوا المالكين الحقيقيين للأراضى ، يتصرفون فيها كيفما أرادوا ، ولو أنها كانت لا تزال " نظريا " ملك السلطان . وكان طبيعيا أن ساعد هذا القانون على إنعاش الزراعة ، وأدى إلى عناية الفلاحين بأراضيهم .

ولكى يخفف العبء عن كاهل الفلاح ، ويقىه شر الطامعين من الجباة وخلافهم ، أمر سعيد بتعديل أوقات جمع الضرائب ، وجعلها تتناسب مع زمن المحاصيل ، ثم تحديد قيمتها كما سبق ذكره . وكذلك ألغى سعيد " النظام التضامنى " ، لما كان فيه من غبن وظلم ، فقد كان يقضى بوجوب تضامن أهل القرى والمراكز المتجاورة فى دفع الضرائب للحكومة ، بحيث إذا عجز سكان قرية أو مركز عن دفع ما عليهم منها ، قام جيرانهم بدفع ذلك على سبيل التضامن .

وتنازل سعيد عن جميع المتأخرات التى كانت على النواحى ، كما قضى على ما بقى من آثار الاحتكار ، وأصبح الفلاح يزرع ما يشاء ، ويبيع محصوله أنى شاء ، على أن يدفع الأموال الأميرية نقدا ، ثم اتبع طريقة التجاوز عن الضرائب السنوية المقررة على أى بقعة لا تصلها مياه النيل .

ومما يذكر له بالإعجاب ، تلك المهمة العظيمة التى أبدأها ، بمواصلته العمل فى تشييد القناطر الخيرية ، حتى تمت فى عهده عام ١٨٦١ ، وأمكن الانتفاع بها ولو أن التجارب دلت على أنها كانت فى حاجة إلى الإصلاح ، لكى تؤدي وظيفتها بنجاح .

## التجارة :

أصبحت التجارة حرة ، منذ أن قضى سعيد على بقايا الاحتكار ، فكان الفلاح فى عهده يزرع أى محصول يختاره لنفسه ، وهو حر فى بيعه أنى شاء ولمن يشاء ، وكان التجار أحرارا فى اختبار الوسائل التى ينقلون بها محصولاتهم برا وبحرا ،



وألقى سعيد جميع الجمارك الداخلية ، التي كانت عقبة في سبيل انتشار التجارة ، لأنها ترفع أثمان البضائع . وأنشأ بورصة مالية في الإسكندرية ، فسببت هذه السياسة رواجاً كبيراً ، كان من نتائجه انتقال معظم التجارة الداخلية إلى أيدي الوطنيين ، الذين استطاعوا أن ينافسوا التجار الأجانب في داخلية البلاد ، وقد ساعدتهم على ذلك ، معرفتهم لغة البلاد وطباع أهلها وعاداتهم ، ثم قناعتهم في المأكل والملبس والمكسب ، فكانت معظم المراكب التي تجتاز المحمودية والنيل ، مشحونة ببضائع لتجار من الوطنيين ، وكان هؤلاء يبيعونها نقداً للتجار الأجانب بالإسكندرية .

وكانت مصلحة الجمارك في حالة مختلة ، لأنها كانت تعطى في عهد محمد علي التزاماً ، نظير مبلغ معلوم يدفعه الملتزم ، فرأى سعيد أن يصلح من شأنها يجعلها مصلحة أميرية مستقلة ، وإلغاء نظام الالتزام . غير أنه بالرغم من ذلك لم تستقم أمور المصلحة ، لأن وظائفها كانت تباع ، ومرتبات الموظفين صغيرة تدفعهم إلى قبول الرشوة ، ولأن التهريب كان كثيراً ومنظماً ، وقد ساعد على ذلك جسارة المهربين من الأجانب ، واحتماؤهم بالامتيازات .

### الملاحة وطرق المواصلات :

بذل سعيد جهده في تسهيل وسائل المواصلات في أنحاء القطر ، فمهد كثيراً من الطرق الزراعية ، وبني الجسور والقناطر ، وزاد في طول السكك الحديدية المنشأة في القطر ، ففي أيامه مدت عدة خطوط حديدية ، أهمها الخط ما بين القاهرة والسويس ، الذي تم بعمله وصل الإسكندرية بالسويس بخط حديدي ، لتسهيل المواصلات بين الغرب والشرق . وعمل سعيد كذلك على تسهيل الملاحة في النيل والترع الكبرى ، وعلى الأخص ترعة المحمودية ، فإنها كانت إذ ذاك في حالة سيئة ، ونظراً لأهميتها للزراعة والملاحة والعمران ، اهتم بشأنها وأمر بتطهيرها ، فظهرت في مدة شهر .

ودفعه اتساع نطاق التجارة إلى تأسيس شركتين ، إحداهما نيلية والأخرى بحرية . أما الأولى وهي " الشركة المصرية لقيادة السفن " بالبخار على النيل والترع المصرية " ، فصدر أمر الوالي بتأسيسها في ٢ أكتوبر سنة ١٨٥٤ ،



وكانت مهمتها بحر السفن التي تحمل صادرا أو واردا في النيل والترع المصرية ، بناء على رغبة أصحاب الشأن ، وبأجور خاصة تقررها الحكومة . ونظير الحصول على هذا الامتياز ، تعهدت الشركة بإنشاء طلمبات نارية في العطف ، لتدفع المياه بالمياه ، التي تجعلها صالحة للاستعمال على الدوام ، ولتروى عشرين ألف فدان ريا صيفيا ، ثم لتزويد الإسكندرية بالماء اللازم . وأما الثانية وهي " الشركة الحميدية " ، فانها تأسست بفرمان سلطاني ، صدر عام ١٨٥٧ ، وكان الغرض منها نقل المتاجر في البحر الأحمر حتى الخليج الفارسي ، ثم نقل الحجاج نقلا سريعا منظما ، وكذلك ربط سواحل الدولة ، بـ قمل البريد والبضائع والمسافرين بين ثغورها . غير أنه لم تلبث الشركتان طويلا ، حتى تطرق اليهما الخلل ، وارتبكت أحوالهما المالية ، وكانت حالتهما تنذر بالخراب عند ما تسلم اسماعيل زمام الحكومة

وعرضت شركة " المساجيرى ماريتيم Messageries Maritimes " على سعيد مشروع إصلاح ميناء السويس ، وإنشاء حوض عائم به لتصلح السفن ، وبعد تردد قبل العكة ، واتفق معها على القيام بتنفيذها عام ١٨٦١ ، وبدأ العمل بالفعل في الميناء عام ١٨٦٢ ، ولكنه لم يتم إلا في عهد اسماعيل ، وفتح الحوض المذكور سنة ١٨٦٦

### الجيش والبحرية :

كان اهتمام سعيد بالجيش شديدا ، ويعزى هذا الى اعتقاده أنه ماهر في فنون الحرب ، ولذلك كان كثيرا ما يستصحب معه جيشه في تنقلاته ، من جهة إلى أخرى ، واتخذ نقطة القنطرة الخيرية معسكرا للجيش ، لاعتقاده أنها ملائمة للدفاع عن البلاد ، في حالة أى هجوم عدائى ، كما أنه كان كثيرا ما يقيم بجيشه في صحراء مريوط . ومن حسناته أنه حافظ على صبغة الجيش الوطنية ، التي كاد يقضى عليها عباس ، كما يرجع اليه الفضل في فتح الطريق أمام المصريين ، ليترقى الأكفاء منهم إلى أكبر مناصب الجيش

ولم يقل اهتمامه بالبحرية عن اهتمامه بالجيش ، وهو الذي كان يعدده والده لقيادة البحر ، ولذلك انتهاز فرصة عودة الأسطول المصرى ، الذي اشترك في حرب القرم ، وعزم على إنشاء بحرية قوية ترفع شأن مصر ، فأراد إصلاح السفن



العائدة وبناء سفن جديدة ، ولكن الدول أوعزت الى الباب العالي ، بمنعه من إنشاء بحرية مصرية ، لما عسى أن يكون فيها من خطر على سيادته ، كما حدث بالفعل في أيام محمد علي ، فأصدر السلطان أوامره بمنع سعيد من تنفيذ مشروعه ، وإخلاء سبيل ضباط أسطوله .

### السودان :

فكر سعيد كذلك في إصلاح شؤون السودان ، فترك مصر في نوفمبر سنة ١٨٥٧ للقيام برحلة في أنحائه ، يتفقد فيها أحواله بنفسه . وما كاد يدخل أرض السودان ، حتى انتهالت عليه العرائض مفعمة بالشكوى ، من جميع طبقات السكان ، فأثر ذلك في نفسه تأثيرا شديدا ، جعله يبكي لسوء حال الرعية ، بل جعله يفكر في وقت من الأوقات في الخلى عن السودان ، ولكنه عاد وعزم على السير به في طريق التقدم ، وواصل سيره حتى بلغ الخرطوم ، في ١٠ فبراير سنة ١٨٥٨ ، وقابل أعيان البلاد ، وأظهر لهم رغبته الشديدة في الإصلاح . وبالفعل أمر بإجراء عدة تعديلات إدارية ، فقسم السودان خمس مديريات (\*) ، وجعل كلا منها مستقلة عن الأخرى ، وترجع في أحكامها الى مصر ، كما أمر بتنظيم البريد بين الخرطوم والقاهرة على الهجن ، بطريق كروسكو ، وتخفيض الضرائب وعدم جمعها إلا بعد الحصاد . واهتم سعيد بإبطال تجارة الرقيق ، فأمر بإنشاء محطة عسكرية على نهر سوبات ، لمراقبة هذه التجارة والوقوف في وجهها ، ولكن النخاسة كانت منتشرة في هذا الوقت انتشارا كبيرا ، فلم تأت مجهوداته بالثمرة المطلوبة ، واستمرت هذه التجارة ، بالرغم من إبطال الحكومة أسواق الرقيق الرسمية بالقاهرة والإسكندرية وطيطا وغيرها من البلاد .

وفي أواخر عهد سعيد ، تحسنت أحوال السودان نسبيا ، وأخذت إدارته تنظم ، والأمن ينتشر ، والطمانينة تسود نواحي ما . فتشجع الكثير من الأوربيين وقاموا برحلات علمية جغرافية في ربوعه ، وأهم هذه الرحلات ، الرحلة التي قام بها " صمويل بيكر Samel Baker " و " سبيك Spake " و " جرانت Grant " الى منابع النيل سنة ١٨٦٢ ، وقد وصلوا الى البحيرتين ، اللتين عرفنا بعد ذلك ببخيري " ألبرت وفكتوريا " .

(\*) هي دقلة وبربر وكردفان وسنار والتاكة .



## غلطاته

### إهمال التعليم :

مما يلفت النظر في عصر سعيد ، انصرافه عن تعليم الشعب ، مع ما عرف عنه من شديد محبته له ، ومن تقديره للعلم في ذاته والمتعلمين . ويعزى هذا إلى نزعة الأوتوقراطية ، وحب جمع السلطة في يده ، والتصرف في شؤون البلاد بنفسه ، دون مكابرة أو معارضة من رعاياه . ويدل على ذلك ما أجاب به يوما مربيه السويسري ، عندما طلب إليه إعادة فتح المدارس ، التي أغلقها عباس ، قائلا : "لماذا نعلم الشعب ؟ ألكي يتعذر علينا حكمه ؟ دع القوم في جهلهم ! فالأمة الجاهلة أسلس قيادا من الأمة المتعلمة". ويظهر أنه كان يعتقد أن مهمة الإصلاح تكون سريعة وهينة ، إذا تركت له وحده للقيام بها ، ولذلك ألغى "ديوان المدارس" عند توليه الحكم ، غير أنه عاد وأظهر اهتماما خاصا بمدرسة الطب ، فوضع لها أنظمة جديدة ، واحتفل بافتتاحها احتفالا عظيما ، في ١٠ سبتمبر سنة ١٨٥٦ ، كما أنه كان يساعد المدارس الأجنبية ، التي أسستها الأرساليات المذهبية في البلاد . ولما كان مغرما بالجيش والفنون الحربية ، لم يسعه أن يهتم بالتعليم العسكري . وفيما عدا ذلك ، لم يكثر بأمر التعليم ، حتى ساءت حالته كثيرا ، عما كانت عليه في زمن سلفه ، وأصبح عدد المتعلمين في أواخر عهد سعيد ، لا يتجاوز بضعة مئات ، في حين أن ميزانية التعليم انحطت في أيامه ، فلم تكن أكثر من ستة آلاف جنيه فقط عام ١٨٦٢

### المبالغة في إكرام الأجانب :

وكان سعيد يميل إلى الأجانب ، ويختلط بهم كثيرا ، مما شجع عددا كبيرا منهم على التزوح إلى مصر ، لاستغلال الوالي وحكومته ، فكثيرا ما كان يمنحهم امتيازات ، لهم منها الغنم ولمصر الغرم ، وكثيرا ما كان المتعهدون بتوريد حاجات الحكومة أو حاجاته الخاصة يغشونه ، وهو لا يتحرك لإيقافهم عند حددهم .



وقد شجع هذا المسلك القناصل ، على التدخل في شؤون الدولة بطرق مختلفة ، فأصبحوا يشجعون بعض رعاياهم على اقتناص الأموال من الحكومة بكل الوسائل . ومن غريب الأمر ، أن معظم القناصل في ذلك الوقت ، كانوا يقتسمون هذه الأرباح المسلوقة مع هذه الفئة ، حتى كثرت مطالبات الأجانب للحكومة ، على السنة قناصلهم ، بتعويضات عن أضرار وهمية .

### الدين :

كان سعيد أول من فتح باب الاستدانة المشثوم ، من البيوت المالية الأجنبية ، ففي أواخر حكمه عقد قرضا بنحو ثلاثة ملايين من الجنيهات ، هذا إلى جانب دينه السائر الذي بلغ حوالى العشرة ملايين جنيه . ويرجع ذلك إلى سوء إدارته المالية وإلى شدة تبذيره (\*) فما يروى عنه أنه أنفق أكثر من سبعة ملايين من الفرنكات ، في زخرفة حجرة واحدة . وقد أنفق الأموال الطائلة على جيشه ، وعلى شراء المعدات الحربية المختلفة ، التي لم يكن هناك دافع لاقتنائها . وقد أدى سوء إدارته إلى ارتباك الحالة المالية ، في أواخر أيامه ، ارتبكا واضطره إلى بيع أثاث بعض قصوره ، وإلى التوقف عن دفع مرتبات الموظفين .

### القناة :

في سنة ١٨٥٤ ، منح سعيد مسيو "فردنند ديلسبس" امتياز شق قناة في برزخ السويس ، توصل البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر ، وكان لهذا العمل أثر سيئ في حالة مصر كما سيجئ .

وبالرغم من هذه الغلطات التي يؤسف لها ، والتي كان لها أثر بعيد في تاريخ مصر الحديث ، يعد عصر سعيد بوجه عام ، عصر هدوء وإصلاح ، انتهى بموته بالإسكندرية ، في ١٧ يناير سنة ١٨٦٣ ، حيث سكن مقره الأخير .

(\*) زار مرة . مدينة بيروت وكان يثر الذهب على الناس في الطرق .



## قناة السويس

( حتى آخر عصر سعيد )

### فكرة توصيل البحرين :

إن فكرة توصيل البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر قديمة ، ظهرت في عدة عصور ، ولكن فكرة توصيلهما مباشرة بقناة واحدة ، كانت صعبة التحقيق في العصور الأولى ، ولذلك لجأ الحكام في العصور القديمة والعصور الوسطى ، إلى توصيل البحرين بطريق النيل ، ففي أيام " سبتى الأول " ( ١٣٨٠ ق . م ) كانت توجد ترعة لتحقيق هذه الغاية ، فكانت تخرج من فرع النيل الشرقى ( الفرع البيلوزى ) عند " بوبسطة " ، وتجرى مختصرة وادى طميلات ، الواقع في مديرية الشرقية ، حتى قرب بحيرة التماسح بالبحيرات المرة . وفي سنة ٦٠٩ ق . م بدأ " نخاو " حفر ترعة أخرى ، ولكنه لم يتمها ، بعد أن هلك في حفرها نحو ١٢٠ ألف رجل . ولما جاء " دارا الأول " ملك الفرس إلى مصر ، أخذ يتم عمل نخاو ( ٥٢٠ ق . م ) ، فظهر قناة " هيروبوليس Heroopolis " ، بين البحيرات المرة والبحر الأحمر ، وجعلها صالحة للملاحة . ومع ذلك فالظاهر أنه لم يكن هناك اتصال بين مياه البحر الأحمر وهذه التربة ، حتى ذلك الوقت ، فكانت السفن تسير في الفرع البيلوزى من البحر الأبيض المتوسط إلى بوبسطة ، ثم إلى البحيرات المرة ، ومن هناك تنقل المتاجر إلى سفن البحر الأحمر . أما الذى أوصل القناة بمياه هذا البحر فهو " بطليموس الثانى " ( ٢٨٥ ق . م ) .

ويقال إن الإمبراطور " تراجان " ( ٩٨ ق . م ) أصلح التربة ، ولما كان الفرع البيلوزى غير صالح للملاحة في أيامه ، حفر ترعة جديدة بين بوبسطة ومصر القديمة . ويشك بعض المؤرخين فى ذلك ، وينسبون حفر هذه التربة الجديدة إلى " عمرو بن العاص " فاتح مصر فى القرن السابع الميلادى ، إذ لما طلب إليه عمر ابن الخطاب إرسال الميرة إلى الججاز ، لتخفيف وطأة القحط هناك ، استأذنه



في توصيل البحرين من "الفرما" إلى "السويس" ، فلم يأذن له ، وإنما أذن له بإعادة فتح الترعة القديمة ، ففتحها وسماها "خليج أمير المؤمنين" ، واستمرت مسلوكة حتى أمر "أبو جعفر المنصور" بردمها عام ٧٧٠ م

من هذا نرى ، أن الفكرة القديمة تحققت بتوصيل البحرين بطريق النيل فقط ، أما الفكرة الحديثة ، فكانت ترمى إلى وصلهما بطريق مائى مباشر . وقد اقترح البنادقة على سلطان مصر ، بعد كشف طريق رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٨ ، تنفيذ هذا المشروع على حسب الفكرة الحديثة ، ولكن حال دون ذلك استيلاء العثمانيين على مصر . وأول من اهتم بتنفيذ هذه الفكرة جدياً "نابليون بونابرت" ، بعد استيلائه على مصر بجملة الشهيرة عام ١٧٩٨ ، فإنه ذهب بنفسه إلى البرزخ الواقع بين البحرين ، ليشرف على أعمال الفحص والدرس ، غير أنه لم يقدر له أن ينفذ المشروع ، لغلطة وقع فيها مهندس الحملة "لاير" ، أدت إلى اعتقاده بأن سطح البحر الأحمر أعلى من سطح البحر الأبيض بتسعة أمتار . وشاعت هذه الغلطة وآمن بها الكثيرون ، حتى أنهم فكروا في عدة مشروعات أخرى لتنفيذ الفكرة ، باعتبار أن رأى "لاير" صحيح ، ولكنها لم تنفذ . غير أن تلك الغلطة الشائعة ، أصلحت نهائياً في أواخر عهد محمد على ، عندما حضرت إلى مصر لجنة فنية من أوروبا عام ١٨٤٧ ، لإعادة درس الموضوع ، ووجدت أن البحرين في مستوى واحد ، واقرحت إيصال البحرين بترعة من السويس إلى الإسكندرية عن طريق القاهرة ، غير أن "محمد على" كان يخشى مغبة المشروع ، ولذلك لم يعمل على تنفيذه .

#### مشروع ديلسبس (Ferdinand de Lesseps)

كان المسيو "فردنند ديلسبس" نائباً للقنصل الفرنسى بالإسكندرية في عهد محمد على ، وكان شديد الميل لتنفيذ مشروع قناة تشق برزخ السويس لتوصيل البحرين ، وكانت له صلة متينة بسعيد باشا . فلما ولى هذا حكم مصر ، أقبل عليه ديلسبس ، وأخذ يحسن له فكرة القناة ، والفوائد الجملة التى تعود على مصر من إنشائها ، فأعطاه إذناً ابتدئياً بحفر القناة ، في ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٤ ، ولكنه كان كثير التردد في الموضوع ، ولهذا كان ديلسبس يلزمه كثيراً ، ليعبد عنه التأثيرات



الغدائية . واستشار سعيد قنصل إنجلترا في الموضوع ، ليرى موقف حكومته بإزائه ، غير أن فرنسا وإنجلترا كانتا في هذا الوقت حليفين في حرب القرم ، فلم يستطع القنصل إعطاءه رأيا صريحا . ولما كان ديلبس دائم الإلحاح عليه ، ومتين الصلة به ، نجح في رغبته ، وأمضى عقد الاتفاق في يناير سنة ١٨٥٦ .



( فرديناند ديلبس )

وتتلخص أهم شروط هذا الاتفاق فيما يأتى :

( ١ ) تمنح الشركة حق الانتفاع بالقناة لمدة تسعة وتسعين سنة من السنة التى تفتح فيها .

( ٢ ) تصبح القناة بعد ذلك ملكا للحكومة المصرية بكل محتوياتها .

( ٣ ) تتعهد الشركة بحفر قناة تستمد ماءها من النيل قرب القاهرة ، وتمتد جهات القناة بالماء العذب ، على أن تعطى الحكومة نظير ذلك كل الأراضى اللازمة للعمل والبناء ، دون مقابل ، وتكون معفاة من الضرائب ، كما أنه يكون للشركة الحق ، فى أن تتقاضى أجرا ممن ينتفعون بماء هذه القناة .

( ٤ ) يكون للشركة حق استغلال مناجم الحكومة ومخارجها بلا أجر .

( ٥ ) تعفى واردات الشركة من كل مكوس وضرائب جمركية .

( ٦ ) تتعهد الشركة بإنجاز القناة فى مدة ست سنوات ، إلا اذا طرأ طارئ قهرى حال دون ذلك .

( ٧ ) تقدم الحكومة المصرية أربعة أنعماس العمال اللازمين للعمل ، على أن يعمل الترتيب لتغيير العمال كل ثلاثة أشهر .

( ٨ ) تكون الشركة مصرية خاضعة لقوانين البلاد .



(٩) تتقاضى الشركة رسم المرور في القناة ، باعتبار عشرة فرنكات عن كل مسافر ، ومثلها عن كل طن من حمولة السفن .

(١٠) يخصم من الأرباح ٥٪ لفوائد أموال المساهمين ، ومثلها للاحتياطي ، ثم تقسم الأرباح الباقية بعد ذلك ، بنسبة ١٥٪ للحكومة المصرية و ١٠٪ للمؤسسي الشركة و ٧٥٪ للديرين والعمال ، وما تحتاجه القناة من نفقات .

هكذا تم الاتفاق بين ديلبس وسعيد ، ولكن كان من الضروري لسريانه من الحصول على موافقة الباب العالي ، ولذلك يم ديلبس وجهه نحو الآستانة ، غير أنه وجد العقبات قائمة في طريقه ، ويعزى ذلك إلى تحريض إنجلترا ، لعدم رضاها عن المشروع ، فأنها كانت تعتقد ، أنه يلحق ضررا بليغا بمصالحها في الشرق ، لأن حفر هذه التربة يجعل الممالك الواقعة على شواطئ البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود أقرب منها إلى الشرق ، في حين أن طريق رأس الرجاء الصالح ، يجعل إنجلترا أقرب الدول إلى الهند ، إذا استثنيت أسبانيا والبرتغال ، وهما ليستا ذاتي قوة يعتمد بها ، ولهذا كانت شديدة الحنق على المشروع ، وبفضل معاضدتها رفض الباب العالي الموافقة على الاتفاق .

غير أنه حدث في أثناء ذلك ثورة في الهند سنة ١٨٥٧ ، وكانت ثورة هائلة ، هددت السلطة البريطانية في تلك البلاد بالإنحلال والتدهور ، وحينذاك رأى كثير من كبار ساسة الانجليز فائدة التربة ، لمصالح العالم عامة ، وللمصالح البريطانية خاصة ، لأنها تقرب المسافة بين إنجلترا والهند بقدر عظيم . ولهذا بدا اهتمام الدوائر الصناعية والتجارية بالمشروع ، وهبوا يعاضدونه ، وبذلك تهيأ لديلبس جو صالح في إنجلترا ، لنشر الدعوة فيها ، فلما ذهب إليها لتنوير الرأي العام البريطاني ، قوبل أحسن استقبال ، وصادف نجاحا في كسب عدد كبير من الشخصيات البارزة إلى جانبه ، ولكن "بالمروستون" كان صلب القناة لا يلين ، واستمر يعارض المشروع ، إلى حد أن صرح لديلبس ، أنه وسيلة تريد أن تتخذها فرنسا للتدخل في الشرق .

عاد ديلبس من إنجلترا ، وكله عزم على مواصلة السعي في أوروبا لتنوير الرأي العام . وبالرغم من عدم صدور فرمان من الباب العالي بالموافقة على المشروع إذ ذاك ، بادر ديلبس في نوفمبر سنة ١٨٥٨ بفتح باب الاشتراك



في أسهم شركة القناة ، التي جعلها ٤٠٠,٠٠٠ سهم ، وجعل ثمن كل منها خمسمائة فرنك . وكان إقبال الناس على شراء هذه الأسهم عظيما ، ولا سيما في فرنسا

وفي أبريل سنة ١٨٥٩ ، بدأ العمل في القناة ، غير أنه سار ببطء شديد في أول الأمر ، وذلك لقلة تدرب عمال السخرة ، وعدم وجود المياه العذبة الكافية . فلما يعالج هذا النقص ، استطاع ديلبس أن يغري الوالى على زيادة عدد العمال الذين يشتغلون في حفر القناة ، وكان قد حصل على موافقته في يولييه سنة ١٨٥٦ ، على تقديم العمل اللازم للعمل ، على حسب ما يرى المهندسون المشرفون عليه ، فأخذ الجنود يسوقون الآلاف من الفلاحين إلى العمل ، حتى أصبح عدد المشتغلين منهم لا يقل عن ٢٥٠٠٠ رجل ، يعملون بطريق السخرة تقريبا ، ويحمل عملهم مثاهم كل ثلاثة أشهر . وكان هؤلاء المساكين يعملون معاملة قاسية ، ليس فيها شيء من الشفقة والرحمة ، فكانوا يعملون طيلة اليوم ، ولا يتناولون من الغذاء إلا أقله وأردأه ، وكانوا عرضة للجوع القاتل والبرد القارس والحر اللاخ ، حتى مات منهم عدد كبير تحت تأثير هذه العوامل القاسية . ولم تلبث أن انتشرت أخبار هذه الفظائع ، فأثارت غضب الناس داخل القطر وخارجه ، وقام المعارضون ببدء عمل الشركة ، وكان أشدهم تحمسا " بالمرستون " ، الذي استفزته تلك الحوادث المؤلمة ، فاتخذها ذريعة للنشهر باستبداد الشركة وظلمها ، إذ ساءه أن يرى النفوذ الفرنسي سائدا في مصر ، وأن يرى الفلاحين يعملون معاملة الأرقاء ، ولهذا احتج لدى الباب العالي على هذا الضرب من الاسترقاق



# الباب الخامس

إسماعيل باشا

(١٨٦٣ - ١٨٧٩)



(إسماعيل باشا)



## نشأته :

ولد إسماعيل في ٣١ ديسمبر سنة ١٨٣٠ ، وهو ابن إبراهيم باشا بن محمد علي ، تربى في بداية الأمر في المدرسة الخصوصية ، التي أنشأها محمد علي في القصر العيني لتربية الأمراء ، غير أنه لم يلبث أن اعتراه مرض في عينيه عجز الأطباء في مصر عن معالجته ، فأرسل إلى " فينا " ، وكان لا يزال في الرابعة عشرة من عمره ، وأقام فيها سنتين حتى شفى من مرضه ، فأرسله جده بعد ذلك إلى باريس ، ليتم تعليمه في المدرسة المصرية بها ، وهناك استطاع أن يتقن اللغة الفرنسية ، ثم عاد إلى القطر المصري ، بعد أن أتم علومه المدرسية ، وكان أبوه قد تسلم مقاليد الحكم ، غير أنه لم يلبث أن مات إبراهيم بعد عودته بقليل .

دخل إسماعيل بعد ذلك ميدان الحياة العملية ، فبدأ بالاهتمام بشؤون دياره ، وقد صادفت إدارته لها نجاحا عظيما ، فكان يملك الأطيان الكثيرة في الصعيد ، ويزرع بها قصب السكر ، فعمل على تحسين زراعتها ، وأنشأ معملا لتكرير السكر ، بذلك تعددت موارده المالية وزادت ثروته . وبينما هو مكب على عمله شديد الاهتمام بشؤونه ، إذ مات محمد علي العظيم ، وما كاد يسكن قبره حتى قام نزاع بين عباس وأمراء الأسرة ، سافر على أثره إسماعيل إلى الآستانة وبقى بها ، وشمله السلطان برعايته ، وأنعم عليه برتبة الباشوية ، ولم يعد إلى مصر إلا بعد مقتل عباس ، وكان على أتم ما يكون من الود مع عمه سعيد .

وحدث أن أقام سعيد بالإسكندرية حفلة ، في مايو سنة ١٨٥٨ ، ودعا إليها جميع الأمراء ، فذهبوا جميعا الا إسماعيل ، لأنه كان متوكل المزاج . وبعد انتهاء الحفلة ، عاد الأميران أحمد باشا رأفت وهو أكبر أولاد إبراهيم ، وحليم باشا وهو أصغر أنجال محمد علي ، بقطار خاص إلى القاهرة ، غير أنه حدثت كارثة كفر الزيات التي أودت بحياة أحمد رأفت باشا ولى عهد السدة المصرية ، ذلك أن القطارات كانت تعبر النيل إذ ذاك في معدية ، لأن كبرى كفر الزيات لم يكن قد تم إنشاؤه بعد ، وخبر الأميران في ترك العربة أو البقاء فيها ففضلا البقاء ، وحدث أن الذين عهد إليهم بدفع العربة من الشاطئ إلى المعدية ، دفعوها بقوة شديدة إظهارا لنشاطهم ، فوقعت في النيل ، وتمكن حليم من النجاة ، ولكن رأفت كان بدينا ، فلم يستطع الوثوب من النافذة فمات غرقا ، وبموته أصبح



إسماعيل ولي العهد ، ولذلك تحركت الألسنة تنشر الإشاعات عن سبب وقوع الحادثة ، وتتهم إسماعيل بالتآمر على حياة أخيه ، ولكنها فرية واضحة لا يصح النظر فيها .

### توليته وسياسته :

جلس إسماعيل على عرش مصر في ١٨ يناير سنة ١٨٦٣ ، وبعد انتهاء مراسيم التهنئة المعتادة ، أعلن عزمه على السفر إلى الآستانة ، ليتسلم فرمان التولية ، وقد لاقى عند وصوله إلى مقر الخلافة اهتماما كبيرا بشخصه . ولما مثل بين يدي السلطان عبد العزيز ، قوبل بكل حفاوة وإكبار ، وانهز الفرصة فدعا السلطان إلى زيارة القطر المصري ، فوعده بإجابة طلبه ، وعاد إسماعيل مغتبطا اغتباطا شديدا .

وكان إسماعيل عند توليته صادق العزم على رفع شأن مصر ، وتحسين حالتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وبدأ حكمه وهو مفعم بهذا الشعور الحسن . وفي خلال حكمه نراه يسعى وراء الحصول على استقلال البلاد السياسي ، بالمال والدهاء لا بالسيف ، لأنه كان على علم بما فعلته الدول الغربية مع جده ، عند ما نال أمره بالضعف بالقوة ، فلم يشأ أن يضع نفسه في مثل هذا المأزق .

كما نراه يحاول إدخال المدنية الحديثة في البلاد ، والقيام بالإصلاحات المختلفة في هذا السبيل ، حتى تصبح مصر قطعة من أوروبا .

وقد نجح في تكوين إمبراطورية مصرية عظيمة ، بالتوسع جنوبا في إفريقيا ، ليتحاشى التصادم مع الدول الأوروبية والدولة العثمانية .

### جهوده في سبيل الاستقلال

#### فرمان ١٨٦٦ :

تولى إسماعيل عرش مصر ، والعلاقات بينها وبين الباب العالي قائمة على أساس فرمان ١٨٤١ ، وكان إسماعيل يعتقد أن هذا فرمان يحتاج إلى تعديل في بعض مواده ، لكي يتناسب مع مصلحة البلاد التي يحكمها ، وكذلك مع مصالحه الشخصية ومصلحة أسرته من بعده . وأول ما تناولته جهوده مسألة وراثة العرش ،



فبمقتضى فرمان ١٨٤١ ، كانت وراثة عرش مصر محصورة في أكبر أفراد أسرة محمد علي من الذكور ، بشرط موافقة الباب العالي ، فرأى إسماعيل أن لهذه الطريقة عدة مساوي ، أهمها وقوع خلاف بين أفراد الأسرة ، وحدث فتنة ونزاع بينهم ، قد يؤدي إلى اضطراب في شؤون الدولة ، وأحيانا إلى انقسام بين أفراد الأمة ، لبشايعوا هذا أو يناصروا ذاك . هذا إلى أن الوالي الذي يعلم أن عرشه لن يؤول إلى أولاده ، لا يكثر كثيرا بمصالح الشعب ، ويحصر أكبر همه في جمع ثروة هائلة لأولاده على حساب أفراد الأسرة الحاكمة والأمة معا . وفضلا من ذلك ، فمن المصلحة أن تعرف شخصية ولي العهد من البداية ، لا أن يترك هذا الأمر رهينا بالظروف والحوادث ، وخاصة أن تنشئة ولي العهد وتربيته للحكم ، تستلزمان ثقافة معينة وتدريباً طويلاً . ولهذا صمم على السعي لدى الباب العالي ، للحصول على فرمان يجعل الوراثة لأكبر أولاد الوالي الذكور ، بلا شرط ولا قيد ، واتهمز إسماعيل فرصة زيارة السلطان عبد العزيز للديار المصرية ، بعد أن ولي شؤونها ببضعة أسابيع ، وأخذ يتودد إليه ، ويبالغ في إكرامه واكتساب عطفه ، ليمهد الطريق لنيل أغراضه ، وكان المال أكبر واسطة في مسعاه .

فلما عرض مسألة تغيير قانون الوراثة على حسب رغبته ، لم يصادف طلبه قبولا في بداية الأمر ، بدعوى أنه ينقص من نفوذ الدولة في مصر ، وأنه نظام غير معمول به في تركيا نفسها . ولكن هذا الطلب صادف في الواقع هوى في نفس السلطان ، لأنه كان يفكر وقتئذ في إحداث مثل هذا الانقلاب في نظام وراثة عرش آل عثمان . وكان يرغب في إجابة مطلب إسماعيل ، ليعتبر سابقة يستطيع أن يسير عليها ، ولكنه كان من وجهة أخرى ، يرمى إلى ابتزاز أكثر ما يمكن ابتزازه من أموال إسماعيل ، ولذلك تظاهر بالرفض أولا . غير أن هذا لم يثن من عزيمة إسماعيل الماضية ، ففتح باب خزائنه واسعا ليصل إلى غرضه ، وقد أفلح في مسعاه فعلا ، وأصدر الباب العالي فرمانا في ٢٧ مايو سنة ١٨٦٦ ، يجعل الوراثة في أكبر أنجال الوالي ، وزيدت الجزية السنوية نظير ذلك من ٣٢٠,٠٠٠ جنيه إلى ٦٠٠,٠٠٠ جنيه .



## فرمان ١٨٦٧ :

ورأى إسماعيل بعد ذلك ، أن يسعى في الحصول على لقب يجعله ممتازا عن بقية ولاية الدولة ، فيرتفع شأنه وشأن مصر معا ، فطلب أن يمنح لقب "العزيز" ، ولما كان اسم السلطان "عبد العزيز" ، لم يقبل أن يمنحه هذا اللقب . وبعد مفاوضات طويلة ، تم الاتفاق على منحه لقب "خديوى" ، في يونيو سنة ١٨٦٧ ، وهي كلمة فارسية ، معناها الأمير العظيم ، وكان الفرس يطلقونها على حاكم الهند عندما كانت خاضعة لسلطانهم .

## فرمان ١٨٧٣ ( الفرمان الشامل ) :

وكان إسماعيل يرمى في الواقع إلى الاستقلال بمصر استقلالاً تاماً ، لكي يكون له المركز الذي يريده لنفسه بين ملوك العالم وعظمائه ، ولكي يستطيع وهو مطلق السلطان ، أن يسير بمصر في مدارج المدنية ، ويرتبط بالدول الغربية المتمدينة ، دون أن يخشى المصاعب والعراقيل من جانب الباب العالي ، بصفته صاحب السيادة على البلاد .

وكان الخديوى يتحين الفرص لتحقيق هذا الغرض ، ولكن الظروف لم تساعد ، فوجه همه للحصول على أوسع ما يكون من السلطة ، وتكسير القيود التي وضعتها لدولة على حاكم مصر ، فغلت يده عن العمل حسب رغباته ، ولهذا الغاية صرف مبالغ طائلة في رحلاته إلى الآستانة ، وتقديم الأموال والهدايا للسلطان ووزرائه وكبار رجال الدولة والصحافة ، فأصدر الباب العالي فرمان يونيو سنة ١٨٧٣ ، وهو أهم وثيقة سياسية في تاريخ مصر الحديث ، بعد فرمان ١٨٤١

وقد كان هذا الفرمان واسعاً شاملاً ، فثبتت بمقتضاه جميع الحقوق السابقة التي نالها إسماعيل ، ومنح الخديوى حق عقد قروض من الدول الأجنبية كما يريد ، دون الرجوع إلى الباب العالي ، كما منح حق عقد اتفاقات تجارية ومعاهدات تجارية ، وحق زيادة عدد الجيش كما يشاء ، وكذلك حق بناء سفن حربية ، على شرط أن لا يكون في الأسطول مدرعات ، وتعهد إسماعيل بزيادة الجزية إلى ٦٦٥٠٠٠ جنيه في مقابل ذلك . ومن هذا نرى أن الباب العالي قد اعترف رسمياً باستقلال الخديوى استقلالاً تاماً ، في إدارة شؤون مصر الداخلية .



## إصلاحاته

### نظام الحكم

#### الإصلاح الإداري

كانت حالة الإدارة تتطلب إصلاحاً شاملاً عاجلاً من الوالي الجديد، قبل أن تسيّر الأمور على خطة مثلى، فقسم إسماعيل القطر ثلاثة أنسام كبرى، هي البحر



(إسماعيل باشا صديق)

والمتوسط والصعيد، وقسم هذه بدورها أربع عشرة مديرية وثمانى محافظات، وأبقى التقسيمات الفرعية الأخرى، المراكز والأقسام والنواحي، ثم عين مفتشين ورؤساء مفتشين، للإشراف على إدارة الأقاليم، وكان أكبرهم شأنًا "إسماعيل باشا صديق"، أخ الخديوى فى الرضاة، وكان يعرف "بالصغير" و"المفتش" وكذلك سلطان باشا

وعمر باشا لطفى. ووكلت إدارة النواحي إلى عمد، وجعل المشايخ مساعدين لهم، كما هو الحال الآن، وأعطى الأهلى حق انتخاب عمدهم ومشايخهم.

وتوسع إسماعيل فى سياسة تحويل الدواوين إلى نظارات، فحول باقى الدواوين الكبرى، كالبحرية والخارجية والاشغال والمعارف إلى نظارات، كما أنشأ نظارة جديدة فى أوائل سنة ١٨٦٥، سميت نظارة الزراعة. ولكن أكبر إصلاح أدخل على الإدارة فى عهده يتضمن، إنشاء هيئات نيابية فى المراكز والمدريات، يتكون مجالس إدارية، يستعين مأمورو المراكز بأراء أعضائها فى إدارة أعمالهم، كما يستعين المديرون بأراء مجالس محلية، ينتخب الأهلى أعضائها لهذه الغاية.



## لإصلاح النيابي

لما تولى إسماعيل عرش مصر ، وكان لديه الكثير من المشروعات الخطيرة ، التي تحتاج إلى درس وتفكير ، استعان "بالمجلس الخصوصي" ، ووكّل إليه فحص جميع المشروعات التي يريد تنفيذها ، وكان في الغالب يرأس جلساته بنفسه .

ولا يجب أن يتطرق إلى الذهن أن هذا المجلس كان يشاركه في السلطة ، إذ الواقع أن الخديوى كان مطلق التصرف في جميع الشؤون ، وقضى الجزء الأول من حكمه وهو الحاكم الفعلي للبلاد ، غير أن سلطة هذا المجلس ستزداد وتقوى في أواخر حكمه ، نتيجة لتغير الظروف السياسية والمالية كما سيحدث .

كذلك أسّس إسماعيل "مجلس المشورة" ، الذي أنشأه محمد سلى سنة ١٨٢٩ وبطل عمله بعد قليل ، وظل كذلك في أيام عباس وسعيد . وقرر إسماعيل توسيع دائرة عمله ، وسماه "مجلس شورى النواب" ، وأعضاؤه ينتخبون من أهل البلاد ، غير أن المديرين كانت لهم كل السلطة في انتخاب هؤلاء الأعضاء ، فكان عدد كبير منهم ينتخب لحاجه وماله لا لعلمه وذكائه ، وكثيرا ما كان يمتنع الكثيرون عن ترشيح أنفسهم ، خوفا من إغصاب المدير أو غيره من الحكام ، حتى كانت الحكومة تضطر أحيانا إلى انتخاب بعض الأعضاء بالقوة .

وقد افتتح هذا المجلس لأول مرة في ١٩ نوفمبر سنة ١٨٦٦ ، فتعتبر هذه السنة مبدأ الحياة الدستورية في مصر ، وبذلك تكون مصر قد سبقت جميع ممالك الشرق في هذا السبيل . وكان هذا المجلس يجتمع مدة شهرين كل عام ، فتعرض عليه حالة البلاد المالية ومشروعات الحكومة ، التي تمت أو المزمع عملها ، وعلى العموم كل ما يتعلق بشؤون البلاد ، مما ترى الحكومة عرضه عليه . غير أن الخديوى لم يشأ قط أن يقيّد سلطته بإنشائه ، وإنما كان يقصد أن يلقى على عاتقه جزءا من المسؤولية ، ولكي يظهر للبلاد أن مصر كغيرها من الدول الراقية تتمتع بمجلس نيابي .

وكان أعضاء المجلس في بداية الأمر ، يجهلون فحوى الحياة النيابية الصحيحة ، إذ لما أقبل عليهم شريف باشا ، يفهمهم أن العادة جرت في المجالس النيابية



الأوربية ، أن ينقسم المجلس حزبين ، حزب يناصر الحكومة ويجلس على مقاعد اليمين ، وحزب يعارضها ويجلس على مقاعد اليسار ، تساقى الجميع إلى مقاعد اليمين وهم يصيحون : ” نحن عبيد أفندينا ، فكيف نعارض حكومته !! “ . غير أنه لم يلبث هذا المجلس ، أن أخرج لمصر رجالا بارزين من بين أعضائه ، وسرى كيف أنهم لعبوا دورا هاما في شؤون مصر منذ أواخر عهد إسماعيل ، وكيف أنهم تجرأوا من ذلك الوقت على معارضة الحكومة ونقدها ، كلما اقتضت المصلحة ذلك .

## الإصلاح القضائي

### أولا — القضاء من عهد محمد علي :

كان القضاء في مصر ، من عهد محمد علي إلى أوائل عهد إسماعيل ، موكولا إلى عدة هيئات ، فهناك المحاكم الشرعية ، ولها حق الفصل بين الخصوم والنظر في عدة أمور ، كما كان هناك صاحب الشرطة ( الضبطية ) ، ومن اختصاصه النظر في الجرائم وإقامة الحدود . وفوق ذلك كانت سلطة المدير في الواقع مطلقة ، يوقع على الأفراد ما يشاء من أنواع العقوبات ، إلا عقوبة الإعدام ، فكانت من حق الخديوى . فضلا عن ذلك كانت بالمديريات مجالس أطلق عليها ” مجالس المديرية “ ، للحكم فيما يعرض عليها من أمور ، ويشرف على هذه المجالس ” مجالس الأحكام “ بالقاهرة ، وله حق إعادة النظر في بعض أحكامها ، وكان منوطا به وضع القوانين واللوائح والمنشورات ، التي كان أسامها في الغالب الشريعة الإسلامية . وبجانب هذه الهيئات يوجد القضاء القنصلى ، وكان الأجانب خاضعين له بحكم الامتيازات الأجنبية ، التي مستكلم عنها فيما بعد .

وفي أيام سعيد ، أصدر السلطان أمرا بتشكيل ” مجالس نظامية “ مستقلة عن المحاكم الشرعية ، على أن توضع لها قوانين وأنظمة خاصة على النمط الأوربى ، وحاول سعيد تنفيذ أمر السلطان ، ولكن عاجلته المنية قبل تنفيذه ، فوفقت مهمة الإصلاح الجديد على عاتق إسماعيل ، فأنشأ ” المجالس المحلية “ وجعلها



مستقلة عن المحاكم الشرعية ، التي انحصر اختصاصها منذ ذلك الحين في مسائل الأحوال الشخصية دون غيرها . أما هذه المجالس فكان من اختصاصها النظر في الدعاوى المدنية والجنائية ، غير أنها لم تحسن في بداية عهدها القيام بالمهمة التي وكلت إليها ، ولكن حالتها أخذت في التحسن تدريجاً .

### ثانياً - الامتيازات الأجنبية :

يرجع تاريخ هذه الامتيازات في مصر إلى ما قبل الفتح العثماني ، يرجع إلى أواسط القرن الثالث عشر ، حينما عقد القديس لويس ملك فرنسا معاهدة امتيازات مع سلطان مصر عام ١٢٥١ ، أصبح له بمقتضاها حق تعيين قنصل ثابت بالإسكندرية ، لينظر في مصالح الرعايا الفرنسيين ، ويطبق عليهم القوانين الفرنسية ، في حالة قيام نزاع بينهم ، ثم عقدت معاهدات أخرى بين الطرفين ، صدق عليها جميعها السلطان سليم الأول عام ١٥١٧ ، والسلطان سليمان القانوني عام ١٥٢٨ ، ثم تمت اتفاقات نهائية بين السلطان وفرنسا الأول ملك فرنسا ، عام ١٥٣٥ ، شملت جميع الامتيازات السابقة ، ووضعت لها نظاماً خاصاً ، وأصبحت سارية في جميع أجزاء الدولة العثمانية ، وأدخلت عليها بعض تعديلات فيما بعد .

وكان الغرض من منح هذه الامتيازات ، تشجيع الأجانب على الإقامة في أملاك الدولة ، لنشر التجارة واستخدام أموالهم في استغلال موارد الثروة في الإمبراطورية . وقد نجحت الفكرة بالفعل ، وغامر كثير من الأجانب بأموالهم لاستثمارها في بلاد الدولة ، وانتشرت التجارة بفضل ذلك انتشاراً كبيراً . غير أن هذه الامتيازات ، التي كانت منحة من طرف واحد ، أصبحت معاهدات بين فرنسا وتركيا عام ١٨٠٢ ، وبذلك أخذت شكلاً دولياً ، وأقدمت الدول الأخرى تطالب لرعاياها ما كان للرعايا الفرنسيين من حقوق ، وتم لها ما أرادت . وكان من شأن هذه الامتيازات في بداية الأمر ، أن تنعش الحالة الاقتصادية ، حينما كانت الدولة فوية ، وكانت هذه الامتيازات بالتالي "دفاعية" محضة ، فلما أخذت الدولة في الضعف ، بدأ يظهر تنطرس الدول ، واستغلال قنصلها للظروف ، لتفسير نصوص الامتيازات بطريقة تكسبهم سلطة واسعة ، وتضعف بالتالي من السلطة المحلية ، حتى صارت "هجومية" تعمل لمصالح الأجانب البحتة في معظم الأحيان ، دون اكتراث بما يصيب البلاد وأهلها من جراء ذلك .



وبدأت مصالح الأجانب تتكاثر في مصر ، وتتعدد نواحيها ، في أيام سعيد ، ولما كان الوالى لين الجانب شديد الإكرام للأجانب ، ولم تكن له قوة أبيه وإرادته الحديدية ، أخذ قناصل الدول يستغلون الظروف ، ويقتالون حقوق السلطة المحلية التشريعية والقضائية ، حتى هدموا كل أركانها ، فلم يعودوا يقنعون بالنظر في شؤون رعاياهم المدنية والتجارية ، وبمحايتهم من أى ضيم قد يقع عليهم من الحكومة ، بل تعدوا ذلك إلى الاختصاص دون الحكومة بالنظر في المخالفات والجناح والجناسات ، التي يرتكبها رعايا دولهم ، وإرغام الأهالى بالحضور أمام المحاكم القنصلية ، إذا كانت لهم دعاوى ضد أحد الأجانب . وقد تطرفوا في مسلكهم هذا ، إلى حد أنهم استدعوا نفس الحكومة أمام هذه المحاكم ليقاضوها ، وكانوا غالبا ما يحكمون عليها بتعويضات جسيمة في مصلحة رعاياهم ، وكان الكثير من القناصل في ذلك العهد ، لا يأنفون من مشاركة رعاياهم في الغنيمة .

ومما زاد الطين بلة وأدى إلى اضطراب العدالة في البلاد ، أن تلك المحاكم القنصلية ، التي كان عددها سبع عشرة ، لم تكن متضامنة في تشريعها وأحكامها ، ولا تعترف الواحدة بأحكام الأخرى . وأسوأ من ذلك أن تلك المحاكم كانت تضع مصلحة رعايا دولها في المكان الأول ، ولو أدى ذلك في معظم الأحيان إلى ضياع معالم الحق ، فضلا عن أن هذه المحاكم كانت ابتدائية فقط ، ولا تستأنف أحكامها إلا إلى إحدى محاكم وطن المدعى عليه ، وفي هذا من الإرهاق وضياح الأموال ما فيه . فكانت الحالة تستدعى سرعة النظر فيها ، وعدم السكوت طويلا على شرورها . وساء اسماعيل أن يرى تعدد السلطات التشريعية والقضائية والتنفيذية في بلاده ، فأخذ يعمل على هدم هذه السلطات ، حتى لا تشاركه في حكم البلاد ، وحتى يضمن سير العدالة بين رعاياه والأجانب النازلين بينهم .

### ثالثا — المحاكم المختلطة :

وكانت فكرة إصلاح النظام القضائي في مصر ، مختمرة في رأس اسماعيل ، منذ أن أصبح ولى العهد بعد موت أخيه ، ولكن لم تتح له الفرصة لدرس الموضوع ،



ومفاوضة الدول في شأنه، إلا في سنة ١٨٦٧ وكان ساعده الأكبر في ذلك وزيره "نوبار باشا" (\*) ، الذي قضى عدة سنوات يجاهد في سبيل إنشاء هذه المحاكم .  
وتقدم نوبار في ذلك العام بمشروعه الى الحكومة الفرنسية ، فشككت لجنة في باريس



(نوبار باشا)

لدرس الموضوع ، وإبداء ملاحظتها على التغيير المطلوب ، غير أن اللجنة رفضت المشروع ، ورأت ضرورة إبقاء الحالة كما كانت ، وبذلك صدم نوبار صدمة عنيفة في آماله .

ولم تكن فرنسا هي العدو الوحيد للمشروع الجديد ، فان تركيا كذلك كانت معارضة له ، وأخذت تضع العراقيل في سبيل تنفيذه ، لأن السلطان رأى أن تحقيقه يعطى مصر مركزاً ممتازاً عن بقية ولايات

الدولة ، وهذا ما لم يرق في نظره . وقام السلطان والعلماء في القاهرة بمعارضة هذا الإصلاح معارضة شديدة ، بحجة أنه مخالف للشرع . أما الباب العالي ، فاستطاع اسماعيل ببذله وسخائه من الحصول على موافقته ، وأما العلماء فاكتمى الخديوى بعزل المفتى الذى أفتى بذلك ، وعين مكانه آخر أفتى بعدم مخالفته للدين .

كذلك كان الأهالى والأجانب غير راضين عن المشروع ، وبالأخص قناصل الدول ، الذين رأوا فيه القضاء على جزء كبير من سلطتهم ، ولهذا لاقى نوبار صعوبات جمة في سبيل تحقيق غايته وغاية سيده ، ولكنها لم تثنه عن عزيمته ، لا سيما وأن إنجلترا كانت راغبة في الإصلاح المطلوب ، لكثرة عيوب الحالة الموجودة وضررها ، على الأهالى والأجانب سواء بسواء ، ولذلك كانت على استعداد لمديد المساعدة اليه .

(\*) ولد بأزمير عام ١٨٢٤ ، وهو أرمنى مسيحى تلقى العلم في مدارس فرنسا وسويسرا ، ثم حضر الى مصر بطلب من خاله بوغوص بك يوسف ، وتعين سكرتيراً خاصاً لآبراهيم باشا ثم ليعازل الأول . وقد عينه سعيد مديراً لمصلحة السكك الحديدية ، واستعان به في عقد القرض الذى اقترضه قبل وفاته . وكان له شأن يذكر في تاريخ مصر الحديث بعد ذلك ، مما سيجى مفصلاً ، ووافته المنية عام ١٨٩٩ .



واستمر نوبار في كفاحه في هذا الميدان بمعاونة اسماعيل ، حتى نجح في الحصول على موافقة الدول ، على اجتماع لجنة دولية بالقاهرة عام ١٨٦٩ ، للنظر في الموضوع . ولما اجتمعت اللجنة ، وفحصت المشروع ، وافقت على وجهة نظر الحكومة المصرية ، غير أن قيام الحرب الفرنسية البروسية عام ١٨٧٠ ، أوقف كل مفاوضات في هذا السبيل . ولكن ما كادت الحالة تستقر ، حتى استأنف نوبار جهوده ومساعاه لدى الدول ، وكانت فرنسا لا تزال أشدها معارضة ، فاستمرت قضع العراقيل في سبيله ، ولكن بالرغم من هذا أصدر اسماعيل أمرا بتشكيل هذه المحاكم ، في أول يناير سنة ١٨٧٥ . غير أنه نظرا لاعتراضات فرنسا ، والعقبات التي كانت تخلفها ، تأخر افتتاحها حتى شهر فبراير سنة ١٨٧٦ ، بعد أن تنازلات فرنسا عن معارضتها .

وقد أنشئت ثلاث محاكم من الدرجة الأولى ، في القاهرة والاسكندرية والمنصورة ، ثم محكمة استئناف عليا بالإسكندرية . وأكبر نقص في هذه المحاكم ، يرجع إلى أن دائرة اختصاصها لا تتعدى القضايا المدنية والتجارية ، وبقيت الجنائية منها كما كانت من اختصاص المحاكم القنصلية . ولها حق النظر في بعض المخالفات ، إذا كان أحد الخصمين أجنبيا ، أو في حالة ما إذا كان الخصمان من الأوربيين أو الأمريكين ، واختلفت جنسيتهما ، أما إذا كانا من جنسية واحدة ، فلا يصح لها حق الفصل بينهما ، إلا في المسائل العقارية . وأصبح لأى أجنبي الحق في مقاضاة الخديوى نفسه أو الحكومة المصرية أمامها ، وكان على الحكومة تنفيذ أحكامها ، وفي هذا ما فيه من افتئات على سيادة الدولة . والمحاكم المختلطة مستقلة عن الحكومة تمام الاستقلال ، تعين قضاتها اثنا عشرة دولة أوربية والولايات المتحدة ، ويحدد هذا النظام مرة كل خمسة أعوام . ولقضاتها سلطة واسعة ، فهم الذين يقررون مدى ما لهم من سلطة ، ولا تستطيع الحكومة تعديل قانون من قوانينها ، إلا إذا وافقت على ذلك جميع الدول المختصة ، فهي بذلك حكومة داخل حكومة .

ومع ما رأيناه من رغبة اسماعيل في إنشاء هذه المحاكم ، والجهود التي بذلها وزيره نوبار في هذا السبيل ، تحت إشرافه وإرشاده ، لم تأت هذه المحاكم بكل النتائج التي كان يصبو إليها الخديوى . فقد كان يرى في المحاكم القنصلية قوة



تشاطره شيئا من الساطة في حكم البلاد ، فأاد القضاء عليها ، ولكنه وجد في هذه المحاكم التي أنشأها قوة تناهض سلطته ، وبرهنت الحوادث على أن لها سلطانا يعلو سلطانه . غير أنها بجانب هذا ، حققت شيئا من أغراضه في الإصلاح ، فكانت هذه المحاكم ، مع ما فيها من نقائص وقت إنشائها ، خيرا من المحاكم الأخرى الموجودة بالبلاد إذ ذاك ، وكان يشوب إجراءاتها كثير من المآخذ ، حتى أن كثيرا من الأهالي كانوا يتقاضون أمام المحاكم المختلطة بمحض اختيارهم .

### الحالة العلمية

تسلم اسماعيل زمام الحكم في البلاد ، وحالة التعليم فيها متأخرة للغاية ، وذلك راجع إلى عدم ميل عباس وسعيد إلى فكرة تعليم المصريين كما أسلفنا ، وبذلك كان ميدان العمل من هذه الوجهة ، مفتوحا أمام مجهودات اسماعيل . أما هو ، فلم يقصر في بذل أقصى مجهوداته ، لنشر العلم بين جميع طبقات الأمة ، لا سيما وأنه كان يعتقد ، أنه لا يستطيع القيام بإصلاحاته ومشروعاته الواسعة ، إلا بتعليم أبناء البلاد ، ليذر البذور في تربة صالحة ، يتأصل فيها نبات الإصلاح . فقد كان يريد نشر العلم لذاته ، حتى ترقى مدارك فراد الشعب ، في حين كان جده يرمى بالتعليم إلى الحصول على عدد وفير من الضباط والموظفين . وكان اسماعيل يصرف عن سعة في سبيل هذا الإصلاح ، حتى بلغت ميزانية نظارة المعارف في عهده نحو ثمانين ألف جنيه ، بعد أن كانت ستة آلاف فقط في عهد سعيد . زد على ذلك أنه أوقف على التعليم أراضي الوادي ، التي استردها من شركة قناة السويس .

وقد استعان اسماعيل في تنفيذ برنامج إصلاحاته العلمية بنبذة من رجال الغرب ، وكذلك بعدد من المصريين المتعلمين ، أمثال "شريف باشا" و"رياض باشا" ، وأخصهم جميعا بالذكر "علي باشا مبارك" ، الذي يرجع إليه الفضل الأكبر في قيام النهضة العلمية الحديثة بمصر . وقد أمر اسماعيل بتشكيل لجنة تحت رئاسة مبارك باشا ، لوضع قانون أساسي للتعليم العام ، ونظام خاص للمدارس المختلفة واهتمت اللجنة بالأمر ، ونتيجة لمجهوداتها صدرت اللائحة المعروفة باسم "لائحة رجب" سنة ١٢٨٤ هـ . وتتكون هذه من أربعين مادة ، بنيت على أساس توجيه نظام ومنهج التعليم في جميع مدارس القطر ، التي من درجة واحدة . وقسمت



المدارس ثلاثة أقسام : ابتدائية وثانوية وعالية ، وذلك خلاف المدارس الخاصة .  
وجعل لكل نوع من هذه الأنواع منهج تعليم خاص ، يتناسب مع عقلية التلاميذ  
في كل طور من أطوار الدراسة .

وأهم المدارس العالية والخصوصية في عهده ، مدرسة الطب والصيدلة والولادة ،  
ومدرسة الهندسة ومدرسة الفنون والصنائع ومدرسة الألسن والحقوق ودار العلوم  
والنورمال . وكان التلاميذ يقبلون على التعليم في هذا العصر بمحض رغبتهم ، حبا  
في الحصول على مركز رفيع ، لا بالقوة كما كان الحال في أيام محمد علي . وقد زاد  
عدد المدارس والتلاميذ زيادة عظيمة ، فبجانب مدارس الحكومة ، كانت توجد  
المدارس والكتاتيب التابعة للأوقاف ، ثم المعاهد الأجنبية ، والأزهر الشريف ،  
والمدارس الحربية . واهتم اسماعيل بالبعثات العلمية ، فاستأنف عهد جده العظيم  
في هذا السبيل ، وأرسل عددا كبيرا من المصريين ، للدرس والتحصيل بجامعات  
أوروبا الشهيرة .

وأظهر اسماعيل عناية بتعليم أولاده وأمراء أسرته ، فكان بذلك قدوة  
حسنة لأعيان البلاد في تعليم أولادهم . وخير ما يذكر عن مجهوداته في سبيل  
نشر التعليم ، توجيه همته إلى تعليم البنات ، فأنشئت في عهده مدرسة خاصة  
للبنات على نفقة إحدى زوجاته ، وكانت الأولى من نوعها في جميع أجزاء  
الأمبراطورية العثمانية ، بل في أنحاء العالم الإسلامي بأسره .

### علي باشا مبارك

هو بحق أبو التعليم في مصر . ولد في قرية برنبال بمديرية الدقهلية سنة ١٨٢٤ ،  
ولما بلغ السادسة من عمره ، هجر والده تلك القرية ، وذهب إلى قرية الجمادين  
من أعمال مديرية الشرقية ، ثم حفظ على مبارك القرآن وزاول بعض أعمال  
كتابية بسيطة ، كان يحصل منها على قوت يومه ، ولكنه سرعان ما سم تلك  
الحياة ، ودخل مدرسة القصر العيني سنة ١٨٣٦ ، على غير رغبة من والده . ولما  
خصص القصر العيني لمدرسة الطب ، نقل "علي" إلى مدرسة أبي زعبل ، وبدأ  
يظهر على أقرانه .



وفي سنة ١٨٤٠ ، فرز بعض التلاميذ ليلتحقوا بمدرسة المهندسخانة ببولاق ، فكان على من بينهم ، فأقام بها خمس سنوات ، وكان دائماً أول فرقته .



وفي سنة ١٨٤٥ عزم محمد على على إرسال أبنائه ليتعلموا في فرنسا ، وأمر أن ينتخب جماعة من التلاميذ المتفرقين ، ليكونوا مع أنجاله في أوروبا ، فكان على من بين الطلبة المنتخبين . وعلى الرغم من أن راتبه الشهري في البعثة كان ضئيلاً ، كان يترك نصفه لأهله ، يصرف لهم من مصر ، وبقى أفراد البعثة يتعلمون في فرنسا حتى تولى عباس ، الأول ، فأمر بعودتهم .

وعين على مبارك مدرسا بمدرسة طره ، ثم جعله عباس باشا في معيته ، وبعد ذلك

(على باشا مبارك)

أحال عليه النظر في ترتيب المدارس ترتيباً يكون أساسه حاجة البلد ، وعينه بعد ذلك ناظراً لهذه المدارس . وكان وهو ناظرها يباشر بنفسه وبلاستعانة ببعض المعلمين تأليف كتب مدرسية ، ولما تولى سعيد باشا سافر على مع الحملة المصرية ، لمساعدة الأتراك في حرب القرم ضد روسيا ، فتعلم اللغة التركية ، ولما عادت الحملة إلى مصر ، فصل على من وظيفته بدسائس أغوات السراى ، فصمم على العودة إلى بلده ، لأن الحظ تجهم له طيلة حكم سعيد باشا .

ولما اعتلى إسماعيل العرش ذكر زميله في التلمذة ، وهو على مبارك ، فألحقه بمعيته ، ثم عينه ناظراً للقناطر الخيرية ، فأخذ يصلح ما تداعى منها ، وفي سنة ١٨٦٥ كان على مبارك عضواً نائباً عن الحكومة المصرية في الشركة التي تألفت لتقديم ثمن الأراضي التي كانت حقاً لشركة قناة السويس ، وبعد ذلك بعامين عين وكيلاً لديوان المدارس مع بقاءه ناظراً للقناطر الخيرية . وإليه يرجع الفضل في النهضة العلمية الحديثة ، ففي سنة ١٨٦٧ أمر إسماعيل بتشكيل لجنة تحت رئاسته ، لوضع قانون أساسي للتعليم العام ونظام خاص للمدارس المختلفة ، فقامت اللجنة بالعمل خير قيام ، وصدرت اللائحة المعروفة (بلائحة رجب سنة ١٢٨٤ هجرية) وهي التي تقدم ذكرها .



وفي سنة ١٨٦٨ أحييت عليه إدارة السكك الحديدية ، وديوان الأشغال العمومية ، والأوقاف . ومما يجدر بالذكر ، أن أكثر العمارات والمنشآت العمرانية ، التي عملت بمصر زين الخديوى إسماعيل ، إنشأت وعلى باشا مبارك ناظر لديوان الأشغال العمومية .

وفي سنة ١٨٧٢ أنشأ مدرسة دار العلوم لتخريج معلمين أكفاء ، ولتسهيل التعليم على المعلمين والمتعلمين ، أوجد مطابع لطبع كل ما يلزم من الكتب ، ورأى على مبارك أن تكون للدارس مجلة ، فأنشأ مجلة "روضة المدارس" وجعل "رفاعة بك" مشرفا عليها ، وكان يكتب فيها بنفسه ، كما كان يشجع رجال العلم على الكتابة فيها ، فكانت تلك المجلة بمثابة مدرسة عملية ، يتدرب فيها المتعلمون على الكتابة .

شهر مؤلفاته كتاب "الخطط التوفيقية" ، وهو كتاب ضخيم يقع في مجلدات عدة ، تناول فيه الكلام على موضوعات شتى في الحياة المصرية ، ولا سيما ما يتعلق بتربيت مدن القطر المصرى وقراه ، ومن نشأ فيها من مشاهير الرجال .

وفي سنة ١٨٧٠ ، أشار عليه الخديوى إسماعيل بإنشاء دار الكتب ، ورغبة منه في نشر الثقافة بالبلاد ، فقام على مبارك بالعمل على الوجه الأكمل .

ولما تشكلت نظارة نوبار باشا الأولى سنة ١٨٧٨ ، كان على باشا ناظرا للأوقاف والمعارف فيها ، فاهتم بتشييد المدارس وتوسيع دائرة التعليم ، بالإهتمام من إنشاء دور التعليم الأولى ، وترتيب ما يلزم لها من أدوات وكتب .

وفي وزارة رياض باشا الأولى ( سبتمبر سنة ١٨٧٩ ) ، جعل ديوان الأشغال ديوانا مستقلا ، وجعل على باشا مبارك ناظرا له ، فشرع في بناء مدرسة الطب ومستشفى القصر العينى ، وفي سنة ١٨٨٣ كان ناظرا للأوقاف في وزارة شريف باشا ، وفي سنة ١٨٨٨ أسند الخديوى توفيق إلى رياض باشا تأليف وزارة ، فاختر على مبارك باشا ليكون ناظرا للمعارف ، ففتحت في مدينته المدارس الأهلية في المدن والأقاليم ، وبعد سقوط الوزارة سافر إلى بلده ليعتهد مزارعه بنفسه ، فانتابه فيها المرض ، فعاد إلى القاهرة ، حيث فاضت روحه في نوفمبر سنة ١٨٩٣



## النهضة الفكرية

### (١) الثقافة العامة :

لم تقف هممة إسماعيل في ترقية طبقات الشعب ، وبث روح النشاط الفكرى في أفرادها ، عند إنشاء المدارس ووضع الأنظمة والمناهج ، بل سلك لذلك عدة طرق أخرى ، فآخذ يعمل على ترقية الأدب وتهذيبه ، وتشجيع الفن وأهله ، والأخذ بناصر التمثيل والمشتغلين به . كذلك عمل على إنشاء الجمعيات العلمية والحريرية ، لنشر الثقافة وحب الخير ، ولم يخل على هذه الجمعيات بمعاوضته المالية والأدبية ، فأسست الجمعية الجغرافية الخريوية سنة ١٨٧٥ ، وكذلك الجمعية الخيرية الإسلامية سنة ١٨٧٨ ، كما تأسس الكثير غيرهما من الجمعيات النافعة .

### (ب) الصحافة الحرة :

وظهرت في هذا العصر الزاهر الصحافة الحرة ، فعمل إسماعيل على تنشيطها ونشرها ، وسهل السبل لكثير من أدباء السورين ، الذين كانوا يندون إلى مصر في أيامه ، للاشتغال بالأدب والصحافة ، وقدم لهم أكبر المساعدات والحوامات ، وكان يرمى بذلك إلى ظهور مصر بمظهر البلاد المتمدينة من جميع الوجوه ، كما كان يرمى إلى الاستفدة من هذه الصحف ، في مناوأتها للسلطة التي استحوذ عليها الأجانب في أواخر عصره .

وأشهر هذه الصحف جريدة "الأهرام" التي أسسها سليم وبشارة تقلا عام ١٨٧٥ ، وهي اليوم من كبريات الصحف العربية ، وكذلك جريدة "الوطن" ، التي أنشأها ميخائيل عبد السيد عام ١٨٧٧ ، وفي نفس العام تأسست جريدة "مصر" ، وكذلك جريدة "أبو نظارة" ، وكانت جريدة هزلية تكتب بالعامة ولهذا كانت كثيرة الذبوع والانتشار (\*) .

(\*) بلغ عدد الصحف في عهد إسماعيل ٢٦ صحيفة ، منها ١٠ يومية ، و٥ نصف أسبوعية و ١١ أسبوعية ، وبلغ ما كان يطبع منها شهرياً ٢٨٤٩١٠

وكانت اليوم منها ، تصدر كلها بالاسكندرية ، وأهمها "صدى الأهرام" لسليم تقلا ، وجريدة "النجم" لسليم نقاش . ومن أهم الصحف الأسبوعية التي صدرت في الاسكندرية ، "الأهرام" لبشارة تقلا ، و "الاسكندرية" لسليم حموى ، وجريدة "مصر" لسليم نقاش . وفي القاهرة جريدة "الوطن" لجورجى ميلاد . ومن نصف الأسبوعية "مرآة الشرق" لسليم عنجورى ، وجريدة "النيل" بالعربية والفرنسية .



ولا شك أن هذه الصحف ، تنبعت إلى حد كبير على ظهور الحرية الفكرية  
تدريجاً ، وما لبثت أن سارت هذه الروح الجديدة الناشئة في طريقها الطبيعي ،  
تعمل للصالح العام ، وتقاوم كل حيف يقع على البلاد .

### ( ج ) جمال الدين الأفغاني :

وأكبر ركن من أركان هذه النهضة الفكرية ، الفيلسوف الشرقي الحكيم  
« السيد جمال الدين الأفغاني » . ولد هذا الزعيم في مدينة كابل بأفغانستان



( جمال الدين الأفغاني )

عام ١٨٣٩ ، وتلقى علومه العليا في مدينة  
بخارى وغيرها من مدن الشرق . غير أن  
مواهبه الراقية ومداركه السامية ملأت  
نفسه بحب الأمم الإسلامية الشرقية ، بفعل  
غايته الكبرى في حياته العمل المتواصل ،  
لتحسين حال تلك الأمم ، ورفعها إلى  
مستوى الأمم الغربية الراقية ، وتخليصها  
من السيطرة الأجنبية . وقد اشترك بالفعل  
في حوادث موطنه الأصلي ، وكان يروم  
أن يرقى به إلى مدارج العظمة والرقى ،  
غير أنه اشتبك مع القوة الحاكمة فيه  
فهجره ، وأخذ منذ ذلك الحين يتنقل

في البلاد الإسلامية المختلفة يبذر بذور الإصلاح ، ويغرس نبات الوطنية ، ويغذي  
الحركات الدستورية ، فهبط مصر عام ١٨٦٩ ، وبعد أن مكث بها أربعين  
يوماً تعرف في خلالها بعدد كبير من العلماء والمفكرين ، غادرها إلى الآستانة  
سنة ١٨٧٠ ، حيث أحسن الجميع استقباله في بداية الأمر ، وعينه الحكومة  
عضواً في مجلس المعارف الأعلى وأستاذاً في الجامعة ، فكانت هذه فرصة عزم  
على استغلالها لبث مبادئه الحديثة بين الطلبة ومن على شاكلتهم ممن أقبلوا يتلقون  
العلم عليه ، فأخذ يفسر القرآن تفسيراً ينطبق على العقل ، ولا يتنافى مع العلوم  
الحديثة والمدنية الصحيحة ، واستمر ينور الأذهان ، ويفك العقول من عقائدها .



غير أن هذه الخطة الحميدة ، لم ترق في أعين الرجعيين ، وعلى رأسهم إمامهم شيخ الإسلام ، فأخذوا يكيدون له ، ويدسون الدسائس حوله ، حتى اضطر إلى مغادرة الأستانة ، والرجوع إلى مصر عام ١٨٧١

وكان جمال الدين يرمى إلى تحقيق أغراضه الدينية والسياسية بوسيلتين ، أما الأولى فترمى إلى تجديد الإسلام ، بتخليصه من البدع والخرافات التي غلقت به ، ويكون ذلك بنشر تعليم اللغة العربية ، وترقية أساليبها ، والعمل على تشجيع الكتابة والتأليف والخطابة ، حتى يستطيع الناس بذلك أن يقرأوا لأنفسهم ويفهموا لأنفسهم ، دون الاعتماد على الغير ، ممن لا يفهمون الدين على حقيقته . وأما الثانية فترمى إلى إدخال النظم الدستورية الحرة في الممالك الإسلامية ، والعمل على ترقيتها ، حتى يتشبع الشعب بروحها ، ولا ينقاد إلا للحكومات العادلة ، ولا يخضع إلا لما فيه صالح البلاد .

واستقبل جمال الدين في مصر عند عودته إليها استقبالا حميدا من جميع الهيئات ، فرحب به الخديوى ورياض باشا ، وكذلك جميع الكتاب والمفكرين وكثير من العلماء ، ومنحته الحكومة مساعدة مالية سنوية ، وسمحت له بإلقاء محاضرات في الأزهر ، غير أنه مالبت أن نفر منه الرجعيون ، فشنوا الغارة عليه . وتلافيا للفتنة ، نصحه الخديوى بالكف عن إلقاء محاضراته في الأزهر ، ولكن هذا لم يحل دون استفادة الكثيرين من علمه وآرائه ، إذ أصبح بيته كعبة العلم ، يحج إليه الشبان والمثقفون ، ليتلقوا على ذلك الزعيم الفيلسوف ضروب الحكمة وأصول الفلسفة ومبادئ الإصلاح ، وفنون الكتابة والتأليف والخطابة .

وأخذ جمال الدين يث فيمن حوله الأفكار الدستورية الصحيحة ، ومبادئ الوطنية الحقة . وقد صادفت البذور أرضا خصبة ، نمت فيها وأثمرت ، ونضج الثمر .

### دار الكتب :

ولما كان إسماعيل شديد الرغبة في إحياء العلوم والمعارف بمصر ، تولدت عنده فكرة إنشاء مكتبة عامة ، تجمع شتات المخطوطات والمطبوعات المبعثرة ، وليستفيد الناس بقراءتها . ولهذا أمر بجمع الكتب القيمة والمصاحف المزخرفة ، الموجودة



في المساجد والتكايا بالقاهرة وغيرها من جهات القطر ، فجمعت ووضعت في مكان واحد ، تحت إشراف على باشا مبارك ، ثم أصدر أمرا خديويا بإنشاء المكتبة عام ١٨٧٠ ، وقام مبارك باشا بتنظيمها ، ووضع قانون لها .

ولما مات أخوه الأمير مصطفى فاضل سنة ١٨٧٦ ، اشترى مجموعة كتبه النفيسة بمبلغ ١٣٠٠٠ جنيه ، وأهداها إلى دار الكتب . وأخذ يجمع في اقتناء الكتب المكتوبة بعدة لغات ، حتى غدت الدار حافلة بمجموعات نفيسة من المخطوطات والمطبوعات ، وأصبحت تضارع كثيرا من مثيلاتها في عواصم أوربا .

### دار الآثار المصرية :

لم تكن آثار مصر القديمة موضع الدرس والعناية ، إلا بعد مضي شطر كبير من القرن التاسع عشر ، بعد أن حضر " شمبليون " بنفسه إلى مصر عام ١٨٣٠ ، لمواصلة أبحاثه العلمية في تعرف طلائع النقوش الهيروغليفية ، فعرض على محمد علي فكرة إنشاء مصلحة خاصة ، للعناية بالعاديات المصرية وحفظها والبحث عنها ، لأنه وجد أن الحكومة مهملتها شأنها ، حتى أضحت نهبا للقناصل والتجار الأجانب ، الذين أخذوا يرسلون كل ما يقع في أيديهم منها إلى دور الآثار ببلادهم . ولذلك حرصوا " محمد علي " على عدم الأخذ بمشروع شمبليون ، فأهمل أمره ، واستمرت الحالة على ما كانت عليه . غير أنه لم تمض على ذلك خمس سنوات ، حتى أصدر محمد علي أمره بإقامة حراس على الآثار ، وبمنع تصديرها إلى الخارج ، ثم أنشأ مصلحة خاصة بها ، جعل مقرها أمام بركة الأزبكية ، وأصبحت مهمتها الإشراف على الآثار والمحافظة عليها ، والبحث عنها ، ولكن ذلك لم يؤد إلى تحسين الحالة كثيرا ، فبقيت الآثار نهبا للسرقة والمبشرين ، حتى آخر أيام محمد علي ، ونقل الموجود منها إلى القلعة في أيام عباس الأول .

وكان من حسن حظ مصر أن قدم إليها عام ١٨٥٠ " مارييت Mariette " وهو فرنسي من المشتغلين بالآثار ، أرسلته حكومته إلى هذه البلاد ليشتري مخطوطات قبطية ، ولكنه لما رأى أن الميدان واسع أمامه في مصر للدرس والتحصيل ، ترك مهنته الأصلية ، وآثر البقاء بمصر ، ثم وجه جهوده نحو



”سقارة“ يكشف عن الآثار فيها، ووفق إلى كشف ”السرايوم“ بها عام ١٨٥١. وبفضل جهوده المتواصلة، أخذت محتويات دار العاديات تزداد زيادة عظيمة، واستمر يجد في عمله، بهمة لا تعرف الكلل،



(مریت باشا)

ونفس لا يصيبها الملل، حتى عينه سعيد باشا مأمورا لأعمال العاديات، في يولييه سنة ١٨٥٨ ثم أخذ في نقل العاديات إلى أماكن خاصة أعدت لها في بولاق. ولما جاء اسماعيل، أمر بإصلاح هذه الدور وتوسيعها، ثم افتتحها بحفلة رسمية حافلة، في ١٨ أكتوبر سنة ١٨٦٣

واستمرت الدار تسير في طريق التقدم المطرد، وازدانت بكثير من الآثار النفيسة، ولكن الأزمة المالية التي أصابت

الحكومة المصرية في آخر عهد اسماعيل، ظهر أثرها واضحا في أعمال الحفر والتنقيب، غير أن ”مریت“ لم يجعل الصعاب تقف دون إتمام عمله، بل ثابر بكل هممة ونشاط في سبيل الغرض، الذي أوقف عليه حياته، فخلق لمصر دارا للعاديات، تضارع أنفرد دور العاديات في العالم، ومات وهو قرير العين بنجاح مشروعه، في يناير سنة ١٨٨١. وبقيت الدار ببولاق، حتى نقلت إلى الجيزة سنة ١٨٩١، ثم إلى مقرها الحالي سنة ١٩٠٢، وهي سائرة في طريق التقدم والنجاح.

## الحالة الاقتصادية

### الزراعة :

لما كانت مصر بلادا زراعية، جل اعتمادها في ثروتها على الزراعة، نالت هذه قسطا وافرا من عناية اسماعيل، ونجح في تحسين أحوال البلاد الزراعية. ويكفيه نفرا أنه أصلح مالا يقل عن ١,٥٠٠,٠٠٠ فدان، وجعلها صالحة للزراعة، فقد حفر نحو مائتي ترعة، وسهل طرق المواصلات، بمد الطرق الزراعية، ونشر



السكك الحديدية، وإقامة الكبارى الكثيرة . ولما كانت الحرب الأهلية مشتعلة في الولايات المتحدة الأمريكية ، في أوائل حكمه ، وامتنع تصدير القطن منها إلى أوروبا ، وارتفعت أثمان القطن في العالم ، استفادت مصر من ذلك فائدة مالية عظيمة ، ولذلك أقبل اسماعيل على زيادة الأراضى المزروعة قطناً ، وحذا الأهالى حذو أميرهم ، حتى كثرت الثروة في البلاد كثرة لم يسبق لها مثيل ، فبعد أن كانت قيمة الصادرات أربعة ملايين من الجنيهات عام ١٨٦٢ ، أصبحت أربعة عشر مليوناً من الجنيهات عام ١٨٦٤ . ولكن مالبثت الأثمان أن عادت إلى حالتها الأولى ، بعد أن وقفت رضى الحرب عام ١٨٦٥

لم ير اسماعيل بدا من توجيه عنايته بعد ذلك إلى تحسين زراعة قصب السكر ، وأنفق على ذلك أموالاً طائلة ، واحتكر زراعته في أطيانه الواقعة على ضفة النيل اليسرى ، بين القاهرة وأسيوط ، وأنشأ لهذه الغاية خطاً حديدياً يخرق هذه الأقاليم ، كما حفر ترعة الإبراهيمية التى تعتبر من أكبر ترع العالم ، وقد عادت على الزراعة في مصر بأجل الفوائد .

### التجارة :

وعنى اسماعيل بتحسين التجارة وتوسيع نطاقها ، فبنى خمس عشرة منارة في البحرين الأبيض والأحمر ، لتهندى بها السفن التجارية التى تقصد البلاد المصرية ، كما أنه وكل إلى شركة فرنسية إصلاح ميناء السويس ، وإلى شركة انجليزية إصلاح ميناء الاسكندرية ، غير أن الشركة الأخيرة خدعته ، فتقاضت منه مليونين ونصف مليون من الجنيهات ، فى حين أن تكاليف العمل لم تتجاوز مليوناً واحداً ونصف مليون .

وكانت الشركتان المساهمتان اللتان أسستا في عصر سعيد ، قد ساءت حالتهما في أواخر أيامه ، فلما جاء اسماعيل صفى الشركة انجيدية ، وأنشأ مكانها "الشركة العزيرية" ، وكانت سفنها تنقل المتاجر والبريد بين مصر والبلاد الواقعة على شواطئ البحر الأبيض الشرقية والبحر الأحمر . وفى سنة ١٨٧٣ ، اشترى اسماعيل جميع أسهم الشركة ، وسميت من ذلك الوقت "شركة البومته الحديدية" ، التى بيعت لشركة إنجليزية بثمن بخس سنة ١٨٩٨ . واهتم الخديوى كذلك بشركة الملاحة النيلية ، فنظمها من جديد ، وخصص جزءاً من سفنها لخدمته الخاصة .



## الصناعة :

حاول اسماعيل ترقية الصناعة في البلاد ، كما حاول ترقية الزراعة والتجارة وغيرهما . وقد اهتم بصنعة خاصة بصناعة السكر ، فاشترى الآلات الكثيرة من الخارج ، لتشييد ما لا يقل عن أربعة وعشرين معملا لإنماء هذه الصناعة ، وصرف في هذا السبيل بضعة ملايين من الجنيهات ، ولكنه استطاع أن يشيد حوالي ثمانية عشر معملا بمصر الوسطى والصعيد ، كان يستخرج منها كميات وافرة من السكر ، وكان يصدر معظمها إلى الخارج ، وأصبح للسكر المصري في الأسواق الخارجية شهرة تافس شهرة السكر الأجنبي .

وفضلا عن ذلك قامت بالبلاد في أيامه معامل لنسج القطن والتيل والصوف ، وأخرى لعمل الأيسطة والبفتة والورق والزجاج ، وقامت بجانبها معامل لصنع المدافع والذخيرة ، كما وسع اسماعيل نطاق المطبعة الأميرية ، لتقوم بطبع كل ما تحتاج إليه حكومة البلاد .

## الحالة الاجتماعية

### السكان :

بلغ عدد السكان في عهد اسماعيل ، حوالي خمسة ملايين ونصف ، وليس المهم هنا زيادة العدد فقط ، وإنما يهمنا كذلك ، ما لاحظته من أن الشعب المصري قد وضحت فيه معالم القومية والنهوض ، والاتصال بالمدنية الأوروبية ، كما ظهر فيه الرأي العام ، الذي يتأثر بالحوادث ، ويتدخل فيها معبرا عن شعوره وآماله .

شعر المصريون في عهد الحملة الفرنسية بشيء من قوميتهم ، وذلك لأن نابليون أشرك بعض كبرائهم في الديوان الوطني ، الذي أنشأه في القاهرة ، لمعاونة الحاكم العام ، وفي ثورتي القاهرة الأولى والثانية ، تدخل الشعب في الحوادث السياسية لأول مرة في تاريخه الحديث ، وذلك باشتراكه في هاتين الثورتين .



وفي عهد محمد علي ، تجلى رأى زعماء الشعب يوم توليته ، ثم تخلصت مصر من المماليك ، وانقرضت هذه الفئة ، بعد أن قضى "محمد علي" على كبرائهم ، في حادث القلعة الشهير ، وطارد بقيتهم في دققة . وفي عهده أدى انخراط الألوف من المصريين في جيشه وأسطوله ، ونجاحهم في عدد من الفتوح العظيمة ، إلى زيادة إحساسهم بكيانهم ، والاعتزاز بمصريتهم . ثم إن المدارس التي فتحتها ، والبعوث التي أرسلها إلى الخارج ، قد انتظمت عددا غير قليل من أبناء مصر ، فظهرت منهم فئة متقدمة في نواحي الحياة المختلفة ، كانت أساس النهضة الحديثة في البلاد .

وأظهر سعيد باشا ميلا قويا نحو المصريين ، وورق بعضهم إلى كثير من المناصب المدنية والحربية العالية ، فازداد المصريون إحساسا بالعزة القومية ، ثم أحدثت اللائحة السعيدية ، التي أصدرها ذلك الوالي ، عام ١٨٥٨ ، أثرها الاجتماعي العظيم الأهمية في حالة الشعب المصرى ، وقد بدأت تظهر بفضلها طبقة صغار الملاك من المزارعين في الأقاليم ، وقد أثرى بعض هؤلاء ، وارتفع مستواهم المادى والاجتماعى ، ارتفاعا محسوسا .

وفي عهد إسماعيل ، أقبل عدد كبير من أبناء مصر في المدن والأقاليم على التعليم ، فضلا عما أرفده الخديو من بعوث علمية إلى الخارج كما تقدم ، فزاد في البلاد عدد المتعلمين ، وظهر من أبناء مصر قادة بارزون ، في ميادين العلم والسياسة ، ونضج رأى العام ، على أثر تنبه الناس إلى تدخل الأجانب في شؤون مصر ، ومطالبة زعمائهم بالحياة النيابية ، ومعاودة الخديو لهم ، كما أن إنشاء المحاكم المختلطة ، والتقليل من شأن الامتيازات الأجنبية على يد إسماعيل ، كان له عظيم الأثر في إذكاء الروح القومية .

هذه المعالم المختلفة ، التي نلمحها في المجتمع المصرى في عهد إسماعيل ، ترينا مبلغ ما طرأ على حالة سكان مصر من التغير ، في الفترة التي مرت على البلاد ، منذ فاتحة القرن التاسع عشر ، وإن المرء ليشعر بالفرق الكبير ، إذا قارن بين حالة الشعب المصرى أيام إسماعيل ، وحالته في القرن الثامن عشر ، على النحو الذى أسلفنا .



## الحياة العامة :

كان إسماعيل شديد الولوع ، بأن يرى مصر في مستوى الدول الأوربية حضارة ومدنية ، لذلك لم يأل جهدا في إبلاغها هذا المستوى ، في كل ناحية من نواحي العمران .

ووجه إسماعيل عناية خاصة إلى عاصمة البلاد ، وإن القاهرة بمظهرها الحديث ، لوليدة مجهوداته ، فقد جعلها أجمل مدينة في الشرق : أنشأ فيها أحياء لم تكن بها من قبل ، كحي عابدين وحي الإسماعيلية ، واختط فيها شوارع واسعة ، تظللها الأشجار من جانبيها ، كما أنشأ الميادين الفسيحة الجميلة ، على نحو ما يشاهد في العواصم الأوربية ، فميدان باب الحديد ، وميدان الأوبرا ، وميدان عابدين ، وميدان الإسماعيلية ، والشوارع المؤدية إليها ، كلها من منشآته .

هذا إلى ما شيده من القصور والمباني الفخمة ، مثل قصر عابدين وقصر الجزيرة ، وقصر الجزيرة ، والدور التي تشغلها بعض الوزارات الحالية ، ولقد حذا حذوه في بناء القصور ، كثير من الأعيان ، فما أسرع ما ظهرت المدينة بمظهرها الحديث الجميل ، وأصبح البون بينها وبين الأحياء القديمة شاسعا .

وتغيرت وسائل النقل في المدينة ، فأصبحت ترى في شوارعها العربات الفخمة ، تجرها الجياد الأصيلة ، تحمل سراة القوم في غدواتهم وروحاتهم .

وأضيئت الشوارع بغاز الاستصباح ، فقد قامت على جوانبها العمدة ، تحمل مصابيح الغاز الكبيرة ، على مثال العواصم الأوربية الشهيرة في ذلك العهد . ومدت أنابيب المياه إلى شوارع كثيرة ، وعلى الأخص في الأحياء الحديثة .

ودخل التجديد كذلك على وسائل التسلية ، فظهرت لأول مرة مسارح التمثيل والغناء الحديثة ، في القاهرة والإسكندرية ، وتشهد دار الأوبرا العظيمة بالقاهرة ، بما لقي فن التمثيل من عناية إسماعيل . وظهر الغناء الفني والموسيقى ، على أيدي بعض نوابغ ذلك الفن ، مثل عبده الجوى والعقاد وزملائهما ، كما ظهرت إلى جانب ذلك من وسائل التسلية ، لعبة خيال الظل ، في القاهرة والمدن ، فكانت



تمثل فيها مناظر فكاهية على شاشة بيضاء ، باستخدام مصابيح وأجسام أمامها ،  
تلقى حيالاتها على تلك الشاشة ، ولعبة " القره جوز " ، وأشباههما من الألعاب  
الشعبية المستحدثة .

وبدأ الأغنياء في منازلهم يأخذون بمظاهر الحياة الحديثة ، فشاع استعمال  
الكراسي والمضاد ، والأسرة والموائد الحديثة ، بأدواتها وأوانيسها ونظامها .  
وأضيفت المنزل بالمصابيح الحديثة ، التي يستخدم فيها البترول ، فحلت تلك  
المصابيح محل الشموع والقناديل .

وأخذت الأزياء القديمة تتلاشى شيئا فشيئا ، فلبس كثير من المصريين الحلل  
" الاستمبولية " والطربوش " العثماني " ، ولبس بعضهم الأزياء الأوروبية ما عدا  
لباس الرأس ، وتهذبت ملابس السيدات من طبقة الأغنياء ، وظهر فيها أثر  
النمط الأوروبي .

وظهرت آثار التجديد في غير العاصمة من المدن ، وعلى الأخص الاسكندرية ،  
وربطت خطوط السكك الحديدية أنحاء البلاد ، كما ربطها عدد كبير من أسلاك  
البقي ، وبدئ في إنشاء الجسور على النيل ، لتسهيل المواصلات . وانتظم البريد  
منذ شري الحديو مصلحة البريد من " شيني إخوان " الإيطالي ، سنة ١٨٦٥ ،  
وجعلها إدارة حكومية ، وقد نجحت هذه الإدارة نجاحا أدى إلى قبول مصر  
في " الاتحاد البريدي " عام ١٨٧٤

وقد أدى اختلاط المصريين بالأجانب ، وقد كثر عددهم بالبلاد ، كما أدت  
وسائل الثقافة العامة ، وسهولة الاتصال بين جهات مصر ، إلى سرعة تنور  
الأذهان ، والإحاجة بشيء غير قليل من مدنية العالم وأخباره في ذلك العصر ،  
فأخذت بسبب ذلك نقل الخرافات ، ويتسع أفق الناس في معرفتهم بالحياة .

هذا إلى أن النهضة الصناعية الأوروبية ، قد يسرت للناس شراء المصنوعات  
الحديثة ، مما يحتاجون إليه في معيشتهم ، من أدوات وملابس وآنية ، ومواد  
للزينة والزينة ، وإن استعمال هذه الأشياء ، قد صبغ الحياة المصرية بصبغة  
حديثة لم تعرفها من قبل .



### منع تجارة الرقيق :

ومن أهم الإصلاحات الاجتماعية التي أراد اسماعيل القيام بها ، محاولته منع تجارة الرقيق ، لمخالفتها لأبسط مبادئ الانسانية ، فقد كان النخاسون في أواسط افريقية يرتكبون الفظائع ، ويطاردون العبيد بالرصاص ، كما يطاردون الوحوش الكاسرة ، ويهجمون على القرى الآمنة المطمئنة ، ويسبون أهلها رجالا ونساء وأطفالا ، ثم يسوقونهم إلى أسواق الرقيق ، وهم في أشد حالات البؤس والألم . وكثيرا ما كانوا يقتلونهم أو يعذبونهم أو يشوهون وجوههم وأجسادهم ، لأنفسه الأسباب ، أو للتسلية أحيانا !

وحدث أن زار مصر ولي عهد إنجلترا ، في أوائل عام ١٨٦٩ ، وأخذ يجذب إلى اسماعيل التشديد في إبطال النخاسة والرق ، واقترح عليه إرسال حملة عسكرية إلى أقاصي السودان لهذه الغاية ، فصادف هذا الاقتراح هوى في نفس اسماعيل ، لما جبل عليه من رقة في الشعور وعطف على البائسين ، ثم لإرضاء الرأي العام في أوروبا ، وخاصة في بريطانيا العظمى . وصمم اسماعيل على بذل مجهودات كبيرة للقضاء على هذه التجارة ، رغم ما كان يعلمه من معارضة فريق كبير من الأمة لمثل هذا العمل ، ورغم كثرة النفقات التي يعلم أنها ستثقل كاهل الميزانية .

وجه اسماعيل عدة حملات حربية إلى الأقاليم الاستوائية لهذا الغرض ، ولتحقيق آماله في التوسع من جهة الجنوب ، والتسيطر على مياه النيل ومنابعه . ولكن المجهودات التي بذلت في هذا السبيل ، لم تأت بالنتيجة المطلوبة كلها ، من حيث القضاء على هذه التجارة ، وإنما نجحت في وضع العراقيل في وجهها ، فقللت من عنفها . والواقع أنه كان من الصعب القضاء عليها دفعة واحدة ، لا سيما وأن شيخ الجامع الأزهر ، وكبار العلماء في مصر ، كانوا يقولون بخالفة هذا العمل لتعاليم الدين الحنيف . ولكن بالرغم من كل ذلك ، استمر اسماعيل يجاهد جهاد الأبطال في هذا السبيل ، وأقدم على عقد معاهدة مع بريطانيا العظمى ، في ٤ أغسطس سنة ١٨٧٧ ، لمنع الاتجار بالرقيق ، ثم أبرم معها معاهدة أخرى للغرض نفسه في يناير سنة ١٨٧٨ . وقد استحق اسماعيل لهذا العمل الشريف كل ثناء ، وأثار بمجهوداته إعجاب كبار الكتاب والساسة في دول أوروبا .



## إسماعيل والقناة

### إسماعيل وامتيازات الشركة :

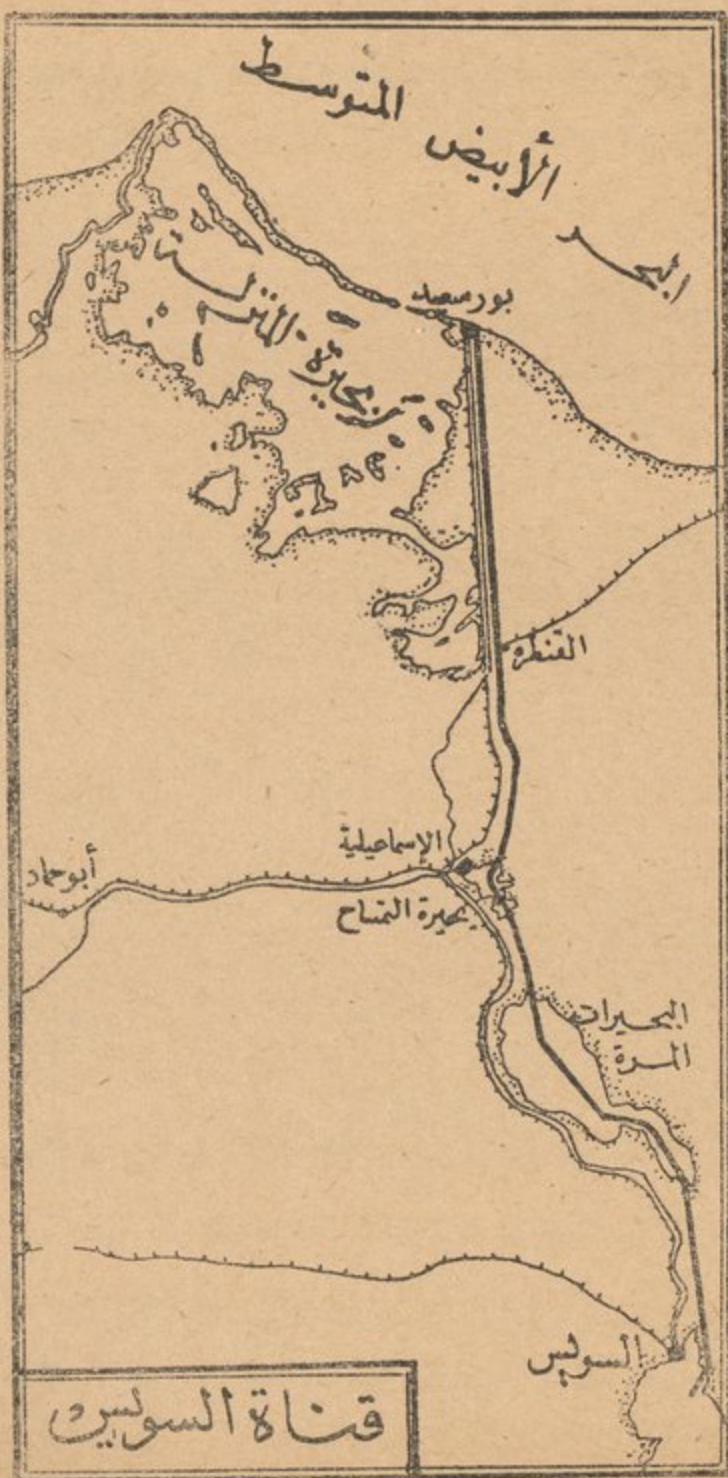
لما تولى إسماعيل عرش مصر ، في يناير سنة ١٨٦٣ ، لفتت نظره تلك الامتيازات الواسعة ، التي نالتها الشركة من سلفه ، وكان فيها إحجاف كبير بحقوق مصر ، ومشاركة الشركة لحكومتها في إدارتها وماليتها ، فامتعض لذلك ، وود لو استطاع أن يحمل الشركة على التنازل له عن المشروع ، فيقوم بإتمامه شخصيا ، ويحوز بذلك نفع إيجازه ، وتجنّي مصر فوائد إتمامه . وقد عبر عن شعوره هذا بقوله "إني إنما أريد القناة لمصر ، لا مصر للقناة" !

ولما كان يعتقد أن هذه الرغبة صعبة التحقيق ، وجه مجهوداته نحو حرمان الشركة شيئا من امتيازاتها . ولكي يبرهن على حسن نيته نحو المشروع ، ويكسب رضى الشعب الفرنسى وامبراطوره ، دفع للشركة مبلغ اثنين مليون من الجنيهات ثمنا للأسهم التي اشتراها سعيد ، وقدرها ١٧٧,٦٤٢ ولم يدفع ثمنها . ثم خاطب الباب العالى في يونيه سنة ١٨٦٣ ، بشأن موافقته على إنقاص عدد العمال المصريين ، الذين يشتغلون في حفر القناة بطريق السخرة ، وعلى إلزام الشركة بإعادة ما أخذته من الأراضى المصرية في عهد سعيد إلى الحكومة . وهذا ما كان ينبغيه الباب العالى ، وكان قد وقع تحت تأثير انجلترا من هذه الناحية ، فوافق تقوا على ذلك ، وأندرت الشركة بإيقاف العمل إن لم تقبل هذه الشروط .

صعق ديلسبس لهذا النبأ ، لأنه كان معتمدا في عمله على الأيدى المصرية ، ولم يكن مركز الشركة المالى يسمح لها بالاستمرار في العمل بدون ذلك ، ولكنه لم ييأس من التغلب على العقبة الجديدة ، اعتمادا على مناصرة "يوجينى Eugénie" امبراطورة فرنسا ، ومعاضدة الشعب الفرنسى ، فقد تمكن بذلك من الحصول على مساعدة الحكومة الفرنسية له ، ووافق اسماعيل في النهاية على تحكيم الإمبراطور نابليون الثالث في الأمر .



فأمر الامبراطور بتشكيل لجنة من رجال بلاده ، للفصل في المسألة بعد درسها من جميع نواحيها ، واستمرت اللجنة قائمة بمهمتها ثلاثة أشهر متوالية ، ثم رفعت تقريرها إلى الامبراطور ، فأصدر حكمه في ٦ يولييه سنة ١٨٦٤ ، وهو يقضي بمنع السخرة ، واسترداد الحكومة المصرية الأراضي التي أخذتها الشركة على ضفتي





القناة ، تاركة لها مائتي متر على كلا الجانبين . ونظير هذا وغيره ، تقرر أن يدفع اسماعيل للشركة غرامة قدرها ٣,٣٦٠,٠٠٠ جنيه ، وقدم دفع المبلغ عام ١٨٦٩ . وبهذا فاز اسماعيل بأغراضه ، رغم ذلك الحكم الجائر الذي كان موضع دهشة العالم ، كما فازت الشركة بهذا النجاح ، الذي جاء فوق ما كانت ترجوه ، فتوطد مركزها المالي بهذا المبلغ ، وأصبحت قادرة أن تستمر في عملها دون عائق ، باستخدام عمال مدرين . ووجدت الشركة في اسماعيل أكبر معاضد للمشروع بعد ذلك ، كما أن الباب العالي أصدر فرمانا بالموافقة عليه ، في مارس عام ١٨٦٦

### افتتاح القناة :

ولما قارب العمل الانتهاء ، عزم اسماعيل على إقامة حفلة حافلة على نفقته الخاصة ، بمناسبة افتتاح الترع ، حتى تضارع في فخامتها جلال الغرض الذي أقيمت من أجله . وأقيمت حفلة الافتتاح بالإسماعيلية ، وحضرها كثير من الملوك



(حفلة افتتاح القناة بالإسماعيلية)

والأمراء ، والعظماء والعلماء ، وكان قد دعاهم اسماعيل بنفسه ، في رحلة قام بها في أوروبا . وكان في مقدمة الحاضرين الامبراطورة "يوجيني" ، وامبراطور النمسا وولي عهد روسيا .



ولم يدخر اسماعيل وسعا في إرضاء ضيوفه ، والإنفاق عن سعة وإقامة الزينات وإعداد المعدات ، وقد شيد قصرافاخرا الاسماعيلية ، على شاطئ بحيرة النمساح ، لتقام فيه حفلة راقصة إكراما لامبراطورة فرنسا . ولهذه المناسبة كذلك شيد دار "الأوبرا" بالقاهرة ، حيث مثلت رواية "عايدة" ، التي ألقت بطلب خاص من



(دارالأوبرا بالقاهرة)

اسماعيل . وأنشأ بجانب ذلك طريقا من القاهرة إلى قاعدة الهرم الأكبر ، في أقل من ستة أسابيع ، لتسير عليه العجلات إذا رأت الامبراطورة زيارة الهرم . وقد غالى الخديوى في إظهار الكرم والحفاوة بزائريه إلى حد يفوق الوصف . وبلغ مجموع ما أنفقته على هذا الاحتفال النادر النظير ، ما يقرب من مليون ونصف مليون من الجنيهات .

\*  
\* \*

ولكن استعمال القناة ، كان قاصرا في بداية الأمر على السفن الشراعية ، إذ كان يتعذر على السفن البخارية مواصلة السفر من الغرب إلى الشرق ، لكثرة ما تحتاجه من الفحم . ولهذا لم يأت المشروع بربح إذ ذاك ، غير أنه ما لبثت أن استطاعت البواخر أن تواصل سيرها ، لاختراع الآلات المركبة ، التي قللت مقدار الفحم المطلوب إلى النصف ، وبذلك اتسع نطاق التجارة المسارة في القناة . ولكن نظرا إلى النفقات الكثيرة ، التي كان يتطلبها إصلاحها ، مع قلة قيمة الرسوم التي



كانت تحصلها الشركة ، لم يكن الربح كبيرا ، مما أدى الى ترعزع مركز الشركة ، في سنتي ١٨٧١ و ١٨٧٢ وانحطاط ثمن أسهمها ، وتوقفها عن دفع أرباح للمساهمين ، فاضطرت الدول الى النظر في الأمر ، وعقد لهذه الغاية مؤتمر دول بالاستانة عام ١٨٧٣ . وبعد أن درس الموضوع ، قرر منح الشركة الحق في زيادة الرسوم التي تتقاضاها بمقدار ٤٠٪ ، الى أن تتحسن حالتها المالية ، فكان لهذا القرار أحسن الأثر في إنعاش مالية الشركة ونجاحها المطرد .

### مصر والقناة :

وكان فتح القناة من أهم الأسباب ، التي وجهت مطامع الدول نحو مصر ، وخاصة إنجلترا وفرنسا ، فان هاتين الدولتين أصبحتا تكثران من مصالحهما الاقتصادية والسياسية في مصر ، وتتخذانها وسيلة للتدخل في شؤون البلاد ، وتعمل كل منهما على منع الأخرى من الانفراد بالتفوذ فيها .

هذا الى الخسارة المالية الفادحة ، التي تكبدتها مصر بسبب فتح هذه القناة ، لتحول طريق التجارة بين الشرق والغرب اليها ، بعد أن كان يعبر القطر من السويس الى الإسكندرية ، ثم لكثرة ما أنفقته في إنشائها ، وقد قدر بمبلغ مئة عشر مليون جنيه ، من مجموع النفقات التي بلغت سبعة عشر مليونا ونصف مليون من الجنيهات ، على حسب ما هو ثابت بدفاتر الشركة .

وفضلا عما ذكر ، فقد فقدت الحكومة المصرية ، في مارس عام ١٨٨٠ ، ما كان يخصها في أرباح الشركة ، وقدره ١٥ ٪ من صافي الربح ، نظير مبلغ ٨٨٠,٠٠٠ جنيه ، كان دينا لشركة فرنسية ، وعلى هذا أصبح لا يدخل خزانة الحكومة المصرية الآن شيء من أرباح القناة ، وستظل الحالة كذلك ، حتى تضع مصر يدها عليها حسب نص الاتفاق . ولما كان لجميع الدول مصالح في القناة تقرر جعلها على الحياد .



## الفتوح الإفريقية

تمهيد :

لما كانت فكرة الامبراطورية الإفريقية ، لا تخرج إلى حيز الواقع ، إلا بقوة الجيوش ، عكف إسماعيل على تكوين جيش كبير منظم على أحسن الطرق الحديثة ، واستعان في ذلك بكار الضباط من الأوربيين والأمريكيين ، وأخصهم بالذكر "ستون باشا General Ston" الأمريكي رئيس أركان حربه .

### السودان الشرقي :

وقد وكل إسماعيل أمر توسيع أملاك مصر في السودان الشرقي ، إلى ضابط سويسري ماهر ، يدعى "منزنجير Munzinger" فعينه محافظا على "مصروع" عام ١٨٧١ ، وكان قد اشتراها إسماعيل من تركيا هي و"سواكن" عام ١٨٦٥ ، نظير دفع ضريبة سنوية قدرها ثلاثون ألف جنيه . وقد أظهر "منزنجير"همة عظيمة في تحقيق أغراض إسماعيل في تلك الجهات ، ونجح في ضم بلاد البوغوس وبركة القصارف إلى أملاك مصر في السودان ، فتمحه الخديوي رتبة الباشوية عام ١٨٧٢ ، وعينه حاكما عاما للسودان الشرقي .

### الأقاليم الاستوائية :

في أوائل عام ١٨٦٩ ، عزم إسماعيل على القيام بفتوحات واسعة في الجهات الاستوائية ، للقضاء على تجارة الرقيق ، والسيطرة على منابع النيل ، وضم تلك الجهات إلى أملاك مصر ، فاستدعى "سير صمويل بيكر Sir Samuel Baker" لهذه الغاية ، وأنعم عليه برتبة الباشوية ، وعينه حاكما على البلاد الاستوائية ، لمدة أربع سنين ، تبتدئ من أول أبريل سنة ١٨٦٩ ، وزوده بحملة حربية ، وبفرمان



( سير صمويل بيكر )



من قبله يعهد اليه فيه فتح تلك الأقاليم ، وتحسين زراعتها وموارد ثروتها ، وإبطال تجارة الرق فيها .



سار "نيكر" بحملته في السودان ، حتى وصل إلى أعلى النيل الأبيض ، وهناك قرب التقائه بنهر سوبات ، أنشأ محطة عسكرية سماها "التوفيقية" ، ثم تقدم جنوباً حتى وصل إلى "جندوكورو" على بحرا جبل ، ورفع العلم المصري عليها ، وجعلها مركزاً لحكومته . ثم أخذ يسط نفوذ الحكومة المصرية في تلك الأقاليم الاستوائية حتى بحيرة فكتوريا ، واستمر ينشئ النقاط العسكرية المتعددة ، ليستطيع إبقاء



البلاد في قبضته ، ولتساعد على منع تجارة الرقيق ، وفي سنة ١٨٧١ أعلن رسمياً ضم الأقاليم الاستوائية إلى الحكومة المصرية . إلا أن هذه السياسة أغضبت كبار التجار في تلك الجهات ، فعمدوا إلى تشييد المعاقل الحصينة ، وتسليح عدد كبير من الزنوج ، حتى يستطيعوا مقاومة الحكومة . وقد عظم نفوذهم ، حتى هال الخديوى أمرهم ، فبعث إلى حاكم السودان يأمره بالاتفاق معهم على تسليم هذه المعاقل للحكومة ، نظير تعويض يدفع لهم لترك هذه المهنة ، فقبل البعض ورفض البعض الآخر ، وعلى رأسهم "الزير" ، رئيس تجار الرقيق هناك ، غير أنه بعد كفاح طويل رضخ للحكومة ، وعينه الخديوى مديراً لبحر الغزال .

استقال بيكر في أغسطس سنة ١٨٧٣ ، ثم قسم اسماعيل بلاد السودان قسمين ، القسم الشمالى ، وهو الممتد جنوباً حتى منطقة فاشودة ، ويسمى "السودان الحقيقى" ، ووكّل إدارة شؤونيه إلى حاكم السودان العام ، والقسم الثانى ، ويشمل الجهات الواقعة جنوب الآخر ، ويسمى "الأقاليم الاستوائية" ، ونصب عليه الكولونيل "غردون Gordon" حاكماً ، فسار إلى السودان في فبراير سنة ١٨٧٤ ، ثم تسلّم منصبه ، وأظهر الكثير من النشاط والحزم في تنظيم البلاد ، والعمل على مقاومة تجارة الرقيق . ونجح في مهمته ، ولكنه كان نجاحاً وقتياً ، لأنه ما كاد يغادر تلك الأقاليم ، حتى عادت النخاسة فيها إلى أشد مما كانت .

### دارفور :

وبقيت بلاد دارفور مستقلة خارج أملاك مصر ، حتى عرض "الزير" على الخديوى أمر فتحها عام ١٨٧٣ ، فجاز اقتراحه قبولاً ، وساعدته الحكومة المصرية في إعداد حملة ، قام بها إلى تلك البلاد ، وهزم جيش سلطانها المرة بعد المرة ، ودخل الفاشر عاصمتها ، في نوفمبر سنة ١٨٧٤ ، وانتهى الأمر بضمها إلى أملاك مصر في السودان ، منذ ذلك الحين .

وعهدت الحكومة المصرية إدارة الجهات الجنوبية من تلك البلاد إلى "الزير" مكافأة له على خدماته ، كما منحه الخديوى فيما بعد لقب باشا . ثم رأى الزير أن يحضر بنفسه إلى مصر لمقابلة الخديوى ، والاتفاق معه على خير الطرق لحكم تلك الجهات ، حتى يبقى أهلها راضين خاضعين ، فأذن له الخديوى .



وبعد أن أناب عنه ابنه "سليمان" في الحكم ، حضر الى القاهرة محملا بالهدايا ،  
ولكن اقتراحاته لم تحز قبولا لدى الحكومة المصرية ، ولهذا لم تسمح له بالعودة  
الى بلاده ، بل أبقته بالقاهرة اتقاء  
لشره اذا عاد غاضبا .



( الزير باشا )

### هرر :

وفي سنة ١٨٧٥ اشترى الحديوى  
مدينة "زيلع" وملحقاتها من تركيا ،  
نظير دفع مبلغ سنوى لها ، قدره  
١٣٣٦٥ جنيا . وقد وجه ضم هذه  
البلاد نظر الحكومة المصرية الى  
الأقاليم المجاورة ، وبالأخص  
"هرر" ، فأخذت تتعرف الطرق  
المؤدية اليها ، وتستطلع أحوالها ،  
ثم أرسلت حملة عسكرية لاحتفالها  
في سبتمبر سنة ١٨٧٥ ، فاستولت  
عليها بسهولة ، ثم أعلنت ضمها للحكومة .

### الصومال الجنوبي :

لما تم لإسماعيل توسيع أملاكه في السودان ، على النحو الذى بيناه ، دفعته  
نفسه الطموحة الى التفكير فى فتح بلاد الصومال الجنوبية ، وضم الجهات الواقعة  
على نهر "جوبا" الى مصر ، لى تمتد أملاكه من الجهات الاستوائية الى شواطئ  
المحيط الأطلسى ، ليسهل الاتصال بها ، ولهذا أعد حملة بحرية فى فبراير سنة ١٨٧٥ ،  
وأسند قيادتها الى "ماكيلوب باشا" ، فسارت هذه الحملة بطريق البحر ،  
واستولت على بلدة "براوه" ، وتركت حامية فيها ، ثم تقدمت الى "قسمايو" عند  
مصب نهر جوبا ، وحاول الجنود السير فى النهر بالقوارب ، غير أنهم لم يستطيعوا  
ذلك ، فعادوا الى قسمايو ، واتخذتها الحملة مركزا لها ، ثم أخذت تستكشف



الجهات الواقعة على النهر . غير أن الحكومة ما لبثت أن استدعت الحملة ، حتى لا تقع في نزاع مع حكومة زنجبار ، التي كانت تحت الحماية الانجليزية ، ولأن مصر كانت قد دخلت في حرب مع الحبشة حينذاك .

### الحبشة :

لما امتدت أملاك مصر في السودان الشرقى ، رأت الحكومة المصرية أن تعين الحدود بين أملاكها في تلك الجهات ، وبين أملاك الحبشة ، على أن تضم إليها بعض مقاطعات جديدة ، حتى تستطيع أن تصل الخرطوم ومصوع بخط حديدي يمر "بكسلة" و "التاكة" ، ولكن الحبشة رفضت أن تجيب مصر الى طلباتها . فجردت عليها حملة عسكرية ، بقيادة "أرنندروب بك Arendrup" عام ١٨٧٥ ، فلما بدأت الحملة أعمالها الحربية ، تفهقر النجاشى بقواته أمامها خديعة منه ، حتى يستطيع أن يفتك بها في داخلية بلاده ، واعتقد قائد الحملة المصرية أنه انما يتفهم عن ضعف ، فأرسل اليه يطلب منه الموافقة على أن يكون "خور الجاش" الحد الفاصل بين أملاك الطرفين ، ولكن النجاشى أبى أن يتنازل عن أى جزء من بلاده ، فهاجمه الجيش المصرى لا رغامه بالقوة ، غير أنه فشل أمام جيش النجاشى ، الذى كان يبلغ أضعافه في العدد ، وهزم هزيمة شتاء ، وتفهمرت فلوله الى الحدود .

وفي إبان ذلك ، كانت الأوامر قد صدرت الى "منزنجير" حاكم السودان الشرقى ، عام ١٨٧٥ ، ليخرج بجملة الى بلاد الحبشة عن طريق "غندار" ، غير أنه لم يكن أسعد حظا من زميله ، إذ هاجمته بعض القبائل في طريقه ، وفشكت بالجيش وقائده .

لم يسكت اسماعيل على هذه الهزيمة ، وعزم على الانتقام من الحبشة والفتك بجيوشها ، وأعد لهذه الغاية جيشا كبيرا ، جعل على رأسه "راتب باشا" ، وعين الجنرال "لورنج باشا" الأمريكى ، رئيس أركان حرب له ، وسرعان ما تقل الجيش ومعداته الى "مصوع" ، حيث كان منزمما الزحف على الحبشة من جهة الشرق . وفي يناير سنة ١٨٧٦ ، وصل الجيش الى "قرع" وعسكر فيها ،



وأقام الاستحكامات حولها ، ولكن ما لبث أن هاجمه جيش جرار من الأحباش يقوده النجاشي نفسه ، فقتلت شمل الجيش المصري ، ودارت الدائرة عليه ، بعد أن تكبد الطرفان خسائر جسيمة . وعلى أثر ذلك ، عقد صلح بين الدولتين ، في أبريل سنة ١٨٧٦ ، على أن تكون التجارة متبادلة بين البلدين .

### تنظيم الفتح والاستعمار :

رأى الخديوي في عام ١٨٧٧ ، أن يستعين بخدمات "غردون" في تنظيم بلاد السودان ، وكان قد اعتزل خدمة الحكومة المصرية قبل ذلك ، فعينه حاكما عاما على جميع أملاك مصر في السودان . ولما كانت هذه الأقطار شاسعة مترامية الأطراف ، وطرق المواصلات فيها عسيرة ، رأى "غردون" أن يستعين ببعض ذوي الكفاية ، ممن يثق فيهم ، حتى يعينوه في مهمته ، ولذلك قسم الأقاليم الاستوائية قسمين ، قسما سماه "مديرية خط الاستواء" ، وجعل مقره "لادو" وعين "أمين باشا" ، وهو من مشاهير المستكشفين ، حاكما عليه ، وقسما سماه "مديرية بحر الغزال" ، وأسند إدارته إلى "جسي Gessi" الإيطالي .

وقد أظهر "جسي" مقدرة فائقة في إدارة المديرية ، التي عهدت إليه شؤونها ، ويرجع إليه الفضل الأكبر في كشف مجاهلها . وقد اتبع في حكمه سياسة اللين والرفق بالأهالي حتى مالوا إليه ، وأخذ يدر بهم على الأعمال العسكرية ، ويشجعهم على استثمار موارد بلادهم ، والاشتغال بالتجارة ، غير أن هذه السياسة كانت سببا في استياء تجار الرقيق ، ولذلك عزموا على الخروج على الحكومة ، وجمعوا لهذه الغاية جيشا كبيرا ، تحت قيادة "سليمان بن الزبير" ، فوجه إليهم "غردون" جيشا تحت قيادة "جسي" ، أنزل بهم الهزيمة ، وقتل سليمان في الموقعة ، فتبدد شمل الثائرين ، وتوطدت سلطة الحكومة في تلك الجهات النائية ، واستمر غردون يعمل بجد ، للقيام بأعباء مهمته ، إلى أن استقال في أوائل حكم توفيق .

(\*) اسمه الأصلي "إدوارد شنترز Eduard Schnitzer" ، وكان طبيبا ألمانيا اشتغل بالاستكشاف في أواسط إفريقيا ، وصحب غردون إلى السودان سنة ١٨٧٧ ، فعينه بعد قليل مديرا لمديرية خط الاستواء . واعتنق الإسلام ، وأصبح يعرف باسم "أمين بك" ، ومنحه الخديوي توفيق رتبة باشا .



## الارتباك المالى والتدخل الأوربي

### ديون اسماعيل

كانت ديون اسماعيل على ثلاثة أنواع :

( ١ ) الديون الثابتة Funded Debts : وهى التى كان يقترضها من البيوتات المالية الأوربية ، نظير تقديم الضمان الكافى لسدادها ، كدخل بعض المصالح الحكومية أو الضرائب التى تجبى من بعض المديرىات .

( ٢ ) الديون السائرة Floating Debts : وهى التى كانت تبقى عليه ، عند ما كان يكل إلى شخص أو شركة القيام بمشروع من مشروعاته ، أو تقديم بعض لوازمه وحاجياته ، ولا يستطيع أن يدفع المبلغ المتفق عليه أو جزءا منه فورا .

( ٣ ) الديون الداخلية Internal Debts : وهى ديون أهلية ، كانت تقترضها الحكومة من أهالى البلاد .

### مجممل الديون :

( ١ ) بلغت الديون الثابتة فى الفترة ما بين ١٨٦٣ و ١٨٦٨ نحو ستة وعشرين مليوناً من الجنيهات ، وتكاثرت الديون السائرة الصغيرة ، إلى حد لم يستطع معه إسماعيل سدادها ، عند ما حان ميعاد دفعها ، فكان يضطر إلى تأجيل الدفع ، نظير فوائد باهظة ، أصبحت الديون بسببها ثلاثة أو أربعة أمثال المبلغ الأصيل . وقد نجم عن هذه الخطة ، ارتباك شؤن الحكومة المالية فى أواخر هذه الفترة ، حتى عجزت عن دفع مرتبات الموظفين ، واضطرت إلى جباية الضرائب قبل مواعيدها .

وبإزاء ذلك ، أقدم الباب العالى على إصدار فرمان فى سنة ١٨٦٩ ، يحرم فيه على الخديوى عقد قروض من الدول الأجنبية ، بغير استئذانه . ولكن إسماعيل تحاشى هذا القيد الثقيل ، بإقدامه على رهن إيرادات أملاكه الخاصة ، بدلا من إيرادات الحكومة .



ويلاحظ أن إسماعيل إنما عقد هذه القروض ، وحلت به هذه الديون ،  
 أكثر ما كان ينفقه من أموال ، ثم لتيامه بإصلاحات واسعة النطاق ، في هذا  
 الجزء من حكمه ، ولم يكن بخزينة الدولة من الأموال ، ما يساعد على القيام بها .  
 هذا فضلا عن المبالغ الطائلة التي أنفقها إسماعيل في سبيل الحصول على فرمان  
 ١٨٦٦ و ١٨٦٧

ومما شجعه على التوسع في الإنفاق ، والمضى في هذا السبيل ، في الفترة الأولى  
 من حكمه ، قيام الحرب الأهلية الأمريكية ، التي نجم عنها عدم تصدير القطن  
 الأمريكي إلى أسواق أوروبا ، مما أدى إلى الإقبال على القطن المصري وارتفاع  
 ثمنه ، وبالتالي ازدياد الأموال في مصر ، في يد الحكومة والأهالي على السواء .  
 ولما كان الاعتقاد السائد حينذاك ، أن هذه الحالة ستستمر أمدا طويلا ، بسط  
 إسماعيل يده في الإنفاق ، وحذا حذوه الأعيان والملوك ، وذهبوا إلى حد بعيد  
 في الإسراف ، وأقبلوا على الاستدانة . وفي سنة ١٨٦٥ وضعت الحرب أوزارها ،  
 وأخذت أسعار القطن تعود إلى ما كانت عليه قبل الحرب ، فارتبكت الحكومة  
 وارتبك الملوك ، وبدلا من أن يواجهوا الموقف بما يقتضيه من الاقتصاد ،  
 والعمل على تلافي الخطر ، اندفعوا في طريقهم ، كما استمرت الحكومة في نفس  
 الطريق ، وبدلا من أن تخفض الضرائب ، زادت قيمتها ، فأقبل الملوك على عقد  
 القروض من المُرَّين بالفوائد الباهظة ، مما أدى في النهاية إلى ضياع أملاك  
 الكثير منهم ، وارتباك الحالة المالية في البلاد .

( ٢ ) وفي سنة ١٨٧٠ ، عقد إسماعيل قرضا جديدا ، مقداره سبعة ملايين  
 من الجنيهات تقريبا بفائدة ٧٪ ، مع مصرف "Bischoffsheim" ،  
 بضمانة أملاكه الخاصة ، ولو أنه لم يتسلم من هذا المبلغ ، سوى خمسة ملايين من  
 الجنيهات فقط ، وبذلك أضحت الفائدة بواقع ١٣ ٪ تقريبا من المبلغ المدفوع .

ولما اضطر إسماعيل لعقد هذا القرض ، نظرا لحاجته الماسة إلى المال ،  
 تسيير دولاب الأعمال ، والقيام بنفقاته الشخصية ، بعد أن أنفق مبلغا طائلا  
 في الاستعداد لفتح قناة السويس في السنة التي قبلها .



(٣) ولما كان لا يزال في حاجة شديدة إلى المال بعد ذلك ، للاستمرار في تنفيذ سياسته الداخلية والخارجية ، اقترح عليه "إسماعيل باشا صديق" (وهو المعروف بالمفتش) ، وكان وزير المالية منذ سنة ١٨٦٨ ، فكرة "المقابلة" وأنشأت لها الحكومة ديوانا مخصوصا عام ١٨٧١ ، ويتلخص قانون المقابلة في أن من يدفع من الأهالي ضرائب ستة أعوام ، يعفى في مقابل ذلك من نصف الضريبة المطلوبة منه على الدوام . وله أن يدفع هذا المبلغ إما دفعة واحدة ، أو على ستة أقساط سنوية ، غير أنه في الحالة الأخيرة ، يستمر في دفع الضريبة الأصلية كاملة ، حتى يتم تسديد الأقساط . ومن الواضح أن هذه الطريقة كانت غنبا شديدا للحكومة ، التي ضحّت بهذه السياسة الآجل في سبيل العاجل . ومع كل لم تتمكن الحكومة إلا من جمع مبلغ خمسة ملايين من الجنيهات فقط ، بتنفيذ هذا القانون حتى آخر عام ١٨٧١ . وكان دفع المقابلة في بداية الأمر اختياريا ، ولكنه مالبث حتى أصبح إجباريا . وبلغ مجموع ما حصلته الحكومة من ذلك ، حوالي ١٣ ونصف مليون من الجنيهات حتى سنة ١٨٧٧ .

(٤) واشتدت حاجة إسماعيل إلى المال بالرغم من ذلك ، فلجأ إلى الاستدانة مرة أخرى ، بإصدار سندات مالية على الخزينة ، بلغت قيمة الديون السائرة بمقتضاها ١٢ مليون جنيه ، في مدى تسعة أشهر ( من أواخر ١٨٧١ إلى أواسط ١٨٧٢ ) . واشترك محل "أوبنهايم Oppenheims" في تقديم بعض هذه الديون بفائدة ١٣ ٪ .

وما كاد يتسلم هذه القروض ، حتى فكر في الذهاب إلى الاستانة ، للحصول على فرمان جديد ، يوسع سلطة والي مصر . وقد ذهب بالفعل وحصل على فرمان ١٨٧٣ ، الذي تقدم ذكره .

(٥) ولم تلبث أن حلت بالحكومة ضائقة أخرى ، فتفاوض إسماعيل مع "أوبنهايم" ، في عقد قرض يبلغ ٣٢ مليون جنيه ، لاسيما وأنه كان يفكر في إعداد حملة حربية على بلاد الحبشة . ولم يتمكن من عقد هذا القرض ، إلا في مايو سنة ١٨٧٤ ، وكان صفقة خاسرة للحكومة ، إذ أن ما تسلمته بالفعل من هذا المبلغ ، لم يتجاوز ٢٠,٠٦٢,٠٠٠ جنيه فقط ، وضاع الباقي في سبيل النفقات والخصم والسمسرة . وحتى هذا المبلغ ، لم يدفع كله نقدا للحكومة ، بل كان منه



تسعة ملايين جنيه من سندات الخزينة المصرية . وجعلت فائدة القرض ٨ ٪ ،  
وتقدر بنحو مليون ونصف جنيه سنويا . ووعد إسماعيل عند عقد هذه السلفة ،  
أن يكف عن الاقتراض مدة عامين .

( ٦ ) فلما اشتدت حاجته إلى المال جمع قرضا من الأهالي ، يعرف " بدين  
الروزنامة " ، فقد أعلنت الحكومة أن كل من يدفع لها مبلغا من المال على ألا يرد ،  
بتفاضي عنه سنويا ٩ ٪ ، وجمعت بهذه الطريقة مبلغ ٣,٤٢٠,٠٠٠ جنيه ، ولكنها  
لم تدفع ن الفوائد إلا جزءا من دفعة السنة الأولى فقط .

( ٧ ) وبالرغم من كل هذه القروض والعمليات المالية الأخرى ، لم تتحسن  
الحالة ، وما وافى عام ١٨٧٥ ، حتى وجد الخديوى نفسه فى عسر مالى شديد ،  
وأصبح لا يستطيع أن يحصل على مبالغ كافية من القروض الداخلية ، فعرض للبيع  
نصيب مصر فى أسهم قناة السويس ، وكانت تبلغ ١٧٦,٦٠٢ سهم (\*) ، فبادر  
" دزرائيلى Disraeli " رئيس وزراء إنجلترا إذ ذاك ، واشترى الأسهم باسم  
حكومته فى أثناء عطلة البرلمان ، وقد كان لهذا الحادث دوى شديد فى الدوائر  
السياسية .

وقد كان لهذه الخطوة نتائجها المالية والسياسية ، أما المالية ، فلأن الأسهم  
بيعت بثمان بنجس ، لا يكاد يبلغ أربعة ملايين من الجنيهات ( ٣,٩٧٦,٥٨٢ جنيه ) ،  
فضلا عن أن الخديوى تعهد بدفع ٥ ٪ فوائد سنوية لهذا المبلغ ، حتى أول  
يوليه سنة ١٨٩٤ ، لأنه كان قد رهن أرباح الأسهم حتى ذلك التاريخ ، ففسدت  
مصر بذلك أسهمها وأرباحها وأموالها . وقد بلغت قيمة هذه الأسهم حوالى  
فلان مليون جنيه عام ١٩١٥

وأما السياسية ، فلأن شراء هذه الأسهم ، جعل لإنجلترا مصالح مالية كبيرة  
فى القناة ، بعد أن كانت مصالحها فيها قبل ذلك سياسية فقط . فهذه المصلحة  
المزدوجة ، أخذت تدفع بإنجلترا أكثر من قبل للتدخل الفعلى فى شؤون مصر .  
ولما كانت مصلحة فرنسا مالية فقط ، أخذت كفة إنجلترا فى الرجحان ، وقام  
بين السياستين تنافس شديد ، انتهى بتغلب السياسة الإنجليزية .

(\*) كان عددها فى الأصل ١٧٧,٦٤ كما أسلفنا ، باعت منها الحكومة قبل ذلك ١٠٤٠  
سهما فأصبح الباقي لدى مصر وقتئذ ١٧٦,٦٠٢ فقط .



## البعثات المالية وانهاء حكم اسماعيل

### بعثة كيف (CAVE) :

كان من جراء هذه الديون الكثيرة ، وفوائدها الباهظة ، وعدم وجود أموال مدخرة في البلاد ، أن ارتبكت الحالة المالية ، غير أنها تعقدت وزاد ارتباكها حوالى عام ١٨٧٥ ، فلجأ اسماعيل إلى الحكومة الانجليزية ، يستعين بها فى إمداده بموظفين انجليزيين ، يكون لها إلمام بالشؤون المالية ، ليساعدها على إصلاح مالية مصر ، ولكن شراء انجلترا لأسهم مصر فى القناة فى هذا الظرف ، جعل اهتمامها يزداد بشأن مصر ، فاتهزت هذه الفرصة ، لتدخل تدخلا صريحا فى شؤونها الداخلية ، ولهذا بعثت تخبر الخديوى ، أنها سترسل لجنة انجليزية لفحص الحالة فى مصر ، وأنها قد أسندت رياستها إلى "كيف" . وأذن اسماعيل لرغبة انجلترا ، ولذلك يعتبر عام ١٨٧٦ ، وهو العام الذى باشر فيه "كيف" مهمته فى مصر ، بدء التدخل الفعلى الأجنبى فى البلاد ، كما تعتبر هذه البعثة أول حلقة من سلسلة البعثات والجانج ، التى كانت ترمى بأبحاثها وتقاريرها ، إلى وضع الإدارة المصرية تدريجيا تحت المراقبة لأوربية ، كشرط أساسى للإصلاح فكانت النتيجة أن حدث احتكاك بين الخديوى و"كيف" ، أدى إلى سرعة عودة اللجنة إلى أوربا ، حيث وضع "كيف" تقريره الشهير عن حالة مصر التى شاهدها ، وفيه قدم بعض الاقتراحات لإصلاح الأمور ، غير أن الخديوى لم يعمل بها .

وكانت هذه الاقتراحات ، ترمى إلى توحيد جميع الديون المصرية ، على أساس فائدة معقولة تتمشى مع حالة البلاد ، وتأجيل دفع الكوبونات المستحقة الدفع ، بالنسبة لحالة البلاد المالية السيئة . واقترح فى النهاية وضع الإدارة تحت رقابة السير "رفرس ولسن Sir Rivers Wilson" ، أحد رؤساء المالية الانجليزية ، وقد كان فى طريقه الى مصر . غير أن هذا الاقتراح الأخير أزعج اسماعيل ، لأن فيه تعديا صريحا على سلطته ، ولذلك عارض فيه اشد المعارضة .



## صندوق الدين العمومي :

غادر "كيف" البلاد في أول فبراير سنة ١٨٧٦ ، وكان إسماعيل قد أقبل على الفرنسيين ، يفاوضهم للوصول إلى طريقة مرضية ، يخرج بها من هذا المأزق ، وأسفرت المفاوضات عن فكرة تقضى بتأليف لجنة خاصة بالدين العمومي وحده ، تعين أعضاؤها حكومات مختلفة ، وتكون مهمتها تسلم الإيرادات ، التي تخصص لدفع الكوبونات ، كما أنها تقضى بتوحيد جميع الديون المصرية ، سائرة وثابتة ، بشروط خاصة ، على أن تقدم الحكومة المصرية ضمانا لها بعض موارد دخلها . ولكن هذا المشروع لم يحز قبولا لدى الانجليز ، ولذلك أخذوا يعملون على إرهاب إسماعيل ، ليصرفوه عنه ، كما أنهم أخذوا يشوهون سمعته المالية .

وكان هذا التلاعب السياسي سببا في نقمة الخديوى على الحكومة الانجليزية ، التي علق على خطتها هذه بقوله : "لقد احتفروا لى قبرى !" . ودفعه هذا المسلك من جانب ساستها ، إلى قبول المشروع الفرنسي ، ففي ٢ مايو سنة ١٨٧٦ ، أصدر أمرا بإنشاء لجنة يقال لها "صندوق الدين" ، تعين أعضاؤها بعض الدول الأوربية ، وتصبح مهمتها إدارة شؤون الديون المصرية ، فتعمل على دفع الفوائد في مواعيدها ، كما تعمل على تنظيم تسديدها . وفي ٧ مايو أصدر أمرا آخر ، بتوحيد جميع الديون المصرية ، وجعلها دينيا واحدا ، قدره ٩١ مليون جنيه ، وربحه ٧٪ ، وينتهى تسديده في ٦٥ سنة . وقد وافقت الدول على ذلك إلا انجلترا ، فإنها أصرت على معارضتها للمشروع ، وأبت إرسال مندوب يمثلها في صندوق الدين ، لأنها رأت أن هذه الطريقة مجحفة بحقوق رعاياها ، إذ كان معظم الدائنين من الانجليز ، يحملون سندات مضمونة بموارد ثابتة ، في حين أن معظم أموال الآخرين كانت ديونا سائرة .

## بعثة جوشن — جويير (Goschen-Joubert) :

أثار هذا العمل ضجة وقلقا في سوق سندات لندن ، وأخذ حملة السندات المصرية يحتجون على مسلك الخديوى ، وعلى سياسة الحكومة البريطانية ، التي أفلت الموقف من يدها ، فما كان من الحكومة أمام هذه الحملات الشديدة ، إلا أن رأت أن تسوى الأمور مع فرنسا ، حتى تستطيع أن تعمل على حفظ مصالح



الدائنين من رعاياها ، وانتدبت لهذه المهمة المستر "جوشن" (الورد فيما بعد) ،  
الذى كان وزيرا سابقا وعضوا في البرلمان ، وشريكا في أحد المصارف ،  
التي أقرضت إسماعيل ديونه الأولى .

وبدأ جوشن أعماله بالسفر إلى باريس عدة مرات ، قام في خلالها بمفاوضات  
طويلة مع الدائنين الفرنسيين . وقد كللت أعماله بالنجاح آخر الأمر ، إذ قبل  
الفرنسيون التزول عن مشروعهم ، وقبلوا آخر ، فيه توفيق بين مطالب الفريقين .  
ثم اتفقت الآراء على إرسال بعثة جديدة ، يكون على رأسها "جوشن" ، ممثلا  
للدائنين الانجليز ، "وجوير" ، ممثلا للدائنين الفرنسيين ، لتصفية الموقف ،  
 ووضع قواعد المراقبة الثنائية Condominium . وفي خلال ذلك ، كان الحدوى  
يفكر في الاقتداء بتركيا ، ويعلن إفلاس الحكومة المصرية ، غير أنه لم يستطع  
ذلك أمام اتفاق الدولتين ، لأنه كان يجد خلاصه حتى هذه الساعة ، في التنافس  
بين الدائنين الانجليز والفرنسيين ، والآن وقد اتفق الفريقان ، أصبح من المتعذر  
عليه المقاومة طويلا .

### أهم نتائج البعثة

#### النتائج المالية :

( ١ ) إيجاد دين ممتاز ، مقداره ١٧ مليون جنيه بفائدة ٥ ٪ ، ويكون ذلك  
قيمة سندات جديدة ، يصرف ثمنها في تسديد الديون السائرة . وترغيبا في شرائها ،  
جعل دخل السكك الحديدية وميناء الإسكندرية ضامنا لسدادها .

( ٢ ) اعتبار الديون ، التي اقترضت سنة ١٨٦٤ و ١٨٦٥ و ١٨٦٧ ، ديناً قائماً  
بذاته ، ويسدد من أقساط المقابلة .

( ٣ ) إنقاص الدين الموحد إلى ٥٩ مليوناً ، بفائدة ٦ ٪ ، وتسديد ١ ٪  
من أصله سنوياً .



### النتائج السياسية :

وتتلخص هذه في "النظام الثنائي"، الذي أصبح لـ إنجلترا وفرنسا الحق بمقتضاه أن تشارك في إدارة مصر. وقد صدر بذلك مرسوم ، في ١٨ نوفمبر سنة ١٨٧٦ وهو يقضى بالنظام الآتي :

( ١ ) تعيين مراقبين عامين للمالية المصرية ، أحدهما انجليزي لمراقبة دخل الحكومة ، والآخر فرنسي لمراقبة مصروفاتها . ويشترك الاثنان في إعداد الميزانية ، دون أن يكون لهما حق التدخل في أعمال النظار . وأعطى الخديوى حق تعيينهما وعزلهما .

( ٢ ) تعيين مندوبين أجانب لصندوق الدين العمومي ، بموافقة الحكومة المصرية ، وتكون مهمتهم تسلم إيرادات الجهات المرهونة ، وعمل الترتيب اللازم لاستهلاك الديون المصرية تدريجاً .

( ٣ ) تعيين خمسة مندوبين ، لإدارة مصاعق السكك الحديدية وميناء الإسكندرية ، وتسليم إيرادتهما الى مندوبي صندوق الدين .

ولما تم الترتيب على الوجه السابق ، عينت كل من فرنسا وإنجلترا والنمسا وإيطاليا مندوبيهما ، واختارت إنجلترا الميجر " بيرنج Major Baring " ( وهو اللورد كرومر فيما بعد ) مندوباً عنها في صندوق الدين ، فوصل الى مصر في ٢ مارس سنة ١٨٧٧

### عيوب هذا النظام :

قام هذا النظام الثنائي على قواعد متداعية من الوجهتين السياسية والمالية . أما من الوجهة السياسية ، فنلاحظ أنه قام على غير رغبة صادقة من إنجلترا ، لأنه قام على قاعدة المساواة بين الدولتين ، ولذلك عملت على هدمه ، حتى تجد فرصة تتمكنها من أن يكون لها النفوذ الأول أو كل النفوذ في مصر .

وأما من الوجهة المالية ، فلم يكن من المتوقع نجاحه ، لأن نسبة فوائد الديون كانت لا تزال عالية ، وكان من الواجب إقناع حملة السندات بقبول



فوائد معقولة ، تناسب مع حالة البلاد المالية ، كأن تكون بنسبة ٥ ٪ مثلا . وهذا ما كان يراه الخديوى ووزير ماليته "اسماعيل المفتش" ، الذى قتل فى أثناء وجود البشة بمصر ، ولم يكن على وئام مع المستر جوشن ، كما أنه كان من الضرورى تأجيل دفع الكوبون ، حتى تكون لدى الأهالى فرصة ، لإنعاش حالهم وتنمية موارد ثروتهم .

### لجنة التحقيق (أو ديوان التحقيق) :

ارتبكت الأمور ، وساءت حالة البلاد فى ظل النظام الثنائى ، وظهر للعيان أن اتفاق سنة ١٨٧٦ ، بشأن تسديد الدين ، كان شديد الشروط ، لا يتناسب مع حالة البلاد ، فاضطر أعضاء صندوق الدين أن يطلبوا الى الخديوى ، أن يأمر بتشكيل لجنة تقوم بفحص شؤون البلاد المالية ، من جمع وجوهها خصوصا شاملا ، عليها تستطيع أن تقف ، على أسباب العجز فى دخل الحكومة ، وتعمل على إزالتها ، فرفض الخديوى فى بداية الأمر تشكيل لجنة ، تكون لما كل هذه الحقوق الواسعة ، ولكنه قبل فى النهاية أمام إصرار الدول ، التى عاضدت طلبات لجنة صندوق الدين ، وأمر بتشكيل "لجنة التحقيق" فى ٤ أبريل سنة ١٨٧٨ ، ومنحها الحق المطلق فى جميع تصرفاتها ، من بحث وتحقيق . وعين "ديلبس" رئيسا لها ، والسير "رفرس ولسن" ورياض باشا وكيلين . ولكن ديلبس ترك مصر بعد ذلك بقليل ، وأصبح رئيسها الفعلى السير "رفرس ولسن" ، ولهذا تعرف هذه اللجنة أحيانا باسم "بعثة رفرس ولسن" .

باشرت اللجنة أعمالها بجد ونشاط ، وأخذت تفحص كل شئ يختص بالمالية المصرية ، فدرست أنظمة البلاد الحكومية ، ووقفت على أنواع الديون وأصلها ، وأخذت أعضاؤها يطوفون الأقاليم ، ويتجيبون الى الأهالى وينصتون الى شكواهم ، واستمروا فى عملهم بهمة ، حتى وقفوا على موضع النقص وسبب الارتباك فى المالية . ومن أهم العيوب التى كشفوها ، كثرة نفقات الخديوى الشخصية ، وعدم وجود حد فاصل ، بين ما هو مطلوب من الحكومة وما هو مطلوب من الأسرة الخديوية ، ثم نهب المتعهدين الأجانب ، بتقاضى أجور باهظة عن الأعمال التى يقومون بها ، فضلا عن أن أصحاب البيوت المالية ، كانوا يفرضونه



الأموال بفوائد جسيمة ، لا يقبلها العقل . ورأت اللجنة من جهة أخرى ، أن الفلاحين مرهقون بالضرائب إلى حد كبير ، وأن الحكومة حصلت منهم على أموال ، بمقتضى المقابلة وغيرها ، بشروط يستحيل العمل بها ، وأن من بين الدائنين عددا كبيرا من الجهارين والحمالين والحلاقين ومن شاكلهم ، وليس لدى الكثير منهم من الحجج القوية ما يثبت به دعواه .

استطاعت اللجنة أن تقف على كل هذه العيوب ، وأخذت تفكر في إزالتها ، غير أنها رأت ، أنه لا يمكن أن يقوم الإصلاح المنشود ، إلا على أساس ذى ركنين ، هما تنازل الخديوى عن جميع أملاكه للحكومة ، نظير راتب سنوى معقول ، ثم تنازله كذلك عن سلطته المطلقة ، بأن يشرك معه فى الحكم وزراء مسئولين . ورأت اللجنة ، أنه بعد قبول هذين الطلبين ، يمكن العمل باقتراحات أخرى ، تقضى على العيوب التى صادقتها ، فاقترحت وجوب دفع مرتبات موظفى الحكومة قبل كل شئ ، لأنه يتوقف عليهم حسن سير الإدارة وكذلك معاملة جمهور الفلاحين بالرفقة ، وإيجاد نظام تشريعى للضرائب ، يكفل راحتهم ، ويؤمنهم على أموالهم ، فكثيرا ما اضطر الفلاحون إلى بيع مواشيهم وحاصلاتهم وأرضهم بأبخس الأثمان ، لتسديد هذه الديون وفوائدها . وصيانة لمصالح جمهور الأمة ، اقترحت اللجنة إنشاء محاكم نظامية للتقاضى أمامها .

### الوزارة المسؤولة .

وفى شهر أغسطس سنة ١٨٧٨ ، رفعت اللجنة تقريرها إلى الخديوى ، وبعد أن درس مطالبها ، عزم على إجابتها ، وعهد إلى "نوبار" تشكيل وزارة مسؤولة بكتابه المؤرخ ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٨ ، ومما جاء فيه :

• "إنى أريد أن أؤكد لك أنى وطدت العزم على التوفيق بين القواعد الإدارية فى مصر ، والمبادئ التى تقوم عليها الإدارات فى أوربا ، وأريد أن تحل مكان السلطة الشخصية ، التى هى مبدأ حكومة مصر الحالى ، سلطة أخرى تتولى إدارة الشؤون العامة ، ولكنها تجد نقطة توازنها فى مجلس الوزراء . وعلى ذلك أريد من الآن فصاعدا أن أقوم بشؤون الحكم فى مجلس وزارتى بواسطته ،



فكل أعضاء الوزارة يجب أن يكونوا متضامنين معا ، وإن يتوا في الأمور بأغلبية الأصوات بينهم .

فرسوم ٢٨ أغسطس له أهميته الدستورية في تاريخ مصر الحديث ، لأنه وضع قاعدة الحكم في مصر ، فبعد أن كان تعيين الموظفين بيد الخديوى ، أصبح منذ ذلك التاريخ بيد مجلس الوزراء ، وبعد أن كان كل وزير أو رئيس مصلحة مسئولاً أمام الخديوى ، أصبح الوزراء متضامنين في العمل ، والوزارة كلها مسئولة أمام مجلس شورى النواب .

وفي الوزارة الجديدة ، أصبح للا وربيين وزيران ، فتعين السير "رفرس ولسن" وزيرا للمالية ، ومسيو "دى بلنيير de Blignières" وزيرا للأشغال العمومية . وتقرر إلغاء المراقبة الشائبة ، وبذلك حققت إنجلترا رغبتها في مصر ، بأن أصبح لها التفوذ الأول في الوزارة الجديدة ، بتعيين "ولسن" في المالية .

وبهذه الطريقة ، سلب إسماعيل كل سلطة في إدارة شؤون بلاده ، كما سلبت الأسرة الخديوية معظم أملاكها ، ففي أكتوبر سنة ١٨٧٨ ، أصدر الخديوى أمراً بالتزول عن معظم أملاك أسرته للحكومة ، وجعلت هذه الأملاك ، وهي "الدومين" ، ضمانة لدين جديد مقداره ٨ ونصف مليون جنيه ، رأت اللجنة اقراضه ، لاستخدامه في القيام ببعض المشروعات الضرورية النافعة ، وتسديد بعض الديون الثابتة . ويعرف هذا الدين الجديد بدين "روتشيلد Rotschild" ، الذى أتمت الحكومة تسديده سنة ١٩١٣ ، وبذلك ألغيت مصلحة الدومين ، وأصبحت هذه الأملاك ضمن أملاك الحكومة العادية .

### الوزارة المسئولة وقوى المعارضة :

انشرأت الأعناق فنظر إلى عمل الوزارة الجديدة ، وما منت به الناس من خير عيم ، وأخذت تتوقع على يدها حالة جديدة . ولكنها لم تحقق آمال الشعب فيها ، ومضت أيام وأسابيع كات حالة البلاد فيها سيئة ، فبدأ الناس يتذمرون ، وأخذوا يبدون شعورهم على صفحات الصحف ، التى كانت آخذة في الانتشار في تلك الفترة . وفي شهر ديسمبر سنة ١٨٧٨ ، ظهرت فكرة ترمى إلى تنظيم



مجلس النواب القديم ، على أن يكون واسع السلطة ، حتى تكون الوزارة مسئولة أمامه . وقد وقف الخديوى موقف البطل من أمته ، وأخذ يشجع هذه الحركة الدستورية سرا ، حتى يقضى على نفوذ الدخلاء فى بلاده .

وكان من نتيجة هذه الحملة ، أن أجابت الوزارة طلب الزعماء ، واجتمع المجلس بالقلعة فى ٢ يناير سنة ١٨٧٩ ، ومنذ ذلك التاريخ ، اشترك المجلس اشتراكا فعليا فى الحركة الدستورية والقومية ، وأصبح على رأس المعارضة لوزارة "ولسن - نوبار" ، التى لم تفتأ تضغط على الأهالى ، وتلجأ إلى الطرق الاستبدادية فى معاملتهم .

### ثورة الضباط :

ولسوء حظ الوزارة ، أنها لجأت إلى خطة كانت القاضية عليها فى النهاية ، وذلك أنها قررت فصل ٢٥٠٠ ضابط من ضباط الجيش ، جريا وراء الاقتصاد ، دون أن تدفع لهم المتأخر من رواتبهم ، فثارت نائرة الضباط لهذا الحادث ، وقاموا بمظاهرة فى ١٨ فبراير سنة ١٨٧٩ ، أمام وزارة المالية ، حيث حاصروا "نوبار وولسن" ، بعد أن صبوا عليهم جام غضبهم بالضرب واللكم . واستمرت الفتنة وساد الهياج ، إلى أن جاء الخديوى بنفسه ، وأعاد السكينة إلى مجراها الطبيعى .

وكان اسماعيل يكره "نوبار" ، بعد ما أيقن أنه يعمل على سلب السلطة منه ، وتوطيد نفوذ إنجلترا فى مصر ، فاتهمه فرصة هذه الفتنة ، وأعلن مندوبى إنجلترا وفرنسا ، أنه لا يعد نفسه مسئولا عن النظام والسكينة فى البلاد ، إلا إذا كان فى يده شئ من السلطة ، وكان له الحق فى انتخاب رئيس وزارة يثق به ، أو يسمح له برئاسة مجلس الوزراء . وصرح أنه يرفض أى اتفاق ، إذا لم ينسحب نوبار من الوزارة ، فاضطر نوبار أن يقدم استقالته ، وعقد ولسن قرضا ، قدره ٤٠٠,٠٠٠ جنيه ، من بيت "روتشيلد" ، لدفع ما كان متأخرا من رواتب ضباط الجيش ، دون أن يلحق أى واحد من الثائرين أذى . وبذلك وقف الجيش على جوهر قوته ، وأيقن أنه يستطيع أن ينال أى مطالب يريد ، بنفس هذه الطريقة ، وأصبح منذ ذلك التاريخ ، إحدى قوى المعارضة ، التى يعتمد بها ، فشد أزر المجلس .



وبعد مفاوضات طويلة ، تم الاتفاق على تعيين "الأمير توفيق" ولى العهد رئيسا للوزارة الجديدة ، على ألا يحضر الخديوى جلسات مجلس الوزراء ، وعلى أن يمنح الوزيران الأوربيان الحق ، فى إيقاف تنفيذ أى قرار من قرارات المجلس .

### ازدياد المعارضة :

لم تكن الوزارة الجديدة تباشر أعمالها ، حتى واجهتها صعوبة ، نارت ثائرة الرأى العام للحل ، الذى اقترحه وزير المالية الإنجليزى ، للتغلب عليها ، فقد اقترح عمل تصفية هائية ، وإلغاء المقابلة ، ومعنى ذلك أن يخسر الأهالى مبلغا كبيرا من المال ، كان ديننا لهم على الحكومة ، كما اقترح تأجيل دفع المطلوب فى أول أبريل ، وانقاص فوائد الدين إلى ٥ ٪ .

كانت خطة ولسن هذه مثيرة لخواطر المصريين ، وجعلتهم يوقنون أن الإدارة الأوربية ، عجزت عن القيام بالإصلاح المطلوب . وبإزاء هذا ، قام فريق كبير من أغنياء المصريين ، وأخذوا ينظمون فيما بينهم ضمانة ، يتقدمون بها إلى الدائنين ، ويتعهدون بدفع فوائد الديون فى الأونات المقررة ، وحسب قيمتها الأصلية ، على أن تكف الأصابع الأوربية عن التدخل فى إدارة البلاد ، وثار مجلس النواب على الحكومة ، يبنى توسيع سلطته ، حتى يكون لرأيه وزن فى حوادث البلاد السياسية والمالية ، وسرت فى البلاد روح دستورية قوية ، كان زعيمها فى المجلس "عبد السلام المويلحى" ، وزعيمها فى مصر "شريف باشا" ، واستمر المجلس رافعا لواء الحركة الوطنية ، يدافع عن مصالح البلاد ، بكل ما أوتى من قوة .

ولما رأى الخديوى قوة المعارضة ، انضم إليها علانية ، وفى ١٥ أبريل ، أعلن أنه موافق على خطتها ، وأكد للجميع "أنه يرفض كل فكرة تريد العودة إلى نظام الحكومة الشخصية ، ويطلب من أوربا أوسع رقابة ممكنة على الإدارة المالية ، وهو يريد أن يحكم بواسطة ومع مجلس وزراء ، مسئول حقا أمام مجلس النواب" . فاستطاع الخديوى ، سياسة الاتفاق مع الزعماء المصريين ،



أن يعمل على التخلص من تسيطر الأجانب السياسى ، ففي ٧ أبريل قدم الأمير توفيق استقالته من رئاسة الوزارة ، وعين الخديوى "شريف باشا" (\*) مكانه .

### وزارة شريف :

كانت الوزارة الجديدة وزارة وطنية بحتة ، كل أعضائها من المصريين ، وقد وضعت نصب عينها خطة إصلاح واسعة ، غير أن الدول الأوروبية ، التي ساءها عزل الوزيرين الأوربيين ، ناصبتها العداء من أول الأمر ، وفي ١٠ أبريل ، رفع أعضاء لجنة التحقيق استقالتهم ، قبلها الخديوى ، وما لبثت اللجنة أن نشرت تقريرها ، وينص على أن الحكومة المصرية في حالة إفلاس ، من أبريل سنة ١٨٧٦ ، ويتضمن عدة اقتراحات لتلافي سوء الحالة .



(شريف باشا)

واستمرت إنجلترا وفرنسا تصران على طلب إرجاع الوزيرين ، فعرض عليهما شريف إعادة "المراقبة الثنائية" ، ولكنهما رفضا . فلما رأى منهما هذا الإصرار ، أرسل الى قنصليهما مذكرة في ٧ مايو ، عدد فيها المساوى والأغلاط ، التي حدثت في عهد الوزارة الأوربية ، من ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٨ الى ٧ أبريل سنة ١٨٧٩ ، وختمها بقوله ،

(\*) من أصل شركى ، ولد بالقاهرة عام ١٨٢٦ ، وكان أبوه صديق محمد على ، وترك له أمر تربية ابنه وتعليمه ، فنال قسما وافرا من العلوم العسكرية ، والتحق بالجيش المصرى في أيام عباس برتبة يوزباشى ، وارتقى عدة مرات في عهد سعيد حتى وصل إلى رتبة فريق . وفي عام ١٨٥٦ تزوج من كريمة سليمان باشا الفرنساوى . وفي أواخر عهد سعيد ، وكلت إليه شؤون الخارجية المصرية ، ومن ذلك الوقت أصبح شريف واضح الأثر في صفحات تاريخ مصر الحديث ، حتى وافته منيته



إن الوزارة "مصممة على بذل أقصى الجهد في تحسين أحوال البلاد ، وإن التجارب قد دلت على أن وجود العنصر الأجنبي في وزارة مصرية لا يتفق والشعور الوطني بحال من الأحوال ، ويعد سابقة من أخطر السوابق لا يصح الرجوع إليها .

وبالرغم من معارضة أوربا وسياستها العدائية ، استمرت وزارة شريف في تنفيذ خططها الإصلاحية ، فزادت من عدد الجيش ، حتى بلغ ستين ألف جندي ، وأخذت تعد مشروع دستور جديد ، يجعل مجلس النواب آلة نافعة للإصلاح ، ودعت المجلس إلى الانعقاد في شهر مايو ، واجتمع فعلا في ١٧ منه ، واخذ ينظر في مشروع الدستور ، وقانون الانتخاب الجديد ، ووضع فوق ذلك اقتراحات دستورية هامة ، ثم قدمت كلها إلى الوزارة ، لتقوم بعرضها على الخديوي للتصديق عليها .

ولكن سياسة إهمال مطالب الدول ، التي سار عليها الخديوي ، ومحاولته حل المسألة المالية دون استشارتها ، زادت في استيائها . ولم يلبث أن ظهر في الميدان عامل جديد ، هو اهتمام الحكومة الألمانية بالأمر ، ولم تكن قبل ذلك تهتم كثيرا بالشؤون المصرية ، فقد ظهر "بسمرك" ، وهدد الحكومتين الإنجليزية والفرنسية ، بعزم ألمانيا على التدخل الفعلي ، إذا لم تقضيا في المسألة بحل حاسم . وقد كان لهذا التهديد أثره المطلوب ، إذ تحركت الدولتان للنظر في الموضوع بصفة قاطعة ، واجتمع الرأي على استحالة القيام بعمل أية تسوية مالية في مصر ، لضمان حقوق الدائنين الأجانب ، ما دام اسماعيل جالسا على العرش .

لذلك قرأى الدول على وجوب عزله ، وعرضت عليه أولا أن يستقيل ، فأبى وأحال الأمر إلى الآستانة ، وهناك استعملت الدول نفوذها لدى السلطان ، حتى نجحت في غرضها ، وفي ٢٦ يونيه سنة ١٨٧٩ ، وصل نبال برقي إلى مصر ، بعزله وتولية ابنه الأكبر توفيق مكانه . أما اسماعيل فأذعن لحكم القدر ، وغادر مصر في ٣٠ يونيه ، وأبحر من الإسكندرية في سفينة "المحروسة" ، قاصدا نابلي بإيطاليا ، وهناك أقام زمنا حاول فيه عبثا استرداد عرشه . وفي سنة ١٨٨٧ قصد الآستانة وأقام فيها ، حتى أدركته منيته في مارس سنة ١٨٩٥ . وبعد أسبوع من وفاته نقلت جثته إلى الإسكندرية ، ومنها إلى القاهرة ، حيث أودعت مقرها الأخير باحتفال مهيب ، يليق بذكرى صاحبها العظيم .



## نشوء الرأي العام والحركة الدستورية في مصر

### تمهيد :

بدأ الشعب في مصر يتحرك للحوادث ، في أيام الحملة الفرنسية وما بعدها ، حتى ولى محمد على حكم مصر ، فاستعان بالزعماء ردحا من الزمن ، ثم ما لبث أن تخلص منهم ، وقضى على كل سلطة للشعب ، وأصبح الحاكم المطلق في البلاد ، لا يجرأ أحد على معارضته . وظل الشعب راضيا لإرادة حكامه طيلة حكم محمد على الكبير ، ثم في أيام حفيده عباس الأول . ولما كانت أيام سعيد ، قام الولاى بعدة إصلاحات ، راعى فيها مصلحة رعاياه ، وعمل على ترقية حالهم وإزالة أسباب شكواهم ، فبدأوا يعيشون في سكون وهدوء .

ولم يلبث أن انتهى هذا العصر ، وبدخول البلاد تحت سيطرة اسماعيل العظيم ، ظهرت فيها روح جديدة ، روح انقلابات خطيرة وتطورات جسيمة ، شملت جميع مناحى الحياة ، اقتصادية وسياسية ، واجتماعية وعلمية . فقد رأينا أن عصر اسماعيل كان عصر إصلاحات واسعة ، عصر فتوحات وحروب ، عصر نضال مع البيوت المالية وأصحاب الديون . وكان كذلك عصر تطور في الحياة الفكرية والاجتماعية والنيابية ، عصر انقلاب في الشؤون الاقتصادية والسياسية ، عصر تغيير في الأنظمة القضائية والإدارية ، عصر تقدم في الحياة العلمية والعمرانية ، وكان فوق ذلك عصر تحطيم لمعظم أغلال التبعية العثمانية ، عصر كفاح بين العنصر المصرى في الجيش والعناصر التركية والشركية ، عصر تطاحن مع السياسة الاستعمارية .

هذه هي مميزات عصر اسماعيل ، التي جعلته عصرا ممتازا في تاريخ مصر الحديث ، عصرا يختلف اختلافا بينا عن عصور أسلافه . فهذا التطاحن والكفاح ، وذلك التطور والتقدم ، وتلك الفتوحات والإصلاحات ، كان لها بلا شك أكبر الأثر في تفتيق الأذهان وتنبيه العقول ، حتى بدأ أفراد الشعب يفتحون العيون ، ويتبعون مجرى الحوادث وتطوراتها ، فبدأوا يظهرون الارتياح إذا نالهم خير ، ويسدون الألم إذا أصابهم شر . ولم ينته هذا العصر ، قبل أن شهد عددا من الضباط المصريين في الجيش ،



قد غضبوا لما لحقهم من غبن ، وقاموا بثورة يطلبون دفع ذلك الحيف ، وقيل أن  
شهد ممثلي الأمة من جميع الطبقات ، وقد نزلوا ميدان السياسة ، يناصرون حاكم  
البلاد الشرعى ضد التدخل الأجنبي . وهكذا أصبح الشعب يرى ويتأمل ، ويفرح  
ويتألم ، ويحس ويتحرك .

### العوامل التى ساعدت على نمو الرأى العام والحركة الدستورية

فى عام ١٨٦٦ افتتح اسماعيل أول مجلس نيابى فى مصر ، وعلى ذلك يعتبر هذا  
العام مبدأ الحياة الدستورية فى البلاد . وفى عام ١٨٦٩ حدثت مسألتان تستوقفان  
النظر ، ونستطيع منهما أن نقول إن الرأى العام فى مصر بدأ يتكون حوالى ذلك  
الوقت ، لأن الشعب بدأ يحس ، ويظهر ذلك الإحساس ، فقد تمرد بعض جنود  
الجيش فى تلك السنة ، لسوء معاملة بعض السلطات لهم . وكذلك بدأ الفلاح المصرى  
يظهر شعوره لغيره ، بعد أن كان لا يجهر لأحد برأى ، عما يدور حوله . وقد ظهر  
ذلك فى بعض الصحف ، التى كانت تصدر فى تلك السنة .

وفى الفترة ما بين ١٨٦٩ و ١٨٧٧ ، وقعت حوادث وجدت أمور ، كانت من  
أهم العوامل التى ساعدت على نمو الرأى العام وتقويته ، وتطور الحركة الدستورية  
وتغذيتها ، وإليك أهمها :

#### ١ — الأزمة التركية المصرية :

فى عام ١٨٦٩ وقع نزاع بين الخديوى والسلطان ، مما دفع الباب العالى إلى  
التشهير بأعمال الخديوى أمام رعاياه ، حتى يجعله موضع كراهيتهم ، ففتح هذا النزاع  
عيون الجمهور ، إلى ما كان يجرى حوله من أمور ، وأخذ يتتبع مجرى الحوادث  
ونتايجها .

#### ٢ — الارتباك المالى :

إن الارتباك المالى الذى حل بالبلاد ، بعد سنة ١٨٦٩ ، وما كان له من أثر  
فى طريقة جباية الأموال من الفلاحين ، وعقد القروض الأهلية والأجنبية ، فتح  
العيون وحرك إحساس الجماهير ، فأخذوا يهتمون بالحوادث ، ويتحدثون بما يحد  
من أمور



### ٣ — تدمير الطبقات المتنورة :

كانت الطبقات المتنورة من الشعب ، تتألم من حرمانها من الوظائف العالية في الإدارة والجيش ، بعد أن تمتعت بهذه الوظائف في أيام سعيد ، وقد ساء لها وقوع هذه الوظائف في يد الأتراك والأجانب ، الذين كانوا يتنازعون السلطة والسيادة ، بشكل أدى إلى كوارث مالية وحربية . هذا إلى أن العنصر المصرى في الجيش ، كان شديد الاستياء من سوء معاملة رؤسائه من الأتراك والشركس ، وبالأخص منذ حملة الحبشة عام ١٨٧٦ ، فانهم كانوا يحكمون على المصريين بأحكام قاسية ، ومن بينها حكم الإعدام ، لأوهى الأسباب .

### ٤ — التدخل الأجنبي :

أخذ المصريون عامة يشعرون بثقل وطأة التدخل الأجنبي ، وبالأخص منذ عام ١٨٧٦ ، وما جره على البلاد من مشاكل متعددة .

### ٥ — الحركة الفكرية :

وأهم العوامل أثرا في إيقاظ العقول ، ونمو الرأي العام في البلاد ، تلك النهضة الفكرية التي ظهرت في أواسط عهد إسماعيل ، وكان زعيمها الأكبر "جمال الدين الأفغانى" ، والمشجع الأعظم على اطراد نموها الخديوى نفسه .

### ٦ — الصحافة الحرة :

وكان ظهور الصحافة الحرة ، في تلك الفترة ، من أكبر العوامل التي ساعدت "جمال الدين" على غرس آرائه وبت أفكاره ، فقد ساعدت هذه الصحف على تنوير الأذهان ، وقيام النهضة الفكرية في البلاد ، ومن ثم كان لها نصيب وافر في تغذية الحركة الدستورية ، وفي تكوين الرأي العام ، الذي أصبح قوة يعتد بها في حوادث البلاد السياسية والمالية ، في أواخر حكم إسماعيل .

### ٧ — النظم الدستورية :

لقد ساعد وجود مجلس نواب ١٨٦٦ ، على ما كان فيه من نقص ، على تفتح العيون تدريجيا إلى الحالة التي كانت تحيط بها ، وعلى بث روح دستورية في البلاد ، أخذت تنمو تدريجيا ، بتطور الظروف والحوادث في هذا العصر وقد كان للحركات



الدستورية في أوروبا ، في القرن التاسع عشر ، أثريذكر في تنبيه عقول المصريين الى خوى النظم الدستورية الصحيحة ، وخاصة الحركة الدستورية ، التي قام بها حزب تركيا الفتاة ، منذ عام ١٨٧٦

## نضوج الرأي العام والحركة الدستورية

وقد بدأ الرأي العام يظهر بشكل محسوس لأول مرة عام ١٨٧٧ ، حينما نشبت الحرب بين روسيا وتركيا ، فان المصريين أظهروا اهتماما بهذه الحرب ، وأخذوا يتتبعون حوادثها بقلق زائد ، لأنها كانت خطرا يهدد كيان الدولة العثمانية ، التي ترتبط سلامة مصر بسلامتها . فضلا عن أن الشعور الديني ، الذي كان له أكبر سلطان على القلوب والعقول في ذلك الزمن ، جعل المصريين يهتمون بوقائع الحرب ويرجون انتصار الخليفة ، وسلامة الخلافة الاسلامية . وقد كان لاحتلال إنجلترا جزيرة قبرص في تلك الأثناء ، والمنشقات التي ثارت حول ذلك في الصحف الانجليزية ، أثر كبير في تنبيه عقول المصريين ، لمجرى الحوادث السياسية الدولية ، وبالأخص ما كان متعلقا منها بمصر وتركيا .

ويتجلى تكوّن الرأي العام ، ونضوج الحركة الدستورية ، في ظهور المعارضة القوية منذ سنة ١٨٧٨ . وترجع هذه الى ثلاثة عوامل هامة ، أولها أن سياسة أوروبا نحو مصر ، منذ تدخلها صراحة في شؤونها عام ١٨٧٦ ، بإرسال البعثات ، وفرض المراقبة الثنائية ، وتشكيل لجنة التحقيق العليا ، وتعيين وزيرين أوروبيين ، كل ذلك سبب استياء أهل البلاد ، وحرك فيهم عوامل الضغينة وروح النقد والمقاومة . وثانيها ، ازدياد استياء الناس ، عندما رأوا الدائنين الأجانب يصرون على دفع الكوبونات في مواعيدها ، مع ما كانت تقاسيه البلاد من فقر ومجاعة ، في سنة ١٨٧٧ وسنة ١٨٧٨ ، ومع استعمال الوزارة الأوربية الوسائل الشديدة في تحصيل الضرائب . وثالثها ، قضائهم على سلطة الخديوى المطلقة ، مع تشجيع الخديوى نفسه لحركة المعارضة ، فقد كان لهذا أثر كبير في تحفز الزعماء بالسلطة الحاكمة ، ونقد أعمال الوزارة ومعارضتها جهرة . وقد ازدادت قوة هذه المعارضة ، وقوى شأنها ، في زمن الوزارة الأوربية وما بعدها ، كما فصلنا ذلك فيما سبق .



## الباب الثاني

### الحركة الوطنية العراقية

محمد توفيق باشا

( ١٨٧٩ — ١٨٩٢ )

#### توليته :

ولد محمد توفيق في سنة ١٨٥٢ ، وهو أكبر أنجال الخديوي اسماعيل . وتعلم في صغره عدة علوم وكثيرا من اللغات الحية ، مما أهله لتولي عدة مناصب هامة في عهد أبيه . وتسلم زمام الحكم في ٢٦ يونيه سنة ١٨٧٩ ، يوم أن عزل اسماعيل .

#### الحالة المضطربة :

تولى توفيق إدارة البلاد وهي في حالة مضطربة : فالخزينة خاوية ، والجند متدمرون متألون ، مما كانوا يقاسونه من استبداد رؤسائهم ، من الأتراك والشركس ، وأعيان البلاد وزعمائها قلقون من جراء اضطراب الحالة المالية والسياسية ، التي أدت الى تحكم الدول في مستقبل مصر ، وعامة الشعب في حالة بؤس وفقر ، في حين أن الأوروبيين كانوا متدمرين لما أصاب تجارتهم من كساد ، بسبب اضطراب الحالة وعدم استقرارها ، ولأن الدائنين منهم كانوا في قلق متزايد على مصير ديونهم .

وقد واجهته في مبدأ حكمه أربعة أمور ، كان لابد من الوصول الى حلها ، قبل أن ينجلي الموقف ، ويمهد طريق الحكم والإصلاح ، وذلك أنه كان من الواجب تقرير علاقته بالباب العالي ، ثم بالشعب ، وكذلك بالدول الأوروبية ، وبالدائنين .



### الخديوى والباب العالى :

أما علاقة الخديوى الجديد بالباب العالى ، فكان من المنتظر أن تقوم على فرمان ١٨٧٣ ، ولكن السلطان انتهاز فرصة عزل اسماعيل ، فألغى هذا فرمان ، وعزم على استرداد جميع الحقوق التى نالها اسماعيل ، والعودة إلى فرمان ١٨٤١ . ولكن انجلترا وفرنسا احتجتا على ذلك ، لأنه لم يكن من مصلحتهما ، أن تعود سلطة الباب العالى فى مصر كما كانت . وبناء على ذلك أصدر السلطان التقليد الجديد ، فى ١٤ أغسطس سنة ١٨٧٩ ، وفيه تعديل لفرمان ١٨٧٣ فى نقطتين فقط : الأولى أن لا يزيد عدد الجيش على ١٨٠٠٠ فى وقت السلم ، والثانية أن لا تعقد الحكومة المصرية قروضا من الدول الأجنبية ، إلا بعد موافقة الدائنين الحاليين ، ويكون ذلك منحصرا فى تسوية الحالة المالية الحاضرة



(محمد توفيق باشا)

### الخديوى والشعب :

كان شريف باشا قد استقال من منصبه ، عند عزل اسماعيل ، فاستدعاه الخديوى فى ٢ يولييه ، وطلب منه تأليف الوزارة . وقبل شريف ذلك ، على شرط أن يوجد فى البلاد نظام نيابى ، ورضى الخديوى بوجهة نظره . فألف



شريف الوزارة الجديدة، وجد في وضع لائحة دستورية تحقق رغبات الشعب، ثم عرضها على الخديوى للتصديق عليها. ورأى توفيق أنها تمنح نواب الشعب سلطة واسعة، ورفض الموافقة عليها، بإيعاز من قنصلى إنجلترا وفرنسا، فاستقال شريف في ١٨ أغسطس سنة ١٨٧٩

انتهز الخديوى هذه الفرصة، لجمع مقاليد الأمور في يده، وألف وزارة جعل نفسه رئيسها. وكان لهذه السياسة أثر سيئ في رأى العام، وقام الكتّاب ينددون بالتدخل الأجنبي، ناسبين هذه الحركة الرجعية من جانب الخديوى الى اليد الأجنبية، وكان على رأس المتذمرين "جمال الدين الأفغانى"، فتخلص منه الخديوى بنفيه الى جدة في ٢٦ أغسطس. غير أن هذه السياسة زادت النار هبها، فاضطر توفيق بإزاء ذلك، أن يؤلف وزارة برياسة رياض باشا<sup>(\*)</sup>، وتالفت الوزارة الجديدة في ٢٢ سبتمبر، على أساس تصريح ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٨، ولكن مع منح الخديوى حق ترؤس مجلس النظار، ومعنى ذلك إشراكه في حكومة البلاد.

### الخديوى والدول :

استقر رأى على إعادة "المراقبة الثنائية"، في ٤ سبتمبر سنة ١٨٧٩، ولو أن المراقبين لم يحضرا إلا في نوفمبر، وصدر مرسوم في ١٥ نوفمبر، يبين سلطة المراقبة في عهدا الجديد. ويتأخص هذا المرسوم في إعطاء المراقبين سلطة واسعة، في التفتيش على جميع مصالح الحكومة وإداراتها من الوجهة المالية،

(\*) يذهب البعض، الى أن "رياض باشا" جاء من أزمير، والتحق بإحدى وظائف الحكومة بمصر، بمرتبة ١٤٥ قرشا فقط، غير أنه أخذ يرتقى بسرعة مذهلة، حتى أصبح بعد زمن يسير ياورا عباس الأول، ثم مديرا وهو في سن العشرين، ثم وزيرا من وزراء الدولة في عهد اسماعيل، ورئيسا للوزارة في أوائل عهد توفيق، وبقى في هذا المنصب حتى كانت أيام الثورة العرابية، ثم رأس الوزارة مرة أخرى بعد ذلك في عهد توفيق، ومرة في عهد عباس الثانى، ثم اعتزل السياسة ردحا طويلا من الزمن في أواخر حياته، ومات في ١٨ يونيو عام ١٩١١ في سن السابعة والسبعين.

وكان رياض رجلا شجاعا قوى العزيمة حديدى الإرادة شديد التمسك برأيه، وهو من أنصار المحافظة على القديم. وكان إداريا دقيقا، ولكنه كان سريع الغضب متكبرا، يميل الى الغلظة.



كما أنه أعطاهما حق حضور جلسات مجلس النظار ، على أن يكون رأيهما استشاريا ، ثم قرر أنه لا يجوز عزلهما ، إلا بعد موافقة حكومتيهما . ومن ذلك نرى أن سلطة الدولتين ، ممثلة في المراقبة الجديدة ، أصبحت أثبت أساسا وأوسع اختصاصا ، منها ممثلة في سلطة الوزيرين الأوروبيين المعزولين .

### الخدوي والدائنون :

قر الرأي على تشكيل لجنة ، في ٢ أبريل سنة ١٨٨٠ ، الغرض منها تسوية الحالة المالية ، وسميت هذه اللجنة "لجنة التصفية" ، وأسندت رياستها الى "السير رفرس ولسن" . وبعد درس الحالة ، تم الاتفاق على حل للسألة ، وصدر به مرسوم في ١٧ يولييه سنة ١٨٨٠ ، وهو المعروف "بقانون التصفية" ، وتتلخص أهم مواده فيما يأتي :

( ١ ) يقدر دخل الحكومة بما يقرب من ٨ مليون جنيه ونصف ، ويقسم هذا المبلغ قسمين متساويين تقريبا ، يخصص أحدهما لسد نفقات الإدارة والحكومة والمشروعات الضرورية ، ويبقى الآخر لسد أقساط الديون وفوائدها .

( ٢ ) تنقص فائدة الدين الموحد من ٧ ٪ الى ٤ ٪ ، ويجعل الضامن لذلك دخل الجمارك ودخل مديريات الغربية والمنوفية والبحيرة ، على أن تدفع هذه الأموال الى صندوق الدين مباشرة . وكان هذا القرار في صالح الحكومة ، إذ تنقص ما كانت تدفعه من المال بنحو مليون جنيه في السنة .

( ٣ ) يعقد قرض ممتاز بمبلغ ٥,٦٠٠,٠٠٠ جنيه ويخصص للمساعدة في دفع الديون السائرة .

( ٤ ) يلغى "قانون المقابلة" ، ويخصص مبلغ ١٥٠,٠٠٠ جنيه في السنة ، يدفع للملاك الذين اشتركوا في تقديم الأموال للحكومة ، نظير تخفيض الضرائب عن أوضاعهم كما سبق ، لمدة خمسين سنة .

ويعتبر هذا القانون حلا معقولا للمشكلة المالية ، التي سببت اضطراب الحالة في البلاد ، وبالرغم من أنه أساء الى الدائنين المصريين بإلغاء المقابلة ، فقد أصبح المستقبل المالي بعد ذلك واضحاً ، وأخذت الأمور تستقر من هذه الوجهة ، لولا تطور الحوادث واندفاعها في طريق الثورة .



## وزارة رياض :

عرف رياض باشا رئيس الوزارة الجديدة بالكبر والشدة ، فإسناد الوزارة إليه في الظروف التي عرفناها ، كان تحدياً للوطنيين ، فعارضوا سياسته ، وعملوا على



(رياض باشا)

مقاومة التدخل الأجنبي ، وإثارة الحواطر ضد النظام الموجود ، مما جعله يرصد عليهم العيون ويحيطهم بالجواسيس ، ويستعمل معهم العنف والشدة ، وكم أفواه الصحف ، ورفض أن ينظر في وضع أي لائحة دستورية ، تتناسب مع رغبات الشعب ، بل ذهب إلى أبعد من ذلك ، فلم يدع حتى مجلس النواب القديم للاجتماع فبقى معطلا مدة سنتين .

وفضلاً عن ذلك ، لم تقم الوزارة بالإصلاحات المطلوبة ، حتى تخف وطأة النقد على أعمالها ، ويرضى جمهور الشعب

عنها ، فقد انحصرت أهم إصلاحاتها في إلغاء أربع وعشرين ضريبة ، كالعوائد الشخصية وضريبة الوزن ، ورسوم الأرضية في أسواق الريف ، وعوائد الجمارك الداخلية ، كما أنها اهتمت بتحديد مواعيد دفع الضرائب ، مع مراعاة أن تكون في الأوقات التي تناسب المزارعين . وبديهي أن هذه الإصلاحات مفيدة وضرورية ، إلا أنها كانت قليلة بجانب ما كان يتمناه الشعب ، وصغيرة الشأن بجانب سلب الأمة حريتها السياسية .

## الوزارة والجيش :

ولم تتناول الوزارة شؤون الجيش بأي إصلاح ، بالرغم من تدمير الضباط المصريين ، من معاملة رؤسائهم الأتراك والشركس . وكان من بين المتذمرين



ضابط مصري كفء ، هو "أحمد عرابي" (\*) ، الذي لم يلبث طويلا حتى أصبح له كل النفوذ بين زملائه . ومما ساعده على الاستئثار بالزعامة ، امتيازه عن غيره من الضباط بفصاحة لسانه ومقدرته على الخطابة ، وكذلك بشدة إخلاصه وصراحته . وكان قبل دخوله الجيش يطلب العلم بالأزهر ، فتمكن بمواهبه من الظهور على غيره من الضباط المصريين ، حتى كان الجميع ينظرون إليه نظرة إجلال وإكبار .



(أحمد عرابي)

وكان وزير الحربية في وزارة رياض رجلا شركسيا غير متنور ، عرف بالاستبداد وشدة التعصب لبني جنسه ، وهو "عثمان باشا رفق" ، الذي كان يعمل على معاكسة المصريين في الجيش ، وترقية الضباط الأتراك والشركس إلى أعلى مراتبه ، دون جدارة أو استحقاق ، فكان مسلكه هذا مثيرا لنفوس المصريين ، وباعثا إلى التذمر . وقد اتفق "عربي" مع فريق من زملائه على رفع شكواهم إلى رئيس الوزارة ، وقدموا له عريضة في ٢٠ مايو سنة ١٨٨٠ بثوا فيها شكواهم ، وبينوا أوجه الظلم النازل بهم ، وطلبوا منه النظر في إصلاح الجيش ، فوعده رياض بالنظر في الأمر وهذا خواطرهم .

ولكن مسلك الضباط المصريين أثار غضب عثمان رفق ، فصمم على الانتقام منهم ، وأمر أن تشترك فرق الجيش في حفر الترع ، غير أن عرابي رفض إطاعة هذا الأمر ، ودخل في نزاع مع وزير الحربية . ومما زاد في سخط رجال الجيش

(\*) ولد أحمد عرابي بقرية "هرية رزنة" بجوار الزقازيق ، وكان أبوه شيخا للقرية ، وتعلم القراءة والكتابة بمكتب القرية ، وحفظ القرآن ، ثم تعلم بالأزهر . وفي أيام سعيد باشا ، التحق بالجيش ، وأخذ يترقى من مناصبه الصغيرة بسرعة ، حتى رقى إلى رتبة "فائز" في أيام سعيد ، ثم رقى إلى رتبة "أميرالاي" ، في أوائل أيام توفيق باشا . وكان عرابي ضابطا كفئا ، ووطنيا مخلصا ، أحبه زملاؤه ووثقوا به ، لشدة إخلاصه وعظيم جرأته .



« قانون القرعة » الذي أصدره عثمان رفقي ، ويقضى بعدم الترقى من « تحت السلاح » ، ومعنى هذا حرمان المصريين من مناصب الجيش العليا ، فثار ثارتهم ، واتفقت كلمتهم على تقديم عريضة أخرى إلى رياض . وقد قام بتقديمها هراي وعبد العال حلمي وعلى فهمي ، في ١٥ يناير سنة ١٨٨١ . وتتلخص مطالبهم في عزل عثمان رفقي وتعيين خلف له من أبناء البلاد ، ثم تعديل القوانين العسكرية حتى تكفل العدالة .



(عثمان باشا رفقي)

وبدلاً من أن يعمل رياض على إزالة أسباب الشكوى وترضية الضباط ، طلب منهم مراراً أن يسحبوا العريضة ، ويتركوا الأمر له ، ليعمل على تحقيق مطالبهم ، ولكنهم أصروا على الرفض ، واتصل الأمر بالخدوي فاستشاط غضباً ، وأمر بالضرب على أيديهم . واجتمع مجلس النظاري ٣٠ يناير للنظر في أمرهم ، فقرر القبض عليهم وإحالتهم على مجلس عسكري . واتصل خبر هذا القرار برجال الجيش ، فأخذوا للأمر عدته ، فلما طلب اليهم الحضور إلى نظارة الحربية في أول



فبرابر ، للنظر في بعض المسائل الهامة ، اتفقوا مع زملائهم على أن يكونوا على استعداد بفرقهم ، حتى إذا لم يعودوا بعد ساعتين ، حضروا جميعا لتخليصهم بالقوة . وذهب الضباط الثلاثة الى قصر النيل ( وهو مقر نظارة الحربية إذ ذاك ) ، وما



(الضباط الثلاثة)

كادوا يدخلون حتى صدر الأمر بالقبض عليهم ومحاكتهم . ومضت الساعتان ولم يعودوا ، فتحركت بعض فرق الجيش في الحال متجهة نحو قصر النيل ، وهناك هاجمت قاعة المحاكمة ، وأهانت أعضاء المحكمة ، ثم أخرجت الضباط الثلاثة ،



وتوجه الجميع الى سراى عابدين ، وطلبوا الى الخديوى عزل ناظر الحربية ، فعزله وعين "محمود سامى البارودى" مكانه ، ثم أمر بتشكيل لجنة للنظر فى مطالبهم ، والعمل على مساواة المصريين فى الجيش بغيرهم من الأتراك والشراكسة .

وهكذا تمرد الجيش للمرة الثانية دفاعا عن مصالحه ، وللمرة الثانية نجح فى تحقيق أغراضه ، فأكسبه هذا النجاح ثقة بالنفس ، وجرأة فى المطالبة بما يراه حقا له .

## الثورة العراقية

( ١٨٨١ — ١٨٨٢ )

من فبراير الى سبتمبر :

انتهت حادثة قصر النيل ومظاهرة عابدين ، بعزل عثمان رفقى ، وبقيت وزارة رياض فيما عدا هذا التغيير متمتعة بكراسيها . ولم يكن عزل ناظر الحربية الا هدنة موقته ، لأنه لم يكن من المنتظر أن يخضع رياض لرجال الجيش . ولهذا لم تلبث أن أمعنت الحكومة فى سياستها الأولى ، حتى أصبح زعماء الجيش مستهدفين لأشد الأخطار . وكانت الفترة ما بين فبراير وسبتمبر سنة ١٨٨١ ، فترة قلق زائد ، كانت تعمل الحكومة فيها على الإيقاع برجال الجيش بكل الوسائل ، فى حين كان هؤلاء على حذر تام ، لأنهم كانوا موقنين أن رضوخ الحكومة لمطالبهم ، إنما كان مجاملة ظاهرية . ولما بررت الحوادث يقينهم ، اتفقت آراؤهم على أن خير وسيلة لاستتباب الأمن ، وإجابة مطالب الأمة ، هى سقوط وزارة رياض ، وإقامة حكومة دستورية مكانها . وبدأ عرابى يتصل بأعيان البلاد وعلمائها ، وأخذ ينشر فيهم أفكاره ، حتى أمضوا له توكيلا ، يطالبون فيه بإسقاط وزارة رياض ، وقيام حكومة نيابية .

وفى غضون ذلك ، استاء الخديوى من مسلك "البارودى" ، واضطره إلى تنعيم استقالته ، غير أنه كان لهذه الاستقالة أثر سيئ فى نفوس الشعب ، وبخاصة رجال الجيش ، لأنه كان من أنصارهم . ولكنهم لم يقوموا بأية حركة عداوية ضد الخديوى ،



ومكثوا يترقبون الحوادث ويتتبعون تطورها ، فكان هناك سكون في الظاهر .  
وبدأ ناظر الحربية الجديد يصدر الأوامر الشديدة للجيش ، ويذهب بنفسه إلى  
الثكنات العسكرية ، ليشرف على تنفيذها ، مما سبب الاستياء العام من خطته .  
ولم يلبث أن أصدر أمراً إلى آلاى القلعة بالتوجه إلى الاسكندرية ، وآلاى الاسكندرية  
بالحضور إلى العاصمة ليحل محله . وكان القصد من ذلك ظاهراً ، وهو تفريق كلمة  
الجيش ، فرفض زعماءه تنفيذ هذا الأمر . ولما رأى عرابي " كثرة الدسائس  
وشدة الضغط من الحكومة ، وعدم التصديق على القوانين العسكرية التي تم تنظيمها ،  
وعدم الشروع في تشكيل مجلس النواب الذي وعد بإنشائه ، أيقن أن الحكومة  
تماطل في تنفيذ الطلبات الوطنية ، وصمم على تجديدها في صورة مظاهرة وطنية  
شاملة " .

### مظاهرة عابدين الكبرى :

أخذ عرابي وأعوانه في تنظيم الأمور لهذه الخطوة الجريئة ، وأصدر الأوامر  
لعدة فرق من فرق الجيش بالحضور إلى ميدان عابدين ، في عصر يوم الجمعة ٩ سبتمبر  
سنة ١٨٨١ ، ولما وصل خبر هذه المظاهرة العسكرية إلى مسامع الخديوى ،  
حاول بنفسه عبثاً إقناعهم بالعدول عنها . وفي الموعد المحدد انتظمت صفوف  
الجند بمدافعها وأسلحتها في الميدان ، فقتل الخديوى من السراى وتوسط الساحة ،  
فتقدم إليه عرابي على ظهر جواده شاهراً سيفه ، فصاح به أن " ترجل واغمد  
سيفك " ، فامتثل ، ثم قدم له طلبات الجيش والأمة (\*) ، وتتلخص في " إسقاط

(\*) خاطبه الخديوى قائلاً :

الخديوى : ما هي أسباب حضورك بالجيش إلى هنا ؟

عرابي : جئت يا مولاي لنعرض عليك طلبات الجيش والأمة ، وكلها طلبات عادلة .

الخديوى : وما هي هذه الطلبات ؟

عرابي : هي إسقاط الوزارة المستبدة ، وتشكيل مجلس نواب على النسق الأوربي ، وإبلاغ  
الجيش إلى العدد المعين في الفرمانات السلطانية ، والتصديق على القوانين العسكرية التي  
أمرتم بوضعها

الخديوى : كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها ، وأنا ورثت ملك هذه البلاد عن آبائي وأجدادي ،  
وما أتم إلا عبيد إحساننا .



الوزارة المستبدة ، وتشكيل مجلس نواب على النسق الأوربي ، وإبلاغ الجيش إلى العدد المعين في الفرمانات السلطانية ، والتصديق على القوانين العسكرية .

عراي : لقد خلقنا الله أحرارا ، ولم يخلقنا ترانا وعقارا ، فوالله الذي لا إله إلا هو ، إننا سوف لا نورت ولا نستعبد بعد اليوم .

•••

وهنا أشار " مستر كوكسن Cookson " فنصل انجلترا في الاسكندرية على الخديوى بالعودة إلى السراي ، فلما فعل ذلك ، عاد القنصل يصحبه " كلفن Sir Auckland Colven " المراقب المالي ، وهو الذي خلف " سير ماكن بيرنج " ، بعد نقله إلى منصب كبير بالهند ، وشرع القنصل يخاطب عراي بالنيابة عن الخديوى :

القنصل : إن طلب إسقاط الوزارة ، وطلب تشكيل مجلس النواب ، من حقوق الأمة لا من حقوق الجهادية ، ولا لزوم لطلب زيادة الجيش ، لأن المالية لا تساعد على ذلك .  
عراي : اعلم يا حضرة القنصل أن طلباتي المتعلقة بالأهالي ، لم أعمد إليها إلا لأنهم أقاموني ثائبا عنهم في تنفيذها ، بواسطة هؤلاء العساكر ، الذين هم عبارة عن إخوانهم وأرلادهم ، فهم القوة التي يتفقد بها كل ما يعود على الوطن بالخير والمنفعة ، وانظر إلى هؤلاء المحتشدين خلف العساكر ، فهم الأهالي الذين أباؤنا عنهم في طلب حقوقهم ، واعلم علم اليقين أننا لا نتنازل عن طلباتنا ، ولا نبرح هذا المكان ما لم تنفذ .

القنصل : علمت من كلامك أنك زغب في تنفيذ اقتراحاتك بالقوة ، وهذا أمر ينشأ عنه شنيع بلادكم وملاشيتها .

عراي : كيف يكون ذلك ؟ ومن ذا الذي يعارضنا في أحوال داخلينا ؟ فاعلم أننا متقاوم من يتصدى لمعارضتنا أشد المقاومة ، إلى أن نقف إلى آخرنا .

القنصل : وأين هي قوتكم التي ستدافع بها ؟

عراي : عند الاقتضاء يمكن أن يحشد مليون من العساكر يدافعون عن بلادهم ، يسمعون قولي ويلبون إشارتي .

القنصل : وماذا تفعل إذا لم تجب إلى ما نطلب ؟

عراي : أقول كلمة أخرى .

القنصل : وما هي ؟

عراي : لا أقولها إلا عند اليأس والقنوط .

•••

إلى انقطع الحديث ، وعاد القنصل والمراقب إلى السراي ، وبعد التشاور في الأمر ، استقر الرأي على إجابة مطالب الجيش ، وتنفيذها بالتدريج .



بإزاء ذلك ، تشاور الخديوي في الأمر ، فاستقر الرأي على إجابة مطالب الجيش وتنفيذها بالتدريج . وبناء على هذا سقطت وزارة رياض ، واختير محمد شريف باشا لتأليف الوزارة الجديدة . وعند ذلك ذهب عرابي توطأ إلى الخديوي ، وقدم له واجب الشكر وفروض الطاعة ، وأظهر له الخديوي أنه مرتاح الضمير لمساتم ، وأمر عرابي الجيش بالانصراف . ثم عم الفوج والسرور جميع طبقات الأمة ، لجناحها في تحقيق رغباتها ، وتمنى الناس أن يكون ذلك فاتحة عهد جديد ، فيه تحترم حقوق الأمة ، وتصلح أركان العدالة .

### وزارة شريف ( سبتمبر ١٨٨١ — فبراير ١٨٨٢ ) :

تألفت الوزارة الجديدة في ١٤ سبتمبر ، وقدم لها الأعيان والنواب عريضة عليها ١٦٠٠ توقيع ، يطلبون فيها تشكيل مجلس نواب " يكون له ما لمجالس الأمم الأوروبية المتمدنة من الحقوق الشرعية ، إزاء هيئة الحكومة " . وهكذا انقضت المشا كل القائمة ، وأخذ حسن التفاهم يسود في الجو ، وبدأ " شريف " يعمل على تحقيق مطالب الجيش . ثم تقرر إرسال عبد العال حلمي بآلايه إلى دمياط ، وعرابي بآلايه إلى رأس الوادي ، ووافق عرابي على ذلك ، بشرط أن تصدر الأوامر بإجراء الانتخابات قبل سفرهم ، فصدر الأمر العالي بانتخاب النواب في ٤ أكتوبر سنة ١٨٨١ ، على أساس لائحة إسماعيل القديمة ، لائحة سنة ١٨٦٦ ، فاستاءت النفوس لذلك ، ولكن الجيش انتف في إثارة القلاقل ، وترك الأمر ينفذ كما هو . وفي ١٨ أكتوبر سافر عرابي بفرقة إلى مصر الخديديد (\*) .

(\*) خطب عرابي في مودعيه بخطه : « هرة خطاباً وطنياً حماسياً فقتطف منه ما يأتي :

" صادق وإخواني — بكم ولكم قنا وطلبنا حرية البلاد ، وقطعنا غرس الاستبداد ، ولا تنفني عن عزمننا حتى نحيا البلاد وأهلها . وما قصدنا بسعيننا إفساداً ولا تدميراً ، ولكن لما رأينا أننا بننا في إذلال واستعباد ، ولا يتمتع في بلادنا إلا الغرباء ، حركتنا الغيرة الوطنية والحمية العربية ، إلى حفظ البلاد وتحريرها ، والمطالبة بحقوق الأمة ، وقد ساعدتنا العناية الإلهية ، ومنعنا مولانا وأميرنا



## الوزارة والمجلس :

وبالرغم من إجراء الانتخابات على حسب لائحة ١٨٦٦ ، وعد شريف بالنظر في توسيع اختصاصات المجلس ، ومنح الحرية لنواب الأمة . ولكن الدول احتجت على ذلك ، واعترض المراقبان على هذه الخطوة ، فاضطر شريف إلى عدم منح المجلس بعض الحقوق الهامة .

ولما تمت عملية الانتخابات ، افتتح المجلس في ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٨١ ، برئاسة سلطان باشا ، واستمر منعقدا لترتيب شؤونه الداخلية . وفي ٢ يناير سنة ١٨٨٢ ، حمل شريف اللائحة الجديدة إلى مجلس النواب ، بعد أن أعدها مجلس النظار ، فشكلت لجنة من النواب لدرستها وإبداء الرأي فيها . وكان أكبر عيوب اللائحة ، حرمانها المجلس حق نظر الميزانية لإرضاء المراقبين ، فغضب المجلس لسلبه حقا من أهم حقوقه . وكانت الميزانية كما علمنا منقسمة قسمين ، قسم خاص بسداد أقساط الدين وفوائده ، وقسم خاص بنفقات الإدارة والإصلاح ، فأصر النواب على حقهم في نظر القسم الثاني منها ، وهو ما ليس له علاقة بالدين . إلا أن الوزارة من جانبها تشبثت برأيها ، وتحقيقا لرغبة المراقبين ، واستمر النزاع حول هذه النقطة ، فوقفت الحكومة يعاضدها المراقبان في جانب ، ووقف المجلس يعاضده الجند في الجانب الآخر . وكان مركز الجيش قد تقوى ، بتوثيق عرى الروابط بين رجاله وأعيان البلاد ونوابها ، وبتنصيب عمراي وكيل لنظارة الحربية في يناير سنة ١٨٨٢

## المذكرة المشتركة :

عاضدت إنجلترا وفرنسا المراقبين والحكومة المصرية ، في موقف التشدد في رفض طلبات المجلس . وكانت الحكومة الفرنسية ، منذ مظاهرة ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ ، ترى ضرورة إشراف إنجلترا وفرنسا على الشؤون المصرية ، ضمنا

== الخديوى ما طلبناه من سقوط وزارة المستبد علينا ، السائر بنا في غير طريق الوطنية ، وتمنعنا بمجلس الشورى ، لتنظر الأمة في شؤونها ، وتعرف حقوقها كباقي الأمم المتقدمة في العالم .... وما أرسلنا إلى هذه الدرجة القصوى إلا للاتحاد والتضامن على حفظ شرف البلاد ، فالآن ننادى بصوت واحد : فليعيش الخديوى ، واهب الحرية . فليعيش الجيش المصرى طالب الحرية . فليعيش الحرية في مصر خالدة مؤبدة .



لأرواح الأجانب وأملأهم بمصر ، وصيانة لمصالح الدائنين . فلما تولى "جمبetta" رئاسة الوزارة الفرنسية ، في ديسمبر سنة ١٨٨١ ، عمل على تنفيذ هذه السياسة ، وعرض فكرته على وزير خارجية إنجلترا ، فوافق عليها ، ولكن مع شيء من التردد . وانتهاز جمبetta فرصة النزاع بين المجلس والحكومة ، واتفق مع الحكومة الانجليزية على إرسال مذكرة مشتركة من الدولتين ، إلى معتمديهما بمصر ، ليقوما بتبليغها للخديوى . وأرسلت المذكرة في ٧ يناير سنة ١٨٨٢ ، وأهم ما جاء بها ، تبليغ الخديوى "رغبة حكومتى فرنسا وإنجلترا في مساعدته ومعاضدة حكومته ، للتغلب على المصاعب المختلفة ، التى تزيد الارتباك والقلق فى القطر المصرى ، وأن الدولتين على أتم وفاق فيما يتعلق بمصر ، لاسيما بعد وقوع الحوادث الأخيرة ، وأخصها اجتماع مجلس شورى النواب " .

### نتائج المذكرة :

تلقى الخديوى المذكرة بالشكر ، إلا أن وقعها كان أليماً على نفوس غيره ، فأودت بالبقية الباقية من حسن التفاهم بين زعماء البلاد من جهة ، والخديوى والدول الأوروبية من جهة أخرى . وكان من نتائجها أن ازداد تماسك القوى الوطنية ، فصار الحزب العسكرى ومجلس النواب وأنصارهما يدا واحدة . وكانت المذكرة سبباً فى ظهور الحزب العسكرى مرة أخرى فى الصف الأول من المعارضة ، بعد أن كان قد انزوى مدة أصبح فيها المجلس محط الآمال وحامل لواء الحرية . واستاءت تركيا من مسلك الدولتين ، بصفتها صاحبة الحق الشرعى فى البلاد ، ومن حقها هى ، لا من حق الدولتين ، التدخل فى شؤون مصر . كما أن الرومىانيا والنمسا وألمانيا احتجت لدى الباب العالى على المذكرة ، والسياسة التى ترمى إليها الدولتان من إرسالها .

واحتج شريف باشا كذلك على المذكرة ، وطلب إلى الدولتين إرسال مذكرة إيضاحية ، لتفسير الأولى ، وإعلان حسن نيتهما ، لتبديد الغيوم التى تلبدت فى ابخو ، منذ انتشر خبر المذكرة ، ولكنهما أهملتا طلبه ، واستمر تذمر الناس ، وبدأت فكرة مقاومة الأجانب تتملك النفوس . وكان من نتائج هذا الشعور ، أن تشبث مجلس النواب بطلبه فى مسألة الميزانية ، وأعلن شريف فى صراحة ،



أنه لا يستطيع إجابة طلبهم ، إلا إذا وافقت إنجلترا وفرنسا عليه ، واضطر أمام معارضة المجلس أن يقدم استقالته ، وتألفت على الأثر الوزارة الجديدة ، في ٢ فبراير سنة ١٨٨٢ ، برئاسة "محمود باشا سامى البارودى" ، وعين فيها عرابى ناظرا للجهادية

### وزارة البارودى :

فرحت البلاد بفوز النواب ، وارسلوا إليهم التهاني ، واغبط الحزب



(محمود سامى البارودى)

العسكرى بتولية زعيمه عرابى منصب نظارة الحربية . وفي ٨ فبراير ذهب محمود سامى إلى المجلس وقدم اللائحة الجديدة ، بعد أن منحهم الحق في نظر الميزانية على حسب رغبتهم ، وخطب فيهم ناصحا بسلوك سبيل الاعتدال ، واتباع روح القوانين في أعمالهم . ولما انتشر خبر المصادقة على اللائحة في أنحاء البلاد ، عم السرور والفرح ، وازداد ارتياح الناس للوزارة ، كما ازدادوا تمسكا بأهداب الحزب العسكرى ، الذى أصبح القوة المسيطرة في البلاد .

### خطة الإصلاح :

وكانت خطة العرابيين ترمى إلى إصلاح البلاد من جميع الوجوه ، مع العمل على تقوية العنصر الوطنى في الإدارة والجيش ، والوقوف في وجه التدخل الأجنبي ، إلا ما كان خاصا بالإشراف على المالية . ولكن يظهر أن العرابيين قد نسوا خطة الاعتدال والحكمة في تصرفاتهم ، فتطرفوا في الإصلاح ، حتى أصبحت الصحافة بوجه عام تدعو إلى الحكمة والاعتدال . وفي ١٢ مارس ، اعتمدت الحكومة المصرية قانون انتخاب جديد وضعه المجلس ، وقام النواب يشرفون على الإدارة والشؤون العامة .



وقد نال الجيش أكبر إصلاح ، فزاد عرابي في عدده ورفع مرتبات رجاله ، أخذ في ترقية الضباط المصريين ، وتنظيف الجيش من العنصر التركي والشركسي ، ففصل عددا كبيرا منهم ، ممن كانوا لا يصلحون للخدمة الحربية ، وقرر عدة قوانين لتحسين حالة رجال الجيش . فضلا عن ذلك ، كانت الوزارة عازمة على نشر التعليم ، وإصلاح المحاكم الأهلية وفروع الإدارة المختلفة ، ثم إصدار دستور ، يحدد اختصاصات كل من الخديوى والوزارة ومجلس النواب .

### موقف المراقبين :

وكان المراقبان والقناصل في خلال ذلك مستائين من مسلك الوزارة الجديدة نحوهم ، وإهمالها شأن الخديوى ، فكتب "سير إدوارد ملت Sir Edward Malet" ، القنصل البريطانى بمصر ، إلى حكومته ، يشكو من أن المراقبة الثنائية باتت اسمية فقط . ويرجع ذلك إلى أن الوزارة عملت على الفصل بين نظام البلاد السياسى ، ونظام الإشراف المالى ، وقررت ألا تسمح للمراقبين بتعدى حدود اختصاصاتهما ، المحدودة بمرسوم ١٥ نوفمبر سنة ١٨٧٩ ، ومعنى هذا حرمان المراقبين من التسيطر الفعلى على شؤون البلاد ، كما كان الحال في وزارة رياض وشريف ، فسأهما أن يسلبا كل سلطة سياسية ، ولذلك أخذتا ينددان بأعمال الوزارة ويسعيان للإيقاع بينها وبين الخديوى .

### الخديوى والوزارة :

أدت خطة عرابي في إصلاح الجيش ، إلى تدمير الأتراك والشركس ، فالفوا من بينهم مؤامرة لاغتياله هو ورؤساء الجيش . ولكن أمرها كشف ، وقبض على عدد كبير من الضباط الشراكسة ، وأحيلوا على مجلس عسكري لمحاكمتهم ، وصدر الحكم على أربعين منهم ، بالنفى المؤبد إلى أقاصى السودان ، وكان من بينهم عثمان رفقي . فاتهم "ملت" هذه الفرصة ، وأوعز إلى الخديوى بعدم التصديق على الحكم ، فأذعن لإرادته ، وغضب أعضاء الوزارة ، واستدعوا النواب ليشكوا لهم تصرف الخديوى ، وبدأوا يتحدثون عن خلعه ، وتولية محمود سامى مكانه .



## المذكرة الجديدة وأثرها :

وحاول النواب تسوية الخلاف بين الخديوى والوزارة ، ولكن دون جدوى . وبينما الأمور سائرة على هذا المنوال ، إذا بالحكومتين الانجليزية والفرنسية ، تقرران إرسال أسطول الى مياه الاسكندرية . فلما وصلت الأنباء البرقية بذلك ، زاد سخط الناس ، وأوجسوا خيفة من النتائج المحتملة ، وأرسلت الدولتان مذكرة جديدة بتاريخ ٢٥ مايو ، تطلبان فيها إسقاط الوزارة ، وإبعاد عرابى عن القطر المصرى ، مع حفظ رتبة ورواتبه وألقابه ، وإبعاد على فهمى وعبد العال حلمى الى الأرياف ، مع حفظ رواتبهما وأوسمتهم كذلك . وبإزاء ذلك لم ير البارودى بدا من تقديم استقالته ، فقدمها فى ٢٦ مايو محتجا على مسلك الخديوى ، ولكن الضباط الثلاثة رفضوا الإذعان لمطالب الدولتين .

وكان لهذه المذكرة وقع سيئ فى النفوس ، وزادت من التفاف الجيش والأهالى حول عرابى . وتمسك الجيش ببقائه فى وزارة الحربية ، فاشتد ارتباك الخديوى ، وزاد خوفه من الحالة ، واضطر أن يعيده إلى مركزه ، حتى ينجلي الموقف . وبعث عرابى منشورا إلى القناصل ، تعهد فيه بأنه يكفل الأمن العام فى أنحاء البلاد ، واقترح فى الوقت نفسه ، وجوب انسحاب الأسطول وسحب المذكرة ، ثم وضع دستور ، يحدد اختصاصات كل من الخديوى والوزارة ، وقطع المخبرات مع الدول ، إلا عن طريق الباب العالى .

## حادثة ١١ يونيه :

كان لهذه الحوادث أثرها فى نفور المصريين من الأجانب ، مما أدى إلى تخوف الأجانب من الوطنيين ، ولذلك أخذوا يحصلون على الأسلحة ، استعدادا للدفاع عن أنفسهم . وبينما كانت العلاقات بين الطرفين متوترة على هذا النحو ، إذا بحادثة تقع فى يوم الأحد ١١ يونيه ، وكان من أثرها حدوث معركة بينهما ، وذلك أن رجلا مالطيا استأجر حمارا من مصرى ، ولم يعطه الأجر الكافى ، فتعرض له المصرى ، فطعنه المالطى بمذبة أردته قتيلا ، فقام فريق يناصر هذا وآخر يناصر ذاك ، حتى اشتد الهرج فى المدينة . وكان الأوربيون مسلحين ، فاحتموا بدورهم ، وأخذوا يطلقون الرصاص على الوطنيين ، فقتل عدد كبير منهم ، فى حين أنه لم يقتل من



الأجانب الا عدد قليل نسبيا . واستمر النزاع عدة ساعات ، ونهب الكثير من المتاجر ، وسادت الفوضى . ولما صدرت الأوامر للجند بالتدخل ، أوقفوا المعركة في الحال ، وعاد السكون إلى المدينة .

وكان من نتائج هذا الحادث ، أن استاء الأجانب وقناصل الدول ، وبالأخص قنصلا إنجلترا وفرنسا . وبعد هذه الحادثة بيومين ، سافر الخديوي إلى الاسكندرية ، وفي ١٩ يونيه ، تألفت وزارة جديدة برئاسة اسماعيل راغب باشا ، وبقي عراب فيها ناظرا للحريية . ولكن هذا لم يبعث الطمأنينة في نفوس الأجانب ، وأخذوا يهاجرون من القطر جماعات جماعات ، حتى قدر عدد المهاجرين بما يقرب من مائة وخمسين ألف .

### مؤتمر الاستانة :

بلغت الحالة في مصر حدا ، دعا الدول الى عقد مؤتمر بالاستانة ، في ٢٣ يونيه سنة ١٨٨٢ ، للنظر في المسألة المصرية وتطورها ، وطلب إلى السلطان إرسال مندوب عن الدولة ، ولكنه رفض ، بدعوى أن الحالة في مصر لا تستدعي التدخل في شؤونها ، وأن مثل هذا التدخل من اختصاصاته هو فقط ، ولا دخل للدول في الأمر . ولكن بالرغم من ذلك ، استمر المؤتمر يعقد جلساته ، غير أن أعماله كانت تسير ببطء ، مما جعل حل المسألة يفلت من يده . وقد كانت مشارب الدول نحو مصر مختلفة ، وكان الكل يسيئون الظن بإنجلترا وسياستها نحو وادي النيل ، ولذلك قرر المؤتمر في جلسته الثانية ، أن تتعهد كل من الدول المشتركة فيه ، بأنها لا ترمي الى الحصول على امتيازات أرضية أو تجارية بمصر ، لا يكون للدول الأخرى الحق في الحصول عليها .

أما الباب العالي ، فانه استمر يرفض إرسال مندوب الى المؤتمر ، حتى عرض عليه في ٦ يوليه ، أن يرسل قوة من الجنود العثمانية الى مصر ، لتهدئة الحالة وتوطيد مركز الخديوي ، على حسب الفرمانات السلطانية . وبعد تردد أرسل الباب العالي في ١٠ يوليه ، ينخب المؤتمر أنه سيرسل مندوبا اليه في اليوم التالي .



## الحرب :

ولكن تطور الحوادث بمصر في خلال ذلك ، وضع حل المسألة برمتها في يد انجلترا وحدها ، وذلك أن قائد الأسطول الانجليزي "الأميرال سيور Sir Beauchamp Seymour" لاحظ قيام العربيين بتحصين قلاع الاسكندرية ،



(الأميرال سيور)

لضرب الأسطول الانجليزي ، وادعى أنهم كانوا يقذفون أحجارا كبيرة عند مدخل الميناء لسده . وبالرغم من تأكيدات رجال الجيش له ، بأن هذا غير الواقع ، أرسل لولاة الأمور في بحر يوم ١٠ يوليه إنذارا ، يطلب منهم تسليم بعض قلاع المدينة في مدة أربع وعشرين ساعة ، وإلا أطلق مدافعه على الاسكندرية . ولما لم يجيبوه إلى طلبه ، بدأ إطلاق المدافع

عليها في الساعة السابعة ، من صباح يوم الثلاثاء ١١ يوليه ، واستمر إطلاق المدافع حتى عجزت القلاع وسامت المدينة ، ونزلت الجنود الانجليزية فيها ، بعد أن انسحب العربيون منها .

أما الأسطول الفرنسي ، فإنه لم يشترك مع الأسطول الانجليزي في هذه الحوادث ، وانسحب من مياه الاسكندرية ، لأن فرنسا لم تشأ أن تتحمل تبعه احتلال مصر ، وكانت لا تبغى التدخل ، إلا إذا انتهت بها المؤتمر لهذه الغاية .

تحصن العربيون في دمنهور وكفر الدوار ، وأعطوا العدة للمقاومة ، وبالفعل حدث بينهم وبين القوات الانجليزية ، بقيادة القائد "وولزلي Sir Garnet Wolseley" بعض مناوشات ليست ذات بال . ولما أبقن الانجليز أن مركز الوطنيين حصين في تلك الجهة ، صمموا على غزو مصر من جهة الشرق ، ولما اتصل ذلك بعرباني هم بردم قناة السويس ، يمنع الأسطول الانجليزي من إنزال الجنود البريطانية في الجهة الشرقية ، ولكن الميسيو "ديلسيس" تدخل في الأمر ، وأقنعه بأن في استطاعته أن يمنع الأسطول من المرور في القناة ، اعتمادا على حيادها ،



فرجع عرابي عن عزمه ، ولكن دياسبس لم يستطع أن ينجز وعده ، وصر الأسطول الإنجليزي في القناة ، وأنزل الجنود البريطانية عند الاسماعيلية .



أما عرابي ، فإنه أقام التحصينات اللازمة عند "التل الكبير" ، استعدادا للقائهم وصدتهم عن التوغل في البلاد . غير أنه حدث في غضون ذلك ، ما أضعف مركز عرابي ، وذلك أن الانجليز نجحوا في إقناع الباب العالي بإعلان عصيانه ، فأصدر السلطان منشورا بذلك في ٩ سبتمبر ، نشر في الصحف ، ووزعت أعداد كثيرة منه في صفوف العرابيين ، وكان له أثر سيئ في نفوس الكثيرين ، لأن "عرابي" كان يعلن أنه إنما يدافع عن حقوق السلطان . هذا إلى انتشار الخيانة في الجيش ، فقد كان لخيانة الضابط "علي يوسف" قائد السوارى ، كل الأثر في هزيمة العرابيين ، لأنه غرر بعرابي ، وفتح الطريق للجيش الإنجليزي ، ومكنه من مباغته المصريين عند "التل الكبير" في الساعة الرابعة من صباح يوم ١٣ سبتمبر ، فان المصريين لما أخذوا على غرة ، وكانوا على غير استعداد للقتال ، فروا أمام



الانجليز، وكان في عزم عرابي أن يستعد للمقاومة خارج القاهرة، ولكن همم أنصاره  
فترت، ونصحوه بالعدول عن عزمه. أما الانجليز فاستمروا في سيرهم نحو



القاهرة، ودخلوها بلا مقاومة في ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢، واحتلوا القلعة وباقي  
الشركات العسكرية. ومنذ ذلك التاريخ بدأ عهد الاحتلال البريطاني بمصر.



## أسباب فشل الحركة العرابية :

( ١ ) كانت الحركة قاصرة على طبقة واحدة من الشعب ، هي طبقة رجال العسكرية وبعض المتعلمين من أنصارهم ، فلم تكن حركة شعبية ، تركز على مطالب عامة للأمة ، كما أن تطرف رجال العسكرية ، الذين كانوا مسيطرين على الحركة ، نفّر منهم الكثيرين من ذوى الآراء المعتدلة .

( ٢ ) كانت الحركة موجهة ضد الخديوى الحاكم الشرعى للبلاد ، وضد طبقة من طبقات الأمة ، هي طبقة الشراكية ، فنفر منها أفراد هذه الطبقة ، وجعلوا يعملون لإحباطها ، كما ابتعد عنهم أنصار الخديوى ، وكان من بينهم شخصيات بارزة . وفى نفس الوقت ، أعطت بعض الممرات لتدخل إنجلترا بصفقتها إحدى الدول الموقعة على معاهدة لندن فى يوايه سنة ١٨٤٠

( ٣ ) كان عرابى رأس الحركة رجلا وطنيا مخلصا ، ولكن كان ينقصه الكثير من صفات الزعامة الحربية والسياسية .

( ٤ ) كانت أكتية جيش عرابى من جنود غير نظاميين ، من الفلاحين الذين كان يجمعهم بالقوة من مختلف بلاد القطر ، ويسوقهم الى ميدان القتال ، فى حين أنه كان يحارب جيشا انجليزيا نظاميا ، كامل العدة والسلاح والمران ، وعلى رأسه قواد أكفاء .

( ٥ ) كان لصدور منشور السلطان ، الذى أعلن فيه عصيان عرابى ، أثر بعيد ، إذ أضعف مركزه فى نظر كثير من أتباعه ، وفَتَّ فى عضد جنوده ، لأنه جاء مخالفا لما كان يدعيه عرابى ، من أنه كان مواليا للسلطان ، ويعمل برضاه .

( ٦ ) كان لخيانة بعض رجال الجيش ، وانضمام بعض العربان للانجليز ، أثر فى هزيمة جيش عرابى فى موقعة التل الكبير ، التى كانت الضربة الأخيرة القاضية على الحركة .



## الباب السابع

### عهد الاحتلال البريطاني

( ١٨٨٢ - ١٩١٤ )

#### فاتحة العهد

##### محاكمة العراقيين :

بعد أن احتلت الجنود الانجليزية القاهرة ، ألقى الانجليز القبض على عرابي ومحمود سامي البارودي وعبدالعال حلمي وعلى فهمي وغيرهم من الزعماء ، وأودعهم السجن رهن المحاكمة ، ثم أصدر الخديوي الأوامر بتعيين حكام للديريات ، ممن لم يشتركوا مع عرابي وأنصاره ، وطلب اليهم القبض على كل من اشترك في الثورة . وكذلك صدرت الأوامر بتكوين لجان مختلفة ، بعضها للتحقق مما لحق سكان بعض البلاد من الخسائر ، وبعضها للنظر في أمر زعماء الثورة وأنصارهم . كما أن الأوامر صدرت بإلغاء الجيش المصري ، وصرف العساكر إلى بلادهم ، اكتفاء بمحاكمة الضباط ، ولكن ما لبث الخديوي أن أصدر أمرا بالعفو عن جميع الضباط ، الذين لم يصلوا إلى رتبة "بكباشي" ، مع تجريدتهم من رتبهم ، وحرمانهم من معاشهم .

استمرت اللجان تشغل في المهمة التي عهدت إليها ، في حين أخذ الخديوي يعمل بمساعدة قناصل الدول ، على تسكين الحالة المضطربة ، وتهئية الخواطر النائرة ، وأنعم على كثير من ضباط الجيش الانجليزي بالنياشين المختلفة ، كما أخذ في مكافأة من لم يمالي العراقيين ، من الشخصيات البارزة ، فمنح سلطان باشا عشرة آلاف جنيه ، جزاء إخلاصه إبان القلاقل الأخيرة . وفي أوائل ديسمبر ، أصدرت المحاكم أحكامها على زعماء الثورة وأنصارهم ، فحكمت على مئات من المصريين بالسجن أو بالنفي لمدد مختلفة . أما عرابي وعبدالعال حلمي وعلى فهمي



ومحمود سامى وطلبه عصمت ومحمود فهمى ويعقوب سامى ، فإنها حكمت عليهم بالإعدام ، ثم أبدل الحكم بتوسط الانجليز ، بالنفى المؤبد إلى جزيرة سيلان بالهند ، مع تجريدهم من الرتب والألقاب والنياشين ، ثم صادرت الحكومة جميع أملاكهم ، وقررت لهم راتباً سنوياً . ولبثوا في منفاهم حتى سنة ١٩٠١ ، حينما توسط ولى عهد إنجلترا إذ ذاك فى أمرهم ، بعد زيارته سيلان ، ومشاهدة ما كانوا يقاسونه من آلام ، فعفا عنهم الخديوى ، وعادوا إلى أرض الوطن .

### بعثة لورد دوفرين :

أرسلت الحكومة البريطانية عقب الاحتلال "لورد دوفرين" Lord Dufferin "سفيرها فى الآستانة إلى مصر ، لدرس الحالة فيها ، وتقديم تقرير بما يعن له من إصلاحات . وما لبث أن وصل إلى مصر ، وباشر أعماله بهمة ، واستمر



(لورد دوفرين)

يجتمع بالخديوى والوزراء ، ويتبادل معهم الآراء فى شؤون الإصلاح ، بعد أن درس حالة البلاد . وفى ٦ فبراير سنة ١٨٨٣ ، بعث بتقريره إلى لندن ، وكان يشمل عدة اقتراحات هامة ، كانت الأساس الذى قام عليه صرح الإصلاح فى عهد الاحتلال .



ويتناول تقرير اللورد حالة مصر السياسية والتمضائية والمالية ، وتتلخص  
أفراحاته ، في وجوب تكوين جيش وطني جديد ، يحل محل الجيش القديم ،  
ثم ضرورة إصلاح نظام الشرطة والمحاكم الأهلية وشؤون التعليم ، ووضع نظام  
يقضى بتشكيل هيئات نيابية ، ثم العمل على تحسين وسائل الري ، ومسح الأراضي  
وتخفيض الضرائب ، حتى تحسن حالة الفلاح . وبعد أن انتهى دوفرين من مهمته  
عاد إلى الآستانة ، وعهد بتنفيذ هذه المقترحات إلى معتمد بريطاني ، يعين  
في القاهرة ، ثم اختير لهذا المنصب "سير إلفن بيرنج Sir Evelyn Baring"  
وهو الذي أصبح اللورد كرومر فيما بعد . وقد تسلم منصبه في ١١ سبتمبر  
سنة ١٨٨٣

وكانت النتيجة الطبيعية للاحتلال البريطاني ، الاستغناء عن المراقبة الثنائية ،  
ولذلك صدر أمر الخديوى بإلغائها في ١٨ يناير سنة ١٨٨٣ ، بالرغم من احتجاج  
فرنسا ، واستعاض عنها الانجليز بتعيين مستشار مالي انجليزي للحكومة المصرية .  
وأُسند هذا المنصب "للسير أوكلند كلفن Sir Auckland Colvin" .  
انفسح بعد ذلك المجال للانجليز ، للقيام بالإصلاحات المقترحة ، فعهد في سنة  
١٨٨٣ إلى "سير إلفن وود Sir Evelyn Wood" ، بتنظيم الجيش الجديد ،  
وعين سردارا للجيش المصري ، وقد استعان في مهمته بكثير من كبار الضباط  
الانجليز . وكذلك أُسند إصلاح الشرطة إلى "الجنرال بيكر General Baker"  
الذي عين مفتشا عاما للبوليس سنة ١٨٨٢ ، وألحقت إدارتها بوزارة الداخلية .  
ووجهت الحكومة اهتمامها نحو إصلاح القضاء والتعليم . أما إصلاح حال الفلاح  
والأراضي الزراعية ، فكان أهم ماوجهت العناية إليه في عهد الاحتلال .  
وبعد إلغاء مجلس النواب القديم ، صدر الأمر الخديوى في أول مايو سنة ١٨٨٣ ،  
بتشكيل الهيئات النيابية الآتية :

### ١ — مجالس المديریات :

يشكل مجلس في كل مديرية ، ويكون له حق النظر في تقرير ضرائب فوق  
العادة ، إذا احتاج الأمر إلى ذلك ، لتصرف في المنافع العمومية بالمديرية ذاتها .  
ولا تكون قراراته في هذا الشأن قطعية ، إلا بعد موافقة الحكومة عليها . ولم  
ينفذ قانون هذه المجالس إلا في سنة ١٩٠٨



## ٢ — مجلس شورى القوانين :

ويتكون من ثلاثين عضوا ، منهم أربعة عشر معينون ، والباقيون ينتخبهم مجالس المديرية . واختصاصه النظر في كل قانون أو لائحة قبل تنفيذها ، وإن كان رأيه استشاريا فقط ، وكانت جلساته سرية .

## ٣ — الجمعية العمومية :

وعدد أعضائها اثنان وثمانون ، منهم ستة وأربعون منتخبون ، لمدة ست سنوات ، ينضم إليهم أعضاء مجلس الشورى والوزراء الستة . وكانت جلساتها سرية ، وتجتمع مرة في كل عامين . ولا يجوز تقرير ضرائب جديدة إلا بعد عرضها على الجمعية وموافقتها عليها .

وقد عاق سبيل الإصلاح فترة من الزمن ثورة كبيرة ، التهمت زيرانها في أنحاء السودان ، هي الثورة المهدية .

## الثورة المهدية

### أهم أسباب الثورة

( ١ ) محاولة الحكومة المصرية منع تجارة الرقيق ، فقد أوغرت صدور تجار الرقيق ضدها ، بمحاولتها سلبهم موردا عظيما من موارد الرزق ، ومصدرا كبيرا من مصادر السيطرة والحكم ، إذ كان هؤلاء النخاسين والتجار سلطان واسع ، وهيبة عظيمة في أنحاء السودان ، تدين لهم آلاف العبيد والأتباع ، فكان مسلك الحكومة معهم ، من أهم الأسباب التي أدت إلى الثورة .

( ٢ ) سوء معاملة جبابة الضرائب وحكام الأقاليم من الأتراك لأهالي السودان ، فكانوا يشتطون في جمع الضرائب ، حتى صار عبؤها ثقيلا .



وقد ساعد على حدوث ذلك ، انشغال ولاية مصر بالشؤون الأخرى التي عرفناها ، والتي كانت في نظرهم أولى بالاهتمام . وقد رأينا كيف أن سعيدا كان يبغى الإصلاح في تلك البلاد ، ولكن جهوده كانت محدودة بإزاء بلاد مترامية الأطراف ، مع صعوبة طرق المواصلات ، ولذلك كثرت القلاقل والفتن ، التي شغلت وقتا كبيرا من ولاية هذا الإقليم .

( ٣ ) انتظار المسلمين ظهور المهدي ، فقد عمت فكرة في أوائل عهد الإسلام ، من ماها أنه سيظهر رجل يملأ الأرض بعديله ، بعد أن يكون قد عم الظلم والفساد ، فيؤيد الإسلام ويهدي الناس سواء السبيل . وكانت هذه الفكرة موضع جدل كبير بين علماء المسلمين ، فأيدها بعضهم وكذبها آخرون ، ولكن أخذ أحد السودانيين ويدعى "محمد أحمد" ، يثبت فكرة ظهور المهدي بين مواطنيه ، حتى أصبح الجميع ينتظرون ظهور ذلك المهدي ، ليخلصهم من ظلم الحكام الأتراك وإرهاق الحياة . وانتشرت فكرة ترمي إلى أن هذا المهدي سيكون من بين السودانيين .

### محمد أحمد المهدي :

ولد في مدينة دنقلة سنة ١٨٤٣ ، وكان أبوه نجارا يرتزق من صنع المراكب



( محمد أحمد المهدي )

والسواقي ، ولما ضاقت به الحال في بلدة رحل عنه إلى شندي والخرطوم ، ثم مات الوالد وترك الولد طفلا ، فكفله عمه ، وكان نجارا مثل أبيه وعلمه صناعته ، ولكنه غضب من عمه ذات يوم فقرضه ، وخصص وقته بعد ذلك لدراسة القرآن الشريف ، وتفهم قواعد الدين وأصوله ، وكان ميالا إلى التدين من صغره . وسرعان ما اشتهر بين الناس بشدة التقوى

والورع والصلاح ، وامتاز بتقشفه وزهده . وفي سنة ١٨٧١ ، استوطن مع



إخوته جزيرة "أبا" في النيل الأبيض ، جنوب الخرطوم ، ومن ذلك الوقت بدأ يزداد صيته ، وأمنه الكثيرون للتبرك بصلاحه ، أو الاستفادة بعلمه وإرشاده ، فكثرت تلاميذه ، وزادت ثروته ، وعظم جاهه ، لا سيما بعد أن تزوج من بنات كبار الرؤساء في قبائل البقارة ، وأصبح يطلق على أتباعه لفظة "ال دراويش" .

ولم يلبث أن حدثته نفسه أن يكون "المهدى المنتظر" . وأظهر دعواه لتلاميذه سرا ، في أواسط سنة ١٨٨١ ، وأخذ بعد ذلك يكتب الفقهاء والزعماء ، ينبئهم بأنه هو ذلك المهدى ، ويدعوهم إلى طاعته . فلما وصل خبر ذلك إلى حاكم السودان "رؤوف باشا" في يولييه سنة ١٨٨١ ، بعث في طلبه إلى الخرطوم ، ولكنه أبى إجابة الطلب ، وأصر على صحة دعواه ، فأرسل الحاكم قوة من الجنود للقبض عليه ، ولكن أتباعه انقضوا عليها وبددوا شملها . وعند ذلك قرر أن يهاجر إلى الجنوب ، فهاجر إلى "جبل قدير" ، ومنذ ذلك الوقت ، بدأ نجمه يعلو ويسطع ، وأخذ نجم السلطة المصرية هناك في الـ قول .

### أهم العوامل التي ساعدت على نجاح الثورة :

( ١ ) استخفاف الحكومة بشأن المهدى عند ظهوره ، فكانت انتصاراته الأولى على قوى الحكومة الصغيرة ، التي كانت توجه ضده ، عاملا كبيرا على نشر نفوذه وتمسك أتباعه به ، وانضمام آخرين تحت لوائه .

( ٢ ) ارتباك الحالة السياسية في مصر ، عند ظهور بواذر هذه الثورة ، فكان الناس مشغولين بمحوادث مصر والثورة العرابية عن اضطرابات السودان .

( ٣ ) قلة عدد الجنود المصرية في السودان ، فإنه على اتساعه العظيم ، لم يكن به أكثر من ٤٠.٠٠٠ جندي موزعة في ١٥ مديرية ، وليس لديها ما نحتسب فيه من الحصون المنيعة .

### الثورة :

أخذ أمر الثورة يستفحل شيئا فشيئا ، وانضم الكثيرون إلى المهدى بعد "الهجرة" ، وأخذ الحاكم يستنجد بالحكومة المصرية فلم تجده ، ونما ظنت فيه الضعف باستدعاه ، وعينت مكانه "عبد القادر باشا حلمي" في أوائل



عام ١٨٨٢ . وبالرغم من انتصار الوالى الجديد على أتباع المهدي ، فى بعض مواقع صغيرة ، استمرت قوة الثائرين فى الزيادة ، وتضاعف أنصار المهدي ، وتبعه خلق كثير ، فاتهز فرصة تباطؤ الحكومة واضطرابها وبعث بقواته إلى "الأبيض" ، فاستولت عليها فى يناير سنة ١٨٨٣ ، وأصبح منذ ذلك التاريخ حاكما على كردفان ، ثم بعث بأعوانه يبنون الدعوة والثورة فى دارفور وبحر الغزال ، فصادفوا نجاحا فى مهمتهم .

وكان لسقوط كردفان فى يد المهدي ، أثر سيئ فى نفوس رجال الحكومة المصرية ، الذين وجدوا أنفسهم بإزاء هذه الحوادث فى مركز حرج ، فالقوات المصرية فى السودان كانت ضعيفة الشأن ، ومصر نفسها كانت بلا جيش إثر حل الجيش القديم ، فى حين أن خزانة الدولة كانت خاوية . ولكن بالرغم من ذلك قامت الحكومة المصرية فى ربيع سنة ١٨٨٣ بإعداد جيش ، تألف معظمه أو كله من جنود الجيش القديم ، وجعل على رأسه بعض الضباط الانجليز ، وأسندت رئاسة الحملة إلى "هكس باشا Hicks" الانجليزى ، وعين وكيلا لها "علاء الدين باشا" التركى ، الذى حل محل عبد القادر حليمى ، فى فبراير سنة ١٨٨٣ ، بعد استدعائه .

خرجت الحملة من الخرطوم فى سبتمبر عام ١٨٨٣ ، ووصلت إلى "الدويم" دون أن تلقى مقاومة فى سبيلها ، ولكنها بعد أن تركت النيل ميمية وجهها نحو "الأبيض" ، لاقت أشد الصعاب فى طريقها ، وقاسى الجنود كثيرا من حرارة الصحراء والظما المضنى ، وانقضت عليهم فى الطريق جموع من الدراويش كانت كامنة لهم ، فأفنت الجيش إلا أفرادا تمكنوا من الفرار .

وكان لانتصار المهدي على حملة "هكس" دوى هائل فى أنحاء السودان ، فقد جعل الحكومة فى الخرطوم تحت رحمة ، وانضم إليه الكثير من القبائل التى كانت مترددة تنتظر نتيجة الحملة ، كما أن "سلاطين بك" ( سلاطين باشا فيما بعد ) سلم "دارفور" للمهدي . أما فى القاهرة ، فقد انزعج أولو الأمر عند ما وصل إلى علمهم خبر هذه الفاجعة ، فى نوفمبر سنة ١٨٨٣ ، لأنهم كانوا يقدرّون النتائج السيئة التى ستنتج عنها .



## إخلاء السودان :

عندما رأى الانجليز عجز الحكومة المصرية، عن تثبيت سلطائها في السودان، وأنه ليس لديها ما يكفي من المال والجند، لاستعادة مركزها هناك، نصحوها بإخلائه حتى تتحسن حالتها وتتجدد قوتها، فتستطيع أن تسترده من جديد، ولكن "شريف باشا" رئيس الوزارة رفض أن يعمل بهذه النصيحة، لضرورة بقاء السودان جزءا من مصر، لأن به مياه النيل ومنابعه، ولأنه رأى أن إخلاءه يسقط حق مصر فيه، ويجعله نهبا للدول المختلفة، ولذلك استقال شريف، وخلفه "نوبار"، فوافق الحكومة الانجليزية على رأيها، وفي ٨ يناير سنة ١٨٨٤ أصدرت الحكومة المصرية أمرا بإخلاء السودان، من خط الاستواء إلى جنوب وادي حلفا، وقر الرأي على إرسال "غردون باشا Gordon" للقيام بهذه المهمة، فسافر إلى الخرطوم، لتنفيذ خطة الجلاء.



(غردون باشا)

كان نفوذ المهدي في تلك الأثناء آخذا في الازدياد، واستمرت سلطته تنتشر، حتى وصلت إلى السودان الشرقي، وعمت الثورة أنحاء، بفضل مجهودات رجل من سلالة تركية قديمة، اسمه "عثمان دقنة"، لأنه كان ناقما على الحكومة وقوفها في وجه تجارة الرقيق.

وفي غضون ذلك، كان غردون قد بلغ الخرطوم، في فبراير سنة ١٨٨٤، وأخذ يلاطف الناس ويجاملهم، ويعمل على إرضائهم، فاطمأنت النفوس

لقدومه، واستبشروا بولايته خيرا. وبعد أن أقام قليلا في ربوع السودان، استولى عليه الاعتقاد بأن قوة المهدي هينة، ويمكنه سحقها، وكتب برأيه هذا مرارا إلى القاهرة، يطلب إرسال جيش يقضى به على الثائرين، ويثبت قدم الحكم المصري بدلا من إنهائه، ولكنهم أوصدوا هذا الباب في وجهه، وأفهموه إصرارهم على قرارهم. عند ذلك رأى أن إخلاء السودان وتركه تحت



رحمة المهدي وأتباعه من الدراويش ، يسبب الارتباك والفوضى ، ويمدد سلامة مصر من الجنوب ، ولذلك اقترح مرارا إرسال "الزير باشا" إلى السودان ، لكي يساعد في مهمة الجلاء ، ثم تعهد إليه حكومة السودان بعد ذلك ، ولكن نصيب هذا الاقتراح كان كنصيب أخيه .

ولا شك في أن هذه المخبرات استغرقت عدة أشهر ، كان يحاول فيها غردون أن يسترد إخلاص بعض القبائل إلى الحكومة ، ولكن عبثا حاول ، فقد أصبح نفوذ المهدي يقوى يوما بعد يوم ، وانضمت القبائل التي تسكن الجهات الواقعة بين بربر والخرطوم إلى المهدي ، في مايو سنة ١٨٨٤ ، وبذلك أصبح غردون في خطر محقق ، ولم تكن تعلم الحكومة الإنجليزية بالخطر الذي أحرق به ، حتى أسرع في إرسال حملة من القاهرة لإتقاذه ، غير أن هذه النجدة لم تصل إلى الخرطوم إلا في ٢٨ يناير سنة ١٨٨٥ ، وكانت المدينة قد سقطت في يد الدراويش قبل ذلك بيومين ، وقتل غردون . ولم يمض بعد ذلك زمن طويل ، حتى تم إخلاء السودان ، فأخليت مدينة "دققة" في ٥ يولييه ، وأصبحت حدود مصر الجنوبية عند وادي حلفا .

وقد زادت ثقة السودانيين بالمهدي ، بعد سقوط الخرطوم ، واشتد ساعده بكثرة أتباعه ، وساد الاعتقاد بأنه سيفتح بقاع الأرض ، ويستولى على الحرمين الشريفين . ولكن ما لبث أن لحقته منيته في عاصمة ملكه ، "أم درمان" ، في ٢١ يونيو سنة ١٨٨٥ ، ودفن بالحجرة التي مات فيها ، وأقيمت عليها قبة نخمة ، وأصبح ذلك القبر قبلة السودانيين وموضع إجلالهم ، وكانوا يقصدونه للاستغاثة والتبرك . وقد خلفه "عبد الله التعايشي" على حسب وصيته ، فبايعه الدراويش وسموه "خليفة المهدي" .

### ما بين إخلاء السودان واستعادته :

كانت فكرة الاستيلاء على مصر ، أول ما خطر ببال التعايشي ، بعد أن أسندت خلافة المهدي إليه ، فأعد حملة للإغارة عليها . ولكن الجيش الجديد كان قد تم تدريبه ، فخرجت فرق منه وهزمت جيوش الخليفة ، في ٣٠ ديسمبر سنة ١٨٨٥ ، فانسحبت قواته ريثما يتم له الاستعداد ، فيعيد الكرة . ومن ثم أخذ يسط نفوذه



في السودان ، حتى أصبح معظمه تحت سلطته . ولكن المقاطعات النائية ، وقعت غنيمة للدول ، فاستولت إيطاليا على "مصوع" وما جاورها ، وضمت "بوغوس" و "هرر" الى الحبشة ، ووضعت انجلترا يدها على "بربرة" و "زيلع" و "أوغندة" ، واستحوذت بلجيكا على "الكنغو الحرة" وبعض الأصقاع المجاورة ، في حين بدأت فرنسا تنفذ أطماعها في بحر الغزال والنيل الأبيض .



(عبد الله التعايشي)

ولما أتم التعايشي إعداد الحملة الجديدة ، غزت جيوشه مصر في مايو ١٨٨٩ ، ولكنها هزمت شر هزيمة في موقعة "توشكي" . وكان لخبر هذه الهزيمة أثر سيئ في نفوس أتباعه ، وكان قد بدأ يدب بينهم التحاسد والتنافس والنزاع ، فبدأت تتسرب عوامل الضعف الى صفوفهم . ولما رأت الحكومة أن قواتهم في السودان الشرقي ، أصبحت خطرا على "مواكن" ، أرسلت عليهم حملة في سنة ١٨٩١ ، أنزلت بهم الهزيمة عند "طوكر" ، وهدأت نائرة السودان الشرقي .

### إعادة فتح السودان :

لم يمض إلا بضع سنوات على إخلاء السودان ، حتى تجمعت عدة ظروف أدت الى التفكير في إعادة فتحه ، ففكرت انجلترا في تكوين جيش مشترك من الانجليز



والمصريين لهذه الغاية . ومن أهم الأسباب التي أدت الى ذلك ، الرغبة في القضاء على فوضى الثائرين في السودان ، وكانت تهدد سلامة مصر من الجنوب ، ثم رغبة انجلترا في الوقوف في وجه فرنسا ، التي كانت قد شرعت في الاستيلاء على بحر الغزال والنيل الأبيض ، وكذلك رأت انجلترا أن في وجودها بالسودان فرصة لسبق الدول في استعمار افريقيا ، والتسيطر على طريق القاهرة والكاب ، قبل أن تقع أجزاء منه في يد غيرها من الدول الأوروبية . كما أنها رأت في مباشرة هذا الفتح ، إطالة لأمد احتلالها لوادي النيل ، وتبريرا لموقفها في مصر أمام الدول ، زيادة على ما كانت تتوقعه من نشر نفوذها في بلاد السودان ، وبسط سلطانها عليه . وحدث كذلك أن تحالف الدراويش مع الأحباش ، وأخذوا يغيرون على أملاك ايطاليا ، وهزموا جيوشها ، في مارس سنة ١٨٩٦ ، فطلبت ايطاليا من انجلترا أن تساعدتها بإرسال حملة تسترد السودان ، فتشغل الدراويش عن المستعمرات الايطالية في مصوع والأريتريا



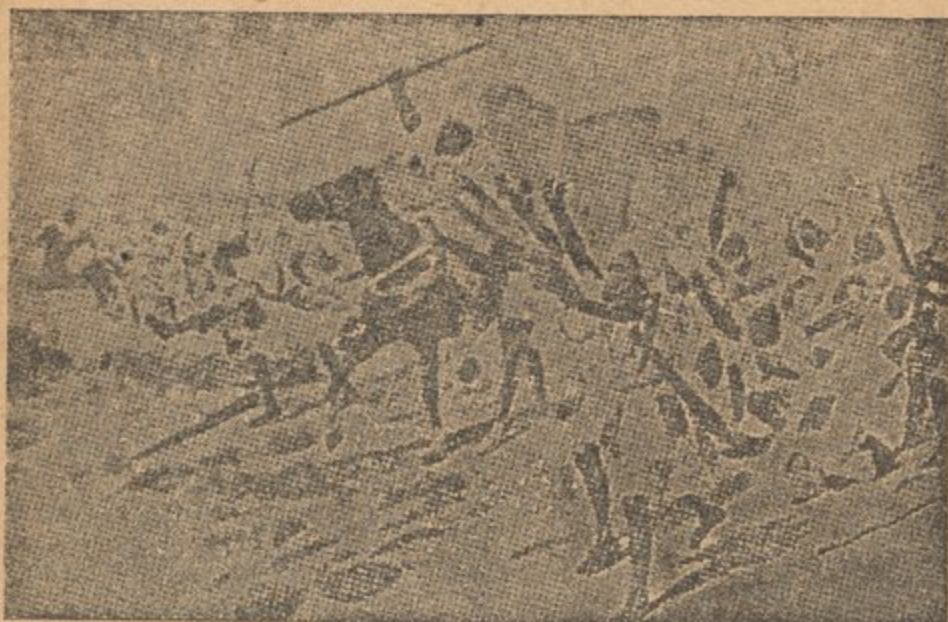
(لورد كتشنر)

كل هذه الظروف مجتمعة ، عززت فكرة إرسال حملة إلى السودان . وتألفت الحملة من الجيش المصرى الحديد ، وبعض الفرق الانجليزية ، وبلغ عدد الجيش نحو عشرين ألف مقاتل ، وأسندت قيادة الحملة الى السير "هربرت كتشنر Herbert Kitchener" ، سردار الجيش المصرى إذ ذاك . وغادر الجيش القاهرة قاصدا "دقلة" ، فاستولى عليها في ٢٣ سبتمبر سنة ١٨٩٦ ، ووقعت المديرية بأكملها في يد الجيش الفاتح ، بعد أن انجلت عنها قوات التعاضد ، وتقدم الجيش

بعد ذلك نحو الخرطوم ، فاستولى على "أبي حمد" و "بربر" ، في أغسطس سنة ١٨٩٧ ، ثم أرسل في طلب المدد من مصر ، ولما وصل اليه المدد تقدم نحو "النخيلة" على نهر عطبرة ، حيث التقى بجيش من الدراويش في ٨ أبريل سنة ١٨٩٨ ، واشتبك معه في موقعة لم تدم أكثر من أربعين دقيقة ، وفيها تشتت قوات



الدرأویش . ولم تلبث القوات المصرية الانجليزية أن اشتبكت معهم في موقعة "أم درمان" في ٢ سبتمبر ، وكانت موقعة فاصلة ، قضت على قوة الدراویش ونفوذهم ، إذ فر بعدها "عبد الله التعايشي" ، ولما جمع جموعه لمهاجمتها في السنة التالية ، ألهزم جيشه شر هزيمة ، وقتل هو في نوفمبر سنة ١٨٩٩ ، وبموته انقضت دولة الدراویش .



(واقعة أم درمان)

أما "كتشنر" فإنه دخل الخرطوم في سبتمبر سنة ١٨٩٨ ، على أثر موقعة أم درمان ، ورفع العلمين المصري والانجليزي على مركز الحكومة بها . وقد كافأته الحكومة الانجليزية على ما أتاه من نصر ، فمنحته لقب "لورد الخرطوم" . ومما يجدر ذكره ، أن الجيش الفاتح كان يستعين في أثناء تقدمه بمد الخطوط الحديدية ، لينضم من سهولة النقل والاتصال وسرعتهما ، ويحافظ في الوقت ذاته على خط الرجعة ، وبانتهاء الفتح كان قد تم الخط الحديدي بين وادي حلفا و "كرما" ، ثم الخط الآخريين وادي حلفا وعطبرة مارا بأبي حمد وبربر .

#### حادثة فاشودة :

وبعد أن استولى "كتشنر" على أم درمان بخمسة أيام ، بلغه خبر سقوط "بفاشودة" في يد الفرنسيين ، بقيادة "مارشان Major Marchand" ، فسار



في النيل جنوبا ، مستصحباً بعض الجنود في مراكب مسلحة ، حتى وصل إلى المدينة ، ورفع العلم المصري عليها ، ثم قابل "مارشان" وحادثه في شأن إخلاء تلك المنطقة . وقد هاج الرأي العام في إنجلترا ، بسبب مسلك فرنسا هذا ، وأخذت كل من صحافة البلدين تناصر حكومتهما ، ولكن فرنسا خضعت في النهاية ، وأمضت مع إنجلترا اتفاقية سنة ١٨٩٩ ، التي تنازلت بمقتضاها عن منطقة فاشودة ، على أن تأخذ إقليم "واداي" .

### اتفاقية السودان :

وفي ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ ، تم الاتفاق بين الحكومتين الانجليزية والمصرية على تحديد موقفهما في السودان ، فاتفقتا على أن يكون حكمه بالاشتراك بين إنجلترا ومصر ، وأن يعين الخديو الحاكم العام بعد موافقة إنجلترا ، وأن يخرج السودان من اختصاصات المحاكم المختلطة ، ولايسرى فيه نظام الامتيازات ، كما ألغيت سيادة تركيا عليه .

وأُسندت إدارة السودان إلى "اللورد كتشتر" ، فعمل على تحسين حالته الاقتصادية والاجتماعية ، ونشر لواء الأمن والطمأنينة في ربوعه . وقد تحملت الخزينة المصرية أموالاً طائلة ، في سبيل إصلاح السودان ، وبسط سلطة الحكومة في أنحائه .

## مركز الاحتلال في مصر

### المالية المصرية :

كادت تستقر الحالة المالية في مصر على أساس متين ، منذ صدور قانون التصفية ، بالرغم من بعض شروطه الثميلة ، غير أن تقلب الظروف السياسية ، مما أدى إلى حدوث الثورة العرابية ، وما نشأ عنها من الاحتلال ، والمصاريف الباهظة التي صرفت في هذا السبيل ، والمبالغ الطائلة التي استدعتها حروب السودان ، كل هذا سبب عجزاً كبيراً في الميزانية ، واضطراباً شديداً في الحالة



المالية ، فقلقت إنجلترا لذلك ، وخافت أن تؤدي هذه الحالة إلى الإفلاس التهاى ، وهى المسئولة أدبيا عن حالة البلاد ، ولذلك فكرت فى عقد قرض جديد بضمانتها ، لكى يعينها على تلافى العجز ، ودخلت فى مفاوضات طويلة مع الدول للوصول إلى هذه الغاية . وانهت تلك المجهودات " باتفاقية لندن " فى ١٨ مارس سنة ١٨٨٥ ، وبمقتضاها عقد قرض جديد ، بمبلغ تسعة ملايين من الجنيهات ، مع " روتشلد " بفائدة  $3\frac{1}{4}\%$  . بضمانة الدول . وأعطيت الحكومة الحرية ، فى بيع أراضى الدائرة السنية بالوجه القبلى ، ومصلحة الدومين بالوجه البحرى ، كما أنها منحت الحق فى فرض ضرائب المباني على الأجانب أسوة بالوطنيين .



(لورد كرومر)

وبإيعاز من فرنسا ، أدخل على الاتفاقية شرط ، يقضى بأنه إذا لم تتحسن المالية فى خلال ثلاث سنوات ، يكون للدول الحق فى التدخل لتنظيمها ، ولذلك أخذت الحكومة تسير بروية ، سالكة سبيل الاقتصاد ، ولو أنها لم تضمن المال على تحسين حالة الرى ، الذى يعتبر العامل الأول فى زيادة الثروة فيما بعد . وطرق اللورد كرومر عدة أبواب لزيادة دخل الحكومة كما سيجى .

### الدول وقناة السويس :

وكان من جراء الاحتلال كذلك ، أن أصبحت الدول ، وبالأخص فرنسا ، قلقة على مصير هذه القناة ، وخافت أن تستأثر بها إنجلترا ، لاسيما وأنها كانت تملك ما يقرب من نصف الأسهم ، وأكثر من ثلثى التجارة المارة بها . ولحل هذه المسألة ، عقد مؤتمر فى الآستانة ، من ١٨٨٥ إلى ١٨٨٨ ، لتقرير مركز القناة من الوجهة الدولية ، وانتهى المؤتمر " باتفاقية الآستانة " ، فى أكتوبر سنة ١٨٨٨ ، التى تقررت بمقتضاها حيدة القناة ، وفتحها لمرور سفن جميع الدول فى وقت السلم . أما فى وقت الحرب ، فيسمح لسفن الدول المتحاربة



بالممرور ، على أن لا تقوم بأى أعمال حربية فيها ، ولا على بعد ثلاثة أميال بحرية من طرفيها الشمالى والجنوبى . وتقرر كذلك ألا يسمح لهذه السفن بالبقاء فى الموانئ المصرية ، أكثر من أربع وعشرين ساعة ، وأعطى للحكومة المصرية الحق ، فى القيام بأى عمل تراه ضروريا لسلامة القناة .

### تركيا والاحتلال :

لم تسكت تركيا عن الاحتجاج على احتلال إنجلترا لمصر ، منذ أن حدث ذلك فى سبتمبر سنة ١٨٨٢ ، واستمرت إنجلترا تعلن وعودها المتكررة بالجلاء ، تهدئة لحاظ الدول ، وعلى الأخص تركيا وفرنسا . ولما رأت إصرارا من تركيا على خطتها ، رأت أن تفاوضها فى الموضوع ، للوصول إلى اتفاق يرضى الطرفين ، فتقرر فى أكتوبر عام ١٨٨٥ ، أن ترسل كل من الدولتين مندوبا عنها إلى مصر ، لدرس حالة البلاد والوصول إلى اتفاق بشأنها . واستمرت المفاوضات طويلا بين الجانبين ، ولكنها فشلت فى النهاية عام ١٨٨٧ ، برفض تركيا للشروط التى قدمتها إنجلترا ، وأهمها أن يكون لإنجلترا الحق فى احتلال مصر من جديد بعد الجلاء ، إذا حدثت بالبلاد فتنة ، أو هددتها إحدى الدول الأجنبية ، لأن تركيا كانت تعتقد أن هذا الحق لها دون سواها ، بصفتها صاحبة السيادة الشرعية على البلاد . وكان لفرنسا والروميا ضلع كبير فى فشل هذه المفاوضات ، إذ يهملها ألا تعترف تركيا لإنجلترا بأى مركز شرعى فى مصر ، حتى يمكنهما الاعتراض على احتلالها غير الشرعى ، وعرقلة سياستها وأعمالها فى البلاد .

### اتفاقية سنة ١٩٠٤ :

واستمرت فرنسا ناقمة على إنجلترا استئثارها بمصر ، وأخذت تعمل على إفساد سياستها وعرقلة أعمالها بوادى النيل ، حتى سنة ١٩٠٤ ، ففى ٨ أبريل من تلك السنة ، عقد "الاتفاق الودى" الشهير بين إنجلترا وفرنسا ، وفيه تعهدت فرنسا بإطلاق يد إنجلترا فى مصر ، نظير تعهد إنجلترا بإطلاق يد فرنسا فى أمراكش . ووافقت فرنسا كذلك ، على أن يرد جميع دخل الحكومة المصرية ( فيما عدا ما يخص الدين ) ، إلى خزانة المالية ، بعد أن كان يحجز جزء منه فى صندوق الدين . كما أن الحكومة تسلمت المبالغ ، التى كانت متوفرة فى صندوق الدين ، لاستغلالها لمصلحة البلاد .



## الحركة الوطنية

لم يسكت المصريون على الحالة الجديدة ، التي نشأت منذ عام ١٨٨٢ ، بل أخذوا يقاومون السلطة المحتلة بكل الوسائل . ويمكننا تقسيم المدة ما بين ١٨٨٢ و ١٩١٤ فترتين ، ففي الفترة الأولى ، وهي الواقعة ما بين ١٨٨٢ و ١٨٩٥ ، كان النزاع واقعاً بين الحكومة وممثلي الاحتلال في البلاد ، وفي الفترة الثانية ، تمتد من ١٨٩٥ إلى ١٩١٤ ، أصبح هذا النزاع بينهم وبين الأمة ، ممثلة في أحزابها وزعمائها .

### الفترة الأولى

في عهد توفيق :

كان على رأس حكومة البلاد الخديوى ، وكان يدير شؤونها وزراء مصريون ، غير أن العميد البريطانى أراد أن يجمع زمام السلطة في يده ، فيكون هو الحاكم الفعلى للبلاد ، ويساعده في تنفيذ خطته كثير من الموظفين البريطانيين ، وكان قد بدأ يدخلهم خدمة الحكومة المصرية وكلاء وزارات أو مستشارين أو مديري مصالح أو موظفين عاديين . ومن هنا نشأ الخلاف بين العميد وموظفى الحكومة الوطنيين ، أما الخديوى توفيق فكان مسالماً ، ولم يحدث بينه وبين العميد نزاع ما .

بدأ النزاع بين الجانبين في أواخر سنة ١٨٨٣ ، حينما أشارت الحكومة الانجليزية على الحكومة المصرية بإخلاء السودان كما أسلفنا ، فإن "شريف باشا" رئيس الوزارة إذ ذاك رفض أن يأخذ بهذه النصيحة ، ولما رأى من الانجليز إصراراً على تنفيذ رغبتهم اضطر للاستقالة . وفي هذا الوقت كذلك ، قرر الانجليز أنه يجب على الوزراء المصريين قبول نصائحهم ، دون تردد أو إبداء معارضة ، وقد احتج سرتف على مسالك الحكومة الانجليزية قائلاً : "ولا يخفى أن هذه الاقتراحات مخالفة لفحوى النظمات الشورية ، الصادرة في ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٨ ، التي نص فيها على أن حكم البلاد يكون باشتراك الخديوى مع النظار" . وشكل الوزارة



الجديدة "نوبار باشا" ، الذي وافق على إخلاء السودان في يناير سنة ١٨٨٤ كما تقدم. وبدأ الانجليز يحتلون المراكز الرئيسية في الحكومة ، ليسيطروا على كل فروعها ، وكان تعيين "سير جون سكوت Sir John Scott" مستشارا قضائيا لوزارة الحقانية سنة ١٨٩١ ، سببا في استقالة نخرى باشا وزير الحقانية ، ثم "رياض باشا" رئيس الوزارة ، وكان قد خلف "نوبار" منذ شهر يونيه سنة ١٨٨٨ . ثم تآلفت الوزارة الجديدة في مايو سنة ١٨٩١ برئاسة مصطفى فهمي باشا .

### في أوائل حكم الخديوي عباس :

وبموت توفيق ، تولى بعده ابنه الأكبر "عباس حلمي الثاني" ، في ٨ يناير سنة ١٨٩٢ ، وكان شابا متعلما تعليما أوربيا ، تلقاه حاسة الشباب ، ويمتلكه



(عباس حلمي الثاني)

حب الاستئثار بالسلطة ، فلم يكديتولى العرش ، حتى قام النزاع بينه وبين "كرومر" . وقد ظهر ذلك جليا في مسلك الخديوي نحو رئيس وزرائه "مصطفى فهمي" ، فإنه كان يكرهه لميله إلى الإنجليز ، ولذلك أراد أن يتخلص منه ،



فلو عز إليه أن يستقيل ، ولما لم يقبل ذلك عزله من منصبه ، وعين  
"نخري باشا" مكانه ، في يناير سنة ١٨٩٣ . وكان لهذه الخطوة الحريثة دوى  
كبير في الدوائر الحكومية بلندن ، وأرسلت الحكومة الانجليزية بسببها ، برقية  
إلى المعتمد في ١٦ يناير ، تقول فيها ، إنها لا توافق على تعيين نخري باشا ، وتتنظر  
من الخديوى أن يأخذ رأيها في مثل هذه المسائل الهامة . وبإزاء ذلك اضطر  
الخديوى أن يخضع ، فعزل "نخري" وعين رياضاً مكانه ، ثم تعهد بأن يأخذ رأى  
الحكومة الانجليزية عند تشكيل كل وزارة . ولكن "رياضاً" تضامن مع  
الخديوى ضد التدخل الأجنبي ، وعم البلاد شعور استياء ، اضطرت إنجلترا بإزاءه  
أن تقرر زيادة عدد جيش الاحتلال . ولكن بالرغم من ذلك استمر موظفو  
الحكومة ، وعلى رأسهم رياض ، يحاربون التدخل الأجنبي .

ولم يمر وقت طويل ، حتى وقعت "حادثة الحدود" ، في يناير سنة ١٨٩٤ ،  
وذلك أن الخديوى سافر في تلك السنة إلى أسوان ووادي حلفا ، وكان يصحبه  
وكيل الحربية ماهر باشا ، وهناك استعرض الجنود المصرية ، ولم يسره مارأى ،  
فوجه عدة انتقادات إلى "كتشنر" ، سردار الجيش المصرى ، مظهرا استياءه  
من حالة الجيش ، فقدم السردار استقالته . ولكن المعتمد البريطانى في القاهرة  
غضب لذلك ، واهتمت حكومته للأمر ، وعدت هذا النقد إهانة لحقت بالضباط  
البريطانيين . وترضية لهم ، أرغم الخديوى على عزل ماهر باشا ، وتوجيه خطاب  
شكر للسردار في الوقائع المصرية ، مثنيا على الخدمات التى أداها للجيش المصرى  
بمساعدة الضباط الانجليز ، فكانت هذه لطمة لكبرياء الخديوى .

واستقال رياض في أبريل سنة ١٨٩٤ ، وخلفه نوبار ، غير أنه أحيل على  
المعاش في السنة التالية ، وتولى رئاسة الوزارة "مصطفى فهمى" ، وبقي في هذا  
المنصب ثلاث عشرة سنة . ومن هذا الوقت ، خضع الوزراء وكبار موظفى  
الحكومة لإرادة العميد وأعوانه من الانجليز ، وأصبح "كرومر" هو الحاكم  
الفعل للبلاد .



## الفترة الثانية

خضع رجال الحكومة إلى السلطة المحتلة كما رأينا ، ولكن ما لبث أن ظهر في هذه الفترة زعيم وطني كبير ، وشاب نابذ ذكي ، ذلك هو "مصطفى كامل باشا" (١٨٧٤-١٩٠٨) .

### مصطفى كامل باشا

ولد مصطفى كامل سنة ١٨٧٤ ، وهو نفس العام الذي ولد فيه الخديوي



عباس حلمي الثاني ، وكان أبوه مهندسا ، توفي بعد أن أتم ابنه مرحلة التعليم الابتدائي فكفله أخوه حسين واصف ، وأدخله التعليم الثانوي ثم مدرسة الحقوق ، وكان وهو طالب في الحقوق ، ينشر الرسائل والمقالات في الصحف ، ويذكر بعض المؤرخين أن الخديوي عباس مصطفىاه مع غيره من الشبان ، عند ما أنس فيه النجاسة والإقدام ، فعاونته في أيام الدراسة وبعدها ، واستخدمه بعد تخرجه في مهمات سياسية في أوروبا .

(مصطفى كامل باشا)

وفي سنة ١٨٩٢ ، قصد مصطفى

كامل إلى فرنسا ، ليؤدي امتحان الحقوق في باريس ، وهناك تأثر بالحياة الفرنسية ، واغترف من مناهل الحرية . وفي سنة ١٨٩٤ نال إجازة الحقوق من "تولوز" .

كان مصطفى كامل في المدرسة طالبا ناهيا جريئا ، وقد حدث به جرأته أن ذهب بنفسه ، وهو في التعليم الثانوي ، إلى ناظر المعارف ، وكان حينذاك



”على باشا مبارك“ ، وشكا إليه صعوبة أنظمة الامتحان ، لأنه رسب وزملاء له فيه ، فأعجب وزير المعارف بتلك الروح الوثابة في الطالب الجريء ، ووعد بالنظر في الموضوع ، فعدل في أنظمة الامتحان ، ونجح مصطفى وزملاؤه . وأنشأ مصطفى وهو طالب بالحقوق مجلة ، كان رئيس التحرير فيها ، وجعل نفسه قدوة حسنة لزملائه ، الذين ساعدوه في تحريرها .

وكان مصطفى كامل يضم بين جنبيه نفسا نزاعة إلى الوطنية ، وقد اجتمعت فيه صفات الزعامة ، فكان ثابت الإيمان راسخ العقيدة الوطنية ، شديدا لاختلاص لبلاده ، جريئا فصيحيا واسع الآمال ، وقد وهب نفسه للدفاع عن القضية الكبرى — قضية الوطن — فقام في أواخر القرن التاسع عشر ، يناهض الاحتلال ويحاربه ، وكثيرا ما خطب في مصر : يستنهض روح مواطنيه ، ويظهر معائب الاحتلال ، وكثيرا ما جال في عواصم أوروبا ، بنشر الدعوة لمصر في باريس وبرلين وفيينا والآستانة ، ويندد بالاحتلال البريطاني ، ويذكر الانجليز بوعودهم الكثيرة بالجلاء .

وقد حصر مصطفى كامل مطالبه في نقطتين — الجلاء والدستور ، ويظهر أنه لم يرم في سياسته إذ ذاك إلى استقلال مصر استقلالا تاما ، بالمطالبة بانفصالها عن تركيا ، وذلك راجع إلى أنه لم ير من السياسة أن يناهض دولتين في آن واحد ، وربما يكون قد خاف أيضا ، أن ينفض الكثيرون من حوله ، إذا هو دعا إلى هذا الانفصال ، لشدة الرابطة الدينية حينذاك بين الشعب وخليفة المسلمين ، فالتف حوله المصريون ، واتصل بالخدوي اتصالا ، كان سببا في توسيع هوة الخلاف بين الخديوي والورد كرومر ، المعتمد البريطاني في مصر . وقد وجد مصطفى كامل عضدا قويا في فرنسا ، التي كانت تعمل حينذاك على معاكسة إنجلترا في مصر ، فساعده الصحف الفرنسية ، بما كانت تكتبه مجبذة أعماله ، منددة بسياسة الاحتلال ، وأصبح له عدد وفير من الأصدقاء والأخصار في فرنسا . ولكن حدث في سنة ١٩٠٠ ، أن شعر مصطفى كامل بفتور دول أوروبا ، عن القيام بأى عمل جدى لمناوأة الانجليز في مصر ، فتردد على الآستانة واتصل بالسلطان العثماني ، فأعجب به وأنعم عليه بعد ذلك برتبة الباشوية ، إلا أن تركيا لم تستطع وحدها أن تقاوم النفوذ الانجليزي في مصر ، واستمر مصطفى



في سياسته ، حتى أبرم الاتفاق الودي بين إنجلترا وفرنسا سنة ١٩٠٤ ، فكان صدمة عنيفة لنشاطه السياسي ، لانصراف رجال الحكومة الفرنسية عن معاضدته ، فأخذ يستنهض همم الشعب المصري ، ويعتمد عليه ، ويدعوه لتقدير عزته القومية ، ويلقنه مبادئ التضحية في سبيل الوطن . واتبع لذلك طريق نشر التعليم بين جماهير الأمة ، بفتح المدارس الأهلية ، وطريقة تنقيف الشعب وتلقيه المبادئ الوطنية ، عن طريق الصحافة ، وإلقاء الخطب والمحاضرات السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، فأنشأ جريدة اللواء ، ثم أنشأ الحزب الوطني سنة ١٩٠٧ ، وهذا خلاف الحزب القديم ، الذي كان يشمل جماعة العراقيين ، فأصبح هذا الحزب أول حزب سياسي أنشئ في مصر ، له برنامج محدد .

وكان مصطفى كامل المقترح لفكرة إنشاء الجامعة المصرية ، فإن جماعة من إخوانه فكروا في إقامة حفل له ، تكريما لمجهوده في خدمة الوطن ، ولكنه اقترح عليهم إنشاء جامعة ، تعمل على إزاحة غشاوة الجهل عن أعين الشعب ، فتحولت فكرة الاكتاب لتكريمه ، إلى فكرة الاكتاب لإنشاء جامعة ، فأقبلت الأمة على الاكتاب لهذا المشروع ، وأنشئت الجامعة سنة ١٩٠٨ . وكان سمو الأمير أحمد فؤاد " جلاله مليكنا السابق " أكبر من أخذ بيد المشروع .

وفي سنة ١٩٠٦ ، وقعت حادثة دنشواي <sup>(١)</sup> ، التي حكم فيها بالجلد والسجن والإعدام على بعض سكان تلك القرية الآمنة ، باعتبار أنهم كانوا السبب في قتل أحد الضباط الانجليز ، مما أثار حقد المصريين ، وأشعل جذوة شعورهم ، حتى قال مصطفى كامل في ذلك " إن عشرات السنين كانت أقصر من أن تحيي شعور الشعب ، كما أحياء هذا الحادث " . وقد اتخذ منه مصطفى وسيلة ، للتشهير بأعمال

(١) في أوائل صيف سنة ١٩٠٦ ، مر ضابطان بريطانيان بقرية دنشواي ، بالقرب من مدينة شبين الكوم ، وأخذوا يصطادان الحمام ، الذي كان يكثر بتلك القرية فشبت النار في أحد أجران القمح من عيار ناري ، فاغتاظ أهل القرية ، وودى بعضهم على الضابطين بالضرب ، ولكنهما تمكنا من الفرار جريا ، لينجوا من الخطر ، وكان الحر شديدا ، فأصيب أحدهما بضربة شمس ، ومات ، فنضب الانجليز لذلك ، وأمروا بالقبض على كثير من سكان القرية ، ثم عقدت محكمة مخصوصة لمحاكمة المتهمين ، وقضت المحكمة بإعدام أربعة أشخاص شققا وبين آخرين ، وجلد البعض الآخر وقد نفذ حكم الإعدام والجلد بالقرية ، أمام بيوت المحكوم عليهم وأقاربهم .



الاحتلال ، وقسوة العميد البريطاني ، ونجح في ذلك أكبر نجاح إذا اضطر لورد كرومر إلى اعتزال منصبه ، عام ١٩٠٧ ، وحل محله "سير إلدن جورست Sir Eldon Gorest" ، وكان يرمى في سياسته إلى التقرب من الخديوى ، حتى ضمه إلى جانبه ، وأصبح حرباً على الحزب الوطنى ، ففترت العلاقة بين الخديوى ومصطفى كامل ، ولكن مصطفى استمر في دفاعه عن منكوبى دنشواى ، حتى صدر الأمر العالى بالعفو عن المسجونين منهم ، فى يناير سنة ١٩٠٨

وبينما كان مصطفى يشهد عزيمته ، لاستكمال صرح الوطنية الذى شاده ، إذ بالموت جاث يراقبه ، فلما كان يوم ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ ، أطبق الموت جفنى الزعيم الشاب ، ولما يبلغ الخامسة والثلاثين من عمره ، فانطلقاً سراج حياته وهو فى مقتبل العمر .

وكان لموته دوى هائل فى أنحاء مصر ، أدمى قلوب مواطنيه . وخلفه فى رئاسة الحزب "محمد بك فريد" ، وكان شديد الإخلاص لمبادئ حزبه ، كبير العزم على خدمة قضية بلاده ، وقد ضحى كثيراً فى هذا السبيل ، غير أنه لم يكن له شخصية مصطفى ، فلم يستطع أن يملأ الفراغ الذى تركه ذلك الزعيم ، فدبت عوامل الضعف فى الحزب .

### جورست :

وأهم العوامل أثراً فى تفكك الحزب ، سياسة الوفاق التى سار عليها خلف اللورد كرومر ، "سير إلدن جورست Sir Eldon Gorest" والخديوى عباس الثانى ، وذلك أن الخديوى رأى أنه لم يصبح فى حاجة إلى مناصرة أتباع مصطفى ، وقد حل الوفاق والوثام بينه وبين المعتمد البريطانى الجديد ، بل إنه ذهب إلى أبعد من ذلك ، فتضا من الاثنان على تشييت أعضاء الحزب وهدم مكانه ، وكان لها ما أرادا ، لا سيما بعد تطبيق قوانين الصحافة والاجتماعات عام ١٩٠٩ . هذا إلى أن "جورست" اتبع السياسة المشهورة ، "سياسة فرق تسد" ، بفعل يوقع بين العنصرين الوطنيين من جهة الدين ، لئى تنسلم الوحدة ، وتتصدع الكتلة الوطنية ، فحدث نزاع كبير بين المسلمين والأقباط فى هذه الفترة ، كاد أن يوقع



البلاد في شر أعمال بنينا ، إذ كثر التناؤد بالقول ، واتسعت هوة الخلاف بين الفريقين ، وكان من حسن الحظ أن قضت الثورة المصرية الأخيرة ، عام ١٩١٩ ، على كل أثر من آثار الماضي ، وأصبح الجميع أبناء النيل ، يرعون حرمة ، ويدافعون عن واديه المقدس .

### كتشنر :

ومات " جورست " عام ١٩١١ ، خلفه " لورد كتشنر " ، وكان متشبعا بسياسة كرومر وجرى عليها ، فكان هناك نفور بينه وبين الخديوى ، وأخذ عباس يبحث عن الحزب الوطنى من جديد ، ليشد أزره ضد العميد . ولكن فاته أنه عمل بيده على هدم ركن قوى من أركان الوطنية ، ولذلك ترك وحيدا أمام سطوة كتشنر ، وأخذ يحاهد فى سبيل الحصول على ولاء كبار الموظفين وحكام الأقاليم له دون العميد ، فكان فريق له وآثر لخصمه ، ولكن الفريق الثانى كان أوفر عددا وأقوى مركزا . وبقي الحال كذلك ، حتى قامت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤

وفى خلال ذلك النزاع مع السلطة المحتلة ، كان مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية لا ينفكان يظهران غيرتهما على مصالح البلاد ، فكان مجلس الشورى يتهمز كل عام فرصة النظر فى الميزانية ، وينتقد أعمال الحكومة وتقصيرها فى القيام بالإصلاحات الواجبة ، لا سيما ما يختص منها بالتعليم ، كما يحتج على مصاريف جيش الاحتلال ، والمبالغ الباهظة التى صرفت على إصلاح السودان . ولم تكن الجمعية العمومية بأقل غيرة من المجلس ، على مصالح البلاد ، وفى مارس سنة ١٩٠٧ ، طالبت بالدستور ، وفى مارس سنة ١٩١٠ ، رفضت الموافقة على امتداد أجل امتياز قناة السويس ، أربعين سنة أخرى ، لما فى ذلك من إضرار بمصلحة



## المنشآت العامة في عهد توفيق وعباس الثاني

### الأعمال السياسية :

حدث خلاف بشأن حدود مصر الشرقية ، عند شبه جزيرة سيناء ، في الشهور الأولى من حكم الخديوي عباس ، فدخلت وزارة الخارجية البريطانية في الموضوع ، فصدر أمر الباب العالي ، بتحويل الحكومة المصرية إدارة شبه جزيرة سيناء . ثم حدث خلاف آخر في أواخر سنة ١٩٠٦ بهذا الخصوص ، وانتهى بتعيين لجنة من قبل الباب العالي وأخرى من قبل مصر ، لتعيين الحدود بين مصر والشام ، وقد تم ذلك باتفاقية رسمية بين الطرفين ، في أول أكتوبر سنة ١٩٠٦ . وفي هذا العهد كذلك تمت " اتفاقية السودان " ، وعقد " الاتفاق الودي " بين إنجلترا وفرنسا ، وقد سبقت الإشارة إليهما .

### الأعمال الإدارية :

أما من وجهة الإدارة ، فدخلت روح النظام في حكومة البلاد ومصالحها ، بتعيين عدد كبير من الإنجليز في جميع الوزارات وفروعها . وعمل لورد كرومر على زيادة دخل الحكومة ، فصدر الأمر الخديوي ، في ١٥ أبريل سنة ١٨٨٦ ، بتحصيل ضرائب المباني من الأجانب ، وكانوا معفيين منها إلى ذلك الحين ، كما قررت الحكومة شراء الإعفاء من الخدمة العسكرية ، في يونيو من تلك السنة ، وحرمت زراعة الدخان في البلاد عام ١٨٩٠ ، نظير زيادة الضرائب الجمركية على الدخان الوارد ، ونظمت أعمال المالية وضبطت حساباتها .

ولما كانت زيادة ثروة الفلاح وانتعاش حالته ، تؤديان حتما إلى زيادة دخل الحكومة ، تقرر تخفيف الضرائب ، وتنظيم جبايتها ، بحيث تتناسب مع أوقات المحصولات الزراعية ، كما قررت الحكومة إلغاء بعضها ، كالضرائب المفروضة على الصنائع ، وعلى السفن المسافرة في النيل ، وتلك التي كانت تتقاضاها الحكومة على الحضار والفاكهة وما شاكل ذلك عند دخولها المدن . وصدرت



عدة قرارات بإلغاء السخرة، ولكن لم يقض عليها نهائياً، إلا في ٢٨ يناير سنة ١٨٩٢ عندما صدر أمر الخديوى بذلك، ولم يبق من آثارها حتى الآن، إلا استعمال لحماية شواطئ النيل، وقت الفيضان فقط. وكذلك أبطلت الحكومة استعمال "الكرباج". وكان لهذه السياسة الحكيمة، مع تقدم أعمال الري النافعة، أثر كبير في إنعاش حال الفلاح وإسعاده. وأخذ عدد السكان في الازدياد، فبعد أن كان سبعة ملايين في سنة ١٨٨٣، أصبح أربعة عشر مليوناً عام ١٩٢٧، وسبعة عشر مليوناً سنة ١٩٣٧. وزادت الميزانية من تسعة ملايين من الجنيهات في بدء الاحتلال، إلى حوالى أربعين مليوناً قبل الحرب العالمية الثانية، وإلى ما يقرب من مئة مليون جنيه هذا العام، عام ١٩٤٦، ويدل هذا على تقدم البلاد من الوجهة العمرانية والاقتصادية والاجتماعية.

### الإصلاحات النيابية :

ونظراً إلى أن حالة البلاد أخذت في التحسن، نتيجة للجهودات، التي بذلت من بداية أيام الاحتلال حتى أوائل القرن الحالى، رغم قلق البلاد من الوجهة السياسية، رأت السلطة الحاكمة التمشي مع روح هذا التقدم، بالتوسع في الناحية النيابية، ففي سبتمبر عام ١٩٠٩، وكذلك في يولييه عام ١٩١٣، وسعت اختصاصات مجالس المديریات. وفي عام ١٩١٣، حلت "الجمعية التشريعية" محل مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية، وجعلت سلطتها أوسع من سلطتهما، وأخذت تشرف على أعمال الحكومة، ولو أن رأيها كان استشارياً. وكان لها وكيلان، وكيل معين، وآخر منتخب، وكان المنفور له "سعد باشا زغلول" هو الوكيل المنتخب.

### المحاكم الأهلية :

عرفنا فيما سبق مجهودات اسماعيل ونوبار في تشكيل المحاكم المختلطة، التي فتحت أبوابها للعمل عام ١٨٧٦، ولما رأت الحكومة الفرق الشاسع بين هذه المحاكم والمجالس المحلية في النظام والعدالة، أخذت تفكر في إنشاء "المحاكم الأهلية" على نمط هذه المحاكم، فسنت القانون المصرى لهذه الغاية، وفي ١٤ يولييه ١٨٨٣ صدر الأمر الخديوى بتشكيل المحاكم الأهلية، على أساس اللائحة التي وضعت لهذا الغرض، وهى المعروفة بلائحة ترتيب المحاكم الأهلية. وجعل



من اختصاصها الفصل في القضايا المدنية بين رعايا الدولة العثمانية ، وكذلك الجنائية منها إذا كان المتهم من رعايا تلك الدولة .

هذا وأخذت الحكومة تدقق النظر في اختيار القضاة لهذه المحاكم ، فكانوا على جانب كبير من العلم والنزاهة ، كذلك اشترك معهم بعض القضاة الانجليز . وأصبح القضاء مستقلا في الرأي وإبداء الأحكام ، غير خاضع لإرادة الحكومة . وأخذت المحاكم الجديدة في الانتشار تدريجيا ، كما أخذت الحكومة تصدر أوامر عالية من وقت إلى آخر معدلة القانون الأهلى ، على حسب ظروف الأحوال والبلاد ، وخطت هذه المحاكم إلى الأمام خطوات واسعة موفقة ، حتى وصلت إلى حالتها الراهنة .

وفي عام ١٩٣٣ ، احتفلت الحكومة بيوبيلها الذهبي احتفالا نفيا ، بمناسبة مرور خمسين عاما على تأسيسها ، وقد أظهر رجالها كفاية ونزاهة وعدالة ، وهى مفخرة من مفاخر مصر الحديثة .

وفي مؤتمر "Montreaux" الذى عقد بسويسرا فى شهر أبريل ١٩٣٧ ، وافقت الدول بالإجماع على إلغاء الامتيازات الأجنبية بمصر ، واتفق الرأى على أن تكون فترة الانتقال من الحالة الراهنة إلى الحالة الجديدة اثنى عشر عاما ، تبدأ من أكتوبر ١٩٣٧ ، فتلغى المحاكم القنصلية وتحال أعمالها على المحاكم المختلطة ، وبعد انقضاء هذه الفترة ينقضى كل أثر للامتيازات بمصر ، ويعامل المصريون والأجانب على قدم المساواة أمام المحاكم الأهلية ، على حسب القانون المصرى .

### الإصلاحات الزراعية :

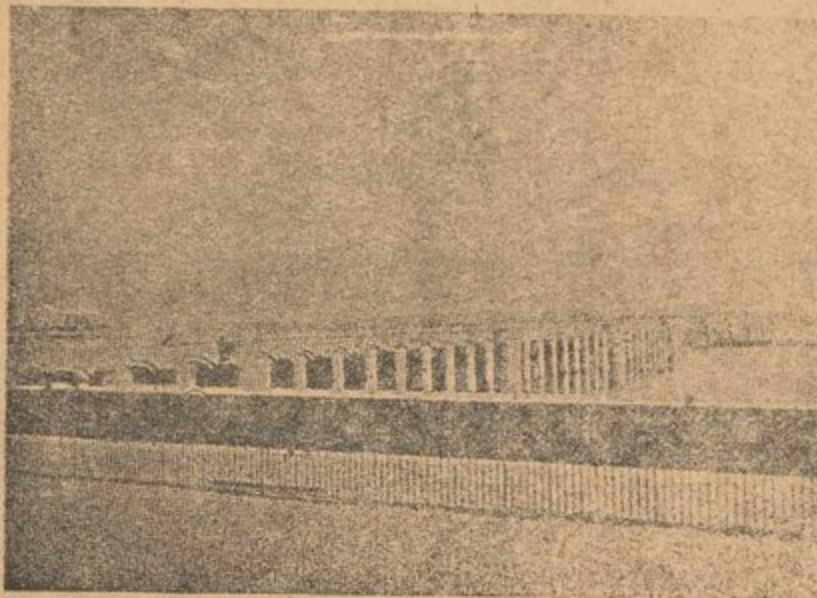
لعل أكبر مجهودات الانجليز منذ سنة ١٨٨٣ ، ما تناول منها تحسين طرق الري وتوسيع نطاق الأراضى المزروعة . وأول عمل قاموا به فى هذا السبيل ، إصلاح "القناطر الخيرية" ، التى أهملت منذ استعمالها ، حتى غدت غير صالحة للقيام بالمهمة التى أنشئت من أجلها . وقامت الحكومة بإصلاح ما أصابها من تصدع وخلل ، فى الفترة ما بين سنة ١٨٨٤ وسنة ١٨٨٩ . ثم اهتمت بتطهير رياح البحيرة ، وزادت فى عمق الرياح المنوفى ، وحفرت الرياح التوفيقى ، بين عامى ١٨٨٧ و ١٨٨٩ .



وكان لهذه الإصلاحات شأن يذكّر في زيادة المحاصيل الزراعية ، وما نتج عن ذلك من زيادة في ثروة البلاد . وفي عام ١٨٩٧ ، أنشئ سد أصم في النيل خلف القناطر الخيرية لكي يرفع مستوى الماء خلفها ، فيجعل النسبة بسيطة بين ارتفاع الماء أمامها وخلفها ، وبذلك يخف عنها الضغط الشديد عند حجز الماء أمامها .

ومما ساعد على حسن توزيع المياه في الوجه البحري ، إنشاء "قناطر زفتى" ، التي تم العمل فيها عام ١٩٠٢ ، هذا إلى إجراء تعديل كبير في ترع الوجه البحري وإنشاء مصارف كثيرة به ، فتحسن نظام الري والصرف هناك ، وتقدمت الزراعة تقدما محسوسا ، وأخذت مساحة الأراضي المنزرعة في الازدياد .

ولم تصرف هذه المجهودات الحكومة ، عن الاهتمام بالوجه القبلي ، وكانت كل أراضي تروى برى الحياض ، فعزمت على تغيير هذه الطريقة القديمة ، واستبدال الري الدورى بها تدريجيا ، فبدأت بإدخال هذا النوع من الري ، في مديريات أسيوط والمنيا وبني سويف والجيزة ، واقتضى هذا العمل إصلاح ترعة الإبراهيمية وتوسيعها ، ثم حفر كثير من الترع غيرها ، وفوق كل ذلك بناء قناطر للري عند أسيوط ، فشرع في إنشائها في سنة ١٨٩٨ ، وتم بناؤها سنة ١٩٠٢ ، فاستفادت منها مصر الوسطى فوائد جمة . وفي سنة ١٩٠٩ ، ثم بناء قناطر اسنا



( سد أسوان قبل التعلية )



لمصلحة أراضي مديرتي قنا وجرجا . ولكن أجل هذه الأعمال الهندسية قدرا ، هو "سد أسوان" وهو يختلف عن القناطر السالفة الذكر، في أن مهمته حجز المياه أمامه في مجرى النيل نفسه ، لتتفع بها الأراضي الزراعية وقت انخفاض النيل ، وقد تم تشييده ما بين ١٨٩٨ و ١٩٠٢ . ولما كانت مصر في حاجة إلى مياه أكثر مما يستطيع خزنها ، فكرت الحكومة في تعليته ، وقد تم ذلك عام ١٩١٢ .

وقد استفادت مصر فائدة عظيمة من هذه المشروعات الجليلة ، وحصلت في القطر بسببها نهضة مالية ، لم يسبق لها مثيل ، من عهد بعيد . وقد ظهرت آثارها بوضوح في حالة السكان ، وازدياد ثروة الأمة وميزانية الحكومة ، واتساع نطاق التجارة ، فأنشئت البنوك الكثيرة ، وتآلفت الشركات المختلفة ، وتكاثرت الأبنية الضخمة والقصور الفخمة ، واتسع نطاق المدن والقرى ، وبدأت على البلاد وساكنيها مظاهر النعمة وعلامات التطور والتقدم .

### النهضة العلمية والحركة الفكرية :

وفي هذا العهد استؤنفت الحركة العمرانية ، التي كانت زاهية في النصف الأول من عصر اسماعيل ، وقضت على تقدمها الارتباكات المالية والسياسية ، التي حدثت في أواخر هذا العهد وأوائل عصر خلفه . ونشطت الحركة العلمية ، وانتشرت الكتائب والمدارس ، واتسع نطاق التعليم العالي ، وانبعثت روح علمية شريفة في نفوس الكثيرين ، مما دفع عددا كبيرا من الأعيان إلى إنشاء المدارس ، ولكن التعليم كان آلة لتخريج موظفين للحكومة .

وظهر اهتمام الحكومة بالتمثيل وترقيته ، وتكاثرت الصحف والمجلات وتشعبت موضوعاتها ، وأنشئت الجمعيات الأدبية والعلمية ، وتأسست الأندية الاجتماعية ، وقامت حركة ترمي إلى الإصلاح الديني ، بزعامة الأستاذ الأكبر الشيخ "محمد عبده" ، المتوفى سنة ١٩٠٥ ، وهو من تلاميذ "جمال الدين الأفغاني" ، وقد بذل مجهودا كبيرا في إصلاح المحاكم الشرعية ، وتنبيه الناس إلى أصول الدين الصحيح . وتآلفت في أنحاء البلاد عدة جمعيات خيرية ، كم أنشئت المستشفيات المختلفة ، واهتمت الحكومة بدار الآثار ودار الكتب ، فعملت على تحسينهما وتنظيم شؤونهما ، وقد عمت البلاد حركة واسعة تطالب بالحكم الدستوري ، ويدل كل هذا على مقدار اليقظة الفكرية ، التي تولدت في أفراد الشعب ، فنبهت الغافلين وشجعت العاملين .



## الشيخ محمد عبده

ولد سنة ١٨٤٥ ، ونشأ في بيت من بيوت الفلاحين المصريين ، في قرية صغيرة ، هي قرية محلة نصر ، بمركز شبراخيت في مديرية البحيرة ، وقد ظلم الحكام أهله ، فهاجروا إلى قرية بمركز السنطة ، ثم ما لبثوا أن عادوا إلى مسقط رأسهم . وقد تعلم الشيخ محمد عبده القراءة والكتابة في منزل والده ، ثم حفظ القرآن على أحد الحفاظ في مكتب القرية ، وذهب إلى الجامع الأحمدي بطنطا لتجويده ، فبقى به يطلب العلم ، ثم ذهب إلى الأزهر وانخرط في سلك طلبته ، ونال شهادة العالمية ، وصادف أن نزل مصر " السيد جمال الدين الأفغاني " في عام ١٨٧٠ ،



( الشيخ محمد عبده )

كما أسانفنا ، فأخذ الشيخ محمد عبده يتلقى عليه بعض العلوم الرياضية والفلسفية ، وكان يلزمه ملازمة الظل ، وقد شجعه جمال الدين على كتابة المقالات الأدبية والاجتماعية والسياسية ، كما شجعه على الخطابة فبرع فيها ، كما برع في جميع العلوم الإسلامية ، من لغوية وشرعية وفقهية . وقد أهله تربيته الاستقلالية ووفرة مادته العلمية ، إلى اجتذاب الناس إلى حضرته ، وتهاقهم على ورود منه العذب ، فكان مع الحكماء حكميا ، ومع النقهاء فقيها ، ومع الأدباء أدبيا ، ومع المؤرخين مؤرخا .



وبعد أن نال شهادة العالمية ، بدأ يطالع دروسا في الأزهر مع بعض الطلاب ، فشعروا بشيء جديد يتمشى في تلك الدروس ، وأقبل عليه الكثيرون . وفي سنة ١٨٧٨ عين الشيخ مدرسا للتاريخ في مدرسة دار العلوم ، وأسناذا للعلوم العربية في مدرسة الأسن الخديوية ، علاوة على التدريس في الجامع الأزهر ، فكان رمزا لإحياء اللغة العربية ، والخروج بالطلبة في التدريس من بقايا العهد القديم . وكان يرمي في تعليمه دائما إلى إحياد نشر من المصريين ، ينهضون باللغة العربية والعلوم الإسلامية ، لأنه كان يبغي الإصلاح والتجديد ، عن طريق التعليم والتربية ، لا عن طريق السياسة ، كما كان يبغي أستاذه السيد جمال الدين الأفغاني . وقد انبعثت روحه في تلاميذه ، فكان منهم القضاة والمحامون ، وأساتذة المدارس العليا ، وكان بينهم سعد زغلول وحفني ناصف .

وفي سنة ١٨٨٠ ، خطر لرياض باشا أن يدخل تحسينا في كتابة الجريدة الرسمية حتى يقبل الناس عليها ، فعين الشيخ محمد عبده محررا فيها ، وما لبث أن أصبح رئيسا لقلم التحرير ، فاختار نخبة من تلاميذه ، ممن برعوا في الكتابة ، ليساعدوه في تحريرها ، كان من بينهم سعد زغلول وإبراهيم الحلماوى . ولقد اهتم الشيخ بنقد وسائل التعليم في مصر وإظهار مزاياه ، حتى اقتنع رياض باشا بأرائه ، واستشاره في وسائل العلاج ، فأشار بإنشاء مجلس المعارف الأعلى ، وعين الأستاذ عضوا فيه سنة ١٨٨١ ، وبدأ بتنفيذ الإصلاح الذى ينشده ، لولا أن عصفت ريح الثورة العربية ، التى انتهت بالاحتلال البريطانى ، وألقت الحكومة القبض على الزعماء ، فأودعوا السجن على ذمة المحاكمة ، واتهم الأستاذ بالاشتراك فيها ، بالرغم من أنه كان كارها لها ، وكان كثيرا ما يحذر زعماءها سوء العاقبة . وبعد أن بقى في السجن بضعة أشهر ، حكم عليه بالنفى لمدة ثلاث سنوات ، قضاه في بلاد الشام ، فكان بين أهلها أعز مما كان في وطنه ، ثم ذهب إلى أوروبا وجال في عواصم ممالكها ، وأتقن اللغة الفرنسية ، وقابل السيد جمال الدين الأفغانى في باريس ، وأصدر معه جريدة " العروة الوثقى " ، وكان الغرض منها توثيق الروابط بين ملوك المسلمين وأمراءهم ورؤسائهم . ثم عاد إلى بيروت ، وقام بوظيفة التعليم والإرشاد ، فتردد عليه الجماهير يغترفون من بحر علمه الزاخر ، وهناك اشتغل بالنايلف ، فتنافس أهل العلم ولأدب في التقرب إليه ، وترجم وهو في بيروت



رسالة الرد على مذهب الدهريين ، وشرح "نهج البلاغة" ومقامات "بديع الزمان الهمداني" . وبينما هو عاكف على التدريس في الشام ، إذا بالحال يتبدل في مصر ، ويأتيه إذن من الخديوى بالعودة إليها ، لانتها مدة نفيه في أواخر سنة ١٨٨٥ ، فعرج على الاستانة ، ثم رجع إلى مصر ، وعفا عنه الخديوى توفيق . وسعى الشيخ محمد عبده سعيا متواصلا لإصلاح الأزهر ، ثم عين قاضيا في المحاكم الأهلية على الرغم منه ، فقد قال "خلقت لأكون معلما لا لأكون قاضيا" . وفي سنة ١٨٩٩ عين مفتيا للديار المصرية .

وصادف في ذلك الوقت ، أن اختلف الأستاذ الإمام مع العلماء في الأزهر بشأن المواد التي تدرس فيه فكان يريد إدخال نظام للتعليم ، يكون أوسع مدى من النظام العتيق ، فلم يوافقهم العلماء على رأيه ، فاستقال من عضوية مجلس إدارته .

ولئن كان الإمام ، وهو محرر في الجريدة الرسمية ، قد اتخذ من عمله هذا وسيلة إلى إصلاح جميع أعمال الحكومة ، ولا سيما التعليم في وزارة المعارف ، وكذا الإصلاح الاجتماعي والديني ، فقد خدم وهو في منصب الإفتاء القضاء الشرعي والأوقاف والمساجد وبقى يشغل منصب الإفتاء في مصر ، حتى اختاره الله لحواره سنة ١٩٠٥ .



## الباب الثامن

### الحرب العظمى

نبذ عن الدول العظمى التي اشتركت فيها

١ - فرنسا :

تمخضت الثورة الفرنسية عن ظهور نابليون ، الذي سيطر على فرنسا ، ثم أعلن نفسه إمبراطورا عليها عام ١٨٠٤ ، وهيمن على أغلب بقاع أوروبا الغربية والوسطى ، وأدخل فيها قانونه المبني على الحرية والإخاء والمساواة ، وانتشرت روح القومية في شعوب أوروبا ، وتحالفت الدول ضد نابليون ، وقامت تحاربه وانتصرت عليه ، ونفاه الحلفاء إلى جزيرة سنت هيلانة .

واجتمع عند ذلك " مؤتمر فينا " ، وأعاد إلى الشعوب المختلفة حكامها المستبعبدين ، فرجعت " أسرة البربون " إلى عرش فرنسا ، وسادت السياسة الرجعية ، فقام نزاع بين الملك والشعب ، أدى إلى ثورة يولييه سنة ١٨٣٠ ، التي قضت على حكم أسرة البربون في فرنسا ، ثم جلس على العرش " لويس فيليب " الذي منحه الشعب ثقته في بداية الأمر ، ولكن خاب ظنه فيه ، فقامت ثورة ١٨٤٨ ، ونادى الشعب بسقوطه ، وأعلنت الجمهورية ، وانتخب " لويس نابليون " ( ابن أخ نابليون الأول ) رئيسا لها ، ولكنه مهد السبيل لإعادة الامبراطورية ،



( نابليون الثالث )

وفي ٢ ديسمبر سنة ١٨٥٢ ، نودي به إمبراطورا ، ولقب " نابليون الثالث " .



وكانت فرنسا في الشطر الأول من عهد الامبراطورية ، أعظم دول أوربا ، وفي الشطر الثاني ( ويبدأ عام ١٨٦٠ ) تدهورت الامبراطورية تدهورا مريعا ، بسبب تخبط الامبراطور في سياسته الداخلية والخارجية ، وخاضت فرنسا في هذه الفترة غمار ثلاثة حروب ، كانت أنكاسا للحرب الفرنسية البروسية ( ١٨٧٠ - ١٨٧١ ) ، التي هزمت فيها فرنسا شر هزيمة ، وفي سبتمبر ١٨٧٠ أسقط الشعب الامبراطورية ، وأعلن الجمهورية الثالثة .

## ٢ - إيطاليا :

ظلت إيطاليا طوال العصور الوسطى ، وكذلك في العصور الحديثة ، مسرحا للفوضى والانقسام ، حتى ظهر نابليون ، الذي ألغى النظام الإقطاعي فيها ، وأدخل عدة إصلاحات أخرى ، فتعلم الطليان فكرة الاتحاد ، واندفعوا نحو الحرية والوحدة ، ولكن مؤتمر فيينا عام ١٨١٥ خيب رجاءهم ، وأرجع الحالة في إيطاليا إلى ما كانت عليه قبل عهد نابليون ، من حيث التفكك والحكم المطلق .

وكانت النمسا تملك لمبارديا والبندقية ، ولذلك قام "مترنيخ" ( رئيس وزراء النمسا ) ينجح كل ميل إلى الحرية والوحدة في جميع ولايات إيطاليا ، ولذلك تألفت جماعات سرية لمقاومة الاستبداد ، كانت أنشطها جمعية "الكاربوناري Carbonari" التي قامت ببعض الثورات ، ولكنها لم تنجح .

وألّف "يوسف مازيني Mazzini" ( جمعية إيطاليا الفتاة ) عام ١٨٣١ ، فكان عاملا مهما في تكوين إيطاليا الحديثة ، وكان غرضه طرد النمسا ، وتكوين دولة واحدة ، على رأسها حكومة جمهورية ، ولكنها لم تنجح لقيامها بحركات ثورية ، ولا اعتمادها على الإيطاليين أنفسهم فقط . ثم قام حزب آخر يرمى إلى إنشاء وحدة إيطالية ، ذات حكومة ملكية ، على رأسها "أسرة سافوي" ، وهي الأسرة المالكة في بيدمنت ، وفي عام ١٨٤٨ انتصر الطليان على النمسا ، وكادت تتحقق الوحدة ، غير أنهم انقسموا على أنفسهم ففشلوا ، ولمكنهم تعلموا كيف يقفون أمام النمسا .



وحافظ "فكتور إمانويل الثاني" ملك بيدمنت على الدستور ، الذي كان



( كافور )

قد منحه لشعبه ، وانصب نفسه لإتمام الوحدة ، واتخذ "كافور" Cavour "وزيرا له ، فأصلح البلاد وكون جيشا كبيرا لينازل به النمسا ، ثم أفلح في نيل عطف فرنسا ، فساعدته على إتمام الوحدة ، ونجح "غاريبالدي" Garibaldi في ضم مملكة الصقليتين إلى أملاك بيدمنت ، وفي عام ١٨٧٠ ، تمت الوحدة الإيطالية وعين فكتور إمانويل ملكا على إيطاليا ، وجعلت روما العاصمة ، وتقدمت الأمة بعد إتمام الوحدة .

### ٣ - ألمانيا :

كانت ألمانيا قديما مكونة من ٣٠٠ ولاية ، وحاول أباطرتها توحيدها ، ولكنهم لم يفلحوا ، ولما سيطر نابليون على كثير من أجزائها ، ألغى الدولة الرومانية المقدسة ، وأدجج كثيرا من الولايات بعضها في بعض ، وتعلم الألمان من إصلاحاته فوائده



( بسمرك )

الاتحاد ، ولكن "مؤتمر فينا" ( ١٨١٥ ) تجاهل رغبة الشعب الألماني ، وأنشأ اتحادا مفككا من ٣٩ ولاية ، يشرف عليه "الديت Diet" تحت زعامة النمسا .

وكانت النمسا تكره أن تتحد ولايات ألمانيا الاتحاد امتينا ، ولذلك كان "مترنيخ" Metternich يقضي على كل حركة ترمي إلى الاتحاد ، غير أن ملك بروسيا وقف نفسه للعمل على توحيد ألمانيا بعد عام ١٨٤٨ ، فأصبحت بروسيا معقدة آمال الأحرار في جميع الولايات

الألمانية ، وفي عام ١٨٦١ توفي الملك ، فتولى أخوه وليم العرش ، وعلى يده تم توحيد ألمانيا بفضل عبقرية "بسمرك" Bismarck



رأى بسمرك ان النمسا وفرنسا هما العقبة في سبيل اتحاد ألمانيا ، فعزم على قهرهما ، وقام لذلك بثلاثة حروب : الحرب الدانمركية ، والحرب البروسية النمساوية ، والحرب البروسية الفرنسية (أو حرب السبعين) ، ونجح في الحروب الثلاثة ، وتم توحيد ألمانيا على يديه ، بعد هزيمة فرنسا في حرب السبعين ، وأنشأ الامبراطورية الألمانية عام ١٨٧١ ، وحلت ألمانيا محل فرنسا ردحا من الزمن في مركزها السامي بين الدول .

#### ٤ — النمسا :

امبراطورية النمسا قديمة ، وكانت تحكمها أسرة « هابسبرج Hapsburg » ، منذ القرن الثالث عشر ، وكانت الامبراطورية تحوى أجناسا مختلفة ، من ألما و صقلية و دغول و رومانيين وإيطاليين ، وقامت منافسة شديدة بين أسرة هابسبرج وفرنسا ، في خلال القرن السادس عشر والسابع عشر والنصف الأول من الثامن عشر ، أدت إلى اشتباكهما في عدة حروب ، ولما قامت الثورة الفرنسية ، نقم الشعب الفرنسي على النمسا لتدخلها في صالح الملكية ، واستمر العداء بينهما طوال أيام الثورة و نابليون . وأهاض نابليون جناح النمسا ، و انتزع منها معظم أملاكها ، غير أنه لما أفل نجم نابليون ، و انعقد مؤتمر فينا ( ١٨١٤ - ١٨١٥ ) ، كان « مترنيخ » رئيس وزراء النمسا ، صاحب الكلمة العليا في تسير دفة الشؤون الأوروبية .



مترنيخ

وكان مترنيخ من أنصار الرجعية ، عاقدا للحركات القومية والدستورية ، ولذلك ظل الحكم في النمسا مطلقا ، والنظام الإقطاعي سائدا في القرن التاسع عشر . وفي عام ١٨٤٨ ثار أهل فينا والمجريون والصقلية والطيلىان ، فهرب مترنيخ ، ووعد الإمبراطور بوضع دستور للبلاد ، وأمر بإلغاء امتيازات الأشراف ، غير أنه لم تلبث أن استردت الحكومة مركزها ، وقضت على عوامل الثورة ، ولكن إتمام الاتحاد الألماني والوحدة الإيطالية قضى على زعامتهما في أوروبا ، بعد أن سلخ منها جزءا



كبيرا من أملاكها ، فقامت تبغى التوسع اقتصاديا جهة الشرق ، وأدى ذلك إلى احتكاك بينها وبين دول البلقان ، وأدى هذا بدوره إلى قيام الحرب العالمية الأولى .

#### ٥ - روسيا :

لم يكن للروسيا شأن كبير في تاريخ أوروبا قبل القرن الثامن عشر ، وأول من نهض بها " بطرس الأكبر " ، الذى صبغها بالصبغة الأوروبية ، ونظم الجيش ،



( بطرس الأكبر )

وبنى الأساطيل ، واستطاعت روسيا فى عهده ، أن تطل على بحر البلطيق غربا والبحر الأسود جنوبا . وجرى خلفاؤه على سياسة تنفيذ المشروع الشرقى ، الذى رعى إلى الاستيلاء على القسطنطينية وطرد الأتراك من أوروبا ، وكان ذلك سببا للحروب الطويلة بين تركيا وروسيا .

وتعاونت روسيا مع النمسا وبروسيا ضد الثورة الفرنسية ، ولكنها انسحبت بعد قليل ، وحدث نزاع بين نابليون وقيصر روسيا ، أدى إلى حملته الشهيرة على روسيا عام ١٨١٢ ثم فشلها ، وانضمت روسيا إلى الحلفاء ضد نابليون ، حتى هزم ونفى إلى إلبا عام ١٨١٤ ، ثم إلى سانت هيلانة عام ١٨١٥ .



واشتركت روسيا في إعادة الحالة الرجعية إلى أوربا بكامل مظاهرها، منذ مؤتمر فيينا، وحاولت أن تلعب دورا في المسألة الشرقية، بين محمد علي و Sultan تركيا (١٨٣٠ - ١٨٤٠)، ولكن الدول تدخلت في الأمر وقضت على آمالها.

ودخلت روسيا في حرب مع تركيا عام ١٨٥٣ (وهي المعروفة بحرب القرم)، ولكنها هزمت أمام مناصرة الدول لتركيا، ولما قامت ولايات البلقان تنشد استقلالها عن تركيا، كانت روسيا تساعدتها ضد الدولة سرا وعلنا، وتضاربت مصالحها في البلقان مع مصالح النمسا، وانتصرت ألمانيا للنمسا في مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨، فجنحت روسيا للتحالف مع فرنسا.

### ٦ - إنجلترا :

وقف تيار الإصلاح النيابي في إنجلترا، طوال أيام الثورة وحروب نابليون، وبعد انتهاء الحرب عام ١٨١٥، استؤنفت حركة المطالبة بالإصلاح النيابي، وانضم إليها كثير من العمال والصناع أملا في تحسين حالهم، ولكن الحكومة ضربت على أيديهم في بداية الأمر.

ورأى حزب الأحرار ضرورة إجابة بعض مطالب الشعب، وتمكن من إصدار "قانون إصلاح ١٨٣٢"، وبه زاد عدد الناخبين، ومثلت الطبقة الوسطى في البرلمان، ولم يحرم حق التمثيل إلا الصناع والمزارعون، فقام هؤلاء يطالبون بالاقتراع العام في الانتخاب، ثم قدموا ملتمسا للحكومة بمطالبهم، عرف "بعهد الشعب Charter of the People"، ولكن أغراضهم لم تتحقق.

وتطورت بعد ذلك آراء رجال السياسة، وعملوا على تحقيق مطالب الإصلاح، فصدر "قانون إصلاح ١٨٦٧"، وبه زاد عدد الناخبين، ومنح حق التصويت للطبقة الراقية من صناع المدن، ومستأجرى الأرض في الأقاليم. وفي عام ١٨٧٠، صدر "قانون التعليم" لتعليم كل طفل في الجزائر البريطانية، وفي عام ١٨٧٢، تقرر أن يكون الانتخاب سريا، وفي عام ١٨٨٤ - ١٨٨٥، صدر "قانون تمثيل الشعب"، وبه تمتع زراع الأرض بما تمتع به الصناع، وزاد عدد الناخبين. وفي عام ١٩١٨ منح النساء حق الانتخاب بشروط، ويفكر الانجليز الآن في إصلاح مجلس اللوردات أو المائة، لأنه كثيرا ما عرقل أعمال مجلس العموم.



## ٧ - تركيا :

كانت تركيا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر مصدر فزع كبير لدول أوروبا ، وما كادت تتسرب اليها عوامل الضعف ، حتى أضحت فرصة لجشع روسيا والنمسا ، واستولى عليها الضعف في القرن التاسع عشر ، وحاول السلطان "محمود الثاني" وابنه عبد الحميد إصلاح شؤونها ، ولكن هذه المجهودات لم تأت بالثمرة المطلوبة ، وأخذت الدولة في التدهور المستمر ، وقامت شعوبها المسيحية تشن الغارة عليها ، طلبا للحرية ، وتحقيقا لمبادئ القومية .



( السلطان عبد الحميد الثاني )

وبإزاء ذلك ، تألف حزب "تركيا الفتاة" بزعامة مدحت باشا ، وبدأ عمله بعزل السلطان في مايو ١٨٧٦ وخلع خلفه ، ثم تولية "عبد الحميد الثاني" ، الذي وعد بمنح حكومة دستورية ، واجتمع المجلس في مارس ١٨٧٧ ، غير أنه استسلم لإرادة السلطان ، لما رأى أنه نفى مدحت ثم قتله ، وكان عبد الحميد يدين بمذهب الحاكم المطلق المستبد ، فلم يلبث أن أغلق البرلمان ، وشتت شمل أنصار الدستور والإصلاح ، وهزمت تركيا في الحرب الروسية التركية (١٨٧٧ - ١٨٧٨) ، وتمزقت أوصالها في مؤتمر برلين عام ١٨٧٨

## أسباب الحرب

### تمهيد :

انتهت الحرب بين فرنسا وبروسيا عام ١٨٧١ ، بصالح "فرانكفورت Frankfort" ، وانطوت صحيفتها على ذكرى مؤلمة ، فإن الفرنسيين لم ينسوا الالتزام واللوين ، ولم يعتقدوا في يوم ما باستحالة استرجاع ذلك الاقليم إلى



فرنسا . أما بسمرك ، فكثيرا ما أهاب بفرنسا أن تترك الامبراطورية الناشئة ، تدير شؤونها في حالة هدوء وطمأنينة ، وانصرفت سياسته في الحال إلى تأمين الامبراطورية ، من خطر الهجوم الخارجي ، ففرنسا لن تنسى هزيمتها وضياع أملاكها ، والنمسا لن تنسى إخراجها بقوة السلاح من ولايات ألمانيا ، والروسيا لن تنسى ظهور دولة قوية بجانبها الغربي . ولكن فرنسا كانت أشد الدول خصومة وألدها عداوة ، لذلك نرى سياسة بسمرك تتجه نحو تكوين محالفات مع الدول القريبة من ألمانيا ، حتى يأمن شر أية إغارة فرنسية في المستقبل .

### التحالف الثلاثي

( من ألمانيا ، والنمسا ، وإيطاليا )

#### النمسا :

بعد أن فقدت النمسا الزعامة على ولايات ألمانيا ، وخلفتها في ذلك بروسيا ، بدأت تتطلع إلى مد نفوذها جهة الشرق ، وإشباع مطامعها من ناحية دول البلقان . ولتحقيق هذه السياسة ، كان لا بد لها من طلب المعونة من ألمانيا ، ضد الجنس الصقلي ، لأن روسيا خاصة ، لا تنظر بعين الارتياح إلى تقدم نفوذ أسرة هابسبرج بين شعوب البلقان .

#### الروسيا :

عقب معاهدة فرانكفورت مباشرة ، أراد بسمرك أن يسير على سياسة حسن التفاهم مع روسيا ، وكانت أواصر الصداقة الشخصية ، التي تربط الامبراطور غليوم الأول بالقيصر اسكندر الثاني ، مما سهل روابط الألفة السياسية بين البلدين . وفي عام ١٨٧٢ ، تقابل الأباطرة الثلاثة في برلين ( أباطرة روسيا والنمسا وألمانيا ) ، ودخلوا في مباحثات سياسية ، أدت إلى تحالف ، بمقتضاه تتحد تلك الدول الثلاث على المحافظة على الحدود التي خُطت حديثا ، وفض كل أشكال تنشأ عن المسألة الشرقية ، وإنحداد أنفاس الحركات الثورية في أوروبا .



## إيطاليا :

وفي عام ١٨٧٣ زار ملك إيطاليا "فيكتور عمانويل" "Victor Emmanuel" مدينة برلين ، فكان ذلك دلالة واضحة على الموقف السلمي الذي تقفه إيطاليا من خطة ألمانيا الجديدة ، وبذلك تحققت إلى حد ما فكرة عزلة فرنسا .

وفي عام ١٨٧٥ ، انفتح باب المسألة الشرقية من جديد ، على أثر الحركات التي قامت في بلاد الهرسك ، ولما انعقد مؤتمر برلين عام ١٨٧٨ ، انحازت ألمانيا إلى جانب النمسا ، وسمحت لها أن تحتل البوسنة ، فغضبت روسيا لنكران الجميل الذي بدا من ألمانيا ، وكانت روسيا قد خدمتها خدمات صادقة في عام ١٨٧٠ ، فتحطم الوفاق الذي نشأ بين الأباطرة الثلاثة على تلك الصخرة . وفي عام ١٨٧٩ ، تم التحالف بين ألمانيا والنمسا ، وغواه أن كلا من الدولتين تساعد الأخرى ، إذا كانت روسيا هي المعتدية ، أما إن كان المعتدى دولة أخرى غير روسيا ، فتلزم الحيدة التامة . ولم يلبث هذا التحالف أن أصبح ثلاثيا ، بعد انضمام إيطاليا إليه عام ١٨٨٢

ولكن كل من يمعن النظر في هذا التحالف ، يحكم على أنه لن يدوم طويلا ، نظرا للعداوة الكامنة بين النمسا وإيطاليا على امتلاك إقليم التيرول . أما إيطاليا فقد أتمت هذا التحالف ورضيت به ، لاحبا في النمسا ، ولكن طمعا في مساعدة ألمانيا ضد فرنسا ، التي كشفت عن نواياها في شمالي أفريقيا ، واستولت على تونس سنة ١٨٨١

## الاتفاق الثلاثي

( بين فرنسا ، والروسيا ، وانجلترا )

بعد ذلك أخذ بسمرك يعمل على منع التقرب بين فرنسا والروسيا ، واستطاع بحسن سياسته أن يوجد علاقات ودية بين ألمانيا والروسيا عام ١٨٨٧ ، ولكن اعتراله الحكم عام ١٨٩٠ ، أزاح عن أوربا كابوس سياسته ، فبدأ موقف الدول يتغير ، لأن الامبراطور غليوم الثاني الذي اعتلى العرش سنة ١٨٨٨ ، لم يتهج



الطريق الذى سلكه بسمرك فى السياسة الدولية ، فتقربت فرنسا من روسيا ، عندما أعلنت الأخيرة أنه يهمها أن تتبع مجرى الحوادث فى إقليم الرين ، واعتبرت المسألة الشرقية فى المرتبة الثانية . وفى عام ١٨٩١ زار أسطول فرنسى ميناء كرونستادت ، فحياه القيصر رسميا ، وفى عام ١٨٩٣ رد أسطول روسى الزيارة فى ميناء طولون ، وفى عام ١٨٩٥ ، كان التحالف الفرنسى الروسى قد أخذ صبغته النهائية ، بعد موت القيصر اسكندر الثالث .

وفى عام ١٩٠٤ ، تم الاتفاق الودى بين فرنسا وانجلترا ، فان انجلترا كانت لها فى مرا كش مصالح تلى مصالح فرنسا فى الأهمية ، لذلك أخذت تعرقل السياسة الفرنسية هناك ، كما كانت تفعل فرنسا فى معا كسة السياسة البريطانية فى مصر ، واستمر ذلك النزاع بين الدولتين ، حتى تم عقد الاتفاق بينهما ، فتخلت فرنسا عن عرقلة أعمال بريطانيا فى مصر ، كما أطلقت انجلترا يد فرنسا فى مرا كش ، مع بعض تحفظات خاصة بحرية التجارة لجميع الدول فى هذه البلاد .

وفى عام ١٩٠٧ ، أبرم اتفاق ودى بين انجلترا والروسيا ، ففضى على التنافس القديم بين الدولتين ، وأزال عوامل الخوف من نفوس الانجليز ، من جهة الأفغان ، وبذلك تم الاتفاق الثلاثى من روسيا وانجلترا وفرنسا ، ضد التحالف الثلاثى من النمسا وألمانيا وإيطاليا . وكانت سياسة التحالف ترمى منذ البداية ، إلى جعل فرنسا بمعزل عن الدول ، والمحافظة على الحدود ، التى تمخضت عنها معاهدة فرانكفورت . أما سياسة دول الاتفاق ، فكانت ترمى الى المحافظة على التوازن الدولى ، بوضع حد لمطامع ألمانيا .

### ” السلم المسلح Armed Peace “

#### الروح الحربية :

كانت المحافظة على السلم ، بعد انتهاء الحرب الفرنسية البروسية ، عام ١٨٧١ ، هى الغرض الذى يتحدث به السياسة فى كل دولة ، وباسم المحافظة على السلم أخذت كل دولة تتسلح استعدادا للحرب ، فألمانيا التى رجحت من الحرب ظافرة ،



وبيدها الزعامة الحربية في أوروبا ، خشيت أن تفكر فرنسا في الانتقام منها ، فأخذت تضعف مجهودها الحربي ، وحذت حذوها بقية الدول الأوروبية ، حتى غدت الأزمات الاقتصادية لا يعرف لها من سبب ، إلا ولوع الدول بزيادة الإعدادات الحربية وإتقانها ، وأصبح من الواضح أن تلك الحال إذا استمرت ، لابد أن تؤدي إلى ماتخشاة الدول ، وهي الحرب ، التي أصبح شبحها ماثلا أمام أهل أوروبا لمدة نصف قرن من الزمان ، وذهبت سدى تلك الجهود الجبارة ، التي كانت تبذل في سبيل تحديد وسائل التدمير ، واستقرار السلم في نصابه .

ولم تكن الروح الحربية ، التي تملك الدول ، هي التي وحدها تزج بها في طريق الحرب الوعر ، بل كانت هناك كذلك عوامل اقتصادية واستعمارية .

### المنافسة الاقتصادية :

كان من نتائج الانقلاب الصناعي ، أن تحولت أوروبا إلى عالم مكتظ بالمصانع والمعامل ، التي كانت تنتج أكثر مما تحتاجه ، فأصبحت الضرورة تحتم على الغربيين البحث عن أسواق في الخارج ، تصرف فيها ما زاد عن حاجتها من المصنوعات ، والبحث عن أراض غفل تستثمر فيها رؤوس أموالها ، وتحصل منها على المواد الخام لمصانعها . وقد أدى هذا إلى التنافس بين الدول على الاستعمار ، واحتكار الأسواق في آسيا وإفريقيا ، وفي أي مكان تستطيع التسلط عليه ، فكان هذا مثار النزاع بين الدول الأوروبية ، كما كان من بين الأسباب التي دفعت بها إلى مأساة الحرب العالمية الأولى .

### المنافسة الاستعمارية :

كانت ألمانيا تدين بمبدأ القوة ، ومعناه أن الواجب على كل دولة أن تعمل على مد نفوذها وبسط سلطتها ، وكان " تريتشك " Treitschke " الألماني أ كبر نصير لهذا المذهب ، فلم يقنع بمبدأ المساواة بين ألمانيا والدول الأخرى ، بل كان يدعو إلى السيادة والاحتكار ، ولو أدى ذلك إلى القضاء على كل منافس يلج هذا الميدان . وقد كان لهذا المبدأ أثره في ألمانيا ، نظرا لمثلية " تريتشك " بين الألمان ، ولأن ألمانيا بعد أن هزمت فرنسا في حرب السبعين ، أصبحت



صاحبة النفوذ الحربى الأول فى أوربا ، فلم تكتف بهذه السيادة الحربية ، بل تطلعت إلى نيل الزعامة السياسية أيضا ، بعقد محادثات مع بعض الدول .

وكان من رأى بسمرك ، ألا تخرج ألمانيا بنفسها فى ميدان البحث عن مستعمرات جديدة ، بقدر ما تهتم بتنظيم شؤونها الداخلية ، ولكن السواد الأعظم من شباب ألمانيا كان على غير رأيه ، فلما اعتزل الحكم سنة ١٨٩٠ ، أصبح لذلك الحزب اليد العليا فى إدارة شؤون الإمبراطورية ، واتجهت ميول غليوم الثانى ومستشاريه ، إلى إنشاء إمبراطورية لألمانيا خارج القارة ، وبينما هم يعمل للسلم داخل أوربا ، إذا بها تجد فى سبيل الاستعمار خارجها بشكل مروع ، جعل شبح الحرب يظهر فى الأفق ، أمام أعين الدول الأوروبية الأخرى ، فأخذت كل منها تتسلح استعدادا للمفاجآت .

ولقد قامت روسيا بتحقيق سياسة لها ، لا تقل خطورة على السلم عن سياسة ألمانيا ، فانها استقرت فى تقدمها فى آسيا ، فى الاتجاه الجنوبى الشرقى نحو بلاد التركستان وتركيا آسيا الوسطى ، والاتجاه الشرقى نحو الصين ، وبعملها هذا أثارت وساوس بريطانيا ومخاوف اليابان .

أما فرنسا التى هيض جناحها ، فلم تخش شيئا أشد من خشيتها قومة حرب جديدة ، ربما تأتى على معالمها ، لذلك انصرفت إلى البحث عن جهات تعوض عليها ما فقدت من أملاكها فى حرب السبعين ، وقد شجعها بسمرك على ذلك لعاملين : أولا — عليها تنسى الأضرار واللورين ، وثانيا — لتتأجج العداوة والبغضاء على الدوام بينها وبين بريطانيا ، التى يسوءها أن ترى منافسا لها فى فتح أفريقيا .

أما إمبراطورية النمسا ، فبحكم تكوينها من شعوب غير متجانسة فى اللغة والدين والجنسية والعادات ، فإنها لم تفكر مطلقا فى الاستعمار خارج أوربا ، وإنما كان همها الوحيد ، أن تزيد رقعة أملاكها جهة الشرق ، بالتوغل فى أملاك تركيا ، وبسط نفوذها على بعض شعوب البلقان ، وقد شجعتها ألمانيا على انتهاج هذه السياسة .



أما إيطاليا ، التي انشغلت حقبة طويلة من الزمن باتمام وحدتها ، فانها رأت بعد الوحدة ، أنه من الخرق في السياسة أن تقف مكتوفة اليدين ، في الوقت الذي تتسابق فيه دول أوروبا في سبيل الاستعمار ، خصوصا وأن عظمة الدولة الحربية ، أصبحت تقاس بما لها من مستعمرات . ولما أن أفلتت فرصة التسيطر على تونس من يدها ، بدأت تبحث عن مستعمرات في جهات أخرى ، فحالت في ميدان أفريقيا ، وأخذت لنفسها نصيبا في استعمارها .

### مؤتمر لاهاي الأول سنة ١٨٩٩ والثاني ١٩٠٧

بإزاء هذه الحالة الخطيرة ، انعقد مؤتمر من مندوبي الدول في مدينة لاهاي ، عام ١٨٩٩ ، ثم آخر في عام ١٩٠٧ ، وقام كل منهما بأعمال جليلة ، ولكن الغرض الذي اجتمعوا من أجله بقي أبترا ، فلم يعمل شيء جدي ، حيال تحديد مقدرة كل دولة على التسليح ، فقد اندفع سياسة أوروبا في سبيل التسليح ، حتى وجدوا أنفسهم محصورين داخل دائرة محكمة ، يتعذر الخروج منها . وكانت كل دولة تثبت رغبتها في السلم ، استمرت تستعد للحرب ، وتبرر عملها ، بما تراه من استعداد جيرانها ، وبذا انتهى مؤتمر لاهاي الأول والثاني ، ولم يتخذ خطة حاسمة حيال القضاء على هذا التسليح ، وكل ما عمله الموافقة على مبدأ التحكيم ، إذا قام خلاف بين الدول على تفسير ما غمض من مواد المعاهدات .

### الطريق إلى الحرب

كان هناك عاملان جعلتا السلم في خطر ، وقربا شبح الحرب ، وهذان هما المسألة الشرقية ، وسياسة الامبراطورية الألمانية .

### المسألة الشرقية :

لقد بقيت المسألة الشرقية خامدة لمدة ثلاثين عاما ، بعد مؤتمر برلين ، فحولت روسيا أنظارها إلى الشرق الأقصى ، كما اهتمت النمسا بتثبيت أقدامها في البوسنة ، في حين كانت ولايات البلقان الناشئة ، مشغولة بحل الإشكالات



الداخلية التي أعقبت الاستقلال . وكان يتربع على دست السلطنة العثمانية في تلك المدة السلطان عبد الحميد ، الذي بنى سياسته الداخلية على الرهبة والجمود ، وظهر في سياسته الخارجية بمظهر الضعف والاستسلام ، فدهورت البلاد ، وانحط مركزها السياسي ، فقامت جمعية الاتحاد والترقي تبني تحرير البلاد وانتشالها من وهدة الخراب ، وقد أفلحت في ضم رجال الجيش اليها ، وفي يولييه سنة ١٩٠٨ قامت الثورة ، وأعلن الدستور ، وألغيت الرقابة على الصحف والمطبوعات ، ونجحت الثورة دون سفك دماء . ولكن الدول التي كانت مرثاة لضعف تركيا ، خشيت مغبة ذلك الانقلاب ، الذي قد يحول بينها وبين إشباع أطماعها ، إذا نهضت البلاد وأصلحت شؤونها ، على يد زعماء الاتحاد . وفي أكتوبر سنة ١٩٠٨ أعلن امبراطور النمسا ضم البوسنة والهرسك إلى امبراطوريته نهائيا . وفي نفس الشهر أعلن أمير بلغاريا استقلال بلاده عن تركيا استقلالا تاما . وبعد ذلك بقليل ، أعلن أهالي كريت ضم جزيرتهم إلى اليونان ، وهكذا تمزقت معاهدة برلين ، أمام احتجاج تركيا وأعين الدول .

ولم تلبث أن أثيرت القلاقل ، في معظم أنحاء الدولة ، في مقدونيا وألبانيا وآسيا الصغرى وبلاد العرب ، وفي خلال تلك الحوادث خلع السلطان عبد الحميد ، وخلفه أخوه محمد الخامس سنة ١٩٠٩ ، ولم يوفق رجال حزب تركيا الفتاة في حكم البلاد ، وقامت الحرب التركية الإيطالية سنة ١٩١١ ، وانهت باستيلاء إيطاليا على طرابلس ، بعد أن أظهرت ضعف الدولة الحربية ، بفرأ ذلك دول البلقان على إشهار الحرب على تركيا عام ١٩١٢ — ١٩١٣ ، وكانت أشد خطرا عليها من الحرب الإيطالية ، فقامت الصرب وبلغاريا واليونان والجبل الأسود ، وهاجمت الأملاك التركية ، في نفس اليوم الذي أمضيت فيه معاهدة لوزان ، بين تركيا وإيطاليا ، فانهزمت تركيا في كل الميادين تقريبا . وفي مارس سنة ١٩١٣ ، سقطت أدرنة ، وعلى أثر ذلك قرر مؤتمر لندن ، الذي اجتمع لتسوية مشاكل البلقان ، أن تنزل تركيا لأعدائها عن كثير من أملاكها ، وانكشفت دولتها في أوروبا بعد ذلك ، في إقليم ضيق قرب الآستانة . ولكن الحلفاء انقسموا على أنفسهم بعد ذلك ، وبدأوا يتنازعون فيما بينهم ، على اقتسام الغنيمة ، فدخلت تركيا الحرب من جديد ، واستردت أدرنة من بلغاريا . إلا أن تلك الحال التي صارت إليها تركيا ، جعلت مصالح الألمان والنمساويين في تركيا مهددة بالأخطار ، ولذلك



وقفوا من ذلك الوقت في صفها ، كما رضيت هي بالوقوف في صفهم ، لأن دول  
الوفاق الثلاثي ( إنجلترا ، وفرنسا ، والروسيا ) كانت تهدد سلامتها من آن  
لآخر .

والواقع أن تسوية عام ١٩١٣ بين دول البلقان ، كانت من أسباب الحرب  
العالمية التي قامت عام ١٩١٤ ، لأن النمسا كانت مصممة على نقض هذه التسوية ،  
إذ أن المسألة الشرقية في نظرها كانت مسألة اقتصادية ، أكثر منها سياسية ، فنفذ  
أن خرجت النمسا من ولايات إيطاليا ، كانت تبحث عن منفذ تخرج منه تجارتها  
إلى العالم الخارجي ، لأن ميناء تريستا الذي بقي لها على بحر الأدرياتيك ، لم يف  
وحده بالغرض . وكانت النمسا ترمي منذ أمد بعيد إلى الوصول إلى ميناء " سالونيك " *Salonica*  
، وما كان احتلالها للبويسنة ، إلا وسيلة للوصول إلى ذلك الميناء ،  
ولكن حرب البلقان الثانية ، ثبتت أقدام اليونان في سالونيك ، والصرب في أواسط  
مقدونيا ، وبذلك حيل بين النمسا وبين إتمام أغراضها في البلقان . وفوق ذلك ،  
كان تكوين دولة الصرب واتساعها ، مما يثير مخاوف النمسا ، لأن الصقلب  
من سكانها يتطاعون حتما في يوم ما إلى الانضمام إلى الصرب ، وبذلك تصبح  
الصرب في المستقبل خطرا يهدد كيان إمبراطورية النمسا والمجر .

### سياسة الإمبراطورية الألمانية :

ما كاد المستشار الحديدي يترك منصبه ، حتى انحدرت سياسة ألمانيا الخارجية  
في مجرى صحيح ، انتهى بإثارة زوبعة ، لأن ألمانيا أصبحت بعد عهده  
تدعو إلى السيادة العالمية ، فلم تقصر همها على الاهتمام بالمحافظة على التوازن الدولي  
في شبه جزيرة البلقان ، بل بدأت تفكر في المتزلة ، التي يجب أن تقتعدها في العالم ،  
بحكم زعامتها الحربية . وبعد أن انهزمت روسيا في الحرب الروسية اليابانية  
( ١٩٠٤ — ١٩٠٥ ) ، ازدادت ألمانيا اعتدادا بقوتها ، وبدأت لا توجس خيفة  
من الدب الروسي .

وفوق ذلك ، فإن ألمانيا التي شغلت حقبة من الزمان بإتمام اتحادها ،  
لم تستطع أن تدخل ميدان الاستعمار إلا متأخرة ، بعد أن اتخمت منه إنجلترا  
وامتلات فرنسا ، فبعد عهد بسمرك ، اندفع الشعب بحماس في سبيل الاستعمار ،  
وحصلت ألمانيا على بعض ممتلكات في أفريقية وآسيا والمحيط الهادئ .



ولكن ألمانيا رأت أن أكثر بقاع العالم خيرات وأوفرها إنتاجا ، في حوزة بريطانيا وفرنسا ، فصممت على أن تسيطر على الشرق الأدنى والأوسط ، وأخذت تتقرب من تركيا ، وبدأت تستثمر رؤوس الأموال الألمانية ، في استغلال أراضي آسيا الصغرى والجزيرة ، التي تقطنها قبائل رحل ، فاشتغلت بمد السكك الحديدية وتنفيذ مشاريع الري الكبرى ، لأن زيادة الخصب في تلك الجهات يؤدي حتما إلى إمداد المصانع الألمانية بالمواد الغفل ، كما يؤدي إلى فتح أسواق جديدة لتصريف منتجاتها . ويضاف إلى ذلك تنظيم الممتلكات التركية ، ماليا وحربيا وبحريا ، ومعنى هذه السياسة السيطرة على الجزء الجنوبي الشرقي من أوروبا ، والجزء الشرقي من حوض البحر الأبيض المتوسط ، وبعد ذلك القرب من بغداد ، والسيطرة على شؤون إيران ، والاحتكاك بالنفوذ الروسي والإنجليزى في الشرق . وقد تمثلت تلك السياسة في مد خط حديد بغداد ، الذي بدأ عام ١٨٨٨ ، وأخذ شكله النهائى في عام ١٩٠٣ ، وكان القصد منه ربط برلين بالخليج الفارسى .

وفوق ذلك ، فقد كان النزاع بين ألمانيا وفرنسا واضح الأثر ، في الفترة ما بين ١٩٠٥ و١٩١١ ، وكاد يؤدي إلى حرب عالمية طاحنة ، ففي مارس ١٩٠٥ ظهر امبراطور ألمانيا بفاة في مدينة طنجة ، وألقى خطابا سياسيا حمل فيه على السياسة الفرنسية في مراکش ، فأقلق ذلك الدوائر السياسية بأوربا ، واتفقت الدول على أن تترك مهمة الإصلاحات اللازمة لمؤتمر دولى يعقد في "الجزيرة" سنة ١٩٠٦ ، فانعقد المؤتمر وتمت "معاهدة الجزيرة" ، وفيما اتفقت الدول على استقلال السلطان وسلامة أملاكه ، والاعتراف بمبدأ المساواة الاقتصادية في بلاده . ولكن بالرغم من ذلك ، استمرت ألمانيا تنافس فرنسا في تلك البلاد ، وفي عام ١ٹ١١ ، أرسلت مدرعة حربية إلى ميناء "أغادير" احتجاجا على أعمال فرنسا في مراکش ، وكادت الحرب أن تقع لولا أن وقفت إنجلترا إلى جانب فرنسا ، ورضيت فرنسا أن تنزل عن جزء من الكنفو الفرنسية لألمانيا ، نظير اعترافها بحماية فرنسا لمراكش .

وبعد انتهاء حادث أغادير ، زاد السخط في ألمانيا على إنجلترا ، وقد بذلت مجهودات كبيرة لتحسين العلاقة بين الدولتين ، فصرح رئيس وزراء إنجلترا في ديسمبر سنة ١٩١١ ، أن غرض الحكومة الإنجليزية المحافظة على السلم



في العالم ، ولكن ألمانيا كانت تريد من إنجلترا أن تقف على الحياد ، إذا قامت الحرب بينها وبين دولة أوروبية أخرى . وبينما كانت هذه المحادثات مستمرة ، إذ بشرارة من البلقان توجب نيران الحرب العالمية بين مختلف دول العالم .

### نشوب الحرب

ليس من شك في أن الحرب العالمية ، التي خاضت دول العالم غمارها عام ١٩١٤ ، كان سببها النزاع الاقتصادي والسياسي بين الدول . وفي شهر يونيه عام ١٩١٤ ، حدث حادث كان السبب المباشر للحرب ، ذلك أن الأرشيدوق ” فرديناند ” ولي عهد النمسا والمجر ، قتل هو وزوجه أثناء زيارتهما البوسنة ، بيد طالبين صربيين ، وكانت حكومة الصرب قبل ذلك قد حذرتهم مغبة تلك الزيارة ، فلما وقع الحادث هاجت الخواطر في النمسا ، واتهمت الصرب أنها تشجع المؤامرات ضدها ، وعلى ذلك فهي مسئولة عن هذا الجرم . وفي ٢٣ يولييه أرسلت إليها احتجاجا في صورة إنذار نهائي ، تطالبها فيه بأن توقف في بلادها حركة العداء ضد النمسا ، تلك الحركة التي كانت تظهر آثارها في الصحف ، وفي المدارس والأندية ، وأن تفصل من الجيش ومن الخدمة العامة كل من يشتبه في مقاصده نحو النمسا ، وأن تسمح لموظفين نمساويين بالإشراف على التحقيق ، حتى ينال الجناة جزاءهم . وقد وافقت الصرب مرغمة على تلك المطالب المذلة ، إلا الطلب الأخير ، فلنمسا أرادت أن تحيله على محكمة لاهاى الدولية ، فرفضت النمسا وهاج الرأي العام فيها ، وأخذ ينادى بضرورة إعلان الحرب ، فزحفت الجيوش النمساوية على الصرب في ٢٨ يولييه سنة ١٩١٤ .

ولم تستطع روسيا أن تقف مكتوفة اليدين ، تنظر إلى النمسا وهي تمزق أوصال الصرب ، فبدأت تعبئ جيشها للدفاع عن مصالحها في البلقان ، فاعتبرت ألمانيا ذلك تحرشا بها ، وأعلنت عليها الحرب في أول أغسطس سنة ١٩١٤ ، ثم طلبت من فرنسا أن تكشف عن نواياها ، فوقفت هذه إلى جانب روسيا حليفةها ، فأعلنت ألمانيا الحرب عليها أيضا في ٣ أغسطس ، وإن كانت الجيوش الألمانية تحركت فعلا لغزو فرنسا قبل إعلان الحرب رسميا ، ففي ٢ أغسطس سنة ١٩١٤ احتلت إقليم لكسمبرج المحايد ، بالرغم من احتجاج حاكمه ، واعتبرت معاهدة



حياد البلجيك التي عقدتها الدول عام ١٨٣٩ قصاصة ورق . ولما كانت بريطانيا حليفة لفرنسا ، وبمهمها المحافظة على حياد بلجيكا ، أعلنت الحرب على ألمانيا ، بدعوى انتهاكها حرمة بلجيكا ، والحقيقة أنها دخلت للدفاع عن مصالحها الخاصة ، وبذلك تحققت نبوءة بسمرك ، من أن العالم كعمل للبارود ، وشرارة واحدة من البلقان تكفى لإشعاله .

ومن الغريب أن كل دولة بعد أن اشتبكت في الحرب ، كانت تدعى أنها تعمل للسلم ، وأنها ما دخلت الحرب إلا مرغمة للدفاع عن مصالحها ، فكل من ألمانيا والنمسا كانت تخشى الخطر الصقلي ، الذي يهددها من ناحية روسيا والصرب ، كما أن كلا من فرنسا وألمانيا كانت متخوفة من الأخرى ، وبريطانيا لا يسرها أن ترى الأسطول الألماني يخترع عباب بحر الشمال .

ولم تلبث بعض الدول الأخرى ، أن اشتبكت في هذا الصراع ، فان اليابان أعلنت الحرب على ألمانيا ، أملا في أخذ ألاكها في الشرق ، وانضمت تركيا إلى ألمانيا والنمسا ، بعد أن تحققت الخطر الذي يهدد كيانها من جانب دول الحلفاء ، والذي ظهرت بوادره في أواخر القرن التاسع عشر ، وبخر القرن العشرين .

أما إيطاليا ، فقد أعلنت حيادها في بداية الأمر ، خصوصا وأن تعهداتها مع ألمانيا والنمسا عام ١٨٨٢ ، كانت لا تختم عليها الحرب ، إلا في حالة الدفاع فقط . وقد انضمت بلغاريا إلى جانب ألمانيا والنمسا ، لتحقيق الوحدة البلغارية ، التي أخفقت في تحقيقها في حرب البلقان الماضية . ولم تلبث إيطاليا أن أعلنت الحرب على حليفتيها ألمانيا والنمسا سنة ١٩١٥ ، بعد أن ضمن لها الحلفاء أخذ السيرول ، وأجزاء أخرى من النمسا في حالة النصر . ولم تلبث أمريكا أن دخلت الحرب عام ١٩١٧ ، إلى جانب الحلفاء ، محافظة على مصالحها ، التي كان يهددها انتصار ألمانيا . وبذلك أصبح العالم منقسما إلى معسكرين عظيمين ، ألمانيا والنمسا وتركيا وبلغاريا من ناحية ، وإنجلترا وفرنسا وروسيا وبلجيكا والصرب واليونان ورومانيا وإيطاليا وأمريكا واليابان من ناحية أخرى . وقد استمرت تلك الحرب حتى نوفمبر عام ١٩١٨ ، بعد أن دمرت الحرث والنسل ، واستعملت فيها ألوان القسوة البشرية ، فتخرب العامر وأفقرو الآهل ، في كثير من الجهات ، وكاد ينكسر صرح المدنية .



## الباب التاسع

### أثر الحرب في مصر

#### الحماية البريطانية على مصر

#### السلطان حسين كامل

على أثر انضمام تركيا إلى جانب ألمانيا، أصبحت مصر في مركز شاذ، فقد كانت حتى تلك اللحظة تعتبر جزءا من الدولة العثمانية، وكانت تحتلها في نفس الوقت الجنود البريطانية. فلما أعلنت تركيا الحرب على إنجلترا وحلفائها، رأت إنجلترا أن لا مناص من فصل مصر عن الدولة العلية نهائيا، فأقدمت على هذه الخطوة، ثم تبعها بخطوة أخرى لا تقل خطورة عنها، فأعلنت الحماية البريطانية على مصر، في ١٨ ديسمبر سنة ١٩١٤ كضرورة حربية.

وفي خلال هذه الحوادث، كان الخديوي عباس الثاني غائبا عن البلاد، فكان قد سافر إلى الآستانة في أوائل الصيف، قبل نشوب الحرب، وبعد قيامها أظهر الخديوي رغبته، وأخذ أهبطه للعودة إلى مصر، ولكن الحكومة البريطانية كانت تشك في إخلاصه، ولذلك عملت على عدم تنفيذ رغبته، واتفق الأمر بخلعها عن عرش مصر.

ولما الانجليز عند ذلك إلى الأمير حسين كامل، ثاني أنجال الخديوي اسماعيل، لينتقد الموقف ويتولى عرش آبائه وأجداده. فما كان من الأمير إلا أن أثر المصلحة العامة، وهي مصلحة مصر، على مصلحته الخاصة، وهي الراحة التي كان يتمتع بها في شيخوخته، وقبل العرش باسم حضرة صاحب العظمة السلطان حسين كامل.



وقد كان ماضيه العامر بجلال الأعمال ، يبشر بمقدار النجاح الذي سيصيب البلاد تحت حكمه ، فقد تولى عدة مناصب إدارية منذ عهد أبيه العظيم ، واشترك في الحياة السياسية والاقتصادية ، فكان عظيم النفس صادق الخدمات مخلصا



( السلطان حسين كامل )

لبلاده . ولقد نال الفلاح الشيء الكثير من عنايته وعطفه ، وكانت له اليد الطولى في تأسيس الجمعية الزراعية ، عام ١٨٩٨ ، خدمة للزراعة والمزارعين . وكان من أكبر المناصرين لحركة التعاون ، التي قام بها المغفور له عمر بك لطفى عام ١٩٠٨ . ولكن عهده لم يطل كثيرا ، إذ وافته المنية في ٨ أكتوبر سنة ١٩١٧ ، خلفه شبل آخر من أشبال اسماعيل ، هو أخوه الأصغر ، الأمير " أحمد فؤاد " .



## الملك فؤاد الأول

هو سادس أنجال الخديوى اسماعيل ، ولد فى ٢٦ مارس سنة ١٨٦٨ بقصر  
الجيزة ، وبعد أن تلقى علومه الابتدائية بمصر ، التحق بإحدى مدارس سويسرا ،



( المنفور له الملك فؤاد الأول )

لينال قسطنطين من الثقافة الغربية . وفى عام ١٨٨٥ ، التحق بمدرسة تورين الحربية  
بإيطاليا ، فأظهر تفوقا ونبوغا مهدا له طريق الالتحاق بالجيش الايطالى ، الذى  
أخذ يرتقى فى وظائفه ، حتى وصل الى رتبة "كابتن" ، ولكن السلطان  
عبد الحميد الثانى رأى أن يستفيد بخبرته ، فعينه ملحقا عسكريا بالسفارة التركية  
بقينا سنة ١٨٩٠

وما أن تولى عرش مصر ابن أخيه "عباس حلمى الثانى" ، عام ١٨٩٢  
حتى وطد العزم على الاستفادة بتجارب عمه وصديق عزيمته ، فاستدعاه الى مصر ،  
وهينه قائدا فى الجيش المصرى ، ثم كبيرا للياوران . غير أن الأمير لم يلبث أن



أثر على هذه الحياة حياة أخرى ، كانت أقرب الى رغباته وميوله ، فاستقال من وظيفته ، ودخل ميدان الحياة الشعبية ، وضرب بسهم وافر في كل نواحيه ، وعمل على النهوض بهذا الشعب ، من سبيل تعليمه وتهذيبه ، ورفع مركزه بين الأمم .

وأظهر ثمرة من ثمرات مجهوداته المتعددة ، تأسيس الجامعة المصرية ، التي كان له الفضل الأكبر في نشر الدعوة لها ، وجمع الاكتتابات لإنشائها ، حتى استطاعت أن ترى الضوء عام ١٩٠٨ ، ثم أخذت في سبيل التقدم بفضل رعايته ، وعملت على نشر الثقافة ، وإرسال البعثات الى الجامعات الأوروبية الشهيرة .

وقد تناولت جهود الأمير الجمعية الجغرافية ، فأولاها عطفاً انتشلها من حالة التدهور التي كانت قد تردت فيها ، ثم تولى رياستها بنفسه عام ١٩١٧ ، وسار بها في سبيل التقدم ، لتعمل للغاية التي أنشأها من أجلها اسماعيل العظيم . وبجانب ذلك ، كان له الفضل في تأسيس جمعية الاقتصاد السياسي والإحصاء والتشريع ومعهد الأحياء المائية ، وكذلك جمعية تنشيط السياحة وجمعية الهلال الأحمر ، وغير ذلك من الجمعيات ، ذات الأثر الطيب ، في حياتنا العلمية والاقتصادية والاجتماعية .

ولقد كان من حسن حظ مصر ، أن تولى عرشها في ٩ أكتوبر سنة ١٩١٧ ذلك الأمير العالم النشط ، واسع الخبرة كثير العطف على الشعب ، باسم حضرة صاحب العظمة السلطان نواد . وما أن تسلم زمام الأمور في البلاد ، حتى تعهد بالعطف والرعاية تلك المشروعات الجليلة ، التي لم ينس أنها من غرس يده ، حتى أينعت وطاب الثمر . ولم يأل جهداً في العمل على تحسين حالة بلاده وشعبه ، بقدر ما كانت تسمح به ظروف الحالة السائدة .

### مصر في خلال الحرب :

في ٢ نوفمبر سنة ١٩١٤ ، أعلنت الأحكام العرفية في مصر ، وكما هي العادة في مثل هذه الظروف الشاذة ، صدرت عدة قوانين استثنائية ، قيدت حرية الاجتماع ، وعطلت جلسات الجمعية التشريعية ، ووضعت رقابة على الصحف وعلى جميع الخطابات والمراسلات . ولكي يأمن الانجليز جانب المصريين ، ألقوا



القبض على كثير من الطلبة، وعلى من شكوا في إخلاصه، فنفوا البعض الى جزيرة مالطة، وسجنوا آخرين أو وضعوهم تحت رقابة شديدة، وبذلك خيم على البلاد هدوء ظاهرى، أراح بال الحكومة الانجليزية من ناحية مصر، في أثناء انشغالها بدرء الخطر عن كيان الامبراطورية البريطانية.

وفي سنة ١٩١٥، تعرضت مصر لخطر هجوم من جهتها الشرقية، فان جيشا مختلطا من الأتراك والألمان والسوريين والعرب، تقدم نحو مصر ليفزوها من جهة الشرق، وقد واصل زحفه حتى وصل إلى قناة السويس، ولكن الانجليز تمكنوا من صد هجماته، فارتد الى فلسطين، وأخذ الجيش الانجليزي يتعقبه حتى تم له النصر عليه، واستولى في النهاية على فلسطين وسوريا.

ولكن الانجليز كانوا في أشد الحاجة، لتزويد هذا الجيش بالرجال، وإمداده بالمؤونة ودواب الحمل، وما شا كل ذلك. وكان لا بد لهم أن يحصلوا على حاجاتهم من مصر، فعرضوا على السلطان حسين كامل في بادئ الأمر أن يسمح لهم بتجنيد جيش من المصريين، يعمل مع الجيش الانجليزي ضد جيوش الأعداء، ولكنه أبى، فلجأت السلطة العسكرية البريطانية إلى الدعوة الى التطوع، فسافت الإدارة الى ميدان القتال عددا كبيرا من المصريين، بلغ في النهاية نحو مليون وربع مليون من الرجال. وكانت مهمتهم تمهيد الطرق والنقل، ومد السكك الحديدية وأزاييب المياه، وما شا كل ذلك.

وفضلا عن الرجال، لجأت السلطة الى جمع دواب الحمل من حمير وخيول وإبل، فاختارت صفوة ما كان موجودا منها بمصر، واشترتها رجالها بثمن بخس. كذلك اشتروا المحصولات الزراعية من الفلاح، من قمح وذرة وشعير وبن، بثمن زهيد. هذا الى أن ثمن القطن كان قد انخفض في خلال الحرب، وخاصة في أوائلها، وأنزل كارثة مالية بكثير من الفلاحين والتجار المصريين.



## تورة سنة ١٩١٩

### سعد زغلول باشا

ولد سنة ١٨٦٠ ، في بلدة إبيانة ، التابعة لمركز فوه بمديرية الغربية ، وقرأ القرآن بحُجَّاب القرية ، ثم ذهب إلى الأزهر فدرس فيه ، واتفق أن كان السيد جمال الدين الأفغانى حينذاك بمصر ، فدرس عليه ، وتعرف بالشيخ محمد عبده ،



(سعد زغلول باشا)

وكان وقتئذ رئيساً لتحرير الجريدة الرسمية للحكومة ، فاختره مع نخبة ممن برعوا في الكتابة في مصر ، للتحرير معه سنة ١٨٨١ ، فظهرت كفايته وعلت منزلته كمجدد .



وبعد ذلك شغل وظيفة معاون في الداخلية ، ثم عين رئيسا لقلم قضايا الجيزة ، وبقى في تلك الوظيفة الأخيرة ، حتى هبت عاصفة الثورة العرابية ، واتهم فيها الشيخ محمد عبده ، بصفته زعيما للإصلاح ومن عشاق الحرية والدستور . ولما كان سعد زغلول من أنصار الشيخ محمد عبده اتهم هو أيضا ، وعلى الرغم من أنه لم تثبت إدانته في التهم التي أسندت إليه ، فصل من وظيفته الحكومية ، فبدأ يشتغل بالمحاماة . وكان قوى الحجّة حاضر البديهة خصب القريحة ، وقد جعلته قوة خطابه وزلاقة لسانه في مرتبة المبرزين من المحامين ، فانتقلت به المحاماة إلى مرتبة أسمى من التي كانت تشغلها .

وفي سنة ١٨٩٢ ، عينته الحكومة نائب مستشار بمحكمة الاستئناف ، فكان حجة في القضاء ، كما كان زعيما في المحاماة ، ولا تزال أحكامه في القضاء نبراسا للعدل ، يهتدى به رجال القانون .

وقد كانت نفسه نزاعة دائما إلى الإصلاح ، فاشترك في دعوة الأمة إلى إنشاء الجامعة المصرية . وفي سنة ١٩٠٦ ، عين ناظرا للمعارف ، فبدأ حركة إصلاح في التعليم ، كانت أول ما شهدته مصر في هذا الباب . وبفضل مجهوداته أصبحت المواد تدرس باللغة العربية ، بعد أن كانت تدرس كلها قبل ذلك باللغة الإنجليزية . وبعد ذلك تقلد زمام نظارة الحقانية ( العدل ) ، وتمت فيها عدة إصلاحات على يده أهمها إنشاء نقابة المحامين ، ثم اعتزل الوزارة .

وفي سنة ١٩١٣ ، انتخب عضوا بالجمعية التشريعية ، عن دائرة السيدة زينب . ثم انتخبه أعضاء الجمعية وكيلا لها عن الشعب ، فكان خطيبا مفوها وسياسيا قديرا ، ولكن الجمعية لم تنعقد إلا دورا واحدا ، ثم أدركتها الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ فتعطلت ، وأعلنت الأحكام العرفية بمصر ، ووفق سعد يفكر في مصلحة وطنه في جو هادئ . إلا أن أعمال الانجليز بمصر ، منذ إعلان الأحكام العرفية . قد تركت أثرا سيئا في نفوس المصريين من جميع الطبقات . ولما كان الحلفاء ينادون دائما بالدفاع عن حرية الشعوب وكيانها ، فقد قام ثلاثة من زعماء المصريين . هم : "سعد زغلول وعبد العزيز فهمي وعلى شعراوي" ، بعد عقد الهدنة بين المتحاربين بيومين ، وذهبوا إلى دار الحماية ، في ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ ، حيث قابلوا العميد



البريطاني "سير ونجت" *Sir R. Wingate* ، وطلبوا إليه أن يسمح لهم بالسفر  
إلى الخارج للدفاع عن قضية بلادهم ، أمام مؤتمر الصلح بفرساي ، ولكنه رفض  
طلباتهم ، فلم يشن هذا من عزيمتهم ، بل أخذوا يبتون الدعوة في أنحاء البلاد ،





ويثرون الحماسة الوطنية في نفوس الشعب ، وشرعوا يحصلون على توقيعات عدد كبير من أبناء الأمة ، بتوكيلهم عنهم في المهمة الوطنية الكبرى ، مهمة المطالبة باستقلال مصر استقلالاً تاماً ، وتآلف " الوفد المصري " لهذه الغاية .



( حسين رشدي باشا )

وفي الوقت نفسه ، قام " حسين رشدي باشا " رئيس الوزارة إذ ذاك ، و " عدلي يكن باشا " وزير المعارف ، و طلبا إلى السلطة الانجليزية أن تسمح لهم بالذهاب إلى إنجلترا ، لمفاوضة حكومة لندن ، في شأن تسوية حالة مصر السياسية ، بطريقة تتفق مع روح العصر ، ولكنهما لم يجابا إلى طلبهما ، فاستقالت الوزارة على الأثر .

ولما أخذت الحركة الوطنية في الانتشار ، استاء الإنجليز من ظهور هذه الروح الثائرة ، فهبوا مسرعين لتلافي الأمر ، ونفوا سعد باشا وثلاثة من زملائه ،



( سعد وزملاؤه في مالطة )

هم : " محمد محمود باشا " و " اسماعيل صدقي باشا " و " محمد الباسل باشا " إلى جزيرة مالطة ، في ٩ مارس سنة ١٩١٩ . ويمتدح تاريخ حياة سعد بذلك بتاريخ الحركة الوطنية .



## الثورة :

غضب الشعب لنفى زعمائه ، وكان هذا مبدءاً انفجار القنبلة ، إذ انتشرت حركة ثورية شديدة ضد الإنجليز ، أفضت إلى حدوث اضطرابات متنوعة ، بدأت في القاهرة ، ثم عمت جميع مديريات القطر ، فاقتلعت السكك الحديدية ، وقطعت أسلاك البرق والتليفون ، وأضرب الطلبة وأغلقت المدارس ، وأتلفت بعض مباني الحكومة ، وأحرق أناثها ، وأضرب موظفو الحكومة . وصحب هذه الحركة العنيفة ، تعد على بعض المحال التجارية الأجنبية في الأقاليم ، وأحرق الخطر بالإنجليز خارج القاهرة ، وقتل بعض الضباط البريطانيين ، وكانوا عائدین إلى بلادهم من السودان لقضاء إجازتهم فيها .

## أسبابها :

- ( ١ ) إعلان الأحكام العرفية في مصر ، في نوفمبر سنة ١٩١٤ ، وما تبع ذلك من قوانين استثنائية قيدت حرية الاجتماع والخطابة والصحافة .
- ( ٢ ) نفى بعض المصريين خارج القطر ، تخلصاً منهم في أثناء الحرب ، وسجن آخرين أو وضعهم تحت رقابة شديدة .
- ( ٣ ) استيلاء السلطة العسكرية في خلال الحرب على المحصولات الزراعية ودواب الحمل بأثمان بخسة .
- ( ٤ ) أخذ عدد كبير من الرجال ، بلغ حوالى مليون وربع ، للعمل مع الجيش الإنجليزي في ميدان فلسطين والشام ، على غير رغبتهم .
- ( ٥ ) إعلان الحلفاء في خلال الحرب ، أنهم إنما كانوا يدافعون عن حرية الشعوب ويكافحونها . وفضلاً عن ذلك قيام " ولسن Wilson " ، رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ، في أواخر الحرب ، بنشر مبادئه المشهورة ، التي تقضى بحق كل أمة في تقرير مصيرها بنفسها . ولما كان المصريون متنبهين إلى مجرى هذه الأفكار ومغزاها ، ومتشبعين بفكرة المطالبة باستقلالهم ، ومتألمين في الوقت نفسه من الحالة التي كانوا فيها ، قاموا قومتهم المعروفة ينشدون الحرية والاستقلال .
- ( ٦ ) نفى زعماء البلاد الأربعة إلى مالطة ، وكان هذا هو السبب المباشر لقيام الثورة .



### أثرها :

لم تستمر هذه الاضطرابات إلا عدة أسابيع ، استطاع الانجليز بعدها أن يسيطروا على البلاد ، فعم جهات القطر هدوء ظاهري . غير أن الحكومة الانجليزية ، رأت تهديداً للخواطر ، أن تطلق سراح الزعماء المعتقلين في مالطة ، وقد تم ذلك في ٧ أبريل سنة ١٩١٩ ، وسمحت لهم بالذهاب أين شاءوا ، فسافروا إلى باريس ، وتبعهم آخرون من أعضاء الوفد ، للدفاع عن قضية البلاد أمام " مؤتمر السلام " ، المنعقد بفرساي ، لينظر في الشؤون الكثيرة ، التي خلفتها الحرب . ولكن المؤتمر أوصد أبوابه في وجوههم ، سراعاً لخاطر انجلترا ، بل ذهب إلى أبعد من ذلك ، واعترف بالحماية البريطانية على مصر ، فأقام أعضاء الوفد بباريس ، بالرغم من ذلك ، يعملون على تنوير الرأي العام في أوروبا وأمريكا ، عن مركز مصر وحالتها ، بإقامة المآدب ل كبار الساسة والأدباء والصحافيين ، وإلقاء المحاضرات والنشر في الصحف والمجلات .

### لجنة ملنر :

واستمر المصريون في حركتهم ، بقيادة زعمائهم ، وقد ازدادوا إيماناً بضرورة الحصول على استقلالهم ، وبإزاء ذلك لم تر انجلترا بدا من معالجة الموضوع ، فألفت لجنة برياسة " لورد ملنر Milner " ، وأرسلتها إلى مصر لدرس الحالة فيها ، فأهملت اللجنة شأن الوفد بأوروبا ، وحضرت إلى مصر في خريف عام ١٩١٩ ، غير أن المصريين ، كانوا في ذلك الوقت كتلة واحدة ، فقاطعوا اللجنة ، وكان تماسكهم تماسكاً عجيباً أدهش الانجليز . وعادت اللجنة إلى أوروبا ، بعد أن درست ما أمكنها درسه ، باتصالها بالمقامات الحكومية ، ثم رأت ضرورة الاتصال بالوفد ، فوقعت بين الفريقين محادثات طويلة ، للوصول إلى حل مرضي . ولكن الأمة قابلت اقتراحات اللجنة ، وهي المعروفة " بمشروع ملنر " ، بعدة تحفظات ورغبات ، حدث الاتفاق على أن تكون موضوع مفاوضات أخرى ، بين الحكومة الانجليزية ووفد مصري رسمي . .



## سعد وعدلى :

فتألفت وزارة برياسة المغفور له "عدلى يكن باشا" ، يساعده المغفور له "حسين رشدى باشا" ، وقوبلت الوزارة بمظاهر عظيمة من الابتهاج . وبعد



(عدلى يكن باشا)

قليل عاد "سعد" من أوروبا ، فقبول من الشعب والحكومة ، بأقصى ما يكون من مظاهر الحفاوة والاستقبال ، غير أنه لم يلبث طويلاً ، حتى حدث نزاع بينه وبين عدلى ، أدى إلى استقالة بعض أعضاء الوفد ، وتكوين حزب جديد ، هو "حزب الأحرار الدستوريين" .

فاشتد النزاع بين الفريقين ، وسافر وفد مصرى رسمى إلى لندن برياسة عدلى باشا لاستئناف المفاوضات ، غير أنها فشلت

وعاد عدلى وأصحابه إلى مصر ، واستقالت وزارته فى ديسمبر سنة ١٩٢٠ ، ولم يقبل أحد على تأليف وزارة جديدة وعلى أثر ذلك تقى سعد وبعض من كبار أنصاره إلى جزيرة "سيشل" من أملاك بريطانيا فى المحيط الهندى .



## الباب الخامس

### عهد جلالة الملك فؤاد

#### الحالة السياسية

تصريح ٢٨ فبراير :

بعد أن تخلص الانجليز من سعد وبعض صحبه ، أقبل اللورد "النبى" العميد البريطانى إذ ذاك يفاوض المغفور له "عبد الخالق ثروت باشا" فى جل الأزمة ، وأسفرت المحادثات عن إعلان الحكومة البريطانية "تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢" ، وعلى إثر ذلك تألفت الوزارة الجديدة ، برئاسة ثروت باشا فى أول مارس سنة ١٩٢٢ ويتضمن هذا المشروع ، إلغاء الحماية البريطانية على مصر ، واعترفت فيه إنجلترا بمصر "مملكة مستقلة ذات سيادة" ، وأعلن ذلك الاستقلال رسميا فى ١٥ مارس سنة ١٩٢٢ ، وأصبح "السلطان" ملكا على البلاد باسم حضرة صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول ، على أن يكون الملك وراثيا فى أسرته ، وبذلك أصبح نجله سمو الأمير فاروق (جلالة مليكنا الحالى) ولى عهد المملكة المصرية ، كما تقرر أن تصبح مصر حكومة دستورية . وجاء فى النطق الملكى الكريم الصادر بشأن إعلان الاستقلال ما يأتى :

"لقد منّ الله علينا بأن جعل استقلال البلاد على يدنا ، وإنا نبتهل إلى المولى عز وجل ، بأخلص الشكر وأجمل الحمد على ذلك ، ونعان على ملأ العالم ، أن مصر منذ اليوم دولة متمتعة بالسيادة والاستقلال ، وتتخذ لنفسنا لقب صاحب الجلالة ملك مصر ، ليكون لبلادنا ما يتفق مع استقلالها من مظاهر الشخصية الدولية ، وأسباب العزة القومية ، وهما نحن نشهد الله ، ونشهد أمتنا ، فى هذه الساعة العظمى ، أننا لن نألو جهدا فى السعى ، بكل ما أوتينا من قوة وصدق عزم ، لخير بلادنا المحبوبة ، والعمل على إسعاد شعبنا الكريم ، وإنا ندعو المولى القدير ، أن يجعل هذا اليوم فاتحة عصر سعيد ، يعيد لمصر ماضيها المجيد ."



واحتفظت إنجلترا في هذا التصريح بأربع نقاط ، كانت بعد ذلك موضع  
مفاوضات بين مصر وبريطانيا ، وتتخلص في تأمين المواصلات الامبراطورية  
في مصر ، وحماية مصالح الأجانب والأقليات ، ثم الدفاع عن مصر ضد كل  
تدخل أجنبي ، والسودان .



( عبد الحاق ثروت باشا )

وتنفيذا لفحوى التصريح ، كوّنت الحكومة  
"لجنة الثلاثين" من رجال أكفاء لوضع قواعد  
الدستور ، وقامت اللجنة بعملها خير قيام ، وتم  
إصدار الدستور عام ١٩٢٣ . كذلك أخذ  
الموظفون الأجانب يتخلون عن مناصبهم ، ليحل  
محلهم الأكفاء من المصريين ، نظير تعويضات  
مالية جسيمة تقاضوها من الحكومة ، بمقتضى  
"قانون التعويضات" الذى صدر لهذه الغاية .  
وألغيت وظائف المستشارين الانجليز في جميع  
الوزارات ، ما عدا وزارتي العدل والمالية ،  
وأعيدت وزارة الخارجية المصرية ، لتسيطر على شؤون مصر الخارجية ، وأخذت  
الدولة في إنشاء المفوضيات السياسية والقنصليات ، لتمثيل مصر في الخارج .

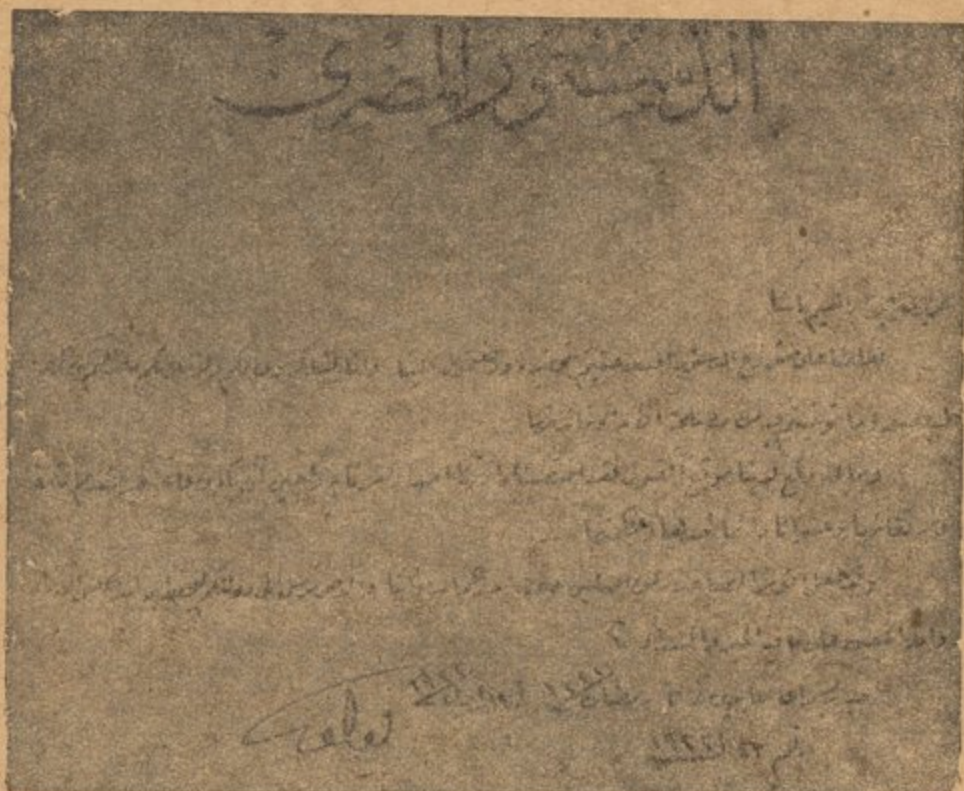
### موقف الوفد :

أما الوفد ، فكان في غضون ذلك مستمرا في خطته ، مناوئا الانجليز بكل  
ما أوتي من قوة ، رغم اعتقال كبار زعمائه ، بعد نفى الطائفة الأولى منهم ، وأعلن  
مقاطعة البضائع الانجليزية ، فحرم بعض أعضائه أمام مجلس عسكرى بريطانى ،  
قضى عليهم بالإعدام ، ثم خفف الحكم إلى السجن مع الشغل سبع سنين ، وفرض  
غرامة مالية فادحة على كل منهم . ولكن الظروف أخذت تتغير ، فاستقالت  
وزارة ثروت باشا ، وأطلق الانجليز سراح سعد وصحبه المنفيين ، فعادوا جميعا  
إلى مصر ، حيث استقبلهم الشعب استقبالا نفيا .



## عهد الدستور :

ولم يمر على ذلك زمن طويل ، حتى نفذ الدستور وأجريت الانتخابات العامة ، واكتسح الوفد منافسيه من الميدان ، وحصل على أغلبية لم يسبق لها مثيل . وعلى إثر ذلك ، تألفت وزارة جديدة على رأسها " سعد " نفسه ، فأطلق سراح المسجونين السياسيين ، وأخذ يستعد لافتتاح " البرلمان " . وقد ، ذلك في ١٥ مارس سنة ١٩٢٤

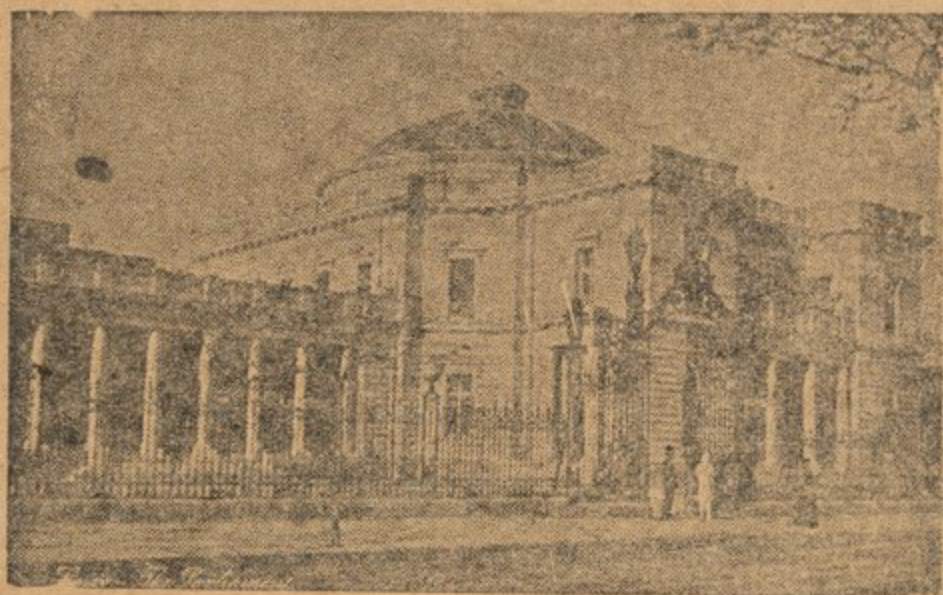


(الصفحة الأولى من كتاب الدستور المصري)

وقامت في نفس الوقت حكومة من حزب العمال في إنجلترا ، برياسة المستر " رمزي مكدونالد Ramsay McDonald " ، ففاوضها سعد في لندن ، ولكنه لم يصل إلى اتفاق معها ، فعاد إلى مصر ، وعزم على القيام بحركة إصلاح واسعة في الداخل . غير أن الظروف لم تمهله طويلا على كرسى الحكم ، إذ حدث مقتل " السير لي ستاك Sir Lee Stack " ، سردار الجيش المصري وحاكم السودان العام ، في نوفمبر سنة ١٩٢٤ ، فأرسلت الحكومة الإنجليزية إنذارا إلى الحكومة



المصرية ، تطالب فيه دفع نصف مليون من الجنيهات تعويضا ماليا ، وسحب الجيش المصرى من السودان ، وبعض طلبات أخرى ، فما كان من سعد ، إلا أن قدم استقالته أمام هذه الطلبات ، وتألقت وزارة جديدة برئاسة " أحمد زيور باشا " ، وأمرت بسحب الجيش من السودان ، وأجلت انعقاد جلسات مجلس النواب ، ثم عطلتها . وفى عهدها تألف " حزب الاتحاد " ، وعدل قانون الانتخاب ، ثم أجريت انتخابات جديدة ، على أساس القانون الجديد ، فاز فيها أنصار الوفد ، فصدر أمر بتعطيل المجلس فى اليوم الأول لانعقاده . وبإزاء ذلك حدث ائتلاف بين الوفد والأحرار الدستوريين والحزب الوطنى ، كانت نتيجته إعادة الانتخابات عام ١٩٢٦ ، وافتتاح المجلس من جديد ، وتألقت وزارة ائتلافية على رأسها عدلى باشا ، الذى استقال بعد مدة ، خلفه ثروت باشا فى الرئاسة . أما " سعد " فانتخب رئيسا لمجلس النواب .



( دار البرلمان المصرى )

وفى عهد وزارة ثروت هذه ، خسرت مصر زعيمها قديرا ووطنيا مخلصا ، بوفاة " سعد " ، فى ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٧ ، فسرت فى البلاد روح الألم ، وعم أرجاءها الحزن والأسى ، وهالها ، حكومة وشعبا ، ما حل بها من فداحة المصاب . وكان ثروت باشا قد دخل فى مفاوضات مع الحكومة الإنجليزية ، وهى المعروفة بمفاوضات " ثروت - شمبرلن " ، ولكنها أخفقت فى النهاية ، لأنها لم تحقق



الأمان الوطنية . وعلى إثر ذلك سقطت وزارة ثروت ، وتألقت وزارة ائتلافية برئاسة "مصطفى النحاس باشا" ، وكان قد خلف المغفور له سعد باشا في رئاسة الوفد المصري . غير أن هذه الوزارة لم تلبث طويلا في الحكم ، وحدث ما دعاها إلى الاستقالة ، خلفتها وزارة "محمد محمود باشا" رئيس حزب الأحرار الدستوريين ، وقضت بتعطيل الحياة النيابية مدة ثلاث سنوات قابلة للتجديد . وفي أوائل عهدها ، فاوض رئيس الوزارة الحكومة الإنجليزية في عقد معاهدة بين البلدين ، ووضع بالاشتراك مع "هندرسن" وزير خارجية إنجلترا إذ ذاك ، أساسا لهذه المعاهدة في صيف سنة ١٩٢٩ . وحدث الاتفاق على أن يوقع المعاهدة "برلمان" يكون منتخبا انتخابا حرا ، ونتيجة لذلك استقالت الوزارة ، وخلفتها وزارة انتقل برئاسة عدلى باشا ، أجريت في عهدها انتخابات حرة ، فاز فيها الوفد بأغلبية ساحقة ، فتألقت وزارة النحاس الثانية ، وقامت بمفاوضة الحكومة الإنجليزية بلندن ، في ربيع عام ١٩٣٠ ، ولكن حالت بعض العقبات دون عقد المعاهدة ، فعاد المفاوضون إلى مصر . وبعد قليل استقالت الوزارة وتألقت وزارة برئاسة إسماعيل صدقي باشا ، فأجلت انعقاد المجلس أولا ، ثم وضعت دستورا جديدا عدل بعض مواد دستور ١٩٢٣ ، وأجريت الانتخابات على درجتين ، على حسب قانون انتخاب جديد ، وقاطع الوفد والأحرار الدستوريون هذه الانتخابات .

وفي عهد هذه الوزارة ، تألف حزب سياسي جديد هو "حزب الشعب" ، وانتخب صدقي باشا رئيسا له ، وفي سبتمبر سنة ١٩٣٣ استقالت الوزارة الصديقة ، وخلفتها وزارة برئاسة عبد الفتاح يحيى باشا ، الذي خلف صدقي باشا في رئاسة الحزب كذلك .

وفي نوفمبر سنة ١٩٣٤ ، تألفت وزارة برئاسة "محمد توفيق نسيم باشا" ، ألغت دستور سنة ١٩٣٠ في بداية حكمها ، ثم استطاعت إعادة دستور ١٩٢٣ ، في ديسمبر سنة ١٩٣٥ . وفي فبراير سنة ١٩٣٦ ، تكونت "الجبهة الوطنية" من زعماء جميع الأحزاب ، للتعاون على حل المسألة المصرية ، عن طريق المفاوضة مع بريطانيا العظمى ، وتولى على ماهر باشا رئاسة الوزارة .



وفي ٢٨ أبريل سنة ١٩٣٦ ، حلت بالبلاد كارثة كبرى ، بوفاة مايكها العظيم المغفور له فؤاد الأول ، وسرعان ما سرت روح الابتهاج والارتياح لتولى جلالة ملكنا الحالي المحبوب "فاروق الأول" عرش أبيه ، وجرى الانتخابات البرلمانية في مايو ، وأسفرت عن أغلبية كبرى للوفد ، وتولى النحاس باشا الوزارة على الأثر .

### معاهدة الزعفران :

في أوائل سنة ١٩٣٦ ، ظهرت رغبة عند المصريين والإنجليز ، ترمي إلى حل المسائل التي كانت لا تزال معلقة بين الدولتين ، والعمل على ربط أواصر الصداقة والمودة بين الشعبين المصري والبريطاني ، فتألفت هيئة مصرية رسمية للمفاوضة ، برئاسة مصطفى النحاس باشا ، رئيس الوفد المصري ، وبها ممثلون من جميع



( التوقيع على معاهدة الزعفران بقاعة لوكارنو )

الأحزاب ما عدا الحزب الوطني ، وهيئة بريطانية برئاسة "سير مايلز لامبسون Sir Miles Lampson" (\*) . وبدأت الهيئتان المحادثة ، بقصر الزعفران بالقاهرة ، في مارس سنة ١٩٣٦ ، وتمت بنجاح بقصر أنطونيادس بالاسكندرية في أغسطس . وسافر الوفد المصري الرسمي إلى لندن ، بدعوة من الحكومة البريطانية لإمضاء المعاهدة هناك . وقد تم التوقيع عليها بقاعة لوكارنو ، بوزارة الخارجية البريطانية ، في صبيحة يوم الأربعاء ٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٦

(\*) لورد كارن فيا بعد .



ومنذ التوقيع على المعاهدة ، زادت الصلة بين البلدين توثقا ، وأظهر كل من الفريقين استعدادا حسنا ، لتنفيذ شروطها بروح الود والاخلاص التي أدت إلى إبرامها .

وتتلخص أهم مواد المعاهدة فيما يأتي :

( ١ ) ينتهى احتلال مصر عسكريا بالقوات البريطانية ، وتم الاتفاق على بقاء قوات بريطانية في منطقة قناة السويس ، على ألا تكون لها صفة الاحتلال ، وإنما توجد بقصد مساعدة القوات المصرية على الدفاع عن القناة ، إلى أن يستطيع الجيش المصرى القيام بهذه المهمة وحده .

وتقوم الحكومة المصرية بإنشاء الطرق والسكك الحديدية اللازمة لتحسين طرق المواصلات ، التي تقتضيها الأغراض الحربية .

( ٢ ) اعترفت الحكومة البريطانية ، بأن وجود الامتيازات بمصر لا يتفق مع روح العصر ، ولا مع حالة مصر الحاضرة ، وتعهدت ألا تعارض في إلغائها ، وأن تساعد مصر لدى الدول صاحبات الامتيازات ، لتحصل على موافقتها على إلغاء هذه الامتيازات .

( ٣ ) تسير إدارة السودان على حسب اتفاقية سنة ١٨٩٩ ، مع الاحتفاظ بحرية عقد اتفاقات جديدة لتعديل هذه الاتفاقية .

( ٤ ) تكون عصبة الأمم حكما بين الطرفين ، في حالة حدوث خلاف بينهما في التفسير أو التقدير .

\*  
\* \*

وتم الاتفاق بين مصر والدول على عقد مؤتمر في "مونترو" Montreaux "بسويسرا ، في أبريل سنة ١٩٣٧ ، للنظر في "مسألة الامتيازات الأجنبية بمصر ، فسافر وفد مصرى برئاسة النحاس باشا ، لحضور هذا المؤتمر الذى سادت جوه روح الصفاء والمودة والعطف . وقد وافقت الدول بإجماع الآراء على إلغاء الامتيازات الأجنبية بمصر ، وقررت أن تكون فترة الانتقال من الحالة الراهنة إلى الحالة الجديدة اثني عشر عاما ، ابتداء من أول أكتوبر سنة ١٩٣٧



وفي مايو سنة ١٩٣٧ ، عقدت عصبة الأمم بجنيف اجتماعا خاصا ، للنظر في قبول مصر عضوا فيها ، وقد وافقت الدول بإجماع الآراء على قبول مصر عضوا في العصبة .

وفي ٢٩ يولييه سنة ١٩٣٧ ، تولى جلالة الملك فاروق الأول سلطته الدستورية ، فاحتفلت البلاد بتتويج جلالة من أقصاها إلى أقصاها ، وعمها الفرح والسرور .



( جلالة الملك على عرشه في البرلمان لأول مرة )



وبذلك انتهت مهمة "مجلس الوصاية" ، الذي كان يتكون برئاسة ولي العهد الأمير محمد علي توفيق ، وعضوية عبد المزي عزت باشا وشريف صبري باشا .

## الحالة العلمية

تمهيد :

صهبت هذه النهضة السياسية والقومية ، نهضة عامة في جميع مناحي الحياة ، من علمية واجتماعية واقتصادية ، فوثب الشعب وثبة الفزع من رقاد طال أمده ، وأخذ يشق لنفسه طريقا في كل ناحية ، ليصل إلى ذروة الجهد والتقدم بأقصر الطرق . وكان من حسن حظه أن أتاح له الله على رأسه ملكا وثابا بطبيعته إلى العلا ، وميالا إلى الأخذ بناصر شعبه ورفع مستواه ، حتى لا يقل في مظهره وكأنه عن شعوب الدول الأخرى المتعدية . وقد وجد جلالته عوناً للقيام بهذه المهمة المتشعبة النواحي ، في عدة رجال من أبنج رجالات مصر ، عاونوه وأخلصوا في المعونة .

## نشر العلوم والمعارف :

ولما كان العلم هو الأساس القويم لرفعة الشعوب ، اتجهت الأنظار نحوه ، وقبل هذا الشعب المتعطش للعلم ليعترف من مناهله ، فلم تجيب له الحكومة أملا ، وأقبلت تشجع فيه هذه الرغبة ، وتمهد له السبل لتحقيقها ، فأقبلت على المعاهد والمدارس توسع ما كان موجودا منها ، وتلشئ غيرها ، فانتشرت المدارس الابتدائية والثانوية ، وأدخل تعديل على مناهجها وسنى الدراسة بها ، لتتمشى مع روح العصر . ولم تكتف بذلك ، بل أرادت أن تقضى على الأمية في البلاد ، فأقبلت تنفذ مشروع التعليم الإلزامي ، وعمما قريب يصبح التعليم إجباريا في كل مكان من بلاد القطر . هذا إلى أن عدة أقسام ليلية أنشئت لتعليم العمال ، كما أنشئت بعض الأقسام الليلية لتعليم المواد التجارية للراغبين فيها .

أما عن التعليم العالي ، فرأت الحكومة لإنشاء جامعة مصرية على النمط الأوربي ، تضم المدارس العليا بعضها إلى بعض ، ثم إدماج الجامعة المصرية الأهلية فيها ، وبذلك تأسست الجامعة المصرية الأميرية عام ١٩٢٥ ( جامعة فؤاد الأول ) ،



وبذلك تحققت رغبة جلالة الملك فؤاد بثبوت قدم التعليم الجامعى فى مصر .  
وكانت نتيجة إنشاء كليتى الآداب والعلوم بالجامعة ، أن ألغيت مدرسة المعلمين  
العليا ، وحل محلها معهد التربية للمعلمين .

وبجانب هذا ، اتجه تيار الأفكار نحو التعليم الصناعى والتجارى والزراعى ،  
فأخذت وزارة المعارف تعمل على تحقيق رغبات الأهالى ، بالتوسع فى فتح المدارس  
لهذا النوع من التعليم ، وقد زاد الإقبال عليه زيادة كبيرة ، لا سيما فى السنوات  
الآخيرة . ولا ننسى ما نالته الفنون الجميلة ، من قسط من رعاية أولى الأمر ،  
فقد تأسست مدرسة الفنون الجميلة العليا لهذه الغاية .

والظاهرة الجديدة التى تسترعى النظر فى هذه الحركة ، إقبال البنات على التعليم  
فى جميع مراحله لإقبالاً كبيراً ، فقد انتشرت المدارس الابتدائية للبنات ،  
وأصبح هناك الآن عدة مدارس ثانوية أميرية لمن موزعة فى العواصم الكبرى ،  
كما أنشئ لمن معهد تربية خاص ، ليسد حاجة هذه المدارس من مدرسات . وفضلاً  
عن ذلك ، التحق البنات بكليات الجامعة المختلفة ، واشتغلن بالآداب والعلوم  
والطب والحقوق .

وتبعاً لهذا التطور العظيم ، أنشئت عدة مراقبات بوزارة المعارف ، تشرف  
كل منها على نوع خاص من التعليم . وقد ساعد الوزارة على سد حاجات الأهالى  
بعض المشتغلين بالتعليم من أفراد الشعب ، فأسسوا المدارس الحرة للبنين والبنات ،  
وقد أصدر البرلمان قانوناً لتنظيم التعليم الحر ، يعطى الوزارة حق الاشراف على  
هذه المدارس .

ولا يفوتنا أن ننوه بالمجهود الكبير ، الذى بذل فى وضع نظام جديد للتعليم  
بالأزهر الشريف ، والمعاهد الدينية الأخرى ، فقد أدخل تدريس العلوم الحديثة  
بها ، علاوة على الدروس الدينية ، وقسم التعليم مراحلاً ، ابتدائى وثانوى وعال ،  
والأخير يؤهل للحصول على شهادة العالمية . ثم أنشئت فوق ذلك ثلاث كليات  
للتخصص ، هى كلية أصول الدين وكلية الشريعة وكلية اللغة العربية . وللعمل  
على رفع شأن اللغة العربية ، أنشئ " مجمع فؤاد الأول للغة العربية " ، وبأمر  
عمله للقيام بمهمته الخطيرة .



وبهذا أصبح هذا العصر عصرا زاهرا، انتعشت فيه الروح العلمية، وتقدمت الحركة الفكرية بالبلاد، وقد أحيا جلالة الملك فؤاد سنة أبيه العظيم، فتوسع في إرسال البعثات العلمية والعملية في كل العلوم والفنون إلى أوروبا وأمريكا، ونظمت طريقة اختيار أفرادها، بإصدار لائحة البعثات عام ١٩٢٤، وتكوين لجنة خاصة بها برئاسة وزير المعارف، ولتكاثر العدد الوافد إلى الخارج، أنشئت مراقبة خاصة للإشراف على شؤونهم. وقد عاد منهم عدد وفير، بعد أن أكلوا دراستهم العالية في جامعات أوروبا وأمريكا، وحصلوا منها على درجات علمية كبيرة، وتشبعوا بروح البحث العلمي، واقتبسوا كثيرا من محاسن ما رأوا في البلاد التي كانوا فيها. هذا إلى إقبال الكثيرين من ذوى اليسار، على إرسال أولادهم إلى الخارج، لإتمام دراستهم العالية، على نفقتهم الخاصة. وتبدى الحكومة اهتماما بشأن الاستفادة بأعضاء البعثات العائدين من الخارج، وتعمل على الاستفادة من خبرتهم العلمية، بتشجيعهم على إخراج المؤلفات في شتى العلوم التي درسوها، بتعهدها بطبع هذه الكتب على نفقتها الخاصة، ثم بيعها للمجهور بأثمان معتدلة، حتى يتيسر لأكثر عدد ممكن من أفراد الأمة أن يقتنى هذه المؤلفات.

### الكشف عن الآثار :

وكان من آثار هذه النهضة العلمية والروح الفكرية، إقبال الجامعة المصرية على أعمال الحفر والتنقيب عن آثار الأجداد، فاستطاعت بعثة برئاسة الأستاذ سليم حسن بك أن تكشف عن الهرم الرابع وعدة آثار أخرى في منطقة الأهرام بالجيزة، وتجدد في مواصلة عملها لكشف ما قد يكون في هذه المنطقة من آثار أخرى. وكشفت بعثة أخرى برئاسة الأستاذ سامى جبره عن آثار مدينة "هرموبوليس" القديمة، ببلدة تونة الجبل قرب ملوى.

وكان لهذه الاستكشافات أثر حسن في الدوائر العلمية، رفع من شأن المصريين في أعين الأجانب، لأنه حتى ظهور مجهودات هذين العالمين، كان الفضل في ظهور ما ظهر من استكشافات أثرية، راجعا إلى مجهودات بعثات أجنبية، وأفراد من علماء الآثار الأجانب، لا نستطيع أن ننكر ما قاموا به من أعمال مشكورة في هذا السبيل. ومن بين هذه وأحدثها، كشف المستر كارتير (Carter)



لمقبرة توت عنخ آمون ، عام ١٩٢٢ ، فقد كان لهذا الحادث رنة كبيرة دوت في أنحاء العالم ، للفوائد التاريخية التي أدى إليها هذا الكشف ، ولبداعة ما وجد فيها من آثار ثمينة ، يزدان بها الآن متحف القاهرة .

### التربية البدنية والكشافة :

وجهت وزارة المعارف عناية كبيرة للرياضة البدنية والألعاب ، وخصصت لها بعض الحصص الأصلية في جداول أوقات الدروس ، في بعض الفرق الدراسية ، وأنشأت لها مراقبة خاصة ، تشرف عليها وتعمل على التقدم من هذه الناحية . وفضلا عن ذلك ، أخذت الأندية الرياضية تنتشر في جميع بلاد القطر ، واشتركت مصر في الألعاب الأولمبية ، فرفع أبنائها رأس البلاد عاليا أمام ممثلي دول العالم ، في تلك الألعاب . وصدر مرسوم ملكي بتأليف "اللجنة الأهلية للألعاب الرياضية والتربية البدنية" لتنظيم هذه الحركة والإشراف عليها .

كذلك تقدمت حركة الكشافة بالبلاد منذ عام ١٩١٩ ، فتكونت عدة فرق منها في مختلف المدارس ، وشملها المغفور له جلالة الملك فؤاد بعطفه السامي ، لما رأى من عظيم فائدها لشبابنا الناهض . وإظهارا لهذا الرضى وافق جلالته على تنصيب ولي عهده أمير الصعيد ، سمو الأمير فاروق ، ( جلالة مليكتنا الحالى ) ، "كشافا أعظم" ، وقد تم ذلك بحضور جلالته في حفل عظيم في مايو سنة ١٩٣٣ ، وتأسست لرعاية هذه الحركة المباركة "جمعية الكشافة الأهلية" .

### الحالة الاجتماعية

#### نظرة عامة :

كان من الضروري ، أن يصحب هذه النهضة السياسية القومية العالمية ، تطور عظيم في الحالة الاجتماعية ، فقد أقبل الشعب على قراءة الصحف والمجلات والروايات وحضور المحاضرات ، فكثرت بها لذلك عددها وزاد انتشارها ، فأصبحت أداة حسنة لتثقيف العقول وتنوير الأذهان . وكان من بوادر هذا إقبال المرأة على التعليم كما أسلفنا ، بل مشاركتها الرجل في الحياة العملية ، سياسية كانت أو اجتماعية



أو اقتصادية ، واشترك فتياننا في المؤتمرات المختلفة ، وإتمام بعضهم دراستهم العالية بجامعة أوروبا ، وقد تفوق منهم عدد من الآتسات ، لهن أثرهن الحميد الآن في الحياة العلمية والاجتماعية .

وأروع ظاهرة من مظاهر هذا العصر ، وأكثرها جلالة ، تضامن العنصرين الوطنيين من مسلمين وأقباط ، وارتباطهما ارتباطا وثيقا ، حتى تكونت منهم كتلة واحدة ، تعمل لصالح الوطن ، بعد أن ساد الخصام لسوء الحظ بين العنصرين ردحا من الزمن ، ذلك الخصام الذي أشرنا اليه في أيام العميد "جورست" .

وفي هذا العصر كذلك زاد إقبال الناس على دور السينما ، فانتشرت هذه الدور تبعاً لذلك في المدن الكبرى . ومما يدعو إلى الإغتراب ظهور أفلام مصرية ناجحة ، بفضل إقدام طائفة من المصريين والمصريات على العمل في الميدان الجديد . وبجانب السينما قامت دور التمثيل ، فتأسست عدة فرق للنهوض بهذا الفن الجميل ، وصادفها حسن الحظ عدة سنوات ، ولكن عاد الزمن فتكرها أخيراً ، وتعمل وزارة الشؤون الاجتماعية باهتمام للأخذ بناصر هذا الفن ، وألفت لهذه الغاية "الفرقة المصرية للتمثيل والموسيقى" .

ويحق لنا أن نسمى هذا العصر "عصر الموسيقى" ، فقد تطورت فيه الموسيقى تطوراً عظيماً ، وأخذ يعمل على النهوض بها فريق من نوابغ هذا الفن ، أمثال المرحوم سيد درويش والأستاذ محمد عبد الوهاب والآتسة أم كلثوم . وقد أنشئ لهذه الغاية "معهد فؤاد الأول للموسيقى" ، الذي يعمل على ترقية الموسيقى الشرقية . وكانت مصر حديثاً مركزاً لمؤتمر الموسيقى الدولي ، الذي عقد بالقاهرة ، بجمع نخبة من النابيين في هذا الفن ، من الشرق والغرب . وأخذت الموسيقى تنتشر انتشاراً كبيراً بين الناس ، باستعمال "الحاكي" (الجراموفون) أولاً ، ثم باستعمال "الراديو" وتنظيم الإذاعة اللاسلكية أنشأت الحكومة محطة كبيرة للإذاعة بأبي زعبل .

### شؤون الصحة والفقراء :

وكما أن الحكومة تشرف على هذه الحركة التهذيبية الثقافية باهتمام ، فقد وجهت عنايتها كذلك إلى المسائل الصحية ، فنشطت وزارة الصحة العمومية ، ووجهت اهتمامها إلى كل ما يؤدي إلى تحسين الحالة الصحية العامة ، ومنع انتشار الأمراض



والأوبئة ، التي تودى بحياة الكثيرين ، فقامت بحركة ترمي إلى التوسع في إنشاء المستشفيات ، فتأسس الكثير منها في أنحاء القطر المختلفة ، هذا فضلا عن المستشفيات المتنقلة لمعالجة الانكستوما والبلهارسيا والرمم . وتوجه الوزارة عناية خاصة في الوقت الحاضر إلى ماء الشرب في القرى ، وبدأت بإمداد بعضها بالماء الصحي النقي .

ولا يقصر رجال الوزارة في نشر الدعوة الصحية في كل المناسبات ، إنما عن طريق المحاضرات أو الذشرات أو الصور أو السينما . وأنشئ متحف فؤاد الصحي بعابدين لهذه الغاية ، ففيه يرى الزائر مضار الأقدار والإهمال ومخالفة الشروط الصحية ، وقد أسست كذلك مصحة فؤاد بجلوان ، ثم مراکز رعاية الطفل عام ١٩٢٧ ، وتقوم "الجمعية الصحية" بعمل مهرجان للطفل في جميع أنحاء البلاد كل عام . ولا يفوتنا أن ننوه بالمجهود الكبير الذي تقوم به دور الإسعاف المختلفة ، في معظم بلاد القطر ، خدمة للإنسانية وإنقاذاً للرضى والمصابين .

وأولت الحكومة عطفها لجمهور الفقراء والعجزة والأيتام وأبناء السبيل ، فقامت بحركة ترمي إلى تأسيس الملاجئ ، ووضعت لبعضها منها خاصاً يكفل تربية الصغار ويخدم للحياة العملية ، وأعدت الأخرى لإيواء العجزة ، الذين لا يستطيعون كسب قوتهم . وأنشأت "مطاعم الشعب" لتزويد الفقراء بطعام صحي نظيف ومن زهيد . واهتمت محافظة العاصمة بإرسال أفواج كبيرة من أولاد الفقراء في صيف كل عام إلى مصايف مصر الشهيرة ، ليأخذوا بقسط من الراحة والنزهة والتمتع بماء البحر .

وتقاوم الحكومة انتشار المخدرات ، التي أخذت تفتك بصحة عدد وافر من أبناء الأمة ، وتنزل العقوبات الصارمة بالمتجرين بهذه المواد ومن يستعملونها ، وأنشأت لتنفيذ خططها إدارة خاصة شرف عليها حكمدار العاصمة ، الذي يشترك باستمرار في المؤتمرات الدولية لمقاومة المخدرات .

### تنظيم المدن :

ويمتاز هذا العصر بظاهرة جديدة ، هي التوسع في تنظيم المدن ، بشق الشوارع الفسيحة ورصفها وغرس الأشجار على جوانبها ، وتنظيم الميادين الجميلة ، وإنشاء



الحدائق العامة ، وردم البرك والمستنقعات ، والاهتمام بكنس الشوارع ورشها ومراقبة نظافتها ، وعمل المجارى فى معظم مدن القطر الكبرى . هذا الى حركة البناء الواسعة التى شاهدها مصر قبل الحرب الأخيرة ، والتى أدت الى ظهور عمارات ضخمة جميلة التنسيق ، شديدة على أحدث الأنظمة العصرية .

## الحالة الاقتصادية

### شؤون الزراعة :

لما كانت مصر بلادا زراعية ، وجب على كل حكومة ، أن تجعل اهتمامها الأول فى الإصلاح ، منصبا على أساس ثروة البلاد : الزراعة والفلاح . أما الفلاح فقد رأينا ما بذلته الحكومة من مجهود ، لتجعل منه رجلا صحيح الجسم ، يستطيع القراءة والكتابة على الأقل ، ويمكنه أن يرسل أولاده الى دور العلم ، وسنرى المجهود الذى بذلته ، لتحسين أرضه ومحصوله ، وبالتالى ثروته وثروة البلاد .

اهتمت الحكومة بوسائل الري ، فأخذت تعد الوسائل لترود الأرض بالمياه اللازمة ، فأنشأت قناطر فؤاد الأول بنجع حمادى ، التى تم إنشاؤها سنة ١٩٣٠ ، وحفرت ترعق الفاروقية والفؤادية ، لتمد أهالى مديرية جرجا بما هم فى حاجة اليه من ماء . ثم قامت بتعليه خزان أسوان التعلية الثانية التى تمت سنة ١٩٣٣ ، وبهذه العملية يمكن تخزين كميات وافرة من الماء ، لإمداد جميع الأراضى الزراعية بالماء الكافى ، وإصلاح الأراضى البور ، وتحويل طريقة ري الحياض فى بعض المديرىات الى طريقة الري الدائم ، لى يمكن استغلال الأرض بطريقة أوفى وأكثر إنتاجا . وقامت الحكومة بمشروعات واسعة فى شمال الدلتا لإصلاح تلك المنطقة .

ولضمان كمية مياه أوفر ، قامت الحكومة بإنشاء خزان جبل أولياء جنوبى الخرطوم ، كما أنشأت "قناطر مجد على" فحات محل القناطر الأخيرة ، التى أصبحت كما يقول الأخصائيون لا تقى بتحقيق الغرض ، الذى يرمى الى التوسع فى الإصلاح . وقد أتت تقوية قناطر أسبوط ، وتقوم الان بتقوية قناطر إسنا .



وفضلا عن هذا المجهود ، في تزويد الفلاح بالماء ، وتحسين وسائل الري ، قامت وزارة الزراعة بنصيب يذكر في تحسين حالته ، إذ أنشأت بها قسما للتعاون ، يشرف على جمعيات التعاون الزراعية ، التي أخذت الحكومة تعمل على تأسيسها في القرى ، مساعدة لأهلها . وتقوم هذه الوزارة بعمل التجارب الكثيرة ، لتحسين حال الزراعة بالبلاد ، وترسل مفتشيها إلى القرى ، ليرشدوا الفلاح إلى أفضل الطرق في استغلال أرضه ، ويزودوه بالمعلومات اللازمة عن طرق الوقاية من الحشرات الضارة ، التي تفتك بثمرته كده . كذلك وجهت عنايتها لتحسين أنواع الدواجن والماشية ، وهي تشجع الفلاحين بعدة وسائل ، على تربية النحل ودودة القز ، لتفتح أمامهم موردا جديدا للرزق .

وتهم وزارة الزراعة كذلك بالقطن ، وتعمل على تحسين نوعه ، والمحافظة على سمعته العالمية الحسنة ، فأنشأت مجلس مباحث القطن ، واستصدرت قانونا بمنع خلط القطن ، وتبذل الحكومة ما في وسعها لتحسين أسعاره . وهي من جهة أخرى تعمل على حرض الناس على عدم الاعتماد على غلة واحدة ، هي القطن ، وتشجع الإكثار من زراعة الفواكه والخضر والغلل ، وتساعد على تصديرها إلى الخارج .

وكان للأزمة العالمية ، التي شملت مصر منذ عام ١٩٣٠ ، أثر كبير في ارتباك الحالة المالية بالبلاد ، غير أنه ظهر أثرها الأكبر في القرية أكثر من غيرها . فلما تنقذ الفلاح من هذه الورطة ، على قدر المستطاع ، وتخفف شيئا من ويلاته ، أنشأت الحكومة "بنك التسليف الزراعى المصرى" عام ١٩٣١ ، لمعاونة الفلاح بمده بالسلف القصيرة الاجل بأرباح قليلة ، ثم بتقديم ما يحتاج إليه من بذور وسماد ، إلى غير ذلك من ضروب المساعدات . وكذلك أنشأت "بنك التسليف العقارى" عام ١٩٣٢ للسلف الطويلة الأجل ، ثم زادت الضرائب الجمركية على بعض الفواكه والحبوب ، فتحسنت أثمانها في داخل البلاد .



## شؤون الصناعة :

ولم تغفل عين الحكومة عن الصناعات الوطنية ، بل تولتها بالرعاية ، فقد كانت مصر موطناً لعدة صناعات أيام اسماعيل كما قدمنا ، غير أنه اضمحل شأن هذه الصناعات في أيام الاحتلال. ولما كانت الحرب العالمية الأولى ، وانقطع الوارد من بعض المصنوعات الضرورية أو كاد ، وغلائمه ، أخذت بعض الصناعات تنتعش من جديد ، مثل صناعة الزجاج والطرايش والأحذية والأثاث والسجاجيد. ولكن وقوف ربحي الحرب ، وكثرة الوارد من الخارج بعد ذلك ، مع جودة في النوع ورخص في الثمن نسبياً ، كاد يقضي على هذه الصناعات. غير أن الروح الوطنية ، التي تولدت عن النهضة القومية والسياسية ، تولتها بالرعاية ، فأقبل كثير من المشتغلين بالمسائل الاقتصادية من المصريين ، يؤازرون هذه الحركة الصناعية المباركة ، وأنشأ بنك مصر عدة شركات صناعية ، نخص منها بالذكر شركة الغزل والنسيج بالمحلة الكبرى .

وأخذت الحكومة تشجع للصناعات الوطنية ، بزيادة الضرائب الجمركية على الواردات ، التي من نوع المصنوع بمصر ، لحماية الصناعات الناشئة بالبلاد ، وأنشأت مصلحة التجارة والصناعة لهذه الغاية ، ثم حولتها إلى وزارة ، وأصدرت قانون التسليف الصناعي ، لتمديد المساعدة للصناع ، حتى يستطيعوا دخول الميدان ، واكتساب أرزاقهم من صناعتهم .

وبفضل مجهود الشباب الناهض ، قام معمل الطرايش بالعباسية ، بما جمعوا من قروش ، تبرع بها أفراد الأمة اختياراً ، في الحركة المعروفة "بمشروع القرش" . وقام بعض كبار المالين من المصريين بإنشاء مصنع كبير للورق وآخر للزجاج .

وإن سياسة إقامة المعارض المختلفة ، تساعد على إنعاش الحالة ، فهي فرصة يعلن فيها أصحاب المصانع والمزارع عن منتجاتهم ، ويطلع فيها الشارون على أنواع ما تنتجه بلادهم ، فيقبلون على شرائها تشجيعاً لمواطنيهم. وقد ظهر ذلك جلياً في المعرض الزراعي الصناعي الذي أقيم أخيراً بأرض الجزيرة ، وقد أنشئت حديثاً عدة محلات تجارية لبيع المصنوعات المصرية .



## شؤون التجارة والمال :

وقد شملت النهضة كذلك الناحية التجارية والمالية ، فبذلت الحكومة جهدها لتحسين وسائل المواصلات ، بإدخال التحسينات على السكك الحديدية ، وتوسيع الخط الحديدى بين الأقصر وأسوان ، ومد بعض الخطوط الحديدية الضرورية ، وتمهيد كثير من الطرق ، ومدها بين بلاد القطر المختلفة ، وتمهين الطرق الزراعية بطريقة يجعلها تتشى مع حركة المرور الحديثة ، الناجمة عن انتشار استعمال السيارات لنقل البضائع والركاب ، ثم إقامة الجارى أو تجديد القديم منها ، كإنشاء كبرى الحديدى اسماعيل مكان كبرى قصر النيل .

هذا إلى أن الحكومة منذ أن وضعت يدها على التليفونات ، عملت على تحسينها ، وادخلت النظام ( الأوتوماتيكى ) بها . وأخذت مصلحة البريد كذلك تتشى مع روح التقدم ، بإدخال التحسينات الضرورية ، فأدخلت نظام البريد المستعجل سنة ١٩٢٢ ، واستعملت أخيرا أحدث الاختراعات لتصدير الخطابات ، ورفعت النهاية القصوى فى صندوق التوفير إلى خمسمائة جنيه ، بعد أن كانت مائتين فقط . وانعقد مؤتمر البريد الدولى أخيرا بالقاهرة ، وصادفت أعماله نجاحا عظيما ، بفضل ما أبداه رجالات مصر من مقدرة ونبوغ وكفاية ، كانت موضع ثناء ممثل الدول جميعا .

وكان من آثار تفتح العيون وتفتح الأذهان ، على أثر تلك النهضة المباركة ، أن تأسس صرح مالى وطنى عظيم ، هو " بنك مصر " ، الذى أصبح مركزه ثابتا بين البنوك ، ويقوم بأجل الخدمات للبلاد . ويكفى مؤسسيه فخرا أنه أعظم صرح فى استقلال مصر الاقتصادى ، ويرجع تقدمه ونجاحه إلى همة رجل مصر الاقتصادى الكبير " محمد طلعت حرب باشا " ، وزملائه الذين شدوا أزره فى عمله ، فقد قام بتأسيس شركة مصر للطيران ، ثم شركة الملاحة النيلية ، التى تقوم بنقل البضائع فى النيل ، فتسهل بذلك الحركة التجارية فى أنحاء البلاد . وتم كذلك إنشاء " شركة مصر للملاحة البحرية " ، وهى تقوم بنقل الحجاج كل عام إلى بلاد الحجاز ، وأخذت سفنها تنحدر عباب البحار ، حاملة اسم مصر العتيده ، والعلم المصرى المجيد .



هكذا تناول التطور والتقدم كل ميدان من ميادين الحياة بمصر ، فساعد ذلك على رفع مركزها بين الدول ، حتى أصبحت مقرا لبعض المؤتمرات الدولية الهامة ، التي أمتها ممثلون لدول متعددة ، كما أنها تشترك كل عام في عدة مؤتمرات دولية ، تتناول أبحاثها موضوعات مختلفة . وللرحلات التي قام بها جلالة الملك السابق و جلالة الملك الحالي في أوروبا أثر يذكر في رفع شأن البلاد . وينتظر أن تسير حركة الإصلاح بخطى واسعة ، بعد ما تمت تسوية الحالة السياسية بين إنجلترا ومصر موقتا بعقد معاهدة الزعفران .



## ملاحق الكتاب

### ملحق (١)

#### معاهدة لندن

(١٥ يولييه سنة ١٨٤٠)

”أما بعد فإنه حيث التجأ جلالة السلطان إلى جلالة ملكة بريطانيا العظمى وأيرلندا وجلالة ملك النمسا والمجر وبوهيميا وجلالة ملك بروسيا وجلالة قيصر الروس طالبا مساعدتهم ومعاونتهم في درء المضاعف التي ألت بالباب العالي بسبب أعمال الاعتداء التي أبداه على باشا حاكم مصر، ومن مقتضاها تهديد الدولة العثمانية في حقوق سيادة السلطان واستقلاله فقد اجتمع أصحاب الجلالة الملوك البادى ذكرهم، وبالنظر لشعائر المحبة المتبادلة بينهم وبين الحضرة السلطانية الفخيمة ولما هم عليه من الرغبة في حفظ ممالك السلطنة السنية واستقلالها، إذ أن في ذلك ما يوجب استنباب السلام في أوربا، وقيامها بما تمهلوا به بموجب التحريرات المسجلة للباب العالي بواسطة سفرائهم في الآستانة وتاريخها ٢٧ يولييه سنة ١٨٣٩، ولما كانت رغبتهم جميعا منع سفك الدماء الذي ربما تسببه مداومة حوادث الاعتداء التي انتشرت أخيرا في سوريا بين حكومة الباشا المشار إليه ورجايا الحضرة السلطانية الفخيمة، لذلك قررت الدول المشار إليها والباب العالي بقصد بلوغ الغايات المذكورة وجوب تحرير هذا الاتفاق بينهم جميعا فعينوا من قبلهم مندوبين ومفوضين هم ... الخ“.

”وبعد أن تبادل المفوضون المذكورون الأوراق المثبتة لانتدابهم لعقد الاتفاق وتحقق أنها مستوفاة أصولها قرروا البنود الآتية وأمضوها :

”البند الأول — حيث اتفقت الحضرة السلطانية الفخيمة مع جلالة ملكة بريطانيا العظمى وجلالة ملك النمسا والمجر وبوهيميا وجلالة ملك بروسيا وجلالة قيصر روسيا على ما يجب وضعه من شروط الصلح التي أرادت الحضرة السلطانية أن تمنحها إلى محمد علي باشا وهي تلك الشروط المبينة في ملحق هذا الاتفاق، فقد تعهدت الدول المشار إليها بأن تعمل بالاتحاد التام فيما بينها وتبذل ما في وسعها لتقنع محمد علي باشا بقبول الصلح المتوخى عنه، وقد حفظت كل دولة من الدول المشار إليها حقها في أن تتصرف في هذا الأمر بما في إمكان كل منها لإجراؤه من الوسائل للوصول إلى الغاية المذكورة .

”البند الثاني — إذا لم يقبل محمد علي باشا إجراء الصلح على الصورة التي يعلن بها الباب العالي بواسطة أصحاب الجلالة الملوك المشار إليهم يتعهد حينئذ هؤلاء الملوك بأن يتخذوا بناء على طلب الحضرة السلطانية الفخيمة ما يتفقون عليه من التدابير وما يقررونه بينهم من الإجراءات كي يصلوا إلى تنفيذ



هذا الصلح، وحيث ان في هذه الأثناء طلبت الحضرة الفخيمة السلطانية من حلفائها الملوك المذكورين الانضمام إليها لمساعدتها على قطع المواصلات بحرا بين مصر وسوريا ومنع إرسال العساكر والخليل والأسلحة والذخائر الحربية على اختلاف أنواعها من إحدى هاتين المقاطعتين للأخرى، بناء على ذلك تعهد أصحاب الجلالة الملوك البادية ذكرهم بإصدار أوامرهم إلى قواتهم البحرية في البحر المتوسط لأجل هذه الغاية. وقد وعدوا فضلا على ما ذكر بأن يعطى رؤساء أساطيلهم حسب ما لديهم من الوسائل وباسم المحالفة المتوة عنها كافة ما يستطيعون من أنواع المساعدة لرعايا السلطنة العثمانية الذين يظهرون صدق أمانتهم وخضوعهم للملكهم.

”البند الثالث — وإذا وجه مجد على باشا قواته البحرية والبرية نحو الآستانة بعد أن يكون قد رفض الصلح المذكور، فالملوك المشار إليهم متفقون إذا مست الحاجة على تلبية طلب الحضرة السلطانية الفخيمة فيدافعون عن عرش سلطته إذا طلب ذلك منهم بواسطة سفرائهم في الآستانة فيقومون بالعمل بالاتحاد فيما بينهم لوقاية خليج القسطنطينية والطونة وعاصمة الدولة العثمانية من كل تعدد. ومن المتفق عليه فضلا عن ذلك أن القوات التي سترسلها الدول المشار إليها للأماكن المذكورة لأجل الغاية المشار ذكرها ستبقى في تلك الأماكن ما دامت الحضرة السلطانية تؤيد بقاءها فيها. ومتى تراءى بجلالة السلطان أن وجودها غير لازم فتسحب كل دولة حينئذ قواتها وترجع جميعها إلى حيث أنت إما في البحر الأسود وإما في البحر المتوسط.

”البند الرابع — وقد تقرر بنوع خاص أن مساعدة الدول في العمل المذكور في البند السابق — ومن شأنها وضع خليج القسطنطينية والطونة وعاصمة السلطنة السنية تحت ملاحظة الدول المشار إليها وقتها للمقاومة كل تعدد يحصل من قبل مجد على باشا — لا تعتبر إلا كأنها مساعدة غير اعتيادية ممحوت بها الدول المشار إليها بناء على طلب السلطنة السنية للدفاع عنها في الظرف المذكور وحده دون سواء.

وعلى ذلك فقد اتفقت الدول البادية ذكرها بأن إجراءاتها الآتية الذكر في الظرف المذكور لا تنفي إصالة القاعدة القديمة التي سنتها السلطنة السنية ومن مقتضاها منع سفن الدول الأجنبية الحربية من الدخول في مضيق خليج القسطنطينية والطونة. وقد أقرت الحضرة السلطانية بموجب هذا الاتفاق أنها في ما خلا الظرف المتوة عنه شديدة العزم باستمرار الإجراءات بمقتضى القاعدة المذكورة المؤسسة بنوع لا يقبل التغيير لأنها قاعدة قديمة اتخذتها السلطنة، وما دام الباب العالي بسلام فلا يقبل أن تدخل ولا سفينة واحدة حربية أجنبية في مضيق خليج القسطنطينية والطونة. وقد أقرت أصحاب الجلالة ملكة بريطانيا العظمى وإيرلندا وملك النمسا والمجر وبوهيميا وملك بروسيا وقصر روسيا باحترام إرادة الحضرة السلطانية فيما يختص بالقاعدة الآتية الذكر وباتباع الإجراءات على مقتضاها.

”البند الخامس — سيجرى التصديق على هذا الاتفاق ويقابل في لندن في ظرف شهرين أو في أقرب من ذلك إن أمكن. وعلى ذلك أمضى المفوضون هذا الاتفاق وأمهروه بأختامهم ما“

الامضاءات:

بالمرستون . نيومان . بولاو . بروفار . شكيب .



أما ملحق المعاهدة فنصه ما يأتي :

عزمت الحضرة السلطانية الفخيمة على أن تسمع لمحمد علي باشا بشروط الصلح الآتية وتعلنها إليه :

”البند الأول — وعدت الحضرة السلطانية بأن تسمع لمحمد علي باشا ثم إلى أولاده من صلبه بولاية باشاوية مصر بالتوارث بينهم . ووعدت جلالته بأن تسمع لمحمد علي باشا طول حياته بلقب باشوية عكا وتولية قلعتها وولاية الجهة الجنوبية من سوريا . فتبتدئ من رأس النصار على شواطئ البحر المتوسط وتمتد من هناك رأسا حتى مصب نهر السيسان والطرف الشمالي من بحيرة طبرية ثم تمتد طول شاطئ البحيرة المذكورة الغربي وتتبع شاطئ نهر الأردن الأيمن وشاطئ البحر الميت الغربي ثم تمتد من هناك على خط مستقيم حتى البحر الأحمر فتنتهي إلى رأس خليج العقبة الشمالي وتتبع ساحل هذا الخليج الغربي وساحل خليج السويس الغربي حتى السويس على أن الحضرة السلطانية في عرضها ذلك على محمد علي باشا تقترح عليه شرطا وهو أن يقبل ما عرضته عليه في بحر عشرة أيام من إعلانها إليه في الاسكندرية بوساطة مندوب يرسله جلالته فيسلمه محمد علي في الوقت نفسه التعليمات اللازمة لرؤساء قواته البرية والبحرية بالجلاء حالا عن بلاد العرب والحرمين الشريفين وجزيرة كاندية ومقاطعة أطنة وباقي أنحاء الممالك العثمانية غير الداخلة في التخوم المصرية ولا في حدود باشاوية عكا المدينة أعلاه .

”البند الثاني — وإذا لم يقبل محمد علي شروط الصلح المذكورة في خلال العشرة الأيام المدينة أعلاه ف يرجع الباب العالي عما عرضه من تولية الباشا المشار إليها باشاوية عكا . ولكنه يبقى ما سمع به له ولورثته من صلبه بعده من تولية باشاوية مصر بشرط أن يقبل ذلك في ظرف عشرة أيام أخرى ، أي في بحر عشرين يوما تبدي من يوم إعلانها بشروط الصلح وأن يسلم لمندوب الباب العالي التعليمات اللازمة القاضية على قواته البرية والبحرية بالجلاء والدخول في حدود مصر ومرافقها .

”البند الثالث — أما الخراج السنوي الواجب على محمد علي باشا تأديته إلى الحضرة السلطانية الفخيمة فيكون بنسبة الأراضي التي يحصل على ولايتها على حسب ما يقبله من أحد الشرطين السالف ذكرهما .

”البند الرابع — فضلا عن ذلك فانه من المقرر حتما أن في كلتا الحالتين أي حالة قبول الشرط الأول أو الثاني قبل مضي مهلة العشرة أيام والعشرين يوما يلتزم محمد علي باشا بأن يسلم الأسطول العثماني بجارته ومهمات الكاملة إلى المندوب العثماني المكلف بتسلمه ويحضر رؤساء الأساطيل المتحالفة هذا التسليم . ومن المقرر أيضا أن ليس لمحمد علي باشا في أي حال من الأحوال أن يحتسب على الباب العالي ما أتفق على الأسطول العثماني من المصاريف طول مدة إقامته في الموانئ المصرية ولا أن يخصم هذه المصاريف من الخراج الواجب دفعه .

”البند الخامس — أن جميع معاهدات وقوانين الدولة العثمانية تجري في مصر وباشاوية عكا الواردة تخومها أعلاه كما هو جار العمل بها في كافة أنحاء الممالك العثمانية . ولكن الحضرة السلطانية الفخيمة تقبل بمجرد قيام محمد علي باشا بتأدية الخراج في أوقاته أن يحصل هو وورثته من بعده باسم السلطنة السنية وبصفة كونهم مندوبين الحضرة السلطانية الأموال والضرائب في كافة المقاطعات



المسجلة ولايتها اليهم . ومن المعلوم فضلا على ما ذكر خاصا بما يحصله مجد على وورثته من بعده من الضرائب والأموال المذكورة أنهم يقومون بكافة النفقات اللازمة للإدارة المدنية والحربية في المقاطعات المذكورة .

” البند السادس — ولما كانت القوات البرية والبحرية التي يسوغ لها شويبي مصر وعكا اتخذها معتبرة جميعها كقوات عثمانية فهي تعد كأنها متخذة لخدمة السلطنة السنية .

” البند السابع — ولأن هذا العقد مستقل إلا أنه ذو مفعول وقود كما لو كان مدرجا بالحرف الواحد في اتفاق هذا اليوم . وسيجرى التصديق عليه وتبادل التصديقات بشأنه في لندن عند مبادلة التصديق على الاتفاق الآف الذكر . وقد أمضى المفوضون هذا العقد وأمهروه بأختامهم بلندن في ١٥ يوليو سنة ١٨٤٠ “ (١)

#### الإمضاءات :

بالمرستون . نيومان . هولار . شكيب .

(١) ” قاموس الإدارة والقضاء لتقليب جلال المجلد الخامس صفحات ١٤٧ و ١٤٨



## ملحق (ب)

فرمان سنة ١٨٧٣

من المعلوم لديكم أنكم استدعيت من جميع الخطوط الهايونية والأوامر الشريفة السلطانية التي صدرت من منذ توجيه الخديوية الجليلة بطريق التوارث إلى عهدة وإلى مصر الأسبق محمد علي باشا المرحوم إلى يومنا هذا ، سواء كانت بخصوص تعديل توارث الخديوية المصرية أو بخصوص إعطاء بعض امتيازات حسب استوجابها موضع الخديوية وأمزجة الأهالي وطبائعها الخصوصية وجعلها فرماة واحدا مع التعديلات اللازمة في أحكامها والتفصيلات المقتضية في عباراتها ، بشرط أن يكون هذا فرمان الجديد قائما مقام الفرمانات السابقة ، وأن تكون الأحكام المدرجة فيها معمولا بها ومرعية الإجراء على الدوام والاستمرار ، فقد قورن استدعاؤكم هذا بمساعدتنا الجليلة الملوكية . وها نحن نذكر ونبين لكم أحكامها على الوجه الآتي :

لما تحقق لدينا أن تعديل أصول توارث الخديوية المصرية التي صار تعيينها بالفرمان العالي الصادر في اليوم الثاني من شهر ربيع الأول من شهر سنة ١٢٥٧ الموضح أعلاه بالخط الهايوني وتبديلها بأصول حصر الوراثة الخديوية في أكبر أولاد خديو مصر ، بطريق سلسلة النسب المستقيم ، بأن يصير تخصيص مسند الخديوية للجليل ، وتوجيهه إلى أكبر أولاد الخديو الذكور وبعده إلى أكبر أولاد هذا الأكبر المذكور وهكذا على النسب المستقيم الذكوري على الدوام يكون مستلزما لحسن إدارة الخديوية المصرية ، وحاليا لاستكمال سعادة أحوال أهلها وسكانها . هذا ، مع ما حصل لدينا من استحسان مساعيكم الجميلة المعروفة في استحصال معمورية الأقطار المصرية المهمة الجسيمة ورعاية أهلها ، وحصول وثوقنا بكم واعتقادنا الكامل عليكم ، فلاجل أن يكون دليلا باهرا على ذلك ، قد أجرينا تعديل توارث الخديوية المصرية وتعيين وصايتها على الطريق الآتي بيانا ، وهي أن خديوية مصر الجليلة وملحقاتها وجهاتها المعلومة الجارية إدارتها بمقرقتها مع ما صار إلحاقها بها أخيرا من قائمقامتي سواكن ومصنوع وملحقاتها يصير توجيهها بعدكم على الطريق المشار ذكرها إلى أكبر أولادكم الذكور ، وبعده إلى أكبر أولاد من يكون خديو يا على الأقطار المصرية من أولادكم ، وإذا انحلت الخديوية المصرية بالأ يكون للخديو ولد ذكر يصير توجيهها إلى أكبر أخواته الذكور ، وإذا لم يوجد له أخ بقيد الحياة ، فإلى أكبر أولاد الأخ الأكبر وهكذا تتخذ هذه الأصول قانونا مستمرا وقاعدة مرعية أبدية في توارث الخديوية المصرية ، ولا يصير انتقال الوراثة الخديوية إلى الأولاد الذكور المتولدة من أولادكم الإناث أصلا .

ولأجل تأمين أصول توارث الخديوية المصرية سنذكر صورة تشكيل الوصاية المقتضية في إدارة الأمور الخديوية ، فيما إذا انحلت الخديوية وكان الوارث الذي هو أكبر أولادكم الذكور صغيرا صبيا ، وهي الخديوية المصرية إذا انحلت ، وكان أكبر أولادكم الذكور ، أعنى الوارث ، صغيرا صبيا ، بأن يكون عمره أقل من ثمانى عشرة سنة ، ولو أنه يصير خديو بالفعل ، حسب استحقاق الوراثة ، ففى الخلال



يصدر فرماؤه من طرف السلطنة السنية بتوليته على الخديوية . لكن إذا كان الخديو السالف عين ونصب وصيا ، ورتب هيئة وصايته لأجل إدارة أمور الخديوية لحين بلوغ الخديو اللاحق الصبي إلى سن الثماني عشرة سنة وكتب منه وصاية بذلك وختم عليه هو ، وختم أيضا اثنان من الأمراء المصرية ، المأمورين بإحدى المأموريات المصرية على طريق الإشهاد ، وأجرى الوصاية هكذا ، فالوصى مع هيئة الوصاية المذكورة يأخذ بزمام الإدارة في الحال ، وبعد ذلك تعرض الكيفية إلى الباب العالي ، ويصير التصديق على ذلك الوصى وهيئة الوصاية من طرف الدولة العلية بفرمان عال ، فيبقى الوصى وهيئة الوصاية على ما هم عليه لحين البلوغ ، وأما إذا انحلت الخديوية ولم يعين الخديو السالف وصيا ، ولا رئيس هيئة الوصاية على الوجه المذكور بتشكيل هيئة الوصاية من الذوات المأمورين على الداخلية والجهازية والمالية والخارجية ومجلس الأحكام المصرية ومردارية العساكر المصرية وتفتيش الأقاليم ، ويصير انتخاب وصى في الحال من هؤلاء المأمورين على الوجه الآتى ذكره ، وهو أنه في تلك الساعة تصير المذاكرة والمداولة ما بين هؤلاء الذوات في حق انتخاب وصى منهم ، فإذا حصل اتفاقهم أو اتفاق أكثرية آرائهم على قسمة وجعل ذات منهم وصيا يتعين ذلك الذات وصيا على الخديوية ، وإذا اختلفت الآراء بأن رغب نصفهم في تعيين ذات والنصف الآخر في تعيين ذات أخرى يكون لإجراء وصاية الذات المأمور على الأمور المهمة والمقدمة في الذكر من تلك المأموريات ، أعنى المأمور على الأمور المقدمة ذكرها على الترتيب المهر آتقا من الداخلية إلى آخره ، وتشكل هيئة الوصاية من الذوات الباقية بعده ، ويباشرون إدارة الأمور الخديوية مع الوصى ، وتعرض الكيفية بمضبطة من طرفهم إلى طرف سلطنتنا السنية . ويصير التصديق عليها بالفرمان الشريف ، وكما أنه لا يجوز تبديل الوصى وتغيير هيئة الوصاية قبل ختام مدتها في الصورة الأولى ، أعنى فيما إذا كان تعيين الوصى وترتيب الوصاية وتركيب أعضائها بمعرفة الخديو السالف ، فكذلك في الصورة الثانية ، أعنى فيما إذا كان انتخاب الوصى بمعرفة المأمورين المذكورين ، لا يجوز تبديل الوصى ولا تغيير هيئة الوصاية ولا أعضائها في تلك المدة ، وإذا توفى أحد من أعضاء هيئة الوصاية في ظرف تلك المدة يصير انتخاب واحد من المأمورين المصرية بمعرفة الباقيين وتعيينه بدله المتوفى ، وإذا توفى الوصى في تلك المدة يصير انتخاب واحد من أعضاء هيئة الوصاية بمعرفةهم على الوجه السابق وجعله وصيا وانتخاب واحد من المأمورين المصرية وإلحاقه بأعضاء هيئة الوصاية بدل الذى نصب وصيا بمجرد بلوغ الخديو الصبي إلى سن الثماني عشرة سنة ، صار رشيدا وقاعلا مختارا ، فيباشر هو بنفسه إدارة أمور الخديوية المصرية مثل سلفه ، وهذا حسب ما تقرر لدينا واقتضته إرادتنا الملوكية .

ولما كان تزايد عمارية الخديوية المصرية وسعادة حالها وتأمين رفاهية الأهالى والسكان وراحتهم من أهم المواد الملزمة المرغوبة لدينا وإدارة المملكة الملكية والمالية ومنافعها المادية وغيرها المتوقف عليها تأسيس واستكمال وسائل الرفاهية وأسبابها عائدة على الحكومة المصرية فنذكر بيان كيفية تعديل الامتيازات وتوضيحها بشرط بقاء كافة الامتيازات المعطاة قديما وحديثا من طرف الدولة العلية إلى الحكومة المصرية واستمرار جهاتها خلفا عن سلف ، وتلك الكيفية هي أنه لما كان إدارة المملكة بكل الصور والحالات سواء كانت إدارتها الملكية أو المالية أو كافة منافعها المادية وغيرها هي من المواد العائدة على الحكومة المصرية والمتعلقة بها ، ومن المعلوم أن أمر إدارة أى مملكة كانت وحسن نظامها وتزايد معمرتها وثروة أهاليها وسكانها لا يتيسر إلا بتوفيق معاملاتها وتطبيق إجراءاتها العمومية بالأحوال



والمواقع وأمزجة الأهالي وطبائعها ، فقد أعطينا لكم الرخصة الكاملة في أعمال وقوانين ونظامات  
داخية على حسب لزوم الملكة ، وكذا لأجل تسهيل تمهيد وتنمية وتسوية كافة المعاملات سواء كانت من طرف  
الحكومة أو من طرف الأهالي مع الأجانب ، وترقى وتوسع الصنائع والحرف وأمور التجارة وأمور  
الضبطية مع الأجانب قد أعطينا لكم الرخصة الكاملة في عقد وتجديد المقاولات مع مأموري الدول  
الأجنبية في حق الكرك وأمور التجارة وكافة المعاملات الجارية مع الأجانب في أمور الملكة الداخلية  
وغيرها بصورة لا تستلزم إحلال معاهدات الدولة العلية البولنيقية ، وكذا ليكون خديو مصر حائز التصرفات  
الكاملة في الأمور المالية ، قد صار إعطاء المأذونية التامة في عقد استقراض من الخارج بلا استئذان من  
الدولة العلية في أي وقت يرى فيه لزوما للاستقراض بشرط أن يكون باسم الحكومة ، وكذا ليكون أمر  
المحافظة وصيانة الملكة الذي هو الأمر المهم المعنى به زيادة عن كل شيء من أقدم الوظائف المخصصة  
يخديو مصر فقد أعطينا له الرخصة الكاملة في تدارك كافة أسباب المحافظة وتأسيسها وتنظيمها ، وكذا  
في تكثير أو تقليل مقدار العساكر المصرية الشاهانية بلا تحديد على حسب الزوم ، وكذا أبقينا لخديو  
مصر الامتياز القديم في حق إعطاء رتبة ميرالاي من الرتب العسكرية ، وإعطاء رتبة ثانية من الرتب  
الدوائية بشرط أن المسكوكات الجارية ضربها بمصر تكون باسمنا الملوكي ، وأن تكون أعلام وصانج  
العساكر البرية والبحرية الموجودة في الخطة المصرية كأعلام وصانج سائر عساكرنا الشاهانية بلا فرق  
وبشرط عدم إنشاء سفن مدونة بالحديد فقط بدون استئذان ، أما غيرها من السفن الحربية فإنها جائز  
إنشاؤها بلا استئذان . ولأجل إعلان المواد المشروحة أعلاه وتأييدها أصدرنا لكم أمراً هذا الجليل  
القدر من ديواننا الهايوني بمقتضى إرادتنا الملوكية وصار توشيح أعلاه بخطنا الهايوني وإعطاؤه لكم  
متما ومكلا ومعدلا ومصرحا للخطوط الهايونية والأوامر الشريفة الصادرة إلى هذا التاريخ سواء كان  
في تأسيس وترتيب وراثة الحكومة المصرية أو في تشكيل هيئة الوصاية أو في إدارة الأوامر الملكية  
والعسكرية والمالية والمنافع المادية والمواد السائرة بشرط أن تكون الأحكام المندرجة بهذا فرمان  
الجديد نافذة وباقية ومرعية الإجراء على عمر الزمان وقائمة مقام أحكام فرمانات السالفة على ما اقتضته  
إرادتنا الملوكية فيلزم أن تعملوا قدر لطف عنايتنا الملوكية وأداء شكرها بصرف جل هممكم في حسن  
إدارة أمور الخطة المصرية واستكمال أسباب وقاية أمنية الأهالي المنوطة بها واستحصال راحتهم على  
حسب ما جبلتم عليه من الشيم المرغوبة والغيرة والاستقامة وما اكتسبتموه من الوقوف والمعلومات  
في أحوال تلك الأقطار وأن تراعوا لإجراء الشروط المقررة في هذا فرمان الجديد وأداء المساقاة وخمسين  
ألف كيس التي هي ويركو مصر المقطوع سنويا بأوقافها وزمانها إلى خزنتنا الجليلة الشاهانية على  
الترتيب والقاعدة المرعية في ذلك ما

(عن كتاب حقائق الأخبار)

تحريرا في سنة ١٩٢٠



## ملحق (ج)

### اتفاقية السودان

(١) تطلق لفظة السودان في هذا الوفاق على جميع الأراضي الكائنة إلى جنوبى الدرجة الثانية والعشرين من خطوط العرض ، وهى :

أولاً — الأراضي التى لم تخلها قط الجنود المصرية منذ سنة ١٨٨٢

ثانياً — الأراضي التى كانت تحت إدارة الحكومة المصرية قبل ثورة السودان الأخيرة ، وفقدت منها وقتياً ، ثم افتتحتها الآن حكومة جلالة الملكة والحكومة المصرية بالاتحاد .

ثالثاً — الأراضي التى قد تفتتها بالاتحاد الحكومتان المذكورتان من الآن فصاعداً .

(٢) يستعمل العلم البريطانى والعلم المصرى معاً فى البر والبحر بجميع أسب السودان ، ما عدا مدينة سواكن ، فلا يستعمل فيها إلا العلم المصرى فقط .

(٣) تفوض الرئاسة العليا العسكرية والمدنية فى السودان إلى موظف واحد يلقب ( حاكم عموم السودان ) ، ويكون تعيينه بأمر عال خديوى بناء على طلب حكومة جلالة الملكة ، ولا يفصل عن منته إلا بأمر عال خديوى يصدر برضاء الحكومة البريطانية .

(٤) القوانين وكافة الأوامر واللوائح التى يكون لها قوة القانون المعمول به ، والتى من شأنها تحسين إدارة حكومة السودان ، أو تقرير حقوق الملكية فيه بجميع أنواعها ، وكيفية أيلولها والتصرف فيها ، يجوز سنها أو تحريرها أو نسخها من وقت إلى آخر منشور من الحاكم العام . وهذه القوانين والأوامر واللوائح يجوز أن يسرى مفعولها على جميع أنحاء السودان ، أو على جزء معلوم منه ، ويجوز أن يترتب عليها صراحة أو ضمناً تحوير أو نسخ أى قانون أو أية لائحة من القوانين أو اللوائح الموجودة .

وعلى الحاكم العام أن يبلغ على الفور جميع المنشورات التى يصدرها من هذا القبيل إلى وكيل قنصر جنرال الحكومة البريطانية بالقاهرة ، وإلى رئيس مجلس نظار الجنب العالى الخديوى .

(٥) لا يسرى على السودان أو على جزء منه شئ ما من القوانين أو الأوامر العالية أو القرارات الوزارية المصرية ، التى تصدر من الآن فصاعداً ، إلا ما يصدر بإجرائه منها منشور من الحاكم العام بالكيفية السالف بيانها .

(٦) إن المنشور الذى يصدره حاكم عموم السودان ببيان الشروط التى بموجبها يصرح للا بدوير من أية جنسية كانت بحرية المتاجرة أو السكنى بالسودان ، أو تملك ملك كائن ضمن حدوده لا يشمل امتيازات خصوصية لرعايا أية دولة أو دول .



(٧) لا تدفع رسوم الواردات على البضائع الآتية من الأراضي المصرية حين دخولها إلى السودان، ولكنه يجوز مع ذلك تحصيل الرسوم المذكورة على البضائع القادمة من غير الأراضي المصرية. إلا أنه في حالة ما إذا كانت تلك البضائع آتية إلى السودان عن طريق سواكن أو أي ميناء آخر من موانئ ساحل البحر الأحمر لا يجوز أن تزيد الرسوم التي تحصل عليها عن القيمة الجارية تحصيلها حينئذ على مثلها من البضائع الواردة إلى البلاد المصرية من الخارج. ويجوز أن تقرر عوائد على البضائع التي تخرج من السودان بحسب ما يقدره الحاكم العام من وقت إلى آخر بالمنشورات التي يصدرها بهذا الشأن.

(٨) فيما عدا مدينة سواكن لا تمتد سلطة الحاكم المختلطة على أية جهة من جهات السودان، ولا يعترف بها فيه بوجه من الوجوه.

(٩) يعتبر السودان بأجمعه، ما عدا مدينة سواكن، تحت الأحكام العرفية، ويبقى كذلك إلى أن يقرر خلاف ذلك بمنشور من الحاكم العام.

(١٠) لا يجوز تعيين قناصل أو وكلاء قناصل أو مأموري قنصلات بالسودان، ولا يصح لهم الإقامة قبل المصادقة على ذلك من الحكومة البريطانية.

(١١) ممنوع منا مطلقا إدخال الرقيق إلى السودان أو تصديره منه، وسيصدر منشور بالإجراءات اللازمة اتخاذها للتنفيذ بهذا الشأن.

(١٢) قد حصل الاتفاق بين الحكومتين على وجوب المحافظة منهما على تنفيذ مفعول معاهدة زوكسل المبرمة بتاريخ ٢ يولييه سنة ١٨٩٠ فيما يتعلق بإدخال الأسلحة النارية والذخائر الحربية والأشربة المقطرة أو الروحية وبيعها أو تشغيلها "أهـ"

تحريرا بالقاهرة في ١٩ يناير سنة ١٨٩٩

(الإمضاءات) "كرومر" "بطرس غالي"

تم طبع هذا الكتاب في يوم الثلاثاء ٦٠ شوال سنة ١٣٧٠  
(الموافق ١٠ يولية سنة ١٩٥١) م.

مدير عام المطبعة الأميرية

محمد يوسف همام















